

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنويا مؤقتا

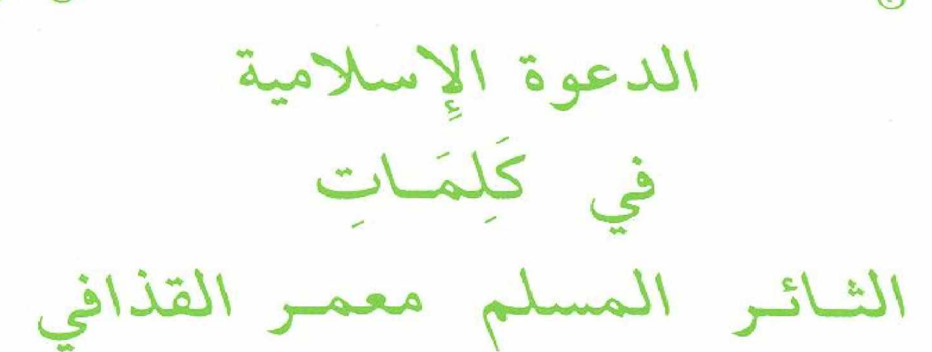
السنة الأولى ـ العدد الأول

1393 ـ 1394 ـ 1395

1984 ـ 1985

تصدر عن كلية الدعوة الإسلامية

طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية



« لأول مرة تؤسس حركة عالمية للتبشير بالإسلام في جميع قارات العالم ، هذا حلم المسلمين منذ أن توقف الإسلام عن الفتح والزحف ، وتوقف أيضاً عن الجدل وتكلست الحضارة الإسلامية ، وتوقف المد الإسلامي ، الأمر الذي أدى إلى تشجيع الحملات الصليبية المضادة للإسلام بعد أن توقف الإسلام كفاتح وكمجاهد ومجادل أيضاً .

نحن الآن نستأنف هذا الدور الجهادي ، الدور الكفاحي ، الدور العالمي الجديد للإسلام وأول خطوة اتخذناها بعد قيام الثورة في ليبيا هو تأسيس جمعية الدعوة الإسلامية » .

الثائر المسلم معمر القذافي

من كلمته التوجيهية في الملتقى الأول لدعاة جمعية الدعوة الإسلامية 17 شوال 89 و . ر
27 اغسطس 80 م .

مجلة
كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية جامعة تصدر عن كلية الدعوة الإسلامية

السنة الأولى . العدد الأول

المراسلات: الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية. طرابلس. كلية الدعوة الإسلامية ص. ب. 2549 هـ. 31523.



وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً

مِّمَّنْ دَعَا إِلَى ٱللَّهِ

وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ

إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

صدق الله العظيم

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحيـة :

يرتبط رقي الأمم بوجود الوعي الكامل لدى أفرادها ، وبقدرتهم على تطوير حياتهم إلى الأفضل في حركة حضارية ناضجة تتميز بالاستمرارية والنظام ، وليس ذلك الوعي الا نتيجة طبيعية لرقي الثقافة والفكر .

ونحن الآن في عصر لم تزدهر وسائل الاتصال وحركة النشر قبله مثلما ازدهرت فيه ، وهو ما يتطلب ان يكون لدينا من الفكر ما يواكب تلك الحركة ، ويسهم في دعمها ، وأن يكون لدينا من الرصيد الثقافي ما يتصدى لتيار الثقافات الغازية ، بل ويؤثر فيها .

وحتى لا تصطبغ أهدافنا من وراء اصدار هذه المجلة بطابع الانشاء وزخرف القول فإننا نحددها في النقاط التالية : ـ

أولاً : الدعوة إلى الإسلام من خلال نشر موضوعات تشرح حقيقته ، وتنفي عنه ما علق به من شوائب نتيجة لتوالي سني التخلف . ثم تقديم البراهين على صلاحيته لكل زمان ومكان ، مقارنة مع سائر الأديان والملل في غير ما تعصب أو ادعاء .

ثانياً : كشف ضحالة الدعوات الالحادية ودعوات التفسخ والانحلال الخلقي ، وتأكيد التعريف بمدى خطورتها على القيم الانسانية الفاضلة .

ثالثاً : البحث بجدية وعمق في الثقافة الإسلامية بروح واعية لمشاكل العصر ، منتبهة لما يدور في العالم من صراع ديني وفكري . فقد ولى ذلك العهد الذي تقتصر فيه دروس العقائد مثلاً على ما كان يدور من خلافات كلامية اثناء العصور العباسية وما بعدها . وإذا كان لعلماء ذلك العصر كل الحق في طرق موضوعات مثل قدم العالم وحدوثه ، وخلق القرآن وقدمه وشكل الجن والملائكة وحتى عجب الذنب وإذا كان عليهم كل الواجب في أن يتصدوا للدهرية واللاأدرية والقدرية والمانوية والاثنينية وغيرها من الفرق فإن على العلماء اليوم أن يلتفتوا إلى الحركات الهدامة الجديدة وما أكثرها وهي تطرح قضايا في منتهى الخطورة على القيم والاخلاق والعقائد .

وعلى اولئك العلماء أن يستوعبوا مشاكل الانسان المعاصر ، وأن يجيبوا عن أسئلته المتجددة ، فإن في الحياة ظواهر جديدة يجب أن تكون ميدان بحث واع من المفكرين

المسلمين، دون اللجوء إلى القياس السريع والأجوبة المرتجلة أو الهروب والتعلل بقفل باب الاجتهاد .

رابعاً : دراسة التراث العربي الإسلامي وابراز مظاهر القوة والابداع فيه ، وعدم التردد في الكشف عن مواطن الظل ونواحي الضعف التي قد تبدو من خلال تلك الدراسة . بحيث لا نسدل ستار القدسية على كل قديم كما تفعل الرجعية المتخلفة ، ولا نتجاهل الجوانب الحضارية المضيئة في تراثنا وتاريخنا بدعوى التقدمية الزائفة .

خامساً : دراسة حاضر العالم الإسلامي والعمل على توعية المسلمين وتكثيف جهودهم وتوحيد اهدافهم وتضييق الشقة بين فرقهم ومذاهبهم .

ولا يضيق القارىء ان لم يجد في بعض البحوث المعروضة في هذا العدد ما يحقق تلك الأهداف فالطريق طويل ، ولن نتعجل الوصول إلى غاياتنا من خلال عدد أو عددين ، ولا شك في ان وضوح النهج المتوخى في هذه المجلة سيجعلها متنفساً للأقلام الحريصة على الإسلام في نقائه وصفائه .

وإننا اذ نسأل الله القدير أن يوفقنا إلى تحقيق ما نصبو إليه لنطلب من كل قادر على العطاء غيور على دينه وأمته أن يسهم معنا في هذا العمل العظيم ذاكراً أنها فرصة أتيحت له لأداء بعض الرسالة التي ألقاها الله عليه وعرفه عظمتها في قوله جل شأنه :

﴿ إنَّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ .

التحرير

الملتقى الفكري الأول لخريجي كلية الدعوة الإسلامية

كلمة الدكتور :

محمد أحمد الشريف

أمين جمعية الدعوة الإسلامية

10 / 7 - 21 / 7 - 1984 م

بسم الله الرحمٰن الرحيم

يسرُّني في البداية أن أرحّب بجميع الإخوة الذين لبُّوا الدعوة، لحضور هذا الملتقى، سواءٌ كانوا طلابًا، أو أساتذةً أفاضل، ذلك أنّ مجيء الجميع لمثل هذا الملتقى، ومساهمة أمين وأعضاء هيئة التدريس بكلية الدعوة، في الإعداد لهذا الملتقى، هو جهدٌ جديرٌ بالتقدير، لأنّه يَصُبُّ في مجالٍ مهمٍ جدًا للدعوة الإسلامية، هو: مجالُ تسديد وتقويم الداعية، والإستفادة من الخبرات العمليّة للدعاة، في مواجهتهم لمشكلاتِ الدّعوة الميدانيّة.

ففي مثل هذا اللقاء، يتمُّ تبادل الآراء، حول صعوباتِ الدعوةِ ومشكلاتها من الناحية العملية، وحول الجوانب الفكرية والنظرية التي يقوم الاخوةُ المحاضرونَ، والأساتذةُ الزوارُ، وأعضاء هيئة التدريس بالكلية بعلاجها.

ونحن نشكرُ الله سبحانَهُ وتعالى، أن مكَّننا ـ جميعًا ـ من أن يعقد مثل هذا اللقاء، بعد عامٍ دراسيٍ قام فيه الطلاب في كلية الدَّعوة الاسلامية، وقام فيه الأساتذةُ بالكثير من المناشِطِ الفكريَّةِ، والعمل العلمي الجديرِ بالتَّقدير.

ونحن اليوم في العالم الإسلاميّ، والعالم أجمع، لابد لنا من نظرةٍ واعيةٍ، ونظرةٍ فاحصةٍ لما يجري من أمور، ذلك أننا في المؤتمر الأول للدعوة الإسلامية، الذي عُقِدَ في عام 1970 م، والذي إنبثقت عنه جمعية الدعوة الإسلامية، وانبثقت عنه بالتالي كلية الدعوة الإسلامية، في ذلك المؤتمر الأول عقدنا العزم، على أن نواجه المشكلات المعاصرة التي تحيط بنشاط الدَّعوة الإسلاميَّة، وأن نستأنف من جديدٍ ـ كما قال الأخ الثائر المسلم

معمر القذافي في ذلك المؤتمر عند إفتتاحه له ـ أن نستأنف من جديدٍ المدّ الإسلاميَّ في هذا العصر، ذلك أنّ الناس جميعًا يحتاجون لمساهمة الإسلام في بناء حضارةٍ إنسانيّةٍ حقة، جديرةٍ بهذا الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض، والذي أراد منه أن يعمّرها بالْعَمَلِ الصّالح، وبالقول الصّالح.

وفي المؤتمر الثاني للدعوة الإسلامية الذي عُقِدَ في صيف عام 1982 م كانت لنا وقفة، ووقفة جادة، حول الدعوة الإسلامية والتحدياتِ المعاصرة لهذه الدعوة. فبعد مرور حوالي اثنى عشر عامًا على المؤتمر الأول، كان لابد أن يجتمع الذين يهتمّون بالدعوة الإسلامية، من كل بقاع العالم ـ في شكل جمعياتٍ وعلماء ـ أن يجتمعوا من أجل دراسة مشكلات الدعوة، ودراسة مشكلات العصر، والتفكير في الحلول الصحيحة التي نواجه بها التحدّيات التي تواجهُ الدعوة الإسلامية. وقد إنبثق عن ذلك المؤتمر ـ المؤتمر الثاني للدعوة الإسلامية ـ المجلس العالمي للدعوة الإسلامية. ونحن سعداء أنه قد تم في ذلك المؤتمر اختيار بعض خرّيجي كلية الدعوة الإسلامية من زملائكم، أعضاء في المجلس العالمي للدعوة الإسلامية، ليخطّطوا للمناشط المختلفة للدعوة الإسلامية. ولكن؛ هل حقًا نحن على علمٍ، وعلى درايةٍ، بالتحديات التي تواجه الدعوة الإسلامية؟.

لقد قطعنا وقتًا طويلاً كمسلمين ـ خاصة في هذا القرن ـ نحاول أن نستعيد مجد الإسلام، باجتهاداتٍ ذاتيةٍ، وبرجوعٍ إلى مرحلةٍ من مراحل التاريخ الإسلامي، نحاول أن نعمّمَ ما وُجِدَ فيها ـ أي ما وجد في تلك المرحلة ـ على وضعنا الراهن، وننسى أن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الوحي الخاتم، والرّسالة الخاتمة، التي جاءت لخاتم الأنبياء والمرسلين محمدﷺ، ليس إلاّ المرجع الصحيح والوحيد، الذي يمكننا أن نعود إليه، وأن نعود إلى الطريقة وللسنّة التي استقبله بها الرسول، ومارس من خلالها التطبيق العملي والفعلي للتوجيهات القرآنية، وللقوانين القرآنية، وللنظرات القرآنية، التي أراد الله سبحانه وتعالى من البشر جميعًا، أن يعوها، وأن يعيشوا وفقًا لها. إذن.. فالمشكلة الأولى التي لابدّ للداعية أن يعيهَا، وأن يتقنها، في مواجهته للتحديات المعاصرة هي العودة إلى كتاب الله، والعودة إلى التجربة الحقيقية، التي خاضها الرسولﷺ، في تطبيقه لكتاب الله على إعتبار أنه الوحي الخاتم. هذه هي البداية، وهذا هو الميزان الذي نستطيع أن نزن به الأشياء. أمّا الإحتكام إلى أيّة موازين أخرى، فهو إحتكامٌ إلى إجتهاداتٍ بشرية، قد تخطيء، وقد تصيب، هو إحتكامٌ إلى أوضاعٍ إنسانيّة، إلى أمورٍ وضعيةٍ، منها المفيد ومنها الجاد، ومنها المحدود بمكانه وبزمانه، ولا يتّصف إطلاقًا بصفةِ التعميم الزّماني، أو التعميم المكاني. ولعلّ الاحتكام إلى كتاب الله، وإلى الطريقة التي طبّق بها الرسولﷺ، التوجيهات الإلهيّة التي جاءت في هذا الكتاب، تعصم المسلمين، وتعصمُ بصفةٍ خاصةٍ الدعاة من الزلل، ومن المساهمة في تفريق المسلمين، أو زيارة هذا التفريق، الذي عصف بهم، وعصف بجهودهم، وشتّت شملهم، وجعلهم شيعًا وأحزابًا، مثلما حصل لأصحاب الديانات السابقة، التي أشار إليها القرآن الكريم، إذن.. من المهمّ جدًا ومحافظةً على وحدة المسلمين، أن نحتكم لكتاب الله، وأن نزن به جميع أمور الإسلام والمسلمين، وأن نحاول عن طريق الفهم الصّحيح لهذا الكتاب، والوعي بالطريقة السّليمة التي طبّق بها الرسولﷺ الوصايا الإلهية أن نقوم بتقييم كل ما يواجه العالم الإسلامي، وما واجهه منذ وفاة الرسولﷺ نحن نقول وفاة الرسول؛ لماذا؟.

لأن وفاة الرسول حدثٌ خطير في تاريخ الإنسانية. وفاة الرسول معناه انقطاع الوحي من السماء إلى الأرض، ليس هناك نبيٌ أو رسولٌ بعد محمدﷺ. وليس هناك وحيٌ بعد القرآن الكريم، إذن.. وفاة الرسول معناها أن الوحي الإلهي قد إكتمل تمامًا، وجاء في صورة نهائية، هي: القرآن الكريم. فلا يستطيع أيُ إنسانٍ

أن يقول بأنه ألهم شيئًا، أو أنّه نظر فنزلت عليه آية، أو أنّ إمامًا قد أخبره بشيء هذا ليس مقبولاً في التصوُّر الإسلامي. وقد حاول الشعوبيون، وحاول أصحاب الفرق المضلّة، وأصحاب الديانات في البلاد التي فتحها المسلمون، حاولوا أن يدخلوا معتقداتهم، وأن يجعلوا لها تبريرًا لا يقبله القرآن. ولكنّه تبريرٌ يأتي في شكل إلهام، أو في شكل إمام، أو في شكل صورةٍ من الصور التي حاولوا أن يضعوها في أذهان وأدمغة المسلمين، ولكن المسلم الصحيح يستطيع وبسهولةٍ جدًا، أن يحتكم فيها، وفي أيّ أمرٍ منها، إلى القرآن الكريم، و إلى نظرة الرسول ﷺ، في فهمه للقرآن الكريم، وبالتّالي يقبلُها أو يرفضها.

عندما ابتعد المسلمون عن القرآن، وابتعدوا عن المعرفة الحقيقية لسنّة الرسول ﷺ، داخلهم ماداخلهم من معتقدات البلدان الأخرى، ومعتقدات الشعوب الأخرى، وأصبحنا نرى فرقًا كثيرة، تفرّق المسلمين، وتشتّتُ شملهم، وتجعلُهُم لقمةً سائغةً لأعدائهم، ذلك أنّ القوّة دائمًا مرتبطةٌ بالجماعة في الإسلام، المسلمون هم الأمّةُ التي تحدث عنها القرآن، والتي هي مطبّقةٌ لرسالة اللّه، والتي تقوم بأداء التوجيهات الإلٰهية، والمؤمنون هم الذين يقومون بالصلاة، وهم الذين يؤدّون الزكاة، وهم الذين تكون أمورُهم الحياتية، شورىٰ بينهم، وهم الذين يعيشون وفقًا للعدل والمساواة وهم الذين إذا ما طبّقوا هذه الأشياء ينجحون، يصبحون من المفلحين.

أمّا عندما يتفرّقُ المسلمون، و يصبحُ أمرهم متفرّقًا بينهم، و يعبدون الأصنام، الأصنام المادية، أو الأصنام البشرية، أو الأصنام الفكرية. يبتعدون عن القرآن يبتعدون عن الحق عندما لا يؤدون الصلاة، عندما لا يكونون متساوين، عندما يصبحون طبقات، بعضهم يسكُنُ القصورَ، وبعضُهُمْ يلتحفُ السماء، بعضهم غنيٌّ تقتلُهُ التُّخمة، وبعضُهُمْ فقير يقتله الجوع والمرض، بعضُهُم متعلِّمٌ، وبعضُهُمْ أُمّيٌّ. بَعْضُهُمْ يقهر المسلمين، وبعضهم مقهورٌ حتّى من غير المسلمين. هذه ليست صورةَ الأمّة الإسلامية، ليست صورة الجماعة الإسلامية، هذه صورة الجماعات البشرية الأخرى، التي لم يأتها وحيٌ أو الّتي إنحرفت عن الوحي، والقرآن الكريم يوضّح لنا صور هذه الجماعات الكثيرة، إذن.. الإحتكام إلى كتاب الله، و إلى الطريقة والسنّة التي اتّبعها الرسول الكريم، في فهمه لهذا الكتاب أمرٌ مهمٌ جدًا بالنّسبة للدّاعية، لأنها توفِّر عليه الكثير من الأخطاء والمزالق،وتوفِّر على المسلمين الكثير من المعاناَة الّتي عانوها من الدعاة الذين لا يدعون للّه، ولكنهم يدعون إلى فرقةٍ، يدعون إلى حزبٍ، يدعون إلى جهةٍ، يدعون إلى صاحب قصرٍ، يدعون إلى صاحب جاه، يدعون إلى صاحب مال، يدعون إلى من يتحكّم في رقاب المسلمين، ولكنّهم لا يدعون إلى الله. هؤلاء مِثْلُهُمْ تمامًا، مثلُ أولٰئك الذين يدعون إلى الأصنام الصنم ليس بالضرورة حتماً مادياً، ليس بالضرورة تمثالاً، ولكنّه قد يكون ملكًا، قد يكون أميرًا، قد يكون مَجلس نُوَّابٍ، قد يكون مجلس أغنياء، قد يكون مجلس أعيان، قد يكون تاجرًا غنيًا. هذه كُلُّها أصنام. لماذا هي أصنام؟.

لأنها تحولُ بينكَ وبين الخضوع لله سبحانه وتعالى. إذا ما فكّرت ـ ولو لوهلةٍ ـ أنَّ هناك بشرًا، أو مجموعةً من البشر، أو مجموعةً من الأشياء، أنت تخشاها أكثر من خشيتك لله، فأنت في هذه الحالةِ تعبدُ ـ بمعنًى من المعاني ـ صَنَمًا من الأصنام. إذن.. أنت لست موحِّدًا، وصلب وجوهر الإسلام هو التوحيد، ونحن المسلمين نخلط التوحيد ـ أحيانًا ـ بالروحانيات وأحيانًا حتى بالخرافات في عصور ضعفنا، التوحيد هو القوة، التوحيد هو الخضوع لله الواحد الأحد، والإدراك بأنَّ الله سبحانه وتعالى هو مصدر الأشياء جميعًا، ونحن نعود إليه جميعًا، ولا نخشى إلاّ الله سبحانه وتعالى، ونحن أقوياء بهذا الإيمان، أقوياء في إلتقائنا كمسلمين مع

بعضنا البعض في ظلِّ هذا الإيمان. ولكن بالتفرُّق وبالتحزُّب، وبالاختلاف، يداخِلُنا الضَّعف، ويداخلُنا الشرك ونصبح شيعًا وأحزابًا ونكون لقمة سائغة وفريسةً سهلةً لأعدائنا. فنحن في الدعوة الإسلامية في مواجهتنا للتحدِّيات المعاصرة، إذا ما استطعنا أن نعتصم بالقرآن الكريم، فمعنى ذلك أنّنا إعتصمنا بالحق، وأننا استطعنا أن نستخدم العقل، الذي طالبنا الله سبحانه وتعالى أن نستخدمه في فهم الأشياء، وأن نزن هذه الأشياء بميزان التوجيهات الإلٰهيَّة، التي جاءت في الوحي الخاتم. والقرآن يعلِّمنا أنه يجب أن نعرف الزمان والمكان الذي نعيش فيه، وأن نعرف الطريقة التي نطبق بها الحياة الإسلامية في المكان والزَّمان الذي نحياه. عدم الفهم يؤدي إلى تطبيقٍ خاطيءٍ، لأننا لا نعرف ما الَّذي أمامنا؟ وأين نحن؟ وكيف نعيش في هذا المكان الذي لا نعرفه؟.

المسلمون في هذا العصر ـ والداعية بصفةٍ خاصة ـ لابد أن يعرف ماذا يوجَدُ في العالم اليوم؟ وما هي التحديات التي تواجِهُنا؟ بعض المسلمين يقولون: إنَّهم لا يَهتَمُّ بهم أحدٌ، وليس هناك ـ حقًّا ـ أعداء يبحثون عنهم. هذه نظرةٌ سطحيَّةٌ غير صحيحة، المسلمون يَبْحَثُ عنهم الأعداء من الشرق ومن الغرب. يبحث عنهم المبشِّرون المسيحيُّون، يبحث عنهم الصليبيون، يبحث عنهم العنصريون، يبحث عنهم الماركسيون، يبحث عنهم أعداءُ الإنسانيَّة، يبحث عنهم الذين هم ضد العرب، يبحث عنهم الذين هم ضدَّ المساواة بين الألوان والأجناس كل هؤلاء أصحاب الدعوات اللَّاإنسانيَّة، يبحثون عن المسلمين ليسكتوهم، لأنَّ في المسلمين الخطر على أصحاب هذه الدعوات. أنظروا إلى أمريكا، دولةٌ كبرى، تدَّعِي السلام، تدعي العدل، ولها قوَّةٌ. ابحثوا عن مواقف أمريكا ـ مثلا ـ في الأمم المتَّحدة، متى استعملت أمريكا الفيتو؟. كمثالٍ حتَّى ندرك هذه الأشياء. أمريكا استعملت الفيتو أكثر من خمسٍ وثمانين مرةً ضد المسلمين، أكثر استعمال أمريكا للفيتو كان دائمًا ضد الحق الإسلامي، أما بقيَّة الـ 10% أو الـ 15% فهي ضد الحق في المساواة بين الألوان، أو الحق في الأراضي التي تكافح الشعوب من أجل إستردادها. إذن هو موقف ضد الإسلام، موقف ضد الحقوق الإنسانية. ثم إن أمريكا تقف مع اليهود وقفةً أكثر حتَّى من موقفها مع الدول الغربية التي تتحالف معها. وتقف من أجل توسُّعِ اليهود، ومن أجل السيطرة على القدس التي يوجد بها ثالث الحرمين، وفي فلسطين تراث الأنبياء الخالد. تقف أمريكا مع اليهود، مع العنصريين، ضد المسلمين. يقتل المئات من المسلمين ولا تتكلم أمريكا، وعندما يجرح يهوديٌّ واحدٌ، تتهم أمريكا المسلمين بأنَّهم إرهابيون. الفلبِّين كان بلدًا إسلاميًا بالكامل، وجاء البرتغاليون المسيحيون وسيطرُوا على جزءٍ كبيرٍ منه، ثم صرفت أمريكا ملايين الدولارات على مجموعاتٍ هائلة من المبشرين يعلمونهم اللغة العربية، ويعلمونهم التاريخ الإسلامي حتَّى يشككوا في الدين الإسلامي، وحتى يدعوا في الفلبِّين بين المسلمين، وبين الذين يمكن أن يصبحوا مسلمين، يدعونهم للمسيحيَّة،وليغيِّروادين المسلمين، واستخدموا العقوبة السياسية لإرهاب المسلمين، وقتلوا مئات الأطفال ومئات النساء ومئات الرجال، حتى يرهبوهم. في أفريقيا.. البابا يقوم بإجراءاتٍ كبيرةٍ جدًا ومكثَّفة، يأتي للمدن الإسلامية العريقة، وينصِّبُ فيها مئات الأساقفة ومئات الكرادلة، ويحتفل في المدن الإسلامية مثل احتفاله في مدينة «كادونا» في نيجيريا، وهي مدينة اسلامية عريقة نصَّب فيها تسعين أسقفًا وكردينالاً، ويدفع مئات الملايين من الدولارات، وأمريكا تدفع له.في أندونيسيا.. نحن عندنا قوائم بالشركات والمؤسسات الأمريكية التي لها أساطيل بحرية، وأساطيل جوية ومئات المستشفيات وهي تعمل من أجل تمسيح المسلمين في أندونيسيا وفي جنوب شرق آسيا. إذن هذه الملايين لماذا تُصرف.

لماذا لا نجد عنايةً، ومساعدةً للمسلمين المحتاجين في افريقيا وآسيا؟ ولكن في كلّ مكان نجد المسيحيِّين المدعومين من أمريكا هم الذين يرسلون إلى بعض الدول الأفريقية.. يأتي المبشر للأم الأفريقية المسلمة ويعطيها كيسًا من الأرز، مقابل أن يأخذ ابنها لكي يصبح هذا الإبن مسيحيًا. هذه مواقف لا إنسانيَّة يقوم بها الصليبيون الأمريكان من أجل وضع حدٍ لإنتشار الإسلام. التدخل العسكري الأمريكي في لبنان.. في بيروت هناك قسم مسيحي، وقسم إسلامي أمريكا تأتي بأكبر سفينة ضاربة، وتبقى أكثر من ستة أشهر وهي تضرب المناطق الإسلامية في الجبل، والمسلمون نائمون لا يهتمون بهذا الأمر. أكبر دولة تقصف مجموعات بسيطة من المسلمين الذين يحاربون اليهود ببنادق الصيد، لأن الأمركيين والغربيين يعرفون الخطر الإسلامي. ولكن الحقيقة أن الخطر الذي تمثله أمريكا ضد الإسلام، ليس هو هذه القوة الكبيرة، لأنَّ الإسلام علَّمنا دائمًا أنه عندما تواجهنا قوَّةٌ كبرى، نتحدَّى نحن أكثر وبالتالي أنتم رأيتم في لبنان كيف قام الشباب المسلم بحركاتٍ فدائية إسلامية ضد «المارينز» الأمريكيين، وضد الفرنسيِّين، وضدَّ العصابات الصهيونيَّة، واستشهدوا في عملياتٍ قتل فيها المئات من الصليبيين. لأنَّ هذه القوة الجهنَّميَّة، القوة غير المتوازنة للصَّليبية، أوجدت حماسًا وقوةً حقيقيةً لدى المسلمين. لذلك اتَّبع الأمريكيون والصليبيون الغربيون وسائل أخرى، هذه الوسائل أنحناها لهم نحن، عن طريق التفرق، وعن طريق التحزُّب، وعن طريق التشيُّع، وعن طريق عدم الفهم هم يأتون لبعض المسلمين، ويقولون لهم: لابد أن تهتمُّوا بالإسلام، أنت يأتيك إنسان ويقول لك لابدَّ أن تهتمَّ بالإسلام، تقول له ــ طبعًا ــ هذا شيء ممتاز أن أهتمَّ بالاسلام، لكن يقول: إن النهضة الإسلامية لا تأتي إلاَّ إذا اهتَمَمْتَ بتفاصيل الصلاة، بالصلاة الإضافية بصيام ستة أيامٍ من شوال، بالقيام ليلة القدر. هي أشياء حقيقية، المسلمون يفعلونها، ولكن هناك أولويات في الإسلام، لابد من العبادة.. والرسول عليه الصلاة والسلام كان يقوم الليل، ولكنه كان فارسًا بالنهار، كان يحارب في النهار، وكان يعمل، هم يقولون: إذا أنت صلَّيت ركعات أكثر فإنَّ مشاكل المسلمين سوف تحل، هذا غير صحيح لأنَّه لو كان هذا صحيحًا لطبَّقه الرسول، لكنَّا وجدنا الرسول يصلِّي ويصوم، ويحج، يسبِّح الله كثيرًا، ويقوم الليل حتَّى تدمى قدماه، ولكنه كان يحارب، وكان يعمل وكان يعظ، وكان يُجاهد، وكان يُصلح بين المسلمين، وكان يذهب في الغزوات في الحر، في العطش، إذن.. لم يكن يصلِّي فقط، ونجد نحن دعواتٍ غريبة بين المسلمين، تركِّز أحيانًا على الصلاة فقط، تركز على الصوم فقط. آخر شيء سمعته من أحد الإخوة العرب المسلمين قال لي: إنه في الأشهر الماضية، قد نوقشت رسالة دكتوراه في الأزهر عنوانها «المسح على الخفَّين». وهذا شيء مدهش جدًا، أن نجد في جامعةٍ إسلامية عريقة تناقش رسالة دكتوراه كاملة، ينقطع إليها مسلمٌ من المسلمين، موضوعها جزئية من جزئيَّات الطهارة، أو حتَّى استثناءات الطهارة في الإسلام، «المسح على الخفَّين». رسالة دكتوراه عن المسح على الخفين . هذه بالضبط.. تمامًا مثل الذي يأتيك ببندقية ويقتلك، هذا داعية، طويل عريض، يأكل، وله أطفال، ولا ينتج وسوف تكون مساهمته في العالم الإسلامي: أن يحدِّثنا عن حقيقة المسح على الخفين، هذه هي رسالته في الدنيا.

* * * *

نحن في ليبيا كنا في هذه الأماكن التي ترونها الآن لا توجد مدارس، هذه كانت مناطق سكن لليهود، كانت مناطق سكن للإيطاليين، وكانت ملآى بالخمارات، وكانت تُشْرَبُ الخمر إلى يوم 31 أغسطس 1969 م، جاءت الثورة، مُنِعَ الخمر منذ ذلك الوقت تطبيقًا للتوجيهات الإلهية، وأقِرّ القرآن شريعة للمجتمع، وغيِّرت القوانين معنا أساتذةٌ هنا، هم الذين ساهموا في تطبيق الشريعة الإسلامية في القوانين الجنائية والقوانين المختلفة وتم دعم المسلمين مباشرة وبطريقة غير مباشرة، هذا العمل أصبح عملاً غير مرغوبٍ فيه لدى الأمريكيين، عند الصليبيين كلهم، وبالتّالي أصبحوا يستخدمون التفرُّق بين المسلمين، ويشحنون بعض الناس، يستخدمونهم في المخابرات عملاء، ويوجهونهم ضد من؟ لا يوجهونهم ضد الذين يوقِّعون إتفاقيات مع اليهود، ولا ضد الذين يجعلون من أراضيهم قواعد للصَّليبيين، الفرنسيين أو الإنجليز أو الأمريكان، ولا ضد الذين يجعلون بلدانهم أماكن «غير لائقة» للسواح الأجانب، أولئك السواح الذين يطبِّقون في البلاد الإسلامية، التي أشـرت إليها مالا تسمح به القوانين في بلدانهم الغربية، لا يوجهون عملاءهم لهذه البلاد ولكن يوجهونهم إلى البلاد التي تتصدى لليهود إلى البلاد التي تمنع الخمر، التي تدعو إلى الإسلام التي تحكم بالقرآن..

إذن.. الداعية لابد أن يكون على بيِّنة، لماذا تعادي أمريكا ليبيا أو أيّ دولة إسلامية تطبِّق الشريعة الإسلاميَّة، المسلم لابد أن يكون من ذوي الألباب، والداعية بصفة خاصة لابد أن يعرف كيف يحلل الأمور. وأنتم في هذا الملتقى سوف تناقشون الكثير من قضايا التحدِّيات الغربية التي تواجه الإسلام، وتواجه الدعوة الإسلامية، بدون معرفةٍ لهذه التحدِّيات لا نستطيع أن نصنع شيئًا، أنت تستطيع أن تؤذِّن في الناس عشرين سنة، ولكن من الممكن أن لا تجعلهم يفهمون، يمكن جدًا أن تصلِّي بالناس عشرين سنةً دون أن يفهموا لأنهم لم يدركوا البيئة التي هم فيها ولا الزمان الذي هم فيه..

إذن.. لابد أن نستن بسنة الرسول ـ الرسول كان يصلِّي في الناس، ويصلِّي بالناس، ويحارب معهم ويجاهد معهم ويجاهد بهم، ويفهم ما يدور حوله، كل المسلمين الذين عاشوا مع الرسول كانوا يفهمون ما يدور حولهم، وبرغم تلك البيئة، كانوا يفهمون الروم ماذا يفعلون، والفرس ماذا يفعلون، ويعرفون ماذا يفعل اليهود بالرغم من أن المسافات كانت طويلة في ذلك الوقت..

إذن.. لابدَّ للداعية المسلم أن يفهم الميزان، وهو القرآن وإستخدام العقل كما أرادهُ الله، ويفهم ما يدور حوله، يفهم الصَّليبية، يفهم أن التفرق بين المسلمين في شكل شيعٍ وأحزابٍ ليس من مصلحة الإسلام والمسلمين، ويفهم أن جماعة المسلمين لابد أن تتعاون على البر والتقوى، والبر والتقوى ليس صدقاتٍ تعطيها للفقراء، هذا ليس حقًا البر والتقوى هذه تصورات غير صحيحة، في عهود غير صحيحة للإسلام، لابد أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعًا قويًا بكل معنى الكلمة. كيف يكون قويًا وفيه إنسان جائع لا يستطيع أن ينام، لأنه ليس له رغيف من الخبز؟. وفي جانب هذا الإنسان إنسانٌ آخر له ملايين الملايين من الدولارات.. أنتم تعرفون أن هناك بعض المسلمين لهم مصارف في أوروبا، وفي أمريكا، مسلم له مَصْرِفٌ، ومسلم يصرف في اليوم الواحد مليون دولار. وهناك بعض مئات المسلمين في المناطق التي ذهبت إليها مع بعض الإخوة الخرِّيجين، المسلمون يموتون جوعًا، ويموتون مرضًا ويموتون جهلاً. كيف تكون هذه الأمةُ واحدة، لها رب واحد؟.

إذن.. نحن نقرأ القرآن غلطًا، إذا ما اعتبرنا أن الذي نوجد فيه هو مجتمعٌ إسلاميٌّ، هو جماعة إسلامية، هو أمةٌ إسلامية هذا غير صحيح.

كيف نتعاون على البر والتقوى، إذا لم نصلح أمرنا؟ و إصلاح أمرنا لا يكون بالترقيع، لا يكون بأن أخطب خطبةً أو أقول قصيدةً شعرية للأمير أو الغني، ليعطى بعض الشيء للفقير، هذا غير صحيح، وهذا لم يقله القرآن، إذن ما هو الصحيح؟ الصحيح هو تطبيق الفهم القرآني، تطبيق التوحيد، أن لا يتحكم إنسان في رقاب الآخرين، ولا مجموعة من الناس في رقاب بقية الناس، يكون هذا بالشورىٰ، وسوف تتحدثون أنتم والأساتذة الأجلاء الأفاضل، والإداريون في الكلية و إخوانكم الطلاب عن الفهم الحقيقي لمعنى الشورىٰ وعن الفهم الحقيقي لمعنى العدل والمساواة، كيف يكون إنسانٌ متساوياً مع إنسانٍ آخر، ليس له قوت يومه، والإنسان الآخر له قوت دهره، وقوت ألف مسلم آخر اغتصبها منه، الشورىٰ ليست مشكلة الدول فقط، الشورىٰ مشكلة الجماعات الإسلامية، حتى الأقليات، نحن يأتينا إنسان فاضلٌ، ومعه شهادات أنه مسلم ويعمل للإسلام ويقول: نريد أن تبنوا لنا مدرسة أو مسجدًا أو مستوصفًا من أدرانا بأن هذه هي حاجة المسلمين في تلك المنطقة؟؟؟.

هناك من يطلب مسجدًا فخمًا، والمسلمون يموتون جوعًا، يموتون جهلاً، لا يجدون مكانًا يتعالجون فيه.

لماذا جاء هذا الإنسان المسلم «الخيِّر» وطلب مسجدًا، لأنه لم يطبِّق الشورىٰ، فهمه فهمٌ خاطيءٌ، لأنه ليست لديه مشكلة تعليم، وليست له مشكلة مرض، إذن يريد مسجدًا يتباهى به أمام المسيحيِّين، ويتباهى به أمام الآخرين، ولكن المسلمين الذين معه فقراء جياع غير متعلِّمين. الرسول يقول جعلت لي الأرض مسجدًا. الأرض كلها نصلِّي عليها، لكن نحتاج لطبيبٍ يعالجنا، ولوكان هناك تطبيق للشورىٰ إذن لاجتمع هؤلاء المسلمون وجاءنا واحد منهم وقال: إن المسلمين في المنطقة ا، يحتاجون إلى مستشفى، إلى طبيب، إلى مدرس إلى كتاب قرآن.. أو إلى مسجد.. و إذن لكانت تلبية هذا الإحتياج تلبيةً حقيقيةً تفيد المسلمين. تجولوا أنتم في بعض المناطق. طبعًا أنا لا أتكلم عن أوروبا، لأن أوروبا فيها المساجد الفخمة، المكيَّفة، هناك مساجد تكلِّف عشرة ملايين دولار، في جنيف مسجد مكيَّف، أنت عندما تذهب وتصلِّي فيه سوف تتحفظ أن تضع أقدامك على الرخام الأخضر الجميل، الذي يزيِّن الساحة الخارجية للمسجد، ثم عندما تدخل إلى الداخل تجد السجَّاد الوثير، الذي تغوص فيه الأقدام، ثم عندما تجلس، إذاكان الوقت صيفًا سوف يكون هناك تكييف لهواء بارد، و إذا كان شتاء سوف يكون هناك تكييف لهواء ساخن، لماذا؟؟؟

ببساطة لأن هناك بعض المسلمين الأغنياء، الذين يعيشون في الصيف في جينيف، فكَّروا بأنه في الامكان أن تُصَلَّى الجمعة في مكان، فدفعوا عشرة ملايين دولار من أجل الصلاة في مسجدٍ جميلٍ، بينما نستطيع أن نبني نحن العديد من المساجد في فولتا العليا، أو بنين، أو في مالي، أو في جنوب شرقي آسيا، الناس يصلُّون تحت الأشجار، وتحت الشمس في بعض المناطق، وهم يتعلمون تحت الأشجار، نحن ذهبنا إلى مدرسةٍ في غامبيا، الأطفال يجلسون تحت الشجرة ويتعلمون اللغة العربيّة والدين الإسلامي تحت شجرة.

إذن.. غير صحيح ليست أمةً واحدة، فيها مسلم يقرأ تحت شجرة، ومسلم يقرأ في مكان مكيّف، وطبعًا هناك مسلمٌ لا يقرأ إطلاقًا. إذن إنعدام الشورىٰ حتى في العمل الإسلامي المحض يؤدي إلى كارثة في الدعوة الإسلامية، ونحن نحمد الله أن الكثير من الخريجين الذين اشتغلوا بالدعوة، قد أدواواجباً كبيرًا جدًا في توعية المسلمين، وفي تفهيمهم القرآن، وفي تفهيمهم الحق، واستزادوا من العلم، وهذا يعتبر نجاحًا كبيرًا، وهو عملٌ في سبيل الله نسأل الله أن يجازي الذين يقومون به خير الجزاء، نحن أيضًا نشعر بأنه قد تم التوفيق في السنوات الماضية، في تكوين المؤتمرات الشعبية الإسلامية، هذه المؤتمرات الشعبية الإسلامية هي ممارسةٌ للشورىٰ،

بدل أن يأتي إنسان ويطلب أن يُبْنَى مسجد، يجتمع المسلمون في شكل مؤتمر شعبي إسلامي ويتدارسون، نحن يجب أن نتعاون ونبني مدرسة، نتعاون ونبني مستوصفًا، نتعاون ونجمع المال لنقيم به أود المحتاجين عندنا، نقيم مزرعة تعاونية، نقوم بمساعدة من أجل الحج. بهذه الطريقة أصبح هناك نجاح للمؤتمرات الشعبية الإسلامية. ومن بين الامور التي يجب أن تناقشوها خلال مناقشتكم لأمر الشورىٰ، هو أمر المؤتمرات الشعبية الإسلامية، والإخوة في جمعية الدعوة الإسلامية، سوف يعطونكم نبذةً عن تاريخ هذه المؤتمرات، وأين توجد؟، ونجاحها، لتتعرفوا عليها، وتتعرَّفوا على النشاط الذي قامت به هذه المؤتمرات. طبعًا نحن هنا في إحتفال إفتتاح، ولكن يجب أن نكون جادِّين دائمًا نحن لا نستطيع أن نجامل أنفسنا، ولا نستطيع أن نجامل أحدًا، ولكنه لابد لنا أن نكون جادِّين في كل أمورنا، وبالتالي، في الوقت الذي نشعر فيه بالاعتزاز، وبالفخر، أن كلية الدعوة الإسلامية، في شخص أساتذتها، والعاملين فيها وفي شخص أمينها، وجميع الإخوة الذين تعاونوا معه في فرع الكلية بدمشق، و إن شاء الله في فروع الكلية في مناطق أخرى من العالم، وتعاونكم أنتم كطلابٍ وكخرِّيجين وكطلبة منتسبين إلى جمعية الدعوة الإسلامية، في معاهد وكلياتٍ جامعيةٍ أخرى، في الوقت الذي نشعر فيه بالاعتزاز والفخر أنكم تلتقون هذا الملتقى، كان لابد لنا من أنْ نذكر أنفسنا ونذكِّركم، بحقيقة ما نحن مجتمعين من أجله، وهو إدراك الطريقة التي نزن بها الأمور، الوزن الحق، وهي القرآن الكريم، وفهم الرسولﷺ لهذا الوحي الإلٰهي الخاتم، وطريقة تطبيقه لهذا الوحي، واستخدام العقل الإنساني، الذي إكتمل ونما باكتمال الوحي الإلٰهي، والإدراك الحقيقي والواعي لما يحيط بالمسلمين في هذا العصر، من أخطار حقيقية تهدِّدُ وجودهم.

إن عدم إدراك الإنسان المسلم وخاصةً الداعية لهذه الأخطار، وعدم إستخدام الداعية المسلم لميزان القرآن الكريم، هو الذي أدّى إلى المشكلات الكبرى، التي نواجهها في هذا العالم.

ونحن إن شاء الله في هذا الملتقى، سوف نحاول جميعًا، أن نتعرَّف أكثر على حقيقة هذا الميزان الإلٰهي العظيم، وأن نتعرف أكثر على الطريق الأمثل، الذي نطبِّق به هذا الميزان الإلٰهي العظيم، من أجل أن نثور على أنفسنا، وأن نثور بالمسلمين ثورةً إسلاميةً حقيقية، تعيد للإسلام مجده ورسالته، حتَّى يستطيع الإنسان من جديد، أن يتحرَّر على سطح هذه الأرض، وأن يتقدَّم التقدم الصَّحيح لأنَّ الإسلام هو دين التقدم وليس دين التخلُّف، كما يريده له الذين يحاولون أن يفرِّقوا هذه الأمَّة، وهو دين الحق والخير، وهو دين الإنسانيّة المحبّة للمساواة والمحبَّة للعدل، والمحبَّة للحق..

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحقَّ الحقَّ بكلماته وأن يوفقكُمْ جميعًا لما فيه الخير...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ملف العدد

أضواء حول
كلية الدعوة الاسلامية

لم تمض سوى أشهر قليلة على قيام ثورة الفاتح من سبتمبر العظيم حتى دعا قائدها الثائر المسلم العقيد معمر القذافي الى عقد المؤتمر الأول للدعوة الاسلامية إحساساً منه بمسؤولية المسلم الصادق تجاه ربه ودينه وشعوراً منه بما يعانيه أبناء المسلمين في كافة انحاء العالم من الاضطهاد والعنف والجهل ، وايماناً منه بواجب التواصي والشورى بين أبناء الاسلام .

فشكلت على الفور لجنة لإدارة أعمال المؤتمر قامت بتوجيه الدعوة الى جمع من العلماء والمفكرين والمهتمين بالدعوة الاسلامية في العالم لحضور ذلك المؤتمر الذي انعقد بتاريخ 1970/12/11 م بالجماهيرية بطرابلس وكان في مقدمة ما أوصى به وأكد عليه أن تفتح كلية للدعوة الاسلامية تتولى إعداد الدعاة الى الله ليبصروا شعوبهم بتعاليم الإسلام التي جاء بها القرآن الكريم ويتأسوا بالرسول عليه الصلاة والسلام في المنهج الذي سلكه في الدعوة الى الله (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) .

فصدر القانون رقم 78 لسنة 1974 م بإنشاء كلية الدعوة الاسلامية على المستوى الجامعي .

وقد اختير لها ـ مؤقتاً ـ مكاناً هاماً يقع في قلب مدينة طرابلس وهو(الكاتدرائية سابقاً)ولم يكن اختيار هذا المكان من قبيل الصدفة بل جاء تحقيقاً لهدف وتصحيحاً لواقع ظل معوجاً عشرات السنين. أما الهدف فقد تطلعت اليه نفوس المواطنين منذ أن احتل المستعمر الايطالي الحاقد أرضنا وعمل بكل ما لديه من حيلة وخبث لكي يطمس الشخصية العربية الاسلامية لأبناء هذا الشعب الكريم ، فنشر الكنائس ومراكز التبشير وفرض الجنسية الايطالية ، وكان هذا المبنى من أكبر المراكز التبشيرية في البلاد فتطلعت نفوس المواطنين الى اليوم الذي تنتصر فيه إرادة الحق وتعود الأمور الى وضعها السليم وظل هذا الهدف حبيساً في نفوسهم الى حين . أما الواقع : فهو أن مدينة طرابلس منذ أن استنارت بنور الدعوة الاسلامية على أيدي الهداة الفاتحين ظلت قلعة للإسلام ومنارة للهدى ونبراساً للمعرفة وما زالت مدارسها القرآنية ومعاهدها الدينية تخرج أفواج القراء والمعلمين الذين حملوا لواء الدعوة الإسلامية ونشروا الثقافة الدينية في داخل

البلاد وخارجها . . .

ثم جاء المستعمرون الايطاليون الحاقدون فسلكوا كل السبل لقلب الأوضاع وتغيير الواقع ، وكان مما عملوه أن اختاروا أهم مكان في مدينة طرابلس لنصب أكبر كنيسة في قلب المدينة ليكون أول ما يظهر من المدينة للقادمين من البحر منارة الكنيسة التي تحمل الصّليب « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى *الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» وجاءت ثورة الفاتح العظيم ملبية لأماني الجماهير وتطلعاتهم، فكان* من أهم انجازاتها طرد بقايا الفاشيست المستعمرين في 7 اكتوبر 1970 م وعلى أثر ذلك تحولت الكنيسة الكبرى الى مسجد يؤمه المسلمون من جميع أنحاء العالم ، ورفع اسم الله على المنارة التي صارت مأذنة وشغلت كلية الدعوة الاسلامية القاعات التي تلقى فيها دروس التبشير وتحاك من داخلها المؤامرات على أبناء المؤمنين . ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ .

وقد فتحت الكلية أبوابها لتستقبل أبناء المسلمين من جميع أنحاء العالم ليرجعوا بعد التخرج منها دعاة إلى أقوامهم تنفيذاً لقول الله تعالى ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون** ﴾ .

وكان من أهداف هذه الكلية :

1) العناية بدراسة القرآن الكريم باعتباره صراط الله المستقيم الذي أمرنا بالسير حسب تعاليمه وتوجيهاته والاهتداء بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ العبرة من جهاده وصبره .

2) الاهتمام بالتراث الاسلامي والعناية بتحقيقه ونشره ودراسته دراسة نقدية قادرة على افراز الشوائب التي علقت به في القرون المتأخرة .

3) اثراء التراث الاسلامي بأبحاث ومؤتمرات علمية تعالج قضايا المسلم المعاصر وتجيب عن أسئلة الحائرين في ردود اسلامية شافية تسهم في تأكيد الحقيقة الخالدة وهي أن الاسلام صالح لكل زمان ومكان .

4) دراسة الفرق الاسلامية دراسة نقدية وافية لمعرفة دورها في تفتيت المسلمين وشحنها لروح التعصب ومخالفتها لنصوص القرآن الصريحة في آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى : ﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء** ﴾ .

5) دراسة العالم الاسلامي بشرياً وجغرافياً وتاريخياً حتى يتمكن الشباب الجامعي المسلم من الاسهام في تقدم العالم الاسلامي والاطلاع على امكاناته ومشاكله السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

6) نشر رسالة الإسلام الخالدة في هذا العالم الذي تتصارع فيه الديانات والأفكار من أجل الاستحواذ على أكبر مساحة ممكنة على وجه الأرض .

7) العناية باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم ووسيلة في فهم مصادر شريعته كما أنها لغة

لكثير من العبادات الإسلامية التي لا تقبل بدونها .

وحرصاً من إدارة الكلية على رعاية أبنائها وتشجيعهم على التحصيل تقدم لهم المزايا الآتية :

1) بعد ترشيح الطالب وقبوله على منحة دراسية بالكلية تتكفل ادارة الكلية بصرف تذكرة سفر له من بلده الى الجماهيرية للالتحاق بالدراسة .

2) بعد انتظام الطالب بالدراسة تصرف له مكافأة استقرار لتغطية مصروفاته الضرورية .

3) تلتزم الكلية بالسكن والاقامة والتغذية لكل الطلاب بالأقسام الداخلية وبتوفير ما يلزم من العناية الصحية .

4) تمنح للطالب تذكرة سفر الى بلده ذهاباً وإياباً بعد مرور سنتين من قبوله ونجاحه فيهما .

5) تصرف لكل طالب بالأقسام الداخلية مكافأة شهرية

6) توفر ادارة الكلية للطلاب جميع الكتب والمذكرات المنهجية حسب خطة الدراسة المعتمدة

7) تمنح جوائز تشجيعية للطلاب الثلاثة الأوائل من كل سنة في امتحان آخر العام الدراسي

8) بعد حصول الطالب على النجاح في الامتحان الأخير ونيله شهادة الليسانس في الدعوة الاسلامية تصرف له تذكرة سفر الى بلده أو مقر عمله اذا رغب التعاقد مع الجمعية .

* وقد دأبت الكلية منذ انشائها على تطوير خططها الدراسية والعمل الدؤوب لصقل مواهب خريجيها وتوجيههم الوجهة الصحيحة لنشر الإسلام الصحيح كما أنزله الله فعملت على اللقاء بهم في مؤتمرات دورية للتشاور والتعاون في مجال الدعوة الإسلامية .

* تخرج من هذه الكلية سبعة أفواج يزيد عددهم على (147) خريجاً ويمثلون 28 جنسية أغلبهم يعملون الآن في حقل الدعوة الاسلامية دعاة ومدرسين للغة العربية على نفقة المجتمع الليبي وقد دلت تقارير المتابعة على نجاح خريجي الكلية وكفاءتهم في هذا المجال أكثر من غيرهم .

وجنسيات الطلاب المتخرجين من هذه الكلية هي :

الصين ـ مالي ـ السودان ـ السنغال ـ أندونيسيا ـ تايلاند ـ باكستان ـ الفلبين ـ الاتحاد السوفيتي ـ نيجيريا ـ يوغسلافيا ـ سوريا ـ غانا ـ الجزائر ـ أوغندا ـ الصومال ـ المغرب ـ كينيا ـ موريتانيا ـ تونس ـ غينيا بيساو ـ ماليزيا ـ الأردن ـ بنغلاديش ـ فولتا العليا ـ غامبيا ـ اليابان .

* ويدرس بها الآن عدد (155) طالباً موزعين على السنوات الأربع ويمثلون 24 جنسية من مختلف بلاد العالم .

* وقد حددت (المادة 6)من قانون الكلية :المواد التي تدرس بها وتضمن اعداد الداعية الى الله في هذا العصر المليء بالتيارات والأفكار التي تتفق جميعها على محاربة الاسلام والمسلمين فكانت على النحو التالي :

التفسير وعلوم القرآن ـ السنة النبوية وعلومها ـ الفقه الاسلامي ـ تاريخ التشريع الاسلامي ـ الفكر الاسلامي المعاصر ـ العقيدة الاسلامية ـ اللغة العربية وآدابها ـ الاستشراق والتبشير ـ علم الأخلاق ـ التاريخ الاسلامي ـ الحضارة الاسلامية ـ علم التفسير ـ علم النفس العام ـ علم النفس الاجتماعي ـ علم الاجتماع ـ اللغات الأوربية ـ اللغات الشرقية ـ اللغات الأفريقية والأسيوية المشهورة ـ الثقافة السياسية .

* يتولى تدريس هذه المواد والاشراف على توجيه الطلاب وتنفيذ خطة الدراسة الى جانب ادارة الكلية نخبة من خيرة الأساتذة المتخصصين بعضهم على سبيل التفرغ وبعضهم بطريقة الندب من الجامعات الليبية .

* انطلاقاً من عالمية رسالة الكلية في التبشير بالاسلام فقد افتتح فرع لها بالجمهورية العربية السورية بدمشق سنة 1982 م .

ويدرس به الآن ما يزيد على (300) طالب وطالبة يمثلون جنسيان مختلفة أغلبهم من :

الشقيقة سوريا ، وفلسطين ، ولبنان ، وكندا ، وقبرص ، وتركيا ، وفرنسا ، ومالي ، وايران ، ويتبع الفرع في نظامه الدراسي والاداري تبعية كاملة لادارة الكلية بطرابلس .

* كما يتبع الكلية«المعهد التأهيلي»بطرابلس الذي افتتح سنة 1978م وبه الآن عدد (60) طالباً ومدة الدراسة به سنتان يقبل به الطلاب الذين تتوفر فيهم الشروط المطلوبة للالتحاق بالكلية وينقصهم التعامل مع اللغة العربية بصفة تمكنهم من فهم المناهج التي سيدرسونها بالكلية .

* وحرصاً من ادارة الكلية على نشر اللغة العربية بين أبناء الجاليات غير العربية الموجودة في الجماهيرية وتوثيقاً للصلة بهم : فقد افتتح قسم للشؤون التعليمية يتولى مهمة الإشراف على تنظيم دورات لتعليم اللغة العربية بها مجاناً ينضم اليها كل سنة عدد كبير من المستويات المختلفة وبعد اتقانهم العربية ونجاحهم فيها تمنح لهم شهادات بذلك .

* وسعياً من الكلية في توثيق صلتها بالمؤسسات الثقافية والهيئات العلمية والجامعات الاسلامية في كافة أنحاء العالم فقد عملت على الآتي : ـ

* الارتباط بالجامعات الليبية في كل النشاطات العلمية والفكرية ذات الصلة بأهدافها ورسالتها .
* اعتبارها عضواً مؤسساً في المؤتمر العالمي للدعوة الاسلامية .
* اعتبارها عضواً مؤسساً في لجنة الدعوة المنبثقة عن المجلس العالمي للدعوة الاسلامية .
* انضمامها الى رابطة الجامعات الاسلامية ومشاركتها في خطط المناهج الجامعية في العالم الاسلامي ومساهمتها في دراسة النشاط الجامعي .

* مشاركة أساتذة الكلية في أغلب المؤتمرات التي تعقدها الجمعية خارج الجماهيرية .
* إقامة موسم ثقافي كل سنة دراسية ودعوة كثير من الأساتذة الزائرين من الجامعات المختلفة لالقاء محاضرات بالكلية . بلغ عددهم في السنة الدراسية 84/83 على سبيل المثال 8 زائرين .

* في مجال الطباعة والنشر : تقوم الكلية رغم قلة امكانياتها في هذا المجال بطبع كل ما يقدمه الأساتذة من مذكرات تساعد على تحصيل الطلاب في مناهجهم الدراسية ، الى جانب الكتاب المقرر .

* قامت بمحاولة طبع دليل الكلية يكون بمثابة رسول بينها وبين طلاب المعرفة في العالم لأخذ فكرة على شروط الالتحاق بها وكيفية الحصول على المنح الدراسية .

* تقوم الأن بطبع مجلة أكاديمية علمية متخصصة مساهمة منها في اثراء الفكر الاسلامي المعاصر .
* تطمح الكلية مستقبلاً أن تفتح قسمًا للدراسات العليا يشمل تخصصات متعددة .

دراسات إسلامية

القرآن شريعة المجتمع

الأستاذ محمد فتح الله الزيادي

لا بد لنا في البداية وكمدخل لهذا الموضوع أن نتعرف على الكلمات التي تكون عنوان موضوعنا وهي القرآن والشريعة والمجتمع .

فالقرآن كما عرفه الأقدمون ويعرفه المحدثون هو : كلام الله المعجز المنزل على سيدنا محمد ﷺ المتحدي بأقصر سورة منه المنقول بالتواتر المكتوب بين دفتي المصحف المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس . أما الشريعة فهي مجموعة القوانين والأحكام والقواعد التي تنظم علاقات الأفراد والجماعات ، والمجتمع هو مجموعة من الناس تعيش في بقعة واحدة من الأرض وترتبط بروابطمتعددة ،وهو أيضاً مجموعة من الظواهر المختلفة التي تنشأ نتيجة اختلاط الناس بعضهم ببعض ، فهو اذاً يتكون من عنصرين أحدهما مادي ويشمل البيئة والسكان ، وثانيهما معنوي ويشمل التقاليد والعادات والعرف وما إلى ذلك .

إذاً ومن خلال ما تقدم نجد أن كل مجتمع بحاجة إلى قانون وذلك انطلاقاً من أن الفرد الذي هو النواة الأولى للمجتمع تتحكم به مجموعة من الغرائز توجه سلوكه ومعاملاته مع الآخرين ولو ترك الإنسان وفق ما تقتضيه أهواؤه وغرائزه لطغى على حقوق الآخرين . ولساد قانون الغاب في النهاية ، ولهذا احتاجت المجتمعات البشرية في كل طور من أطوار حياتها إلى قانون يضبط تصرفات أفرادها وينظم علاقاتهم الداخلية والخارجية ، ومن أجل هذا أيضاً اقتضت حكمة الله تعالى أن يتكفل البشرية برعايته ويشملهم بلطفه فيرسل إليهم بين الفينة والأخرى رسولاً يحمل إليهم تشريعاً إلهياً ينظم حياتهم الدينية والدنيوية أي يبين لهم علاقتهم مع خالقهم وعلاقتهم مع بعضهم وعلاقتهم مع ظواهر الكون الأخرى ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾[1] ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾[2] وهكذا تتابع الرسل وتعددت التشريعات الإلهية التي بعث بها هؤلاء الرسل رغم وحدة أصولها ومنابعها ومبادئها إلى أن ختم الله الرسالات الإلهيةبرسالة الإسلام الخالدة التي لم يخص بها مجتمع معين وإنما خوطب بها العالم بأسره وحملها إلى البشرية خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وإلى جانب الرسالات الإلهية وما حملته من تشريعات فقد عرفت البشرية أيضاً أنواعاً أخرى من القوانين

الوضعية التي وضعها أفراد أو اتفقت عليها جماعات ، ويتحدث علماء القانون عن نشأة القوانين الوضعية فيقولون : « إنه بدأ يتكون مع تكون الأسرة والقبيلة ، وإن كلمة رب الأسرة كانت قانون الأسرة ، وكلمة شيخ القبيلة كانت قانون القبيلة ، وإن القانون ظل يتطور مع الجماعة حتى تكونت الدولة وإن عادات كل أسرة كانت لا تتفق مع عادات غيرها من الأسر ، وتقاليد كل قبيلة لم تكن مماثلة لتقاليد غيرها من القبائل . وإن الدولة حين بدأت تتكون وحدت العادات والتقاليد وجعلت منها قانوناً ملزماً لجميع الأفراد والأسر والقبائل الداخلين في نطاق الدولة . ولكن قانون كل دولة لم يكن يتفق في الغالب مع قوانين الدول الأخرى ، وظل هذا الخلاف حتى بدأت المرحلة الأخيرة من التطور القانوني في أعقاب القرن الثامن عشر على هدى النظريات الفلسفية والعلمية والاجتماعية فتطور القانون الوضعي من ذلك الوقت حتى الآن تطوراً عظيمًا ، وأصبح قائمًا على نظريات لم يكن لها وجود في العهود السابقة »[3] .

وإذا كانت البشرية قد عرفت ـ خلال فترات تاريخها الطويل ـ نوعين من التشريعات ، تشريعات إلهية وتشريعات وضعية ، فإن السؤال الذي يجب أن يطرح هنا هو أي هذين النوعين أصلح لحياة البشرية ولماذا ؟ وللإجابة عن هذا السؤال الذي قد يبدو بديهياً أقول إنه شتان بين تشريع الخالق وتشريع المخلوق ، فالخالق يشرع وهو خبير بخبايا وظواهر المخلوقين عالم بحاجاتهم وما يناسبها بصير بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، أما المخلوق فهو يشرع وفي نفسه أهواء ونزعات مختلفة وتحيط به ظروف شتى ويقع تحت تأثيرات متنوعة ، ومن هنا يتضح الفرق بين الاثنين ، إذ الكمال واضح في الأول وضوح القصور في الثاني ، ولكي يزداد الفرق وضوحاً يجب أن نضع في اعتبارنا النقاط التالية :

1 ـ يختلف التشريع الإلهي عن القانون الوضعي من حيث مصدر كل منهما فالأول مصدره الله سبحانه وتعالى خالق الكون كله وصانعه فهو سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية ومن ثم فإن تشريعاً مصدره الخالق لا بد وأن يكون متصفاً بالكمال المطلق، أما الثاني فمصدره جماعة ذوو تفكير محدود ضيق ، يعلمون قليلاً من الماضي ويلمون بجزء من الحاضر ويحجب عنهم المستقبل نهائياً ، ولذا فإن تشريعهم غالباً ما يصادف اعتراضات كثيرة نتيجة ثغرات أغفل ذكرها المشرع ، ولذلك فالنقص دائمًا ملازم للقوانين الوضعية ، والتغيير في نصوص القوانين جزئياً أو كلياً أمر عادي جداً إما للنقص المستمر الذي يكشفه التطبيق لهذه القوانين أو لأن القوانين عادة ما تكون مرتبطة بشكل السلطة التي تمت في عهدها ، فإذا ما اعترى الدولة تغيير سياسي سارعت السلطات الجديدة إلى تغيير القوانين السابقة لتتلاءم مع ما تهدف إليه .

2 ـ يختلف الاثنان أيضاً من حيث النشأة فالقوانين الوضعية تنشأ صغيرة محدودة القواعد والأحكام ثم تتطور بتطور الجماعة واتساع دائرتها ، فكلما ظهرت بين أفراد المجتمع ظاهرة كلما كان المجتمع في حاجة إلى من يقنن هذه الظاهرة ويضعها في شكلها التشريعي ، وهكذا ينشأ القانون الوضعي صغيراً ثم ينمو ويقوى كلما تطورت الجماعة وتقدمت ، ومع نشأته التدريجية هذه فإنه لا يمكن إطلاقاً أن يصل إلى درجة الكمال المطلوب .
وعلى العكس من ذلك تماماً نجد التشريع الإلهي ينزل ـ (وخاصة في مرحلته النهائية) ـ كاملاً لا نقص فيه جامعاً لكل أمور الدنيا والدين مخاطباً أفراد المجتمعات البشرية بأسرها ، مبيناً ما ينظم أمور الأفراد وما ينظم أمور

الجماعات وأيضاً ما ينظم أمور الدول في علاقاتها سلمًا وحرباً . والشريعة الإلٰهية لا تتأثر بتغير الأزمان ، ولا تتغير بتغير أنظمة الحكم ، ولا توجد بها ثغرات أثناء التطبيق .

وحين ندقق في التشريعين الإلٰهي والوضعي نجد أن الفرق واضح جداً بحيث إن القانون الوضعي لا يرقى إلى مستوى مقارنته بالتشريع الإلٰهي إذ لا مجال للمقارنة بين الخالق والمخلوق ولكن هذه المقارنة تفرضها وقائع الحياة وأحداثها التي غالباً ما تجدها تعتمد القوانين الوضعية التي تستطيع تغييرها وتعديلها لتساير أهواء وظروف واضعيها الأمر الذي لا يوفره التشريع الإلٰهي الذي يشرع للمجتمع كله ولا يتأثر بهوى أو نزعة ذاتية ولا يقبل التبديل أو التغيير ، ومن ذلك يمكن أن نقول إن التشريع الإلٰهي يتميز بالآتي : 1 ـ الكمال أي أنه يستكمل كل ما تحتاج إليه المجتمعات من قواعد ومبادىء ونظريات تكفل حاجات الجماعة في مختلف الأزمنة . 2 ـ السمو أي أن أحكامه أسمى دائمًا من مستوى الجماعة ارتفع أو انخفض مستوى تفكيرها . 3 ـ الدوام أي الثبات والاستقرار الذي لا يخضع للتأثيرات المختلفة مهما كان نوعها[4] .

وإذا عرفنا ذلك تأكد لدينا أن المجتمع بحاجة إلى تشريع إلٰهي ينظم علاقاته كلها ، وأن القوانين الوضعية لا يمكن لها أبداً أن تمكن الفرد من العيش حراً سعيداً يتمتع بدنياه ويتطلع إلى آخرته دون تسلط أو تجبر من أحد ، وإذا كان الأمر كذلك فأي التشريعات الإلٰهية يمكن أن تكون أصلح لحياة المجتمعات أهي تشريعات العهد القديم أم هي تشريعات العهد الجديد أم الإسلام ؟

وإجابة عن ذلك أقول إن التشريعات الإلٰهية كلها تنهل من معين واحد وتتجه نحو مصب واحد ، وهي حلقات في سلسلة يكمل بعضها بعضاً ، وهي لبنات متراكمة في بناء الدين والأخلاق وسياسة المجتمعات وكان الإسلام آخر لبنة في هذا الصرح ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال مصوراً الرسالات السماوية : «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »[5] ولذلك كان اسم الدين الختامي أو الشريعة النهائية اسمًا عاماً يجمع كل الديانات السابقة فهذا نوح يقول لقومه ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾[6] ويعقوب يوصي بنيه ﴿ **فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[7] وأبناء يعقوب يقولون ﴿ **نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰـهاً واحداً ونحن له مسلمون** ﴾[8] وموسى يقول ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾[9] والحواريون يقولون لعيسى : ﴿ **آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾[10][11] ، ونرى أيضاً القرآن نفسه ينص على وحدة الرسالات السماوية ووحدة تشريعاتها فيقول : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه** ﴾[12] ويأمر القرآن أيضاً بالإيمان بالرسل السابقين لرسالة الإسلام وكتبهم فيقول : ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾[13] .

ومع اعترافنا وإيماننا الكامل بوحدة الرسالات والتشريعات الإلٰهية فإننا يجب أن نعترف أيضاً ـ انطلاقاً من نصوص القرآن ـ بأن الإسلام هو خاتم التشريعات الإلٰهية ، وأنه تضمن خلاصة الرسالات السابقة وزاد عليها

بما به كمال الإنسانية ورقيها المادي والروحي ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾[14] ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾[15] وبناء على ذلك فقد جاءت هذه الرسالة تحمل شريعة عامة موجهة إلى جميع الناس مهما اختلفت ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم في كل زمان وفي كل مكان ابتداء من وقت بعثته ﷺ حتى يوم القيامة ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾[16] ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾[17] .

من كل ذلك نعلم أن الإسلام هو نهاية المطاف بالنسبة للرسالات الإلهية وهو الشريعة التي ارتضاها الله لأن تكون فيصل كل أمر فيما بقي من سنوات هذه الحياة الفانية ، وما دام القرآن الكريم هو الذي احتوى تعاليم هذه الرسالة الخاتمة ، وما دام أيضاً قد احتوى تشريعاً متكاملاً ينظم كل أمور الدين والدنيا وجب علينا أن نتيقن تمام اليقين أن القرآن هو شريعة المجتمع التي يجب أن تسود كل بقعة من بقاع الدنيا في هذا العصر وفي العصور القادمة وإلى أن تقوم الساعة .

ومع هذه الحقيقة التي يجب أن نودعها في قلوبنا يجب علينا أيضاً أن نضع في اعتبارنا عدة حقائق أخرى مهمة تقوي هذا الاعتقاد وتزكيه ، وهذه الحقائق يمكن اجمالها فيما يلي :

أولاً : أن القرآن الكريم مصدر تشريعي إلهي ثابت لا مجال للتشكيك في صحة نسبته إلى الله تعالى أو في صحة وصوله إلينا ، أما الأولى فقد تمت مناقشتها في زمن الرسول ﷺ وأجاب القرآن الكريم عنها حين قال : ﴿ **أم يقولون افتريه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون** ﴾[18] ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾[19] وهكذا أغلق القرآن الكريم الباب أمام كل من يريد التشكيك في صحة نسبة هذا الكتاب إلى الله تعالى ، واتبع في ذلك أسلوباً يقوم على التحدي في الاتيان ولو بسورة مثله ، ورغم اشتهار من انزل في وقتهم بالفصاحة والبلاغة إلا أنهم وقفوا عاجزين أمام بلاغة القرآن وإعجازه .

أما الثانية : وهي صحة وصوله إلينا فهو أيضاً أمر هام وربما يمثل محور الارتكاز في هذا الموضوع ، فالقرآن الكريم تميز بعناية ورعاية وحرص شديد في توثيقه وكتابته وجمعه ، وكانت هذه العناية إلهية أولاً حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ ويقول أيضاً ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه** ﴾ ، وكانت أيضاً عناية نبوية فالرسول ﷺ كان حريصاً جداً على إيصال الوحي وتبليغه كما أنزله الله حتى إنه كان يردده بسرعة خشية أن يضيع منه قبل كتابته ، وقد زاد حرصه هذا حتى نبهه القرآن على ذلك وقال له : ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه** ﴾ ومع حرص النبي الشفوي هذا فقد حرص عليه من جانب آخر وهو التوثيق التحريري فقد كان للرسول كتاب للوحي يستدعيهم كلما نزل الوحي ليكتبوه على أدوات الكتابة المتوفرة في ذلك الوقت ، وكان للرسول ﷺ دور آخر هو عرض مجموع ما نزل على جبريل كل سنة ، وعارضه مرتين في آخر سنة من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإلى جانب هذا الحرص النبوي الشديد على توثيق القرآن كان هناك دور آخر يقوم به الصحابة رضوان الله عليهم فقد كانوا يسارعون إلى حفظ

وتلاوة كل آية تنزل ، وكانوا يداومون على تلاوته في المسجد وفي بيوتهم حتى انه كان يسمع لهم دوي كدوي النحل وهم يتلـون القرآن ، أما الذين تعلموا الكتابة منهم فقد كانوا يسجلون ما ينزل في مصاحفهم الخاصة أولاً بأول ، وهكذا تضافرت كل الجهود من أجل توثيق القرآن والاهتمام به ، ومما يقوي صحة النص القرآني هو أنه لم يكن يكتب في عهد النبي ﷺ ولا في عهد خلفائه أي شيء عدا القرآن وذلك للنهي الصريح الوارد من الرسول حين قال : « لا تكتبوا شيئاً غير القرآن ومن كتب شيئاً فليمحه »[20] .

ولم يكن الحرص في عهد الخلفاء بأقل مما كان في عهد الرسول ﷺ فعمر بن الخطاب تنبه لأول خطر يمكن أن يلحق النص القرآني بموت عدد من حفاظه وهو غير مجموع في مصحف واحد متفق عليه ، ومن هذا أشار على أبي بكر رضي الله عنه بجمع القرآن الذي اختار لهذه المهمة كاتب الوحي زيد بن ثابت واشترط لذلك أن تقارن النصوص المكتوبة بما هو محفوظ وأن يشهد شاهدان على صحة ما يؤتى به من نصوص ، وبطريقة علمية دقيقة جمع المصحف كله وحفظ ولم يكن ملزماً للأمة من حيث ترك مصاحفهم الخاصة أو الالتزام بقراءة واحدة ، واستمر الحال كذلك إلى أن دق ناقوس الخطر مرة أخرى في عهد عثمان رضي الله عنه حين اختلف القراء في قراءة القرآن وظهر النزاع حوله حتى كاد أن يؤدي إلى فتنة عظيمة ولكن العناية الإلهية ألهمت عثمان بأن ينسخ من مصحف أبي بكر نسخاً تجمع الأمة على مصحف ثابت يكون ملزماً لها بحيث يترتب عليه حرق المصاحف الخاصة واتباع ما اتفق عليه في هذا المصحف دون أن يترك أي باب للإختلافات مهما كانت بساطتها، واتبع عثمان أيضاً منهجاً علمياً دقيقاً قامت به لجنة ممن تثق الأمة في خلقهم ودينهم ومن هذا المصحف أخذت الأمة القرآن وداومت عليه إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد توفر للقرآن الكريم كل أسباب التوثيق والعناية التي لم تتوفر لكتاب سماوي قبله ويكفي أن نعلم أن الأناجيل كتبت بعد المسيح بأكثر من مائتي سنة ، أي أنها كتبت في غير زمانها وبغير لغتها وفي غيبة صاحبها ، ويكفي أن نعلم أنه : « بين آخر كتبهم تدويناً في زعمهم ، ومعرفته والاعتراف به أكثر من خمس وعشرين سنة ومائتين لا راوي يرويها ، وقد وقع بهم من الأحداث في هذه المدة ما يذهب باللب ويضيع الرشد وينسي المرء معه كل شيء وإن الكتب نفسها لم تسلم من الاضطهاد فقد أصدر أحد أباطرة الروم سنة 303 أمـراً بهدم الكنائس وإحراق الكتب وعدم اجتماع المسيحيين لأداء عباداتهم »[21] . ولم يكن هذا حال الأناجيل فقط وإنما وقع التحريف للتوراة أيضاً فـ « منذ أن استودع موسى كهنة الهيكل توراته لم يتوقف هؤلاء عن تحرير الأسفار والأمثال والأناشيد والمزامير وإضافتها إلى هذه التوراة . . . . بل خصصوا وظائف رسمية في الهيكل لجماعة من الكتبة مهمتهم تدوين ما يمليه الكهنة ، ويلقنونه للناس ضمن ما يذيعون عليهم من نصوص تعاليم الرب ووصاياه »[22] .

وهكذا وبهذه المقارنة البسيطة العاجلة يتضح الفرق بين القرآن وبين ما سبقه من كتب حيث نجد أن القرآن يفوقها صحة ووثوقاً ولا أحد يستطيع أن يشكك ولو في حرف واحد منه ، وقد أثبتت الابحاث العلمية الأخيرة مدى صحة نصوص القرآن وأخرجت للعالم برهاناً جديداً يعتمد الاعجاز العددي للقرآن

كطريق لاثبات أن القرآن منذ أن نزل على سيدنا محمد ﷺ لم ينقص منه حرف واحد ولم يزد فيه حرف واحد ، ولا غرابة في ذلك فهو الكتاب الذي اختاره الله أن يكون شريعة لكل المجتمعات البشرية إذا هي أرادت الحياة السعيدة الهانئة .

ثانياً : إن القرآن يساير الفطرة الانسانية ويتمشى مع طبيعتها ، وقد جاء تشريعه يسيراً سمحاً معتدلاً ، لا تكليف فيه بما لا يطاق ولا أمر فيه بما هو مستحيل يعجز البشر عن تنفيذه **﴿ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾**[23] ، وهو أيضاً تشريع يحارب الرهبنة والطقوس والأباطيل والاوهام ، ويتجاوب مع متطلبات النفس المادية والروحية فلا يهبط بالنفس الانسانية إلى رذائل الملذات ولا يرقى بها إلى مرتبة الملائكة **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾**[24] **﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾**[25] .

ثالثاً : إن القرآن بما يطرحه من قضايا عامة صالح للتطبيق الدائم في كل زمان ومكان ، وذلك لثبات مبادئه وأحكامه وعدم قابليتها للتغيير والتبديل ، ولما في أحكامه وتشريعاته من مرونة يتمكن الإنسان من العمل بها وتطبيقها على اختلاف الظروف والأحوال والأمكنة ، فإقامة العدل وتطبيق نظام الشورى في الحكم ورفع الحرج ودفع الضرر ورعاية الحقوق لأصحابها وأداء الأمانات لأهلها وغير ذلك من المبادىء الأخرى التي طرحها القرآن كلها مبادىء عامة يسيرة التطبيق في أي مكان وتحت أي ظرف .

رابعاً : إن القرآن تشريع يحترم العقل ويقدره ويجعل له دوراً بارزاً في التكاليف والأحكام المنوط به تنفيذها ، بل ويجعل العقل من النعم التي يجب على الإنسان إعمالها بالنظر والتفكر في هذا العالم وفي هذا الإنسان ، وينهى عن الغفلة عن آيات الكون وعن التقليد والجمود وهذه سمة ملاحظة في آيات كثيرة ختمت بقوله تعالى : **﴿ يعقلون ﴾ ﴿ يتفكرون ﴾ ﴿ يتذكرون ﴾ ﴿ لأولي الألباب ﴾ ﴿ لأولي النهى ﴾ ﴿ لأولي الأبصار ﴾** ، والقرآن ينهي الإنسان عن اتباع ما لا يعلم لأنه مسؤول عن حواسه التي أنعم الله بها عليه **﴿ ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾**[26] وهكذا نجد القرآن يهدف إلى طرح قضايا عقلانية تنطلق من الاقتناع الكامل لكل ما يكلف به الإنسان دون أن يكون هناك أمر تعسفي أو تكليف إجباري .

خامساً : ويرتبط بما تقدم أمر آخر مهم وخطير وهو أن القرآن باحترامه للعقل وجعله مناط التكليف يؤكد مبدأ الرقابة الذاتية في الفرد ، فهو وفق توجيهات القرآن لا يحتاج إلى شرطة تقف بجانبه دائمًا وتقيد سلوكه وتوجه تصرفاته بل يجعل الإنسان هو الرقيب على نفسه **﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾**[1] **﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾**[2] **﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾**[3] ، ويقرر القرآن عقوبات دنيوية وأخروية لكل من يخرج عن الإطار الذي رسمه للحياة وإذا أفلت الإنسان من العقاب الدنيوي فهو ملاحق دائمًا بتأنيب الضمير وبما سيناله من عقاب أخروي ، وهذا بخلاف القوانين الوضعية التي يستطيع الإنسان الإفلات من عقابها أحياناً .

هذه هي بعض الصفات التي يتميز بها القرآن والتي تجعله شريعة إلٰهية ثابتة موثقة إنسانية عقلانية ،

وبهذه الصفات الفريدة التي لا تتوفر في تشريع إلهي سابق ولا في تشريع وضعي وجب علينا أن نجعل القرآن شريعة للمجتمع حتى نصل به إلى السعادتين الدنيوية والأخروية ، تلك السعادة التي أرادها الله للبشرية جمعاء . فالسعادة الحقيقية هي في اتباع القرآن والمحافظة عليه تلاوة وتطبيقاً فما خاب من اتبع القرآن ومن أتى بالقرآن ﴿ الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾[27]

الهوامش

(1) سورة النساء 165 .
(2) سورة المائدة 48 .
(3) التشريع الجنائي الإسلامي/ عبد القادر عودة/ جـ 1 ـ مؤسسة الرسالة/ 1981/ بيروت ص 14 -15 .
(4) تاريخ التشريع الإسلامي / د . عبد العظيم شرف الدين/ منشورات جامعة بنغازي ط 2 ـ 1974 ـ ص 34 وما بعدها .
(5) الدين / د . محمد دراز/ دار القلم/ ط 2/ الكويت / 1970/ ص 180 .
(6) الآية 72 من سورة يونس .
(7) الآية 132 من سورة البقرة .
(8) الآية 133 من سورة البقرة .
(9) الآية 84 من سورة يونس .
(10) الآية 22 من سورة آل عمران .
(11) الدين/ د . محمد دراز .
(12) الآية 13 من سورة الشورى .
(13) الآية 36 من سورة البقرة .
(14) الآية 40 من سورة الأحزاب .
(15) الآية 3 من سورة المائدة .
(16) الآية 103 من سورة الأعراف .
(17) الآية 28 من سورة سبأ .
(18) الآية 14,13 من سورة هود .
(19) الآية 88 من سورة الإسراء .
(20) رواه مسلم/ صحيح مسلم جـ 18/ 129 ـ بشرح الإمام النووي وينظر مع الإتقان جـ 164/1 .
(21) محاضرات في النصرانية/ محمد ابو زهرة/ دار الفكر العربي/ ط 3 / 1966م/ ص 106 .
(22) الإسلام ضرورة عالمية/ زاهر عزب الزغبي/ الهيئة المصرية للتأليف/ 1971/ ص 67 .
(23) الآية 285 من سورة البقرة .
(24) الآية 87 من سورة المائدة .
(25) الآية 172 من سورة البقرة .
(26) الآية 36 من سورة الإسراء .
(27) الآية 1/ البقرة .

من قاعة المحاضـــرات

مرتكزات الحضارة الإسلامية

د. صلاح الدين حسن السوري

حرصاً من أسرة المجلة على عموم الفائدة ، وإطلاع القارىء على ما يدور في الكلية من نشاط ثقافي ، فقد رأت أن تخصص باباً ثابتاً تقدم فيه إحدى المحاضرات التي يلقيها الاساتذة الزائرون للكلية أو التي تلقى داخل المؤتمرات أو الملتقيات التي تنظمها .

وفي هذا العدد نقدم محاضرة بعنوان « مرتكزات الحضارة الاسلامية » للدكتور صلاح الدين حسن ألقيت في الملتقى الأول لخريجي كلية الدعوة الاسلامية الذي انعقد في الفترة من 7/10 إلى 7/21 1984

الاخوة اعضاء الملتقى

أحييكم اطيب تحية ، وارحب بكم أجمل ترحيب ، واتمنى لملتقاكم هذا، النجاح والتوفيق راجياً من الله سبحانه وتعالى ان يسدد خطاكم ، ويتولى رعايتكم ، ويوجه مسيرتكم لما فيه خير الأمة الاسلامية ونصرها وفلاحها .

لقد تفضلت لجنة الملتقى فطلبت مني الحديث اليكم ، ووفرت عني متاعب البحث عن موضوع مناسب ، فاختارت لي موضوع « مرتكزات الحضارة الاسلامية » فلها مني جزيل الشكر وفائق التقدير ؛ ولا اعتقد بأني اضيف جديداً الى معلوماتكم في هذه المحاضرة ، كما لا اعتقد في المقابل بأنني سأضيع وقتي ووقتكم ، لاننا سنثير معاً قضايا أساسية في صميم معتقداتنا وفكرنا وحضارتنا ، سنستعيدها معاً ، ونستذكرها ، ونعتبر ، بها ، ونقف لنرى اين نحن اليوم منها. التزامًا بمبدأ قرآني تجمله الآية الكريمة (**فذكر إنما أنت مذكر**) والآية الكريمة (**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**).

أريد ان اتحدث عن هذه المرتكزات كما تبدو في بساطتها ووضوحها من خلال النصوص القرآنية ، مبتعداً بكم عن التأويلات الفلسفية ، والاجتهادات التفسيرية ، والتخريجات اللغوية ، والقياسات المنطقية ، التي تعج بها مختلف المؤلفات في الماضي والحاضر . اريد ان اتحدث عنها بصورة مباشرة وبدون اية مقدمات .

1 ـ إن الانسان جاء في مكان الصدارة بين تلك المرتكزات واهتمام الاسلام

به يبدو واضحاً جلياً من خلال النصوص القرآنية التي تتبعت مسيرته التاريخية منذ خلقته الأولى ، واشارت الى نماذج متنوعة لمعاناته عبر حقب طويلة ، حتى وصلت به الى الصورة الثابتة المتكاملة التي استقر عليها ، ولم تتوقف العناية به عندها ، بل شملته الرعاية منذ لحظة تكونه في رحم امه ، واكتنفه العطف والاهتمام والتوجيه على مدى حياته ، منذ ولادته وحتى مماته . كان التركيز دوماً على الدور المزدوج له كفرد ، وكعضو في جماعة ؛ وذلك من خلال علاقاته المتداخلة بالله وبالكون ، تلك العلاقة الروحية المادية التي تناظر الصلة الجسمية الروحية ، والتي تتجاوب وتنسجم مع افعال الانسان المسلم السوي في عباداته ومعاملاته ، بصورة متوازنة ، تتحقق معها له الطمأنينة والرضا ، وتتولد فيه القدرة على العمل الصالح .

فالانسان ـ اذن ـ اساس الحضارة الاسلامية ، واحترام الانسان وتفضيله ، وتكريمه ، واعلاء منزلته ، والرفع من شأنه ، من القضايا الاساسية التي وردت فيها النصوص الصريحة دونما أي لبس او غموض. ولا أدل على تكريم الانسان وتقديره والرفع من منزلته، من سجود الملائكة له، واستخلافه في الأرض ؛ وتحميله الامانة ، رغم محدودية قدراته ، وضعفه ، وتردده . فالاستخلاف في الأرض ، ونحن ننظر اليه من خلال الآيات التي نصت عليه انما هو مسؤولية كبرى استبعدت الملائكة امكانية الانسان القيام بها . وموقف الملائكة هذا ، صورة رمزية ، فيها التشكيك في قدرة الانسان على تحمل تلك المسؤولية ، وما يترتب عنها من فساد ، وخراب ، وسفك دماء . مثل تلك الصورة البشعة تصور في ذات الوقت خطورة المسؤولية التي انيطت بالانسان ، وعظم التحدي الذي وضع في مواجهته ، وتحميله هذه المسؤولية يتضمن تكريماً له . ذلك التكريم يتمثل عملياً في سجود الملائكة له فهي صورة قرآنية أخرى ترمز الى اهمية الانسان وما حظي به من احترام ، وما حق له من تقدير ؛ وفي ابليس الذي امتنع عن السجود في اباء وتكبر وحسد ، تتمثل التحديات التي يواجهها ذلك الانسان ، فهي قوى الشر التي تعترض سبيله ، والتي تبلغ ذروتها في الغواية وفي الخطيئة الكبرى . اما حمل الامانة التي أبت السموات والأرض حملها ، وحملها الانسان دون ان يدرك ابعاد خطورتها ، فهي صورة رمزية ثالثة تعبر بوضوح عن خطورة المسؤولية التي شاء له قدره ان يتحملها . ومجمل القول ، في ذلك كله ، ان دور الانسان الحضاري المتمثل في الاستخلاف في الأرض ، هو قضيته الكبرى ، وهو رسالته الخالدة ، بل هو في ذاته الامانة التي قبل تحملها .

2 ـ والايمان أحد المرتكزات الهامة التي بني عليها صرح الحضارة الاسلامية . الايمان بالله وبرسول الله وبكتاب الله ، والايمان وهو التصديق المطلق الذي لا يتطرق اليه الشك لا يمكن ان يصل الى تلك المرحلة ، مرحلة اليقين ، الا اذا تم عن طريق العقل ، واعمال الفكر ، حتى الوصول الى الاقتناع

التام ، وبالايمان تنتظم للانسان مجموعة من المثل والمبادىء والقيم التي تحكم تصرفاته ، وتوجه أفعاله ، وتحدد مساره ، وفوق ذلك كله ، هو أساس الوحدة في الحضارة الاسلامية ، وحدة العقيدة ، ووحدة التوجه ، ووحدة العبادة ، ووحدة المعاملة .

فالعبادة صلة روحية بين الانسان وربه ، ولكنها في ذات الوقت صلة اجتماعية تربط المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وذلك باتفاقهم في أدائها بنفس الطريقة ، ونفس الكيفية ، وفي نفس الزمان ، والمعاملة علاقة اجتماعية تحدد صلة المسلم بالمسلم بل وصلته بالانسان اينما كان ـ وهي في ذات الوقت علاقة روحية ، محكمة بعلاقات محددة ، منصوص عليها ، وبفضائل محببة ، مرغب فيها ، والايمان يشمل ظواهر الامور وبواطنها ، والقضايا الغيبية ، والمسائل المكشوفة ، ما يقع في حدود الحس ، وما تنطوي عليه النفس .

3 ـ واعمال العقل قوام الحضارة الاسلامية وأحد مرتكزاتها الهامة ـ ولا تناقض بين استخدام العقل والايمان المطلق في الاسلام ، بل على العكس من ذلك تماماً ، فان الايمان الذي لا يتطرق اليه الشك قضية عقلية يصل اليها الانسان بتفكيره ، وبتدبره فيما وضع امامه من حجج وبراهين . والاسلام يذكر الانسان بنعمة العقل التي كرمه الله بها على سائر مخلوقاته ، ويأمره باستعمالها ، والنظر الى الامور من خلالها ، فيفكر ، ويتدبر ، ليصل الى الحقيقة ، وما اكثر النصوص القرآنية التي خاطبت ﴿ أولي الالباب ﴾ وما اكثر الامثلة التي ضربت ﴿ لقوم يعقلون ﴾ .

4 ـ منذ البدايات الأولى للانسان وحتى الحضارة العصرية التي نعيشها كان العلم بمستنداته ووسائله وأدواته اساس كل نهضة ، ومصدر كل تقدم ، ومبعث كل نقلة حضارية ، والحضارة الاسلامية اعتمدت العلم اساساً لها لا نزاع عليه ، ولا ظنة فيه ، ولا اختلاف حوله ؛ كما يبدو ذلك واضحاً بيِّناً في القرآن الكريم ، فليس محض صدفة ان امرت اول سورة انزلت فيه بالقراءة ، وان استهلت اخرى بالقسم بالقلم وما يسطر به ، وان تتعدد الأيات التي تشيد بالعلماء الذين يخشون الله من بين عباده ، والذين يعقلون الامثلة التي يضربها لهم من دونهم ، والتي تستنكر بداهة تسويتهم بمن ليس لهم معرفة . فالعلم مطلب المسلم ، الذي لا ينفك عن الاستزادة منه ، فهو ضالته المنشودة التي لا يتوقف عن السعي وراءها ، والبحث عنها ، لانه يشعر دائمًا بأن ما تعلمه انما هو قليل القليل ؛ فيطلب من ربه ان يزيد في علمه .

5 ـ ولكن العلم والتدبر والفكر والخلق والابداع ، واعمال العقل ، لا يمكن ان يتم بشكله المتكامل ، ويؤتي ثماره ناضجة مفيدة ، الا اذا توفرت له الحرية الكاملة ، فعلى أرض الحرية ينمو ، وفيها يتغذى ، ومنها يتنفس ، وبين احضانها ينمو ويترعرع ، وفي كنفها يقوى ويشتد ، وفي حمايتها يثمر ويفيد ، ولا ادل على تأكيد مبدأ الحرية في الحضارة الاسلامية ، من النص عليه فيما يتعلق بركن اساسي في الديانة الاسلامية، الا وهو ركن العقيدة . فالنصوص على حرية الانسان المطلقة في اعتناقها او تركها بينة جلية ، والدعوة الى المناقشة ، والتدبر والتأمل ، في حرية كاملة ، فيما يتعلق

بها ، من حيث قبول محتواها او رفضه ، مسألة لا يتطرق الشك اليها .

والاسلام الذي حث الانسان على استخدام العقل ، وحضه على طلب العلم ، وكفل له الحرية لم يبتعد به عن واقعه كبشر ، بامكانيات مقدرة المدى ، ووظائف محددة القدرات ، وقدرات محدودة الفعاليات ، فهو كائن حي ، وهو بشر يحتويه جسد ، ويوجهه عقل ، يعيش في هذا الكون بقوانينه الثابتة والمتغيرة، وبنظامه المحكم المقنن ، وبمعطياته الممتنعة والمسخرة . وهو فرد في مجتمع له عاداته وتقاليده ، وله ضغوطه وتوجهاته ، وله نظمه واحكامه . خاطب الاسلام الانسانَ في حدود هذه الدوائر الثلاث ـ الذاتية والبيئية والاجتماعية ـ وكرمه اكبر تكريم بأن خاطبه من خلال عقله ، وليس

من خلال حواسه ، فلم يضع امامه المعجزات والخوارق، ولم يحلق به في أجواء الخيال. كل ذلك من أجل أن يعيش واقعه ويؤدي رسالته التي خلق لها. فالتأكيد على بشرية الانسان لم تأت عفو الخاطر، بل جاءت مبشرة بالدور الحضاري الذي قدر للإنسان المسلم أن يقوم به.

6 ـ والاخلاق قيمة انسانية تمثل إحدى المرتكزات الاساسية في بناء الحضارات ، وتفيد معظم الدراسات التي تناولت اسباب انهيار الامبرطوريات واندثارها من اقدم العصور الى احدثها ، بأن العامل الاساسي في انهيارها ، انما يرجع الى تدن في الخلق ، وتزعزع في المثل . وارتجاج في المبادىء . والاسلام في نظرته الواقعية للانسان اولى الجانب الاخلاقي عناية خاصة؛لأنه اساس كل حضارة،وعماد كل نهضة ، وسر كل تقدم . فلا عمل ولا انتاج ولا نظام ولا دقة ولا امن بدون اخلاق ، ولو سنَّت في سبيل ذلك اضبط القوانين وأشملها ، وجند لتنفيذها اكفأ الخبرات واقدرها ، ووضعت تحت تصرفها احدث الألات وادقها . فالتركيز على الاخلاق في التعاليم الاسلامية ، والنظرة اليها نظرة واقعية في حدود القدرات والامكانيات والتصرفات البشرية الطبيعية ، مسألة في غاية الاهمية ؛ حيث كانت لها فاعلية قوية في سهولة تقبل الناس للاسلام ، وسرعة انتشاره ، في مشارق الأرض ومغاربها . كما ان لها الأثر القوي في بناء صرح الحضارة الاسلامية وتقدمها وتفوقها .

فالمسائل الاخلاقية من القضايا الكبرى التي لم تترك وشأنها لتعالج منفصلة من طرف الفرد او الجماعة، لتسن لها القوانين والانظمة حسب الظروف والاحوال ، منفصلة عن الارتباطات الروحية العاطفية ، والتي تفوق في تأثيرها شدة السلطان ، وقوة القانون ، ومن ثم نرى النصوص القرآنية تؤكد على اهمية هذه القضايا في جملتها وفي تفاصيلها . ونرى التأكيد على اهميتها في شخص الرسول الذي يمثل الاسوة الحسنة للمسلم اينما كان وحيثما حل ، فأصبح بذلك الخلق العظيم شرطاً اساسياً لا غنى عنه .

اما التفاصيل فنجدها صريحة في مختلف النصوص القرآنية والتي تناولت الحق ، والصدق ، والصبر ، وما الى ذلك من كريم الصفات . كما نجدها في آيات اخرى نهت عن الصفات المشينة التي تعيب الانسان وتنقص من قدره ، وتشوه سيرته كالكذب ، والنفاق ، وقول الزور ، والحسد والكبر ،

والاختيال ، والسخرية ، والتنابز والغيبة . . . إلخ . .

7 ـ ويقظة الضمير من اهم المرتكزات التي تقوم عليها الحضارة الاسلامية، وقد اولى الاسلام النفس الانسانية والضمير الانساني اهتماماً خاصاً ، مقرأ الصراع الداخلي الذي يواجهه الانسان مع نفسه والتي تتعارض فيه مصلحته الشخصية مع مصلحة اخرى خارجية كانت ام عامة ، او التي تتعدى فيه نزعته البشرية الى ما منع عنه من تجاوزات تعود بالضرر عليه كفرد وكعضو في جماعة ، فنجد وصفاً لهذا التوجس وهذا الضغط النفسي الداخلي ، في صور مختلفة من القصص الديني ، وفي مختلف الآيات الأخرى ، فهناك ذكر للنفس الامارة بالسوء ، والنفس التي تتبع هواها ، الخ . وبذلك نجده ايضاً يشيد بمحاسبة النفس ومراجعتها ، واعادة النظر في الموقف الخطأ من اجل العودة الى الصواب . وما ذلك الا اهتمام بتربية الضمير ليكون ميزاناً حساساً يميل حيث الحق فان مال الى جانب الخطأ عن قصد او عن غير قصد روجع واعيد ، فالنفس اللوامة انما هي الضمير الذي يؤنب صاحبه ، ويؤرقه ، ويعذبه حتى يرجعه الى الصواب .

والقلب جوهر الانسان ، ومصدر اتخاذ القرار الذي يترجم عن طريق الحواس الى ممارسات على صعيد الواقع العملي ، فكان بذلك مثار اهتمام الاسلام وموضع عنايته ، فالايمان اساس الاسلام مصدره القلب ، والنية ، وهي شرط اساسي لكل العبادات، مصدرها القلب ، فالقلب اداة الفهم والتعقل ، وهناك القلب الرحيم ، والقلب السليم ، بقدر ما هنالك القلب الغليظ ، والقلب المغلف ، والقلب المريض ، وكلها رموز لنزعات الخير ، ونزعات الشر في الانسان ، ومختلف الحالات النفسية التي تعتريه .

والاسلام في اهتمامه بالنفس الانسانية ، وبالقلب ، او الضمير الانساني ، وحثه على السعي وراء الكمال ، أشعر الانسان بأنه مراقب في عملية ضبط محكمة ، ليس بالامكان الافلات منها ، حفظاً للتوازن ، ذلك ان الله يعلم ما يدور في قلب هذا الانسان ، وما يقرر ان يخفيه وما يقرر ان يظهره ، والهدف في النهاية سعادة الانسان ، وهدوؤه ، وسكينته،وطمأنينته،وراحته،النفسية .

8 ـ والعمل الصالح رسالة الانسان الحضارية كما يراها الاسلام التي يتمثل فيها دوره المقدر له القيام به على هذه الأرض ، والتي يقيم في النهاية من خلالها ؛ ولذلك نرى هذا المفهوم الكبير يرد في أغلب

الاحوال مقترنًا وتاليًا لمفهوم اكبر منه وهو الايمان. ان الايمان يمثل العقيدة القلبية أما العمل الصالح فيمثل الجانب العملي منها. فهما مفهومان متكاملان، يكونان مجتمعين اساس المسلم الحق، الذي هو بدوره مادة الحضارة الاسلامية، والآيات التي أوردت هذين المفهومين الكبيرين مقترنين، كثيرة ومتعددة.

9 ـ الدور المزدوج للانسان كفرد وكعضو في جماعة من المرتكزات الهامة التي قامت عليها الحضارة

الاسلامية ، فالاسلام وهو يقر مسؤولية الانسان الفردية ويؤكد عليها في جملة من الآيات الكريمة انما يقر تلقائياً وضمنياً المسؤولية الجماعية ، لان صلاح الفرد يؤدي بالضرورة الى صلاح الجماعة . فالمسؤولية الاجتماعية ، جزء لا يتجزأ من المسؤولية الفردية ، لأن الانسان يقيم سلوكه ، وتقدر تصرفاته ، من خلال علاقاته الاجتماعية ، ومن ثم فان المثل والمبادىء والاخلاقيات التي يفترض وجودها في كل فرد تصبح بالضرورة افتراضات عامة في المجتمع ككل . ومن هنا تسود المجتمع مجموعة القيم التي تتكون بوجه عام لدى كل فرد من افراده ، وبذلك نرى مسعى المجتمعات لارساء المؤسسات ، ووضع التشريعات ، وسن القوانين التي من شأنها ان تحفظ لتلك القيم توازنها .

فالاسلام اهتم بالفرد كما رأينا في جميع نواحي حياته واهتمامه بالفرد يشكل تلقائياً اهتماماً عاماً بالمجتمع ولكنه لم يهمل في حركة الضبط الاهتمام الخاص ببعض الامور الاجتماعية الذي يشكل تركها على علاتها خطراً على الجماعة . بعض تلك الأمور كان وقتياً طارئاً وبعضها ظل مستمراً متجدداً وآخر تعرض من آن لآخر للتعديل والتغيير حسب حركة المجتمع .

ويأتي العدل في مقدمة الأسس التي تشكل البناء الاجتماعي ؛ فالعدل مؤسسة اجتماعية اساسية ، يشكل ضعفها ، او غيابها،تخلخلاً اجتماعياً ، يؤدي بالضرورة الى التصدع والانهيار . وبذلك نرى الاسلام يعنى عناية خاصة بهذه المؤسسة ، فلم يتركها للمحاولات والاجتهادات الشخصية ، فجاء الأمر بالعدل صريحاً ومؤكداً ، وبذلك لم يدع مجالاً للتخريج والتأويل .

وللمساواةهمية تضاهي العدالة في الحفاظ على البناء الاجتماعي ، وبذلك أعيرت عناية خاصة في الاسلام . وبالنظر الى ان التعاليم الاسلامية تخص المسلمين في الدرجة الأولى ، والمجتمع المراد المحافظة على وحدته وتماسكه هو المجتمع الاسلامي ، فان التركيز كان موجهاً الى المساواة بين المؤمنين . على أن المساواة بين المسلمين ، لا تعني بالضرورة اضطهاد اتباع الديانات الأخرى ، بل على العكس من ذلك ، فان امكانية التعايش قائمة ، من واقع النصوص القرآنية .

واذا كان الاسلام قد أقر الرق في المجتمع العربي الموجود عندئذ ، فان في نظرته الانسانية اليه ، من

واقع الآيات التي وردت فيه ، تشجيعًا على الغائه بطرق متعددة. فالمساواة ، وتفضيل العبيد والايامي على المشركين، وتحرير رقبة في القتل غير العمد الخ تقوم كلها ادلة على ذلك الاتجاه.

اما اتجاه الاسلام فيما يتعلق بالمرأة فهو اتجاه انساني فيه التقدير والاحترام وفيه الحماية والضمان وفيه ما يشير الى تعاطف مع قضيتها وكفاحها من اجل تحقيق مطالبها في المساواة ؛ لقد ادان الممارسات الخاطئة التي كانت تمس حقها في الحياة وضمن لها نصيبها في الميراث في صفة بنت وزوجة وام ، ونص على حسن معاشرتها كزوجة لها حقها عند الطلاق ، وحق النفقة عند الحمل ، وما الى ذلك من الضوابط التي تحفظ لها كرامتها وعزة نفسها .

وفي مجال التضامن والتكافل الاجتماعي كانت التعاليم الاسلامية صريحة في الحفاظ على العائلة كوحدة اجتماعية ، وضمان راحتها ، وصون كرامتها ، كما جعلت مسؤولية الانسان المباشرة على نفسه ، ثم على عائلته ثم على اقربائه . وكان للضعفاء من اليتامى والفقراء والمساكين وابناء السبيل نصيب كبير من العناية والاهتمام.وفرضت الصدقات في شكل زكاة على المسلمين لمواجهة جانب من المتطلبات المادية ، كما جعل الله في اموال الموسرين حقاً للمحتاجين لان المجتمع كل متكامل لا يستقيم أمره الا اذا توفرت لجميع أفراده الراحة والطمأنينة والاستقرار .

10 ـ سأنهي هذه المحاضرة بالحديث عن دعامة هامة من دعائم الحضارة الاسلامية وركزية رئيسية من المرتكزات التي تقوم عليها ، وتتمثل في التسامح ، وقد ارجأت الحديث عنها حتى نهاية المحاضرة قصداً ، لاهميتها ، وخطورة شأنها ، وعمق تأثيرها ، وتعددفعالياتها. انها في نظري سر تقدم المسلمين في تلك العصور الزاهرة .

فالحضارة الاسلامية أسست على التسامح ، والبعد عن التعصب والتزمت ،والضيق الفكري . فالتسامح يتمثل في وضوح وجلاء في اعتماد مبدأ الشورى، للوصول الى القرار الجماعي ؛ وفي ذلك رفض للتعنت والانانية ، والانفراد بالقرار ، كما يتمثل في التأكيد على رحابة الصدر ، والحوار المنطقي ، والمجادلة بالحسنى. فالتزمت والمغالاة والتعصب من الصفات المرفوضة في الاسلام ، والمنهي عنها صراحة بالنص . فالدين يسر ، لا غلو فيه ولا شطط ، والتبشير باليسر بعد العسر ، وبالرخاء بعد الشدة ، ورد في آيات متعددة من الكتاب .

ويتمثل التسامح بوضوح في علاقة الاسلام بالاديان الأخرى ، والتي وقف منها موقف المسالمة والتعايش والمعاملة بالمثل . لقد اعترف بالديانات السابقة التي أتى بها الرسل من قبله ، وبالكتب السماوية التي جاءوا بها ، وبذلك لم يجد فيها دعا اليه اولئك الرسل وما دعا اليه هو تناقضاً ، بل رأى في رسالته استكمالاً لرسالاتهم ، ومن ثم نراه يقر مكانة تلك الديانات ، ويحمل اتباعها مسؤولية اتباع ما أنزل اليهم .

ولا يخل بتلك النظرة موقف الاسلام وهو دين التوحيد الذي يخاطب الانسانية من خلال المجتمع العربي في ذلك الوقت ، من معتقدات الشرك والتعدد التي تسود ذلك المجتمع . فنجاح الدعوة الاسلامية وانتشارها رهين بانتهاء الشرك ، وما يتعلق به من آراء وافكار وممارسات ، واختفائه الى الابد . فالاسلام نقيض الشرك ، والتوحيد نقيض التعدد ؛ ولا مجال اطلاقاً لتعايشهما .

فبالتسامح والمرونة والبعد عن التعصب ، استطاع المسلمون لن يفكروا ويبدعوا ، ويرسوا دعائم المؤسسات الحضارية ، ويواجهوا المشاكل العويصة والقضايا المصيرية ، بنظرة عصرية مرنة متجددة . وبالتسامح استطاعوا ان يتقبلوا الآراء والأفكار والعلوم والفلسفات ، التي من شأنها ان تثري أفكارهم ، وتزيد في خبراتهم ، وتسهم في تقدمهم . وبالتسامح ايضاً استطاعوا ان يتعاملوا مع أمم متعددة ، وثقافات

مختلفة وحضارات متنوعة ، اخذوا منها وأعطوا لها ، فكانت الحصيلة ذلك التراث العظيم الذي تزخر به الحضارة الاسلامية ، وتلك المساهمات البارزة والمؤثرة التي نشاهد ملامحها واضحة جلية في الحضارات الأخرى .

الاخوة اعضاء الملتقى ، تلك هي مرتكزات الحضارة الاسلامية مستمدة من النصوص القرآنية ـ ايمان والتزام ، عقل وفكر ، روح ومادة ، حرية وانطلاق ، مرونة وتسامح ، علم وعمل، اخلاق ومبادىء ، فرد ومجتمع ـ عليها قامت الحضارة ، ومنها انطلقت ، وبها اينعت واثمرت . فأين نحن اليوم منها ؟ وهل لنا ان نستوعب مبادئها ؟ فنواصل مسيرتها ؟ ونحقق رسالتها ؟ .

اشكركم على حسن استماعكم ، واكرر تمنياتي لملتقاكم هذا بالنجاح والتوفيق ، وأدعو الله ان يوفقكم في أداء رسالتكم الكبرى التي نعلق عليها عظيم الآمال .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد ﷺ في مرآة الغرب

مصطفى نصر المسلاّتي

عندما بدأ « لامرتين » رحلته نحو الشرق ، كان قد تسلح بمشاعر عنيفة أطلقها في وجه الغرب حيث أثمرت قصيدة [وداع] التي رمز فيها الى كل الأشياء التي أراد أن يقوم بها وأن [رحلة إلى الشرق هي مثل فعل جليل من أفعال حياتي الداخلية][1] .

هذا الإعلان المكشوف الذي أطلقه لامرتين نجد له جذوراً عميقة يمكننا أن نعتبرها حماسة مسيحية منقطعة النظير ، تنم عن ازدياد « الرومانسية » وتناميها ، هذه المشاعر الرومانسية التي اندفعت نحو الشرق في مغامرات معروفة من أجل اكتشاف المجهول ، ومعرفة ذاك « الآخر » بوصفه قوة تحيط بها الأسرار من كل جانب . ولطالما اعتبرت « الرومانسية » الغربية التي سلكت طريق الحاجّ لاكتشاف ذاك [العدو] الآخر الساحر والأخاذ أن [ما مدّ] الذي ظهر أيام الأمبراطور [هرقل] وادعى أنه نبي Pseudo - Prophet عدو يجب محاربته .

وإذا كان لامرتين الذي غامر مندفعاً نحو الشرق مؤكداً أن [هذه الأرض العربية هي أرض المعجزات ، كل شيء يزدهر هنا ، وكل رجل ساذج أو متعصب يمكن أن يصبح بدوره نبياً] كان يهدف من وراء ذلك [نقل حقيقة الأرض المقدسة] تحت تأثير أن رومانسيته سوف تحقق له النبوة بمجرد وصوله إلى كنيسة القيامة ، فإن الحقائق المجردة أنه ليس [لامرتين] وحده كانت تراوده الأحلام المزهرة ، لا ليكون نبياً بمجرد أن يطأ الشرق بقدميه ولكي يزور كنيسة القيامة ، وإنما كان حلمًا نابوليونياً ، شب وترعرع في خيال وضمير الرأي العام الأوربي قبل الحروب الصليبية بزمن طويل .

إن [محمدًا] ﷺ كان لغزاً محيراً للغرب على الإطلاق ، وقد كانت صورة الشرق [الساحر] تختلط بصورة محمد . وتمثل لهم الإسلام الذي بشر به محمد [اسطورة] قاهرة تحتاج لكشف أسرارها ، لأن شخصية هذا اليتيم الفقير الذي انطلق كشمس متوهجة يطارد عروش أباطرة الرومان والفرس ، ويتدفّق أتباعه ككثبان الرمال المحرقة شرقاً وغرباً ، لا بد أن يكون [سرٌّ] ما وراء فتوحاتهم وزحفهم المقدس .

الشرق إذاً كما يقول [نرفال][2] هو :

موطن الأحلام والإيهام . إلا أن هذه الصورة الأخاذة أو الصور التي ارتسمت في أذهان الغرب فيما بعد ، بل ومنذ زمن أغنية رولان La CHANSON de ROLAND ـ كان قد ساهم في تكوينها مؤرخو وكتاب أوربا . ففي تاريخ العالم تحدث رانكه 1881 ـ عن الاسلام واصفاً هزيمته أمام الشعوب الجرمانية ـ الرومانية .

وفي شذرات تاريخية تحدث [بير كهارت] عن الإسلام [كشيء] بائس ، عارٍ وتافهٍ ، وقد قام بمثل هذه العمليات الفكرية بمهارة وحماسة أبلغ بكثير من إسفالد اشبنغلر .

لقد تبدّت للغرب صورة [محمد] نبي الإسلام كخطر دائم يجب فهمه والاحتراز منه ، لأنه لغز من ألغاز الشرق المثير المملوء بالسحرة والشياطين والمجوس وعبدة النيران وربما آكلي لحوم البشر .!! وتضخمت هذه الصورة على مر الزمن بحيث أصبح [العرب] أو الشرق بصفة عامة هو ـ [الآخر] المثير الذي يجب أن يحسب حسابه ، وأن يلتزم المسيحيون الغربيون باليقظة فقد [أوشكت الأمبراطورية أن تمحي من الوجود تماماً على يد العرب ثلاث مرات على الأقل في سنة 668 والى حوالي 683 ـ م وفي 717/716 وكان الخطر الإسلامي ماثلاً على الدوام في مخيلة كل بيزنطي ، وكان مجرد وجود الدولة الاسلامية فضلاً عن الشعوب الأخرى الصعبة المراس المقيمة على الحدود الشمالية والغربية يضطر بيزنطة إلى التزام خطة التيقظ الدائم الأليم] .

إلا أن كراهية الغرب للنبيّ محمد ﷺ تزايدت على مرّ العصور ، والسبب في ذلك هو تلك العوامل النفسية والحقد الأعمى والتعصب المسيحيّ الذي نجد له أوضح الصور في كل ما كتبه بعض علماء الغرب وقساوسته .

[وكان كل مزيد من العلم بالنبي محمد يأتي به الزمان يفسده ويقف في سبيله تلك الكراهية المتزايدة التي كانت الحروب المستديمة تزيدها خرابًا ، هذا بارثو لوميو الأوديسي OF Edessas يؤنب خصمه المسلم في القرن الثالث عشر قائلاً بعد حشر فقرات بذيئة : ـ قل لي بربك ماذا تعني بالنبوّة والرسالة والله يعلم أنكم ما كنتم تستطيعون أن تعرفوا لو لم يعلمكم المسيحي ألا أيها المخلوق الصّفيق الذي لا تعلوه حمرة خجل ، إنك تقول لي إن نبيكم ظلّ اثنين وثلاثين عاماً لا يتكلم كلام الأنبياء ، ولا هو كان أثناءها رسولاً ولا معلمًا ولا عرف شيئاً عن الله وأنه عرف بعد تلك الفترة] .

وأن تخرصات عجيبة يوردها يوليوجيوس القرطبي وهو من أوسع العلماء والقساوسة علمًا وأشدهم كراهية للنبي محمد وقد أورد هذا القسيس أكاذيب وأفكار عجيبة عن [السر في كراهية الاسلام للكلاب] إلا أن ما يلفت النظر أن هذا القسيس يعترف بكل صراحة أنه لم يبذل جهداً علمياً للتأكد من معلوماته !!

كما لا يقل عن ذلك تهافتاً وافحاشاً ما كتبه بطرس بلومان ، وخرافات وليام دنبا المتوفى 1520 م

حول ما كتبه عن محمد أو ما أسماه [ماهون] . ولم يكتف علماء الغرب من إنكار لنبوة محمد ورفضها جملة وتفصيلاً ، بل إنهم اعتبروا أنه من المستحيل الذي لا يقبل الجدل أن يظهر نبيّ من العرب . ثم إن خيالهم تمادى في تخرصات لا يمكن أن ترقى إلى مستوى العلم وامتلأت كتبهم بشتى الصور البشعة [لمحمد] قائد الإبل Cammel DRIVER ، ومحمد راعي الغنم ومحمد المصاب بالأمراض العصبيّة ، ومحمد الفقير البائس الذي أنقذه مال خديجة كما قال جون بيجوت غلوب باشا :

But the Widous mony rescud him from Poverty .

والذي تزوج الأرملة خديجة طمعاً في مالها ، ثم محمد الذي تستهويه النساء ، ومحمد الذي سرق الانجيل والتوراة ، وأخذ منها ولفق سياقاً لغوياً عربي اللغة أسماه [القرآن] ثم أخيراً [محمد] الرب الذي يتعبّده الناس ويصلّون له ، بل إننا نقرأ أيضاً أن الطفل الأوربي إبان العصر الوسيط عندما تغني له أمه أو مربيته وتريده أن ينام وتهز به [أرجوحته] تقص عليه أساطير عن الشرق وعن [محمد] الذي ادعى النبوة وهو من أرض النار واللصوص .

وفضلاً عما أظهره الغرب من إنكار النبوة بالنسبة [لمحمد] كان أدب الغرب في القرون الوسطى تستهويه فكرة محمد الرب [كذا . . !!] والحق أن هذه الفكرة لم تنبذ ولم تختف تماماً من عقول الغرب قبل منتصف القرن السابع عشر . عندما كان الكتاب المسرحيون لا يزالون يمثلون المسلمين أحياناً في صورة من يصلّون ويتعبّدون [لربّهم محمّد] وهذا ما تشير اليه أغنية رولاند CHANSON de ROLAND المشار اليها .

إلا أننا نرى بعد ذلك أن مجادلات فاشلة قد توالت لتضرم نيران الكراهية والحقد ضد الإسلام ونبيه وقد تجسد فيما بعد بما سمّي [بالهجوم المضاد] وهو الأمر الذي دفع بتوماس الإكويني المتوفي 1272 إلى وضع كتابه :

Somma Contra Gentiles حيث انتبه الإكويني إلى الصعوبات التي تعترضه ، ولا شك أن الحروب الصليبية قد يكون لها الفضل في إنشاء وتكوين صورة أصح وأوضح عن النبي [محمد] ولعل هذا يرجع الى الاحتكاك المباشر بمسلمي الشرق ، والشك في الصور الخادعة التي ارتسمت في ضمير أوربا وهي الصور التي قلت إنها جاءت نتيجة للكراهية الشديدة للإسلام ونبيّه وهي الصور المزيفة التي ساهم القساوسة في تشكيلها ونشرها بين المجتمعات الأوروبية .

ولا يستبعد أبداً أن اليهود وهم أشد عداءً [لمحمد] النبي الرسول هم الذين ساهموا في دسّ معلومات خاطئة مقصودة كصور مشوهة ، شكلت أو كونت ثقافة الغرب الدينية فيما بعد .

لأن اليهود أيضاً أول من خان المواثيق والعهود ونافقوا محمداً ، وعملوا على إفشال دعوته وتآمروا عليه في الخفاء مع سادة قريش لإحباط رسالته التي أفسدت وثنيّتهم ، فقد [زعم كتاب العصور الوسطى أن الخلفاء والمسلمين كانوا يقسمون دائمًا بمحمد والآلهة الآخرين وقصوا أن تانكرد TANCRED بعد فتح

بيت المقدس دخل مسجداً كان قد بني وكان هيكلا قديما فوجد صورة لمحمد مصنوعة من الفضة ثقيلة الوزن بحيث تحتاج لعدة رجال لنقلها من مكان آلى آخر ، وزعم FULCHER OF CHARTERS أنه سمع بوجود وثن على صورة محمد في كل مسجد وأكد جاكوب (يعقوب) JACCOP OF VISTY أن المسلمين حينما فتحوا بيت المقدس وضعوا في المسجد الذي أقاموه مكان الهيكل صورة لمحمد ومنعوا المسيحيين من دخول الهيكل . .][7] ص 51 .

إن الكتابات والنصوص التي تناولت شخصية محمد ﷺ خصوصاً إبان العصر الوسيط ، انطلقت في معظمها من خلفية واضحة وهي العداء المعلن ضد محمد كإنسان ومحمد باعتباره صاحب الدعوة ولقد كرست الأساطير التي حيكت حول شخصيته لتأخذ مسارها في توتر مأساوي صعوداً وهبوطاً لتشكل [عقلية] الأوربي الذي ورث تراكماته الثقافية عبر منحنى الزمن واعتبرها [مسلمات] لا يرقى إليها شك ، ولا ينقص من قيمتها التاريخية أو العقائدية أي جدل ، ورأت الكنيسة أن تعكس صورة حقيقية تعبّر عن وجهة نظرها تجاه هذا [الآخر] في ثقافته وتاريخه وعقيدته إذ تعتبر [الأنا المسيحية] نفسها الوريث الشرعي للثقافة العبرية الموسوية حسبما جاءت في العهد القديم ، بحيث شكل هـذا [الانشاء] أو البناء التأريخي وتأطر وفق أيديولوجية لاهوتية أسطورية محدّدة تجابه إن لم أقل تصادم هذا [الأخر] باعتباره الغول المفترس المتوحش الذي يرتكب الحماقات ويقضي على الحضارات ، ولكي يتم الشكل أو الصورة المطلوبة لتكوين الايديولوجية لا بد من تكريس [فتاوى] الكنيسة لإعطاء حق الشرعية لإعلان الحرب ضد [محمد !!] .

لقد جمع GUILBERT OF NAGENT لأول مرة مجموعة هائلة من الأساطير التي نسجت حول محمد [في العصور الوسطى ولكنه كان أميناً إلى حد معقول فذكر أنه اعتمد في جمع هذه الأساطير على الروايات التي يتناقلها لسان عن لسان آخر ، ولم يكن عند جيلبرت أي فكرة عن العصر الذي عاش فيه الرسول ولكنه كما قال عن نفسه كان مضطراً إلى مهاجمته باعتباره أحد رجال الكنيسة][8] .

ومما يؤكد أن رجال الكنيسة ومفكري الغرب وكتابه كانوا ينتحلون الصور ويلصقونها جزافاً بصورة محمد في أذهان الغرب ، ذلك الدور المشهود الذي قاموا به إبان الحروب الصليبية بدعوى تخليص [طريق الحاج] والأدب الذي صور المعارك الضارية [أو حرب الثغور] ساهم بشكل فعال في نمو الاسطورة وانتشارها وأصبحت بطولة الأسياد المسيحيين الذين يهزمون [المسلم] المتوحّش والكفرة ، صور هذه الأساطير والبطولات المنتحلة كانت تغذي الأدب الشعبي وتساهم في تكوين الرأي العام المعادي للمسلمين ولمحمد بالذات و [الأدب البيزنطي يعكس إلينا صورة جليّة لهذه الحالات ولا ريب أن حرب الثغور التي لم يكن ينطفىء لها مع الروم أوار قد تركت آثارها فيها سطر الغرب ـ تشهد بذلك رواية الملك عمر بن النعمان التي أضيفت فيها بعد إلى كتاب الف ليلة وليلة بيد أن هذه الشواهد ـ تبدو غير ذات بال اذا قورنت بصورة تلك الأحداث عينها كما انعكست في الملحمة EPIC الشعبية عند البيزنطيين][9] .

إذاً النبي (حامد) كما أسموه كان محور الاهتمام الشعبي وكان الخطر الذي ينظر إليه نظرة الحقد والحسد. إذ كيف (لمحمد) أن يسرق الأضواء ويأتي بعد المسيحية ويعتبر نفسه نبي الله الذي أكمل الرسالات التي جاءت قبله وصحح مسار تحريفها وما علق بها ، فقد شك الغرب في أميته ، وفي عدم اطلاعه على الانجيل ، وقد كان أول من عالج هذا الموضوع هو تيوفانز المعترف المتوفى817 . وكتابه (حياة النبي) يعتبر مرجعاً استقى منه من تلاه كل المعلومات والصور المزيفة والمشوشة حول النبي يقول تيوفانز في كتابه هذا :

[في هذه السنة عام العالم 6122 المقابل 632م توفي محمد حاكم العرب ونبيّهم بعد أن عين قريبه أبا بكر خليفة له وفي نفس الوقت كان الخوف مستولياً على الجميع وعند بداية ظهوره PARAUSIA ظن العبريون الضّالون أنه المسيح CHRISTOS الذي كانوا يتوقعون ظهوره لذلك انضم إليه بعض كبارهم وتقبلوا دينه وهجروا دين موسى الذي رأى الله جهرة THE OPTES والذين فعلوا ذلك كانت عدتهم عشرة وقد لازموه حتى لقي نهايته ثم عدلوا عن رأيهم عندما رأوه يأكل لحم الجمل [كذا !!] إذ أدركوا أنه ليس ما ظنوه أولاً فتحيّروا ولم يعرفوا ماذا يصنعون][10].

ثم إن تيوفانز نفسه يربط فقر [محمد] بزواجه لخديجة طمعاً في مالها وكما ادعى أصبح وكيلاً لها في مصر وفلسطين !! ويريد تيوفانز من رسم هذه الصورة البائسة ليقول في النهاية بكل صراحة : إن محمداً اتّصل بمسيحيين ويهود في القدس وبواسطتهم حصل على بعض الكتب المقدسة !! ثم أصيب بعد ذلك بمرض عصبي !!

وكما أشرت أن تيوفانز ربط بين فقر محمد وزواجه بخديجة أم المؤمنين [وأدخل على قصة زواج محمد بخديجة ألواناً من التزييف فقد زعموا أن محمداً لجأ إلى الخداع ليتم الزواج ، فتذكر الروايات في وقاحة أن محمداً من أجل أن يقضي على تردد خديجة في الزواج من عبدها لجأ الى الحيلة والخديعة ليقنع أهل قبيلتها بالزواج[11] .

ثم إننا إذا تتبعنا الصور الحاقدة التي يكنها الغرب اتجاه محمد فسيواجهنا الاسفاف واللاموضوعية وحبك الأساطير التي لا يصدقها عقل فتارة يوردون أن محمداً استعان (بثور) من أجل تأكيد رسالته وصدق دعوته ومرة أخرى يستعين بجمل بدل الثور وأحياناً حمامة وديعة . محاولات على كل حال لم يصدقوها حتى هم أنفسهم . ففي كتاب هيلدربرت تقرأ [أن محمداً استعان في تأكيد صدق دعوته بثور درّبه سراً بحيث لم يعد يستطيع أحد أن يوجهه غيره وكان الثور يركع أمام محمد كلما أمره بذلك] ويقص كتاب آخرون نفس الخرافات لكنهم يجعلون بطلها [جملاً] يحمل كتاباً حول رقبته به آيات من القرآن الكريم وفي كتاب [أندريا داندلو ANDRES DANDOLO أن محمداً درب حمامة على أن تقف على كتفه وتلتقط حبات من القمح من أذنه وذهب البعض أن هذه الحمامة رسول مقدس . . الخ][12].

وهذه الأساطير تذكرنا بالمحاولة التي قام بها المستشرق سيل 1734 حين قال في نهاية القسم الثالث من

مقدمته المشهورة لترجمة القرآن : [وقد اعتاد الجاحظ أن يقول القرآن جسم ينقلب تارة رجلاً وتارة حيواناً ، ويبدو أن هذا يتفق مع ما يقوله الذين يؤكدون أن القرآن له وجهان ، وجه رجل ووجه حيوان . .][13] .

وهكذا يتضح أن حصيلة الفكر الأوربي وكتابات القرون الوسطى ـ حول شخصية محمد ـ تتسم بالجهل واللاموضوعية ولا تقرأ إلا من أجل تتبع نمو السياق الفكري الثقافي ومحاولة فهم الجذور الثقافية التي يعول عليها الغرب كخلفية وتراث ثقافي ، ولأن اسم [محمد] لم يعرف في الكتابات اللاتينية إذ يعتقد أولئك الكتاب اللاتينيون أن (صنمًا) يعبد بهذا الإسم ، أضف إلى ذلك أن ترجمة القرآن ترجمة ركيكة ومزيفة ومقتضبة كانت هدفاً مقصوداً بحد ذاته لأنه يعتبر عملاً دعائياً وسلاحاً ضد المسلمين وضد [محمد] وحتى كارلايل الذي لم يعترف بقدرته على استيعاب القرآن وتذوق لغته السماوية ، اعتبره كلاماً ركيكاً ثقيل الوقع على النفس ، ومع ذلك فإن الدارس الأوربي لا بد له من (صبر) على هذا الأمر وهذا ما أشار إليه كارلايل في مقدمة كتاب الأبطال وعبادة البطل

رغم أن كارلايل يعتبر في نظر البعض أحد مادحي نبي الإسلام .

THE HEROWS AND HEROUWS WORSHIP

إلا أننا نرى من المفكرين الغربيين المحدثين من يجاري أخطاء من سبقوه ويؤيد أفكارهم دون فهم دقيق للغة القرآن وأسرارها ـ فمثلاً نلاحظ أن مونتجومري وات :

W - MONTGOMERY WATT

قد أورد فصلاً في كتابه [محمد] تحت عنوان : هل كان محمد نبياً ؟! حيث اعتقد وات أن محمداً شديد الإخلاص لعقيدته ، وأنه إذا اعتقد في شيء صالح [انفعلت نفسه بما حدث أو اعتقد فيصوغه في كلام قرآني ثم يعتقد هو نفسه أن هذا كلام الله أوحى اليه ، فيقدمه للناس على أنه كلام الله !! . . [14] .

إلا أن الصورة تتضح أكثر عندما يحاول بعض الدارسين الغربيين من الذين جاءوا متأخرين إذ يعزو أحدهم أن محمداً عندما كان يخلو بنفسه في غار وعندما هاجر بعد نزول الوحي عليه ـ إنما كان يفعل ذلك بدافع نفسي باعثه الفشل في الحياة أو الهروب من مآسيها ، فهذا مثلاً شتروتمان يفتري مدعياً : [في مسائل العقيدة تخلص محمد نفسه ـ من العذاب في سبيل الدين بالقول بأن عيسى لم يقتل ولم يصلب كما تخلص من العذاب في الحياة بالهجرة وبإباحة انكار العقيدة عند الضرورة] [15] .

ثم أننا نرى أيضاً أن جون بيجوت غلوب باشا قد جارى من سبقه في محاولة الدس والافتراء لأنه هو أيضاً كان ينظر إلى زواج محمد من خديجة أنه تمّ بدافع سدّ غائلة الفقر ليس إلا لأن [الأرملة انقذته من الفقر]

.[16][but the Widous mony rescud him from Poverty]

الهوامش

(1) انظر الاستشراق ، ادوارد سعيد .

(2) الاستشراق ادوارد سعيد .

(3) الاستشراق ـ ادوارد سعيد . ص 219/218 .

(4) جوستاف جرونباوم ـ حضارة الاسلام ـ ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ص 51 .

(5) نفس المصدر ص 68 .

(6) نفس المصدر ص 70 .

(7) الحضارة الاسلامية ـ خوذاً بخش ـ ترجمة علي حسني الخربوطلي دار الكتب الحديثة ـ القاهرة 1960 ص 50 .

(8) نفس المصدر ص 51 .

(9) حضارة الاسلام ـ جوستاف جرونباوم ـ ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ص 51 .

(10) نفس المصدر ص 66 .

(11) الحضارة الاسلامية ـ خوذا بخش ـ ترجمة علي حسني الخربوطلي دار الكتب الحديثة ـ 1960 ص51 .

(12) نفس المصدر ص 54 .

(13) التراث اليوناني ـ دراسات لكبار المستشرقين ـ د عبد الرحمن بدوي القاهرة ـ مطبعة النهضة ـ 1965 .

(14) الإسلام والمستشرقون ، د عبد الجليل شلبي ـ مطبوعات الشعب القاهرة ـ ص 257 .

(15) دائرة المعارف الاسلامية ـ ترجمة محمد ثابت الفندي وآخرين ـ رتر ـ القاهرة 1933 ـ المجلد الخامس ـ ص 257 .

(16) J. B. Glob. Basha. Beace in The Holy Land. LONDON. 1971. P. 175.

الخلافة والإمامة قاعدة دينية أم وضع دنيوي؟

التفكير السياسي عند المسلمين
جذوره وابعاده
« الحلقـــة الأولـــى »

المهدي مفتاح امبيرش

«وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الامامة اذ ما سل سيف في الاسلام على(قاعدة دينية)مثل ما سل على الامامة في كل زمان) هذه عبارة أوردها ابو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » كثيراً ما تم تناولها من قبل الكثير من الدارسين والباحثين ممن تصدوا لموضوعي الخلافة والإمامة .

والناظر المدقق في هذه العبارة يجد انها تناولت نقطتين هامتين : الأولى يمكن أن نقر بأنها حقيقة تاريخية : تتمثل في ذلك الصراع الدموي المدمر على السلطة والذي كانت نتائجه آلاف الضحايا وعشرات المعارك السياسية نذكر منها على سبيل المثال (صفين . . . والجمل . . . والنهروان . . . وكربلاء . . .) ونذكر على رأس قائمة هؤلاء الضحايا اسماء تذكرنا بعمالقة التاريخ العربي الاسلامي ممن كانت نهايتهم غدراً في مؤامرات اغتيال ، أو قتلاً في ميدان الصراع السياسي الدموي دليلاً حقيقياً على عمق المأساة التي جرتها هذه الامامة والخلافة على العرب المسلمين . نذكر (عمر بن الخطاب . . وعثمان وعلي كما نذكر طلحة . . والزبير . . . والحسين . . . وغيرهم كثير) .

اما النقطة الثانية التي تناولها الشهرستاني والتي تحتاج منا الى بحث وتفصيل قوله « ان ذلك الصراع الدموي . . وتلك السيوف التي سلت انما سلت على قاعدة دينية » أي ان ما يريد الشهرستاني . . وما حاول الكثيرون بعده اثباته هو أن الامامة والخلافة قاعدة دينية .

ولعل اغلب الباحثين الذين اكدوا ذلك وحاولوا اثباته انما كانوا واقعين اما تحت تأثير العاطفة الدينية والاعجاب بشخصيات ابي بكر . . . وعمر . . . وعثمان . . . وقد شدهم هذا الماضي العربي الاسلامي العظيم وتلك الانتصارات الخالدة التي سجلها العرب المسلمون . . في القادسية . . واليرموك . . ونهاوند . وغيرها من المعارك التي قوضت صرح اكبر امبراطوريتين في ذلك العصر . . بيزنطة . . وفارس .

واما انهم أي الباحثين كانوا جزءاً من ذلك الصراع الفكري الذي نتج عن الصراع السياسي العسكري والذي تمثل في ظهور احزاب فكرية تدعم هذا الصراع . وتحاول أن تبرره وان توجد له (قاعدة دينية فكان حزب الشيعة . . وحزب الخوارج . . . وحزب المعتزلة . . . وحزب السنة . . وما تفرع عن هذه الاحزاب من فروع . . . وتيارات وكانوا ولا زالوا من المستفيدين من هذا الصراع .

ان هذين العاملين مجتمعين هما السبب الرئيسي وراء عدم الخوض في موضوع الخلافة و الامامة ومناقشة مدى أحقية كونهما قاعدة دينية أم دنيوية . بل ان هذين الفريقين حاولا والى الآن بدل البحث في الظروف السياسية والاجتماعية التي أوجدت الخلافة . . والامامة ـ البحث عن ايجاد المبررات وصوغ الحجج ومحاولة التنظير لهما ، وذلك تماما كما يورده الاستاذ الدكتور/ ابراهيم بيضون في كتابه « الحجاز والدولة الاسلامية » عندما يقول « ان الخلافة كمؤسسة ونظام ـ وقعت في المأزق التشريعي الذي لم يفارقها بعد ذلك بحيث كان على القيمين عليها أن يجدوا لها التنظير الاسلامي المتطابق ، في ظل ما سمي بالشورى » . .

اننا في هذا العصر وقد باعدت السنوات بيننا وبين اولئك الذين خاضوا صفين . . . . والجمل . . . او الذين سقطوا في النهروان . . او دبروا مؤامرة كربلاء نجد انفسنا ومن واقع التزامنا بقضية الوحدة الدينية وعودة بالمسلمين الى المنبع الصافي للاسلام قبيل فترة الصراع هذه نرى انفسنا ملزمين بالبحث في موضوع الخلافة والامامة بموضوعية بعيدة عن التعصب متوخين فيها انقاذ الشعوب الاسلامية من هذه الفرق والمذاهب البدعة . . . ومذكرين فيها هؤلاء جميعاً بالابتعاد عن عبادة الهوى . . . والعودة الى عبادة الله . . وبأن اولى القواعد الاسلامية هي الاعتصام بدل التفرق ووحدة الصراط مكان تعدد السبل . . . ووحدة مصدر الشريعة بدل تعدد ما يسمى بالمصادر .

ان مجاراة الشهرستاني ومن نحا نحوه في أن الصراع الذي دار . . والسيوف التي سلت . . . والرؤوس التي تدحرجت في معارك الفقه . . كل ذلك كان على قاعدة دينية قول في الواقع يتعارض والغرض من القاعدة الدينية أصلاً . إذ أن القاعدة الدينية من شأنها الا توجد الصراع اصلاً . . وحتى وان وجد كان حسمه في بدايته من أبسط الأمور وأسهلها بحيث لا يصل الى الاختلاف الشديد ناهيك عن الصراع الذي تسل فيه السيوف . . وتراق فيه الدماء .

إن المنطق يؤكد أن الصراع والقتال على الامامة ، والخلافة لم يكن على قاعدة دينية وانما كان لغياب هذه القاعدة الدينية بل قل ان الصراع كان على قاعدة دنيوية وضعية لا اساس ديني لها بحيث يكون الاختلاف في وجهات النظر . . . والتصارع من أجل انتصار هذه الوجهات امراً انسانياً يحصل في كل مكان . . وفي كل زمان . على انه لا يفهم من قولنا هذا أننا نبرر هذا الصراع الذي تم ونلتمس الأعذار له بقدر ما نحلله لنفهم أسبابه ودوافعه .

ان استعمال الدين كشعار لتأكيد وجهات نظر . . او لتبريرها . . واخفاء المطامع السياسية وراء هذه الشعارات ، هو اسلوب حزبي لا يختلف عن استعمال أي شعار آخر اذ ان الاحزاب السياسية في كل زمان ومكان تلجأ دائمًا إلى استخدام الشعار الاكثر لمعاناً . .والأكثر بريقاً وتأثيراً في الغـالبية . . والشعارات الدينية تظل دائمًا هي الشعارات الاكثر تأثيراً في عواطف العامة والبسطاء . . وكثيراً ما جرت الآلاف من البشر عبر التاريخ في مواجهات سياسية. . .وزج بالبسطاء والسذج في اتون هذه المعارك معتقدين انهم يمارسون عقيدة جهادية توصلهم الى الجنة ، والحقيقة انها توصل الزعماء ذوي المطامع السياسية الى كراسي الحكم اما هذه الآلاف التي تقتل أو تقتل فأمر دخولها الجنة او النار متروك لرب الجنة والنار هذه الصراعات التي تمت باسم الاديان سواء كانت سماوية او وضعية هي قديمة قدم هذا الانسان ذاته . . وما الصراع الذي دار في التاريخ العربي المسلم ولا زال يدور الى الآن الا نموذجاً من نماذج هذا الصراع . ان الاسلام الذي وحد العرب وجمع كلمتهم بعد ان كانوا على شفا حفرة من النار ، والذي جعلهم اخوة بعد أن كانوا أعداء . . . والذي حرم الفتنة . . وحرم الاعتداء والظلم لا يمكن ان يأتي بقاعدة دينية تبرر كل هذا الصراع . . وهذا الاقتتال وحتى نقطع الفرض باليقين لا بد وان نعود الى القرآن الكريم ، والذي يطالبنا رب العزة بالعودة اليه كلما اختلفنا «ومـا اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله »[1] نعود الى الله ليحكم بيننا فيما نحن فيه مختلفون وموضوع اختلافنا هل الخلافة والامامة قاعدة دينية ، ام قاعدة دنيوية وضعية املتها ظروف سياسية واجتماعية ؟

ومن هنا فاننا نضع بين يدي القارىء الكريم الآيات القرآنية التي تناولت بالذكر لفظي خليفة وامام .

فلفظ خليفة ورد في القرآن في موضعين : الأول : في سورة البقرة الآية رقم «30» والموضع الثاني في سورة « ص » الآية رقم 26 .

ففي الموضع الأول يقول تعالى في سورة البقرة : **﴿ واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾** . وفي الموضع الثاني يقول : عز من قائل مخاطباً داود عليه السلام **﴿ يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾** .

ففي هذين الموضعين يمكن لنا ان ندرك ببساطة أن لفظ « خليفة » لا علاقة له على الاطلاق بالمعنى الاصطلاحي السياسي الذي أعطي له ، باعتباره يطلق على الانسان الذي يكون على رأس أي مجتمع اسلامي ،وليؤدي وظائف دينية ودنيوية متعلقة بحكم موقعه . .ثم لتصبح الخلافة بعدها نظاماً اسلامياً سياسياً فالقاعدة الدينية للفظ خليفة في هذه الآية لا تضيق لتصبح هذا الشخص الذي اصطلح على

تسميته خليفة وانما تتسع لتشمل البشر جميعاً أو قل الحكمة من وراء خلق الانسانية كلها . . فأي انسان يلتزم بقانون الله وسنته بحيث ينشر العدل ويقضي على الظلم ويحارب الفتنة ويعمر الكون ، يكون مستحقاً بذلك أن يطلق عليه لقب خليفة الله .

وما قلناه عن الموضع الأول يمكن أن نقوله عن الموضع الثاني ، فرغم ان الخطاب موجه الى داود كما هو ظاهر الا أنه موجه اليه باعتباره قدوة ، وكل المؤمنين في الواقع مطالبون بما طلب من داود سواء نشر العدل ، او مجانبة الهوى ، او الحكم بين الناس بالحق فمن يفعل ذلك يستحق أن يكون خليفة الله ، ومن لم يفعل استحق بذلك غضب الله . . وعذابه . . ان الدليل على عمومية اللقب هو عمومية الحكم والتي اوردها الله بشكل عام أي أن ﴿ **الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب**﴾ وبالمقابل فان الذين لا يضلون عن سبيل الله هم في الصف الأول مع داود فهم خلفاء الله في ارضه .

أما لفظ (الامام) فهو الآخر قد تناوله القرآن الكريم في موضعين : الأول : ـ في سورة البقرة آية رقم (123) ، والثاني في سورة الفرقان آية رقم (74) ففي الموضع الأول يقول تعالى : ﴿ **واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس اماماً قال ومن ذريتي ، قال لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ ومن الموضع الثاني في سورة الفرقان يقول تعالى : ﴿ **ومن تاب وعمل صالحاً فانه يتوب الى الله متاباً ، والذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراماً * والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً * والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذريتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين اماماً** ﴾ .

إن هذين الموضعين كذلك لا يمكن ان نجد فيهما أية اشارة الى كون الامام هنا يدل على اي معنى ديني سياسي « كمقابل للخليفة ، وهو المعنى الذي تعارف عليه الشيعة واعتبروه أمراً دينياً صرفاً ، وان الامام لا يختار وانما ينص عليه . . وعندما وقعوا في المشكل اختاروا قصة غدير « الخمسة ونسبوا الى رسول الله ﷺ حديثاً ليدللوا على أن علياً تم اختياره بالنص ليبقى المعنى الديني للامام لديهم .

إن الموضع الذي تناول الله فيه ابراهيم باعتباره اماماً جاء استحقاقه ذلك بعد ان ابتلاه الله بكلمات ، وبعد أن تاب الله عليه فاستحق بذلك ان يكون الإمام القدوة في الصبر والاستجابة لاوامر الله وكل من حذا حذوه من المؤمنين استحق ان يكون اماماً قدوة في مسلكه . اما عموم استحقاق «لقب الامام » في الآية الثانية فهي واضحة تمام الوضوح كل الذين انطبقت عليهم الصفات التي اوردها الله تعالى في الآيات السابقة بحيث استحقوا ان يكونوا للمتقين اماماً متى توفرت فيهم هذه الصفات .

من هنا ومن خلال عودتنا الى كتاب الله اتضح انه لا اساس « للخلافة والامامة » باعتبارها قاعدة دينية سياسية بالشكل الذي حاول الكثيرون اثباته والبرهنة عليه . . لذا يبقى امامنا ان نقر ان الخلافة امر دنيوي اقتضته الظروف السياسية والاجتماعية التي كان عليها العرب المسلمون صبيحة انتقال الرسول الكريم الى جوار ربه ، اما ما نجم عنها من اختلاف وصراعات . . وفرق ومذاهب وان كانت الخلافة

والامامة او قل الدين الشعار المرفوع دائمًا الا ان لهذه الصراعات وهذه المذاهب الفكرية التي نظرت لها وجذرتها . جذور يمكن لنا ان نرجعها الى ما قبل الإسلام يوم أن كان العرب على شفا حفرة من النار . .

ان القول بأن الخلافة وضع دنيوي اقتضته جملة من الظروف سوف اتولى توضيحها لا يمكن ان يفهم القاصرون منه أنني اطعن في أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، انني على العكس من ذلك تماماً فانني اعتبر الاجراءات التي تمت يوم السقيفة رغم بعض المآخذ عليها دليلاً على عبقرية هؤلاء وتقديرهم للظروف ، وحسهم والذي وان كان مؤقتاً الا أنه كان ضرورياً .

انتقل الرسول الكريم الى جوار ربه دونما الاشارة الى خلافة ، او امامة او نحوها بل ان وفاته كانت صدمة نفسية كبيرة للصحابة حتى اننا لنجد عمر وهو على ما فيه من قوة وصلابة وقدرة على مجابهة الصعاب ينهار انهياراً كاملاً امام هذا الحدث الجلل الى الدرجة التي يشهر فيه سيفه مهدداً بالقتل كل من يقول بان الرسول قد مات . . وفي غمرة هذا الانهيار النفسي ينسى قوله تعالى : ﴿ **وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ حتى لنجده يقول عندما تلا ابو بكر هذه الآية كأنني لم اسمعها الا حينها

هذه المفاجآت التي شلت التفكير بالاضافة الى جملة من الظروف السياسية والاجتماعية والتي يرويها لنا ابن هشام في سيرته على لسان ابن اسحاق قائلاً « ولما توفي رسول الله ﷺ ، عظمت به مصيبة المسلمين فكانت عائشة ، فيما بلغني تقول . لما توفي رسول الله ﷺ ، ارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية ، والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية » .

وفي تصوير الحال في مكة يقول ابن هشام « حدثني ابو عبيدة وغيره من اهل العلم ان اكثر اهل مكة لما توفي رسول الله ﷺ هموا بالرجوع عن الاسلام .

تحديات جمة وخطيرة للاسلام من الخارج ، ومن الداخل تتمثل في الردة ومؤامرات اليهود والنصارى ، بالاضافة الى خطر آخر اكبر واشد يتمثل في النذير بتفرق المسلمين فيما بينهم وهم في وقت اشد ما يكون الى لم الشعث ورأب الصدع . . . فالانصار يجتمعون في سقيفة بني ساعدة « وسعد بن عبادة زعيم الخزرج يطرح نفسه زعيمًا سياسياً . . » .

وخطباء الانصار يحرضون اهل يثرب « مدينة الرسول في هذا الاتجاه وقد وجدوها فرصة سانحة للاحتفاظ بزعامة العرب بعد ان ظفروا بجعل مدينتهم عاصمة العرب المسلمين . . . ماذا يتصور المرء ، وقد وضع امامه جملة هذه التحديات مجتمعة . . أيحتاج هذا الأمر الى نقاش طويل وحوار بل قل « وشورى » لا يؤمن عاقبتها في هذه الظروف التي اطلت الفتنة برأسها أم ان الأمر يحتاج الى حل حاسم وان كانت اسسه غير اسلامية . . نعم ان الصراع دنيوي . . بل هو صراع قبلي واقليمي بين مكة . . والمدينة يعود بنا الى فترة ما قبل الإسلام عندما كانت مكة قبلة العرب ومركز النشاط الاقتصادي ، بينما

المدينة تابعة لها تدور في فلكها . . . لتصبح المدينة بعد الإسلام وقد تصدرت مركز الزعامة . . . وتحول النشاط . . . الاقتصادي اليها . . واصبحت القبائل العربية تنظر اليها بعين الخوف . . والاحترام وهي تحوي هذه القوة الجديدة العربية المسلمة . .

اذا فحرص الانصار على أن يكون اول من يجتمع في سقيفة بني ساعدة ليسبقوا المهاجرين في البت في هذا الامر كان بمثابة تعبير عن خوفهم من انتقال الزعامة والصدارة من المدينة وعودتها إلى مكة خاصة بعد وفاة الرسول الذي كان باختياره المدينة « مدينة له » صمام الامان امام تطلع القرشيين الى استعادة امجادهم القديمة .

ان عنصر الحسم في هذا الصراع لا يمكن ان يكون اسلامياً بل سيكون انعكاساً لمسببات الصراع ذاتها أي لا بد وأن يكون قبلياً . . اقليمياً خاصة وان اختيار خلف للرسول لا يستند الى قاعدة دينية يمكن الرجوع اليها لحسم الصراع . ان المحلل للحوار والجدل الذي تم يوم السقيفة سوف يكتشف هذه الحقيقة وبسهولة . فها هوذا خطيب الانصار يقول موجهاً كلامه للمهاجرين . . او القرشيين « اما بعد فنحن انصار الله وكتبة الاسلام ، وانتم معشر المهاجرين رهط نبينا وقد دفت دافة منكم (واذا هم اي المهاجرين) « تريدون ان تحتازونا من اصلنا وتغصبونا الأمر أي تملكونا وتستبدوا بنا » .

فماذا يتوقع المرء ان يكون رد المهاجرين او القرشيين . . لا بد وان تكون الحجج مقنعة لاسكات هؤلاء الانصار . . وحيث انهم انصار الرسول وكتبة الاسلام فحق قريش لا يكون منطلقاً من حق اسلامي لأن الانصار يشاركونهم هذا الحق اذ لا بد وان تكون الحجج قبلية واقليمية تشعر الانصار بقيمة قريش ، واحترام العرب لها باعتبارها مقراً لمقدسات العرب المسلمين وغير المسلمين على السواء . . . وباعتبارها تملك حقاً تاريخياً لا يمكن للمدينة ان تنازعها عليه . . . وقد حاول عمر ان يرد على خطيب الانصار قائلاً « فلما سكت أي الخطيب الانصاري ، اردت أن اتكلم وكنت قد "أعددت" مقالة اعجبتني اردت أن اقولها بين يدي ابي بكر وكنت اداري منه بعض الحدة" أي أن عمر قد هم بالكلام ولكن ابا بكر لمعرفته بحدة عمر وخشونته في الكلام الأمر الذي لا يقتضيه هذا المقام والنفوس تتقد حدة فمنعه من الكلام لنجده يقول : « أما بعد فما ذكرتم من "خير فأنتم اهله ، وما تعرف العرب هذا الأمر الا لهذا الحي من قريش هم اوسط نسباً . . . وداراً . . » ثم ذكر جملة صفات ومناقب لقريش جعلت الحباب بن المنذر وقد ثارت ثائرته يقول : بمنطق العصبية الجاهلية « انا جذيلها المحلك ، وعذيقها المرحب ان شئتم والله ـ رددناها جذعة » . . .

وبعد جدل وحوار يحاول الانصار ان يصلوا الى حل وسط مقترحين اميرا من مكة واميراً من المدينة . . . ويرفض عمر هذا الاقتراح معللاً ذلك بقوله هيهات (لا يجتمع سيفان في غمد واحد) .

ليستقر الأمر بعد ذلك لقريش ويتم اختيار ابي بكر الذي بايعه الاوس ، وهم من الانصار ليفوتوا

الأمر على سعد بن عبادة زعيم الخزرج . . . وللاوس والخزرج ثارات قبل الاسلام ومواقع اهمها يوم بعاث . . . ثم لتتم الموافقة على اختيار ابي بكر في اليوم التالي بموافقة اغلب الحاضرين عدا علي ، وفاطمة ، والزبير . . والعباس وابي سفيان الذي حاول ان يستغل الموقف فيعرض على علي الامر بحجة ان ابا بكر قد أخذ هذا الأمر وهو اقل بيت في قريش .

يقول ابو سفيان اغلبكم على هذا الأمر اقل بيت في قريش ؟

اما والله لأملأنها خيلاً ورجالاً ان شئت « موجها الخطاب لعلي » .

ان تحليلنا لاجتماع السقيفة وان كان قد حسم الوضع مؤقتاً الا انه لم ينه الصراع ان لم يكن قد وضع اسسه التي تعمقت وتجذرت لتكون بعد ذلك انقلاباً حقيقياً وخطيراً على القاعدة الدينية الاسلامية « الشورى » .

بحيث اصبحت مهمة الباحثين بعد ذلك ليس انتصاراً للشورى كقاعدة دينية ، وانما انتصار للوضع المؤقت الذي لم يستند على قاعدة دينية ، وهو الخلافة بحيث اصبح هم الباحثين « ليس تحليل الأحداث التي اوجدت هذا النظام بقدر ما كانت مهمتهم خلق المبررات له ، ومحاولة ايجاد مؤسسات لهذا النظام ووضع شروط للخليفة . . . وشروط للبيعة . . .

ان اجتماع السقيفة ، لا يمكن ان يكون نموذجاً يقاس عليه باعتبار الأمور التي سبق ذكرها . . . فهو حل طارىء لمعالجة وضع طارىء . . كما ان المدة القصيرة التي بقاها ابو بكر خليفة هي كذلك لا تعد مقياساً فهي فترة قضاها المسلمون في حروب الردة . . . وبداية الفتوحات . . . وما قيل على فترة ابي بكر يمكن ان تقال على فترة عمر ، والتي كانت فترة فتوح ومعارك وتوسع اضطرت المسلمين الى اختيار عمر خليفة لنفس الظروف التي واكبت الحل المؤقت في اختيار ابي بكر بل ان التحديات قد اتسعت وتعاظمت وقد دخلت عناصر خارجية في الصراع والمواجهة . . . ان فترات الحروب في كل العصور هي فترات القوانين الطارئة وليست فترات الدول المستقرة ذات النظم السياسية والمؤسسات التي يمكن ان تدرس وتحلل ويقاس عليها أو تتخذ نموذجاً . إذا فمحاولة تقنين ما واكب خلافة ابي بكر ، وعمر هي محاولة قاصرة وغير منطقية لانها تجهل طبيعة الأحداث التي كانت معاشة في ذلك الوقت . .

هذا بالاضافة الى أن تغيرات كبيرة مهمة في الشكل والمضمون) قد تمت حتى على هذا الحل الطارىء الممثل في الخلافة .

ففي مجال التغيرات في الشكل نجد ابا بكر خليفة رسول الله . . وعمر امير المؤمنين . . . وعلي اماماً . . ونجد كذلك تغيراً في اسلوب الاختيار ذاته فقد رأينا كيف تم اختيار ابي بكر لنرى ان عمر قد تم اختياره من ابي بكر مباشرة . . لنجد عثمان يتم اختياره من لجنة يشكلها عمر ، ان هذه التغيرات في

اسلوب الاختيار هو نتاج الظروف السياسية والاجتماعية التي عاصرها العرب المسلمون آنذاك ، وكذلك نتاج رد الفعل السيء لاحداث السقيفة . . اذ ان فتح المجال امام الناس للاختيار في ظروف كلها حروب وفتوحات وتحديات مجازفة لا يمكن لأحد من هؤلاء الخلفاء الاقدام عليها .وهذا تماماًماتعبر عنه نصيحة عبد الرحمن بن عوف لعمر عندما بلغه ان رجلاً قد قال ان اختيار ابي بكر لعمر كان (فلتة) أي امراً لا يقاس عليه ، وانه « لو قد مات عمر بايعت فلاناً » فقد اغتاظ عمر وقال « إني قائم العشية ان شاء الله في الناس فمحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون ان يغصبوهم امرهم . .» أي يغصبون قريشاً . .

فكانت نصيحة عبد الرحمن ابن عوف « يا امير المؤمنين لا تفعل ، فان الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم وانهم الذين يغلبون على مجلسك اذا قمت في الناس ونصحه ان يعرض الأمر على بعض الخواص .

اذا فمجمل هذه التغيرات التي طرأت على الشكل كلها تؤكد انها نتاج الظروف السياسية والاجتماعية التي اوجدتها . . على ان التغير الاكبر تم في الشكل والمضمون بعد ذلك حيث جاء معاوية بقوة السلاح ، وحيث استطاع بعدها أن يغيرها الى ملكية وراثية في أسرة بني امية .

ان هذا التغير الذي احدثه معاوية في الشكل والمضمون الذي انتهى بها الى ان تكون ملكية وراثية دون اعتراض عليها من المسلمين باعتبارها خروجاً على القاعدة الدينية اذا اخذنا برأي الشهرستاني ومن جاراه . (اذا استثنينا موقف عبد الله بن الزبير ، والذي كان اعتراضه على اسرة بني امية اكثر من اعتراضه على تغيرها الى ملكية وراثية هو في حد ذاته دليل على ان الخلافة كنظام سياسي) لم تكن واضحة في اذهان العرب المسلمين . .

ان الصراعات التي دارت رحاها ، والتي سلت السيوف فيها لم تكن كما قال الشهرستاني على قاعدة دينية ، وانما صراعات اقليمية واسرية . . . صراعات اقليمية اوجدت الخلافة . . . وخلافة قريش حيث كان الخلفاء كلهم من قريش . . وصراعات عائلية اوجدت لنا دولة بني امية ، ودولة بني العباس ، والدولة الفاطمية . أي ان الصراعات العائلية قبل الإسلام . . . وما تمخض عليه اجتماع السقيفة قد كبرت الآن وتعاظمت لتأخذ شكل صراع سياسي على الحكم انتج لنا انظمة ملكية ووراثية . . بحيث اصبحت الخلافة مجرد لقب لهؤلاء الملوك . بل ان التيارات الفكرية نفسها من شيعة . . وخوارج . . ومعتزلة . . وسنة . انما وجدت لتدعم هذه الاحزاب السياسية المتصارعة . انه تماماً كما يحدث الآن عندما يدخل حزب من الاحزاب حلبة الصراع السياسي طارحاً برنامجه السياسي في شكل شعارات براقة لخداع الجماهير ومع هذه الشعارات يوظف اجهزته الاعلامية لنشر هذه الشعارات والدفاع عنها .

اذا فالتيارات الفكرية . . وحركة الفرق والمذاهب لم تكن سوى اجهزة اعلامية اوجدها الصراع السياسي على الحكم لتكون بعد ذلك اداة خطيرة ومدمرة في تجذير الصراع وتعميمه . . بين المسلمين بعامة ، وليجد فيه كل ذي مطمع ومصلحة باباً ينفث من خلاله سمومه ويقنع بها أعداءه فعلى سبيل المثال

نجد . ان الشيعة في حقيقتها ليست سوى اعلام علي وآل البيت في تأكيد حقهم في حكم العرب المسلمين ـ والمبررات التي تم طرحها هي مبررات منطقية في ذلك العصر اذا اخذنا في الاعتبارات الحجج والمبررات التي اوصلت ابا بكر إلى ذلك الموقع .

فما دام اختيار ابي بكر كان يفتقد الى القاعدة الدينية واستند فقط الى كونه من قريش وانه من رهط النبي ﷺ ، فان آل البيت بحكم هذا المبرر هم احق لانهم من قريش ولانهم اقرب الى النبي من أبي بكر وعمر . ولهذا اعتبر بعض المنظرين للشيعة خلافة ابي بكر وعمر اغتصاباً لحق علي في السلطة .

كما نجد الخوارج وهم الذين خرجوا على علي لم يكونوا الا صوت الاقليات غير العربية التي ارادت الاستفادة من الصراع الدائر داخل الجسم العربي ليرتفع صوتهم مطالبة بمشاركة كل المسلمين في الاختيار . . . واذا تجاوزنا هذه الفترة الى عهد بني امية وبني العباس ومن جاء بعدهم فاننا نجد ان هذه الاسر الحاكمة او الاحزاب السياسية الحاكمة قد رفعت الشعارات بشكل مزايدة على الاحزاب المعارضة لها . . ففي حين كان الشيعة يطالبون بحق آل البيت نجد الامويين باعتبارهم معارضة يرفعون شعار العرب بحيث كانت الدولة الاموية من حيث الشكل دولة عربية ، وان كانت من حيث المضمون أسرية هي الأخرى . . . كما نجد العباسيين وقد اتسعت الدولة وشملت عناصر غير عربية يطرحون ارضاء للخرسانيين في البداية ثم الاتراك في النهاية . شعار اسلامية الدولة وان كانوا في واقع امرهم نظاما ملكياً أسرياً . إذاً فهذه الاحزاب السياسية الاسرية حاولت ان تستغل الظروف السياسية والاجتماعية لصالحها في شكل شعارات ووضعت لها مذاهب فكرية تخدم مصالحها وهو شأن الأحزاب السياسية في كل زمان ومكان .

غير اننا نجد وان كانت هذه الأسرة قد اختفت بحكم الزمن الا أن التيارات الفكرية لا زالت موجودة الى يومنا هذا تؤثر أشد التأثير في الحياة السياسية للشعوب الاسلامية ولا زالت هذه التيارات الفكرية سلاحاً مؤثراً في الصراع السياسي الحالي بحيث يستطيع أي باحث بأقل مجهود ان يوضحه . . وهذا ما سوف احاول القيام به في دراسة أخرى . تتناول بالتحليل هذه التيارات والمذاهب ، والفرق ، وكيف تطورت حتى عصرنا الحاضر والاشكال التي اتخذتها في اثناء تطورها وانتقالها .

الشورى « القاعدة الدينية »

من خلال ما تم استعراضه في الجزء الأول من هذا البحث رأينا أن الخلافة او الامامة لم تكن في الواقع قاعدة دينية وانما كانت حلا طارئاً لمجابهة موقف مفاجيء . . وان عوامل اجتماعية وسياسية كانت وراء وجوده ووراء التغيرات التي طرأت عليه في الشكل والمضمون . . كما ان الانظمة السياسية التي دخلت التاريخ العربي . . والاسلامي بعامة لم تكن سوى انظمة ملكية وراثية . . الصراع الذي دار بينها وبين معارضيها هو الصراع الاسري الذي ترجع جذوره الى فترة ما قبل الاسلام . كما أن الفرق التي ظهرت مواكبة لهذا الصراع السياسي لم تكن الا انعكاسات لهذا الصراع السياسي على الحكم . . ولم تكن الافكار التي بثتها الا سلاحاً للدعم وللتفويض لهذا النظام أو ذاك .

ان الضرر الذي نجم عن هذه الصراعات لم ينته كما رأينا بانتهاء هذه الاسر بل لا زال مستمراً الى يومنا هذا بحيث ان أي باحث يحاول تحليل هذه التيارات المعاصرة التي تطلق على نفسها (التيارات الفكرية الاسلامية) لا بد وان يعيش فترة الصراع . . وان يحاول تتبع جذوره ليعرف حقيقتها وابعادها .

ان اكتشاف العلاج لهذه الأمراض لا يمكن ان يتم بمعزل عن معرفة اسباب المرض بحيث تبقى معالجة اعراض المرض محاولة تلفيقية وعقيمة ربما زادت المرض ذاته بدل علاجه او التخفيف من مضاعفاته على الاقل .

ان القاعدة الدينية التي فرضت الظروف التيسبقتالاشارة اليها تأجيلها الى حين هي (الشورى) والتي برغم الاتفاق المجمل على انها قاعدة دينية الا ان اغلب الذين تعرضوا لتناولها من المفكرين المسلمين عالجوها متأثرين بالخلافة ومحاولين تطويعها لها . . بحيث اوجدوا ما يسمى بأهل الحل والعقد . . واهل الشورى . . ومجلس الشورى . . غير أن توضيح هذه القاعدة الدينية لا يمكن ان يتم بمعزل عن مصدرها الاساسي القرآن الكريم ، والذي تقف آيات الشورى فيه متحدية بوضوحها وبيانها كل الذين حاولوا ان يجعلوا الشورى لاهل الحل والعقد ، او لمجلس الشورى ولجماعة المسلمين .

ان الحكمة الالهية التي اقتضت ان توضح دائمًا كل الأمور التي لها صلة بالعلاقات الاجتماعية المحدودة التأثير (كالميراث ـ والنفقة ـ والنكاح ـ وغيرها). لا يمكن ان تغفل امراً به صلاح الامم والشعوب وهو الاطار الذي تنظم به الشعوب نفسها وتتشاور بواسطته في امورها .

وقبل التعرض الى الآيات التي تعالج الشورى لا بد من التعرض الى موضوع اعتقد انه مهم باعتباره مقيدًا لمعالجة الشورى ، وهو موضوع الحرية والمسؤولية . او الحرية المسؤولة التي تفرض المسؤولية تجاه هذه الحرية مكافحاً من أجلها ومناصراً للمكافحين في سبيلها من المقهورين والمستضعفين .

ان اولى القواعد التي يجب أن نقررها هي أن الاسلام يعطي احتراماً فائقاً لموضوع المسؤولية ويؤكد ذلك أن المسؤولية لا يمكن فصلها بحال عن الحرية بل اعتبر أن من نافلة القول ، أن اذكر ان الحرية والمسؤولية تعملان في انسجام متكامل بحيث نقرر انه اذا انعدمت المسؤولية انعدمت الحرية ، واذا انتفت الحرية ، كان لزاماً لذلك غياب المسؤولية ان الانسان المسؤول هو ذلك الانسان الذي يكون في وضع يسمح له بالاختيار وان الاختيار هو مظهر من مظاهر الحرية ، فاذا اختار الانسان عن قناعة ، وبدون تأثير من احد كان في ذلك الوضع حراً وهذه هي الحرية التي تضع على عاتقه بالتالي حمل المسؤولية .

ولكننا عندما نتحدث عن الحرية في اطارها الاسلامي ، فاننا نقصد بها الحرية في مفهوم الانسان الحر الذي يعرف الحرية ، ويقدرها ، ولا يرى قيمة للحياة بدونها ولا يلذ له نوم حتى وهو حر ان يرى غيره يرسف في قيود الذل والمهانة ، ذلك أن الوضع الأخير وضع باطل والانسان ـ المسلم مطلوب منه محاربة الباطل في أي مكان وفي أي زمان .

ان الاسلام وهو يقدم الحرية انما يقدمها حرية انسانية ، حرية متزنة ، مدركة هذه الحرية لا تجمح فتنتهك حرية الآخرين وتستعبدهم ولا تسف فتجعل الانسان يرسف في قيود الذل والمهانة .

ان اولى الحريات التي يقدمها الاسلام للانسان حرية الاعتقاد « لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشـد من الغي » «فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » فالله سبحانه وتعالى الذي لا يكلف نفساً إلا وسعها جهز الانسان بكافة الوسائل التي تمكن من الاختيار « الم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين » « انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً » اذا فالله قد ترك له حرية الاختيار . . . وزوده بكل الامكانيات التي تمكنه من الاختيار فاذا اختار ترتبت عليه بذلك مسؤولية الاختيار أما إذا فقد القدرة على الاختيار ، ولم يستطع التميز بفقد هذه القدرة على الاختيار « وهي العقل » سقط عليه التكليف « وما ربك بظلام للعبيد » .

واذا ترك الله للانسان حرية الاعتقاد وحمله مسؤولية اختياره فقد جعل الانسان مسؤولاً امام نفسه ومسؤولاً تجاه اسرته . . . . ومسؤولاً تجاه غيره من ابناء المجتمع ، كما جعله مسؤولاً تجاه الانسانية جميعاً باعتباره خليفة الله في الأرض .

اذاً فالقاعدة الدينية وفق هذا التصور لا بد وان تتسع لتعطي الانسان حرية الاختيار وحرية القرار ولا يمكن ان تكون القاعدة الدينية لتنظيم المجتمع المسلم محدودة بحيث تمنع أي انسان من المشاركة ومن القرار .

فاذا وجدت سيداً وعبداً في دولة تدعي الاسلام فكذب ما ترى وصدق الاسلام . واذا رأيت حاكماً ومحكومين ، فلا تصدق ما ترى ، وصدق الاسلام ، ذلك ان الاسلام دين الحرية ، لانه دين المسؤولية وعلاقة السيد بالعبد قائمة على اساس الامر من الأول والطاعة من الثاني ، أي انتفاء للاختيار وانتفاء بالتالي للحرية . . . وعلاقة الحاكم والمحكومين علاقة قائمة على سلب المسؤوليات من الجميع وتركيزها في يد الفرد ، أو القلة وهذا بكل تأكيد مناقض للاسلام لانه دين المسؤولية ، ولانه دين الحرية فاذا وجد أي نظام مهما كان اسمه يقوم على سلب المسؤوليات من الكل وتركيزها في يد فرد او مجموعة فثق ان هذا النظام ليس نظاماً اسلامياً على الاطلاق .

ان النظام الوحيد الذي ينسجم مع كل المعطيات التي تحقق الحرية والمسؤولية هو نظام الشورى الذي هو القاعدة الدينية الوحيدة التي ارتضاها الله سبحانه وتعالى .

كما أن تحليلنا لآيات الشورى ومن خلال القرآن سوف يوضح لنا مدى فداحة الانقلاب الخطير الذي تم ضد الشورى باعتبارها قاعدة دينية دون سواها .

هذه القاعدة التي لا نجدها لفظاً عمومياً وانما نجدها سورة متكاملة في القرآن الكريم ، ولا نجدها غامضة مبهمة بل نجدها آيات بينات لا يماري فيها الا من اراد الله له ضلالا.. .

وختم على سمعه وبصره وطبعها على قلبه .

يقول تعالى في سورة الشورى : **﴿ فما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، واذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون ﴾** .

الشورى التي تناولتها هذه الآية في اللغة مأخوذة من اشتار العسل اذا قصد مظانه وجمعه ومعناها الذي جاءت به الآيات لا يخرج في جانبه المعنوي عن هذا المعنى كما سوف يتضح .

فالله سبحانه وتعالى يتحدث في هذا المقام عن الذين آمنوا ، وهو بذلك يعطي صفات لهؤلاء الذين آمنوا الذين جعلهم يبتغون ما عند الله ، غير متكالبين على متاع الدنيا والذي هو متاع الغرور كما ذكر انهم يتوكلون عليه ، والتوكل على الله دون سواه صفة من صفات الايمان ، كما جعلهم يبتعدون عن اقتراف كبائر الاثم وارتكاب الفواحش ، ووصفهم كذلك بالحلم والمغفرة في ساعات الغضب وانهم استجابوا لربهم فاقاموا الصلاة ، وجعلوا امرهم شورى ، وانفقوا مما رزقهم الله ، وانتصروا لله اذا ظلموا .

والمتدبر لهذه الآيات يمكن ان يخرج منها بالآتي :

أولاً :ـ ان الصفات التي تم ذكرها هي صفات للذين آمنوا ، وأن كل مؤمن يجب أن يحرص عليها كي يكتمل ايمانه .

ثانياً : ـ ان نقصاً في أية صفة من الصفات السابقة هي نقص في درجات الايمان على المسلم أن يكملها .

ثالثاً : ـ ان الشورى هي صفة من صفات الايمان لا بد من تحققها للفرد والجماعة .

رابعاً :ـ ان الشورى هي صفة فردية بل تصل الى مرتبة كونها عينية بدليل مجيئها بين اقامة الصلاة والانفاق وبالتالي لا يجوز لأحد القيام بها بدل الآخر . كما ان الصلاة لا يمكن لأحد ان يؤديها نيابة عن انسان آخر .

خامساً :ـ ان الشورى تكون في الأمر والامر هو كل ما يشغل المؤمنين ويهمهم من شؤون الدنيا .

سادساً : ـ أن الشورى لا تمارس في قمة وقاعدة وذلك بدليل الظرف المكاني في قوله تعالى **﴿ بينهم ﴾** .

من هنا ندرك ان القاعدة الدينية للشورى هي في كونها صفة من صفات الايمان وانها للمؤمنين جميعاً وفي امرهم ، وبينهم ، اذا فالنظام السياسي لاي مجتمع مسلم لا بد وان يتسع بحيث يمكن المؤمنين جميعاً

من المشاركة في اتخاذ القرار وممارسة الشورى .

ان التفكير الاسلامي ، وقد تحرر الآن من الظروف التي واكبت اجتماع السقيفة ، ومن العوامل التي ابرزت التيارات الفكرية . . . وقد تخلص من سيطرة الأسر ، والعائلات وقد جرب مأساة التفكير في اقامة مجتمع الدولة الاسلامية والذي تجاهل العامل القومي « الاجتماعي » مما سبب في الصراعات القوية والتي غذاها كثير من التيارات والمذاهب الفكرية هذا التفكير لا بد وان يبحث في الاسلوب الذي يمكن كل شعب من الشعوب الإسلامية من ممارسة هذه القاعدة الدينية المتمثلة في الشورى .

ان الاسلام يقدم لنا النموذج العملي الذي يجب أن يقود التفكير الاسلامي في اتجاه تطبيق هذه القاعدة . . ان صلاة الجمعة . . وصلاة العيدين . . وغيرها من العبادات الجماعية ليست سوى مؤتمرات من الممكن أن تؤخذ فكرتها كنموذج لخلق الاسلوب الذي يمكننا من تحقيق الشورى .

غير ان اعتراضين قد يقدما « عن جهل » لهذا التحليل ، وانا اقول عن جهل لأن هذا التحليل ليس اجتهاداً فردياً بمقدار ما هو شرح بسيط لهذه الآيات القرآنية يمكن لأي انسان رفض سلطان الهوى ان يصل اليه . . .

فالاعتراض الأول الظاهري ان جعل الشورى للمؤمنين جميعاً وبينهم يتعارض (وأولي الأمر) الذين اشار الله اليهم في سورة النساء في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ فهذه الآية توضح ان هناك اولي الأمر من الضروري وجودهم ومن الواجب طاعتهم،ان هذه الآية قد استغلت لاثبات وجود الفرد الحاكم ولايهام المسلمين بضرورة طاعته وعدم رفضه والثورة عليه ذلك لأن الثورة عليه ورفضه هي ثورة على الله وعدم طاعة لاوامره . . وكثيراً ما سمعنا ابواقاً تردد في كل عصر ان هؤلاء « الاباطرة ـ والقياصرة » وان اختلفت اسماؤهم من ملك الى امير الى شيخ . . الى رئيس جمهورية هم اولو الأمر وان طاعتهم من طاعة الله ورسوله وعصيانهم من عصيانها . . وقد فهم الكثير من المسلمين وجوب ذلك فاحنوا الرؤوس طاعة ، وقبلوا الأيدي . . . واعلنوا الرضوخ والاستسلام .

كلا ! ما اراد الله للمسلمين ان يحنوا الهامات لأحد الا لله . . وان يعلنوا الطاعة لاحد الا لمشيئته . . ان اي محاولة لفرض هيمنة هؤلاء على المسلمين هي محاولة تقف في الصف المعارض للاسلام ولابسط قواعد الايمان التي جاء بها .

ان مفهوم اولي الأمر لا يمكن ان يفهم خارج سياق آيات الشورى بالتحليل السابق ، فالمؤمنون جميعاً مطالبون بممارسة الشورى ، وفي امرهم بينهم ، فاذا وصلوا الى قرار اختاروا من بينهم اصحاب هذا الأمر أي « اولي الأمر » اذا ، فولاية الأمر مرحلة ثانية بعد الأمر ذاته فاذا لم يكن هناك امر اساسي ، او ان هذا الأمر لم يترك التشاور فيه للمسلمين جميعاً وبينهم كان وجود اولي الأمر من باب اولي وجوداً غير جائز ان لم

يكن غير ضروري على الاطلاق . . . كما أن مجيء اولي الأمر بصيغة الجمع مع ان السياق هو الافراد يأتي دليلاً على ان اولي الأمر ليسوا فرداً وانما جماعة بحيث تسقط نظرية الفرد الحاكم التي ينظر لها كثير من الجاهلين .

هذا هو الاعتراض الأول ، أما الاعتراض الثاني ، فهو الادعاء بانه من المستحيل أو من غير العملي ممارسة الشورى بهذا الشكل العام . . . وهذا الاعتراض بدوره نتاج قصور الفهم ، او ربما هوى ، ذلك ان آيات الشورى قد وضعت الاساس العملي الذي تمارس به الشورى ، اما كيف يقسم المجتمع بشكل يمكن المجتمع من ممارسة الشورى فهي قضية تنظيمية اكثر منها فقهية دينية فالمهم هو تحقق القاعدة الدينية الشورى . . .

كيف ينظم المسلمون على اساس هذه القاعدة

ظل حلم اقامة الدولة الإسلامية حلمًا يراود خيال الكثير من المفكرين المسلمين وهم ينظرون للنظام السياسي . . . وهو نفس الحلم الذي طمس عليهم التفكير في مسألة الخلافة والامامة باعتبارها قاعدة دينية او دنيوية ان الدولة الاسلامية في الواقع لم تتحقق يوماً ما من الايام . ففي زمن الخلفاء حتى وان جاريناهم القول واعتبرنا ما وجد دولة فهي دولة قريش . . . وفي عهد بني امية هي دولة اسرة من قريش ، وكذلك في زمن بني العباس . . أي انها حتى وان حاولت ان تتظاهر بمظهر الدولة الاسلامية فهي في الواقع لم تكن دولة اسلامية بل ان حركة ما يسمى بالشعوبية هي حركة تؤكد ان هذه الدولة لم تكن موجودة اصلاً بالتصور الذي يحاول بعضهم طرحه .

ان الشعوبية رغم ما وصفت به من اوصاف ، وبرغم ما نسب اليها من سلبيات هي في الواقع رد فعل طبيعي لتكوين سياسي غير طبيعي ان دولة تدعي رفع شعار الاسلام الذي يؤكد المساواة ، وعدم التفاضل الا بالتقوى في الوقت الذي تجعل السلطة فيها لقبيلة كقريش ، ولاسرة كبني امية او بني العباس هذه الدولة لا يمكن ان يكون رد الفعل فيها الا المعارضة والرفض ليس فقط في المستوى القومي بل حتى على المستوى الاسري وهذا ما اكده صراع الاسر الدموي ، وما اكدته حركة الدويلات المنفصلة عن جسم الدولة . . .

ان التكوين الطبيعي لاي دولة من الدول هو الاساس القومي أي الاساس الاجتماعي وهذا ما يؤكده القرآن نفسه فخلق اي كيانات صناعية سوف ينهار حتمًا امام العامل القومي او الاجتماعي الطبيعي ، كما ان الاعتراض على الأساس القومي في تكوين الدول هو اعتراض على المشيئة الالهية التي اقتضت خلق الناس شعوباً وقبائل . . .

ان أي شعب اسلامي له الحق في اقامة نظامه السياسي على اساس القاعدة الدينية الممثلة في

الشورى . .

تأكيداً لقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ .

ان الاسلام يمكن ان يحقق للشعوب الاسلامية رابطة روحية ، ويمكن لهذه الشعوب التي تطبق الشورى ان تنظم علاقاتها العامة كشعوب تدين بدين واحد بشكل يحقق لها التنسيق والتعاون ، ويمكن ان يكون هناك مؤتمر شعبي عام لكل الشعوب الاسلامية يتم في هذا المؤتمر صياغة القرارات التي تتخذها الشعوب الإسلامية في مجال العمل الاسلامي والتعاون ، ويمكن ان يتم اختيار لجان تنفيذ من هذه الشعوب لتتولى تنفيذ هذه المقررات . . .

ان هذا الشكل الذي ينسجم مع التكوين الطبيعي لكل شعب من الشعوب علاوة على انه لا يتعارض مع الجعل الالهي للناس شعوباً وقبائل . . يقضي على مبررات الصراع القومي ، وينهي الحركات الشعوبية القومية الانفصالية بعد ان يزول السبب الاساسي لها وهو تحكم شعب في شعب آخر . . . ان القول بتكوين دولة من مليار مسلم متعددي الشعوب واللغات والثقافات هو حلم جميل ولكن لا يزيد عن كونه كذلك اما في الحقيقة فان من المستحيل اقامة مثل هذا الكيان . . .

ان المفكرين المسلمين لا بد عليهم وان يتجاوزوا التفكير الطوباوي الى تحليل الأمور تحليلاً علمياً . . وتجاوز عقد العاطفة والوهم . . . ومحاولة التفكير الجدي في ايجاد صور للتعاون الامثل بين الشعوب الاسلامية . . . وفي العمل على تحرير هذه الشعوب من تسلط انظمة الحكم . . وتسلط الادوات الدكتاتورية والحزبية والتأكيد على القاعدة الدينية(الشورى)التي تحقق الحرية في كل شعب من الشعوب وتضع كل فرد امام مسؤولياته . .

ان النظام السياسي الذي يقام على اساس الشورى لكل الناس وبينهم دونما نيابة او تمثيل هو النظام الوحيد المستند على القاعدة الالهية والذي سوف ينتصر ضد كافة الانظمة السياسية السائدة الآن في العالم . . ولكن بقدر ما في هذا النظام من عوامل البقاء والانتصار بقدر ما يحتاج الى قوة مؤمنة تدعو له وتحرض عليه احقاقاً للحق وابطالاً للباطل « واولئك هم المفلحون » . . .

المصدر : القرآن الكريم

المراجع :

(1) ابن هشام ، السيرة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ط/ 3 ، 1971م .
(2) ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ، بيروت ، ط/1/1983م .
(3) ابراهيم الشريفي ، التاريخ الاسلامي ، دار اليقظة العربية ، السعودية ط / 2 / 1971م .
(4) الشهرستاني ، الملل والنحل ، مطبعة مصطفى الباسي الحلبي ، مصر ط/2/1961م .
(5) محمد يوسف الكاند هلوي ، حياة الصحابة ، دار القلم ، بيروت ط/ .

من قضايا الفكر والعقيدة

دراسة في حلقات

الحلقة الأولى :

نحو منهج افضل لفهم قضايا العقيدة ودراستها

الأستاذ: الصديق يعقوب

(1)

بين يدي البحث: هذه الدراسة تحاول أن تتبع ـ إذا استطاعت ـ مراحل وأطوار هذه الرحلة الطويلة رحلة الفكر مع العقيدة، ورحلة الإنسان والجماعة الإنسانية والإنسانية جمعاء مع العقيدة والفكر.

والحقيقة التي لامراء فيها أن الانسان حيوان ناطق أي مفكر بالقوة دائمًا وبالفعل أحيانًا، و إذا مضينا في استعمال طريقة المناطقة فإنا نقول: كل مفكر معتقد، ونتيجة المقدمتين لهذا الدليل القياسي هي أن الانسان حيوان ذو عقيدة، ولعل هذا التعريف للإنسان أقرب إلى الحقيقة؛ لأنه أشمل من تعريف المناطقة وعلماء الاجتماع وعلم النفس له لأنه تعريف يحتويها جميعها.

من هنا يمكننا أن نتصور موضوع هذه الدراسة في صورة دائرة ذات مركز ومحورين: مركزها الإنسان، ومحوراها: الفكر والعقيدة وفي هذا التصور افتراض وهو ضروري لتقريب مرامي هذا البحث وآفاقه إلى الأذهان مع ما في طبيعته من خطوط متشابكة، ومحاذير قد تؤدي إلى شيء من التعتيم على معالم الصورة مع وضوحها في ذاتها.

(2)

إن المعرفة الإنسانية في آخر مرحلة وصلت إليها تمثل تراثًا ضخمًا ورصيدًا عظيمًا للعقل الانساني كمًا وكيفًا هذا إذا وضعنا في الاعتبار العامل الزمني التاريخي في مسيرة الإنسانية تواكبها المعرفة مع تذبذب خطوط الرسوم البيانية للفكر والمعرفة ارتفاعًا وانخفاضًا بين أمة وأخرى، وحقبة تاريخية وأخرى بل بين لون من المعرفة، ونمط آخر من هذه المعرفة. إننا هنا أمام رصيد هائل من المعرفة، وأمامنا نتائج مذهلة وصل إليها العقل الإنساني بوسائله المتعددة والمختلفة والمتطورة. ولكنها مذهلة فقط للعقل الإنساني المحدود في ذاته والمحدود أيضًا في نتائج معرفته. أما حقيقة الأمر، وأما الأمر في حقيقته فهذا هو المذهل حقًا، ولا يزال وسيظل كذلك لأنه الحقيقة المطلقة التي لا يحتويها المكان ولا تخضع لما تباين وتعدد من قيود الزمن وحدوده إنه: **«وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً»**(1) وهذا النص القرآني تصوير للحقيقة والأمر الواقع بالفعل سواء أكان المخاطب به يعيش في العصر الحجري، أم كان يعيش في عصر تحليل الذرة واستخدام العقل الآلي ذلك بأن هذا النص كما سلف القول يمثل الحقيقة المطلقة، والإطلاق يعني الخروج من دائرة الزمان والمكان بعد الخروج من كل الدوائر. ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن هذا النص الكريم الذي يحدد درجة المعرفة الانسانية في كل عصورها السابقة واللاحقة يمثل في ذات الوقت الميزان القسط للمعرفة الإنسانية ورسم حدودها حيث يثبتها ـ على قلتها ـ كما هي ثابتة بالفعل وهذا يمثل حدًا وردًا لمذهب الشك الذي يمثل أحد اتجاهات الفكر الانساني قديمًا وحديثًا. كما أن هذا النص أيضًا يتحدى العقل و يستفزه من أجل مواصلة الرحلة إلى المجهول الذي لن يدرك آفاقه صانعًا ما صنع، وهو في بحثه المضني سوف يدرك الكثير ولكن هذا الكثير سيبقى دائمًا في دائرة القليل إذا وضعنا في الاعتبار دائمًا عامل النسبة بين المعلوم والمجهول باعتبار الموجود، ولعل التصوير والتصور لهذه النسبة يزداد وضوحًا من خلال تأملنا لنص قرآني آخر هو قول الحق تبارك وتعالى: **«قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا»**(2). إن **«كلمات ربي»** قد يذهب الفكر في مدلولاتها كل مذهب، ولكنها على أي معنى فهمناها تمثل معارف. والمعاني في كلمات الله لا محالة تربو على المباني، و إن العقل لو حاول جاهدًا أن يتمثل ما وراء هذا الغرض أو حتى هذا الغرض ذاته فإنه سينقلب خاسئًا وهو حسير.

إننا لا نقحم النصوص القرآنية في هذه المباحث الفكرية العامة إقحامًا لكننا نركن إلى مسلمة لا جدال فيها وهي أن نصوص القرآن في مجموعها إنما تعالج قضية العقيدة وقضية التشريع: تعالج القضية الأولى بما تتضمنه من حقائق كونية و إنسانية عامة، وتبحث الثانية من خلال ما تشتمل عليه من حقائق تضع في الاعتبار المتغيرات والثوابت في حياة كل الأفراد وكل الجماعات عبر حقب التاريخ المتتابعة والمتطورة تبعًا لتطور الانسان الاجتماعي والفكري والحضاري العام. وهذه النصوص و إن كانت في جانبها الثاني تتوجه إلى الإنسان المؤمن إلا أنها في شقها الأول تخاطب الإنسان بإطلاق: أي الإنسان الذي يبحث عن مرتكز متين للعقيدة، والإنسان الذي يتنكر للأصول الكونية والفطرية لهذه العقيدة، والإنسان الذي يحارب هذه العقيدة في ذاتها أو في أشخاص معتنقيها. وانطلاقًا من هذا المبدأ كان استخدام القرآن في هذا الجانب ـ جانب التمكين للعقيدة الصحيحة والبرهنة على أصولها ـ لقوانين الفكر، ووسائل مخاطبة الوجدان والعقل، واستخدام الأدلة الكونية

وكل هذه الطرائق من البرهنة والاستدلال تمثل عوامل مشتركة بين أفهام بني البشر جميعًا.

ومن هنا ندرك وهن رأي من يري أن الملحد أو المخالف في العقيدة لا يصح ـ منهجيًا ـ أن نستخدم في اقناعه والبرهنة له نصوصًا من القرآن بحجة أنه لا يسلم بها ومن ثم فهو لا يؤمن بمضمونها إن هذا الرأي واهٍ ومردود لما فيه من مغالطة: إننا لا نلزم الملحد بهذه النصوص ولكنا نلزمه بقضايا عقلية عامة، وقوانين فكرية شاملة اشتملت عليها هذه النصوص.

إن الوثنيين إبان نزول الوحي على محمد وعلى الرسل من قبله عليهم جميعًا صلاة الله وسلامه لم يعترضوا على البراهين التي جاء بها الوحي بحجة أنهم لم يسلموا بالوحي بعد ولكنهم ركنوا إلى سندٍ واهٍ حيث تعللوا بضرورة اتباع الآباء، وعدم إمكانية الخروج على القديم المألوف. فالإلحاد في كل صوره، والوثنية في شتى مظاهرها كل ذلك إنما هو مكابرة وجحود وتنكر لدلائل الكون الماثلة، وبراهين الفكر الملزمة قبل أن يكون إنكارًا للوحي ومعارضة لرسالات الله.

(3)

العقل الإنساني من حيث مصدره منحة لبني البشر من خالقهم، ونعمة عظمى حظي بها الانسان ضمن هذا العدد العظيم كما وكيفا من الآلاء أما من حيث العمل المنوط به فإنه آلة الفكر و إحدى وسائل المعرفة. وأما من حيث دائرته التي يتحرك في إطارها فإن هذه الدائرة مهما رحبت إلا أنها تبقى محدودة ذات نطاق محصور بالنظر إلى طبيعة العقل و إمكاناته، وبالنظر إلى طبيعة المعرفة وقضاياها: ذلك بأن المعرفة تتنازعها مجموعة من الوسائل كل وسيلة تعمل في نطاقها وقد يشترك عدد من الوسائل في الوصول إلى إحدى حقائق المعرفة وقد تنفرد وسيلة واحدة بالوصول إلى حقيقة من الحقائق.

على أن عامل الزمن هنا له اعتباره وأهميته: فقد يستغرق الوصول إلى إحدى الحقائق عدة أجيال وعددًا من حقب التاريخ. وقد تنتهي الإنسانية في طور من أطوار تاريخها الفكري إلى ما يظن أنه حقيقة مسلمة ثم تستجد معطيات أخرى وتتفتح أبواب جديدة من المعرفة والفكر في إطار من البحث الجاد المثمر فيقتضي كل ذلك إعادة النظر في تلك المسلمات «القبلية» التي نعتت من قبل بأنها حقيقة. وفي التاريخ بعامة وتاريخ الفكر بخاصة صور كثيرة من هذا القبيل.

هذا التغيير والتطور الدائم في دائرة الفكر والمعرفة الإنسانية يمكن اعتباره قصورًا ونقصًا بالنظر إلى ما يواكبه من عدم الثبات والاستقرار وعدم الاطمئنان إلى نتائجه كما يمكن اعتباره سعيًا إلى الكمال بالنظر إلى تطوره الموحي بالحيوية الكامنة فيه، وباعتبار ما يكتسب هذا الفكر من خبرات وتجارب ناجحة في كل مرحلة من مراحل تطوره.

(4)

الفكر الإنساني عبر العصور ولدى كل الأمم وفي كل الحضارات يوحى للمتأمل فيه بأن العقل قاصر وليس

بكاف لقيادة الإنسان في كل عصوره، وفي جميع أموره، هذا إذا نظرنا إلى العقل من حيث طبيعته لكن هذه الحقيقة تتأكد إذا وضعنا في الاعتبار المؤثرات الخارجة عن العقل والمؤثرة فيه: سواء أكانت من البيئة أم كان منشؤها معارف وخبرات سابقة يسلم بها العقل ويستخدمها مقدمات لنتائج لاحقة. على أن العقل الكلي الكامل إنما هو مثال أما العقل الجزئي فهو عرضة لأن ينحرف عن مساره لسبب أو لآخر فيتعثر في سيره ويتخبط في نتائجه و إذا سلمنا بهذا فإن نتائج الفكر تبقى نسبية حتى تلك التي استخدمت فيها قواعد المنطق الذي عرف بين المفكرين بأنه: قانون يعصم الذهن عن الخطأ في الفكر. وتبين فيما بعد من خلال نتائج الفكر واختلاف المناهج «أن العقل الذي يمكنه أن يبني يمكنه في ذات الوقت أن يهدم»(3) وانطلاقًا من هذه المسلمة كانت ثورة الفكر الغربي المبكرة على المنطق الصوري وأشكاله. ومن قبلها كانت في الشرق الإسلامي معارضة شديدة لطرائق الاستدلال على قضايا العقيدة الاسلامية بالمنطق الأرسطي.

الجدير بالملاحظة هنا هو مانجده لدى بعض المفكرين الإسلاميين من إيمان مطلق بصحة نتائج الفكر التي انتهى إليها بعض حكماء اليونان. والأمر هنا لا يقف عند حد الإيمان بالعقل باعتباره مصدرًا من مصادر المعرفة ولكنه يتجاوز ذلك إلى الفكر ذاته مع أنه نتاج عقل جزئي يجوز عليه الخطأ كما يجوز منه الصواب. وأتساءل هنا كيف لايتأتى لمفكر بمثل عقل الفارابي أن يتصور اختلافًا بين رأى أفلاطون وأرسطو فيتمحل للجمع بين رأييهما حتى حين تصادفه العقبات و يجد بين مذهبيهما تعارضًا لسبب أولآخر؟ وكيف يمكن لمفكر بمثل عقل ابن رشد أن لا يتصور اختلافًا بين الفلسفة والدين؟ إن تبرير هذه التأويلات وهذه المحاولات في المشرق أو في المغرب في الشرق أو في الغرب من أي مفكر بحجة الدفاع عن اتجاه فكري معين والتمكين له أو بدعوى المحافظة على وجود المفكر ذاته والإبقاء على حياته كل هذا ليس بكاف لإبداء الرأي بهذه الصورة في مثل هذه القضايا المتصلة أوثق اتصال بأعظم ما منح الإنسان في هذا الوجود: العقل والدين.

إن الانحراف في فهم طبيعة العقل قد يصل ـ نتيجة لبعض الأسباب ـ إلى درجة يجعل فيها العقل ندًا للوحي كما فعل الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد حيث «لم يقف بالعقل عند كونه جهازًا من أجهزة في الكائن البشري يتلقى الوحي، ومنع أن يقع خلافٌ ما بين مفهوم العقل وما يجيء به الوحي ولم يقف بالعقل عند أن يدرك ما يدركه ويسلم بما هو فوق إدراكه بما أنه هو والكينونة الانسانية بجملتها غير كلي ولا مطلق، ومحدود بحدود الزمان والمكان بينما الوحي يتناول حقائق مطلقة في بعض الأحيان كحقيقة الألوهية وكيفية تعلق الإرادة الإلهية بخلق الحوادث وليس على العقل إلا التسليم بهذه الكليات المطلقة التي لا سبيل له إلى إدراكها.. فالعقل والوحي ليسا ندين فأحدهما أكبر من الآخر وأشمل، وأحدهما جاء ليكون هو الأصل الذي يرجع إليه الآخر، والميزان الذي يختبر الآخر عند مقرراته ومفهوماته وتصوراته، ويصحح به اختلالاته وانحرافاته فبينهما ولاشك توافق وانسجام ولكن على هذا الأساس لا على أساس أنهما ندان متعادلان»(4).

(5)

انتهى بنا البحث إذن إلى أن العقل مصدر أساسي من مصادر المعرفة ولكن المعرفة في نطاقه تبقى محدودة لا

تحقق تطلعات الانسان الدائمة اللامحدودة إلى المعرفة: فالانسان بطبيعة تكوينه ونظرًا لوجوده في هذا الكون يتطلع دائمًا إلي اختراق الحجب لكشف ما وراء هذا الكون المعلوم من مجاهيل على أن الجدير بالملاحظة هنا هو أن المعرفة المجردة وحدها قد لا تكون حرية بهذه الجهود المضنية التي بذلها وما زال يبذلها الإنسان في سبيلها لكن المعرفة قد تكون غاية وجديرة بهذا العناء إذا ما ارتقت إلى درجة أسمى من مجرد المعرفة إنها درجة الاعتقاد، إن المعرفة إذا سمت إلى هذه الدرجة تسيطر على كيان الانسان كله وتكون موجهة له بعد أن كانت من قبل يوجهها الفكر بمناهجه ويكيفها الانسان كيف شاء. إن المعرفة حين تكون بهذه الدرجة من القوة أي حين تكون عقيدة لا يتأتي أن تستند إلى العقل وحده فتعتمد عليه وهو جزء من الانسان في حين أن العقيدة هذه تسيطر على الانسان كله. إننا هنا أمام حاجة ملحة لمصدر آخر من مصادر المعرفة يتجاوز حدود المعرفة العقلية إلى آفاق وأبعاد أخرى، إن المعرفة الاعتقادية التي يبحث عنها المؤمن غير المعرفة المجردة التي يقنع بها ويقف عندها المفكر. إن الوسائل متغايرة كما أن الغايات متباينة. من السهل على المفكر أن يتراجع فيرجع عن بعض نتائج فكره أو يعدل فيها إذا تبين له خطأ في المنهج أو في الموضوع. ولكن من الصعب على المعتقد أن يتراجع عن عقيدته بل من الصعب عليه أن يعترف بخطأ فيها. وفي هذه الفروق يكمن السر في اختلاف مظاهر الصراع بين المختلفين في المذاهب الفكرية والمتباينين في العقائد الإيمانية إن قوة العقيدة تكمن في قوة مصدرها ووضوح براهينها وبساطتها وشموليتها ومن ثم فإن العقل في أحسن صوره غير كاف لأن يكون مصدرًا للعقائد في موضوعاتها بل إنه غير كاف لأن يكون مصدرًا للبرهنة عليها. و إذا اتسعت دائرة العقيدة لتشمل الكينونة الانسانية كلها وتسيطر عليها وتخرج بذلك من دائرة العقل المحدودة فإن مجالاً آخر يماثلها في هذه الشمولية إنه مجال الأخلاق. وحيث انتهى السير بالعقل إلى هذه القضايا الانسانية الشاملة فمن اللازم عليه ومن الأفضل له أن يتئد ليفسح المجال لمصدر آخر من مصادر المعرفة إنه الوحي ركيزة الدين ومستند رسالات الله. والوحي الإلهي في هذه الرسالات جميعها لا ينكر العقل ولا يتنكر له ولكنه يخاطبه ويهديه ويعتمد عليه ويعمل على توجيهه «في مسائل معينة هي:

أولاً: ما وراء الطبيعة أي العقائد الخاصة بالله سبحانه وتعالى وبرسله صلى الله عليهم وسلم وباليوم الآخر وبالغيب الإلهي على وجه العموم.

ثانيًا: في مسائل الأخلاق أي الخير والفضيلة وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني ليكون الشخص صالحًا.

ثالثًا: في مسائل التشريع الذي ينتظم به المجتمع وتسعد به الإنسانية. وجاء الدين هاديًا للعقل في هذه المسائل بالذات لأن العقل إذا بحث فيها مستقلاً بنفسه فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق عليها الجميع»(5).

(6)

الحقيقة التي يلزم التأكيد عليها لأن تاريخ الفكر والعقيدة يؤكدها هذه الحقيقة هي أن العقل والدين قد كانا دائمًا متعاضدين وكل ما يثبت بصحيح النقل فهو مؤيد دائمًا بصريح العقل. لكننا نلاحظ من جانب آخر

أن للفكر مع العقيدة شأنًا آخر لقد سارا أحيانًا في خطين متوازيين أما في بعض الأحيان الأخرى فقد كان بينهما لقاء واتفاق وبتأثير الاتجاهين كليهما نشأ ما عرف في الاوساط الدينية والفكرية بالفكر الديني.

إن الصدام بين الفكر والعقيدة أحيانًا أمر مقبول بقانون المنطق إذا وضعنا في الاعتبار قصور الفكر ومحدودية تصوراته، والمؤثرات التي يخضع لها. وقد نميل هنا بحكم المنطق أيضًا إلى جانب العقيدة فنؤيده ونناصره وذلك إذا نظرنا إلى العقيدة من خلال مصادرها الموثوقة بعيدة عما قد يعلق بها من شوائب. لكنا من جهة ثانية وباعتبار آخر مضطرون إلى الوقوف بجانب الفكر مهما كان قاصرًا ومحدودًا إذا كان المقابل له إنما هو اللاهوت(6) أي العقيدة من خلال وجهات نظر معتنقيها إذ العقيدة في هذه الحال قد تكون بعيدة كل البعد عن أصولها بل قد تكون متناقضة مع هذه الأصول فيلجأ الباحث حينئذ إلى الفكر بقصد التمييز بين هذه التصورات المتعددة والمتباينة في إطار اللاهوت أو في دائرة الفكر الديني وهذه الخطوة إنما تتم في غياب نص الوحي الموثوق أو في وجوده مع إهماله تحت ضغط من مؤثرات خارجية أو داخلية في بيئة المؤمنين بهذه الرسالة الإلهية أو تلك.

وليس هناك ما يدعو إلى التأكيد و إيراد العديد من الأمثلة على أن هذه الأدوار والصراعات قد مر بها كل دين من الأديان بدون استثناء الاديان الثلاثة الأخيرة وخاتمها الإسلام إذا جارينا علماء المقارنة بين الأديان في استعمالهم هذا المصطلح في تعدد الأديان.

(7)

إن انزلاق اليهود إلى الهوة المادية والتحديد الساذج في تصوراتهم العقيدية وتحريفهم المتعمد لكتابهم المقدس، واستبدالهم فصولاً مختلقة من عند أنفسهم بمقاطع ونصوص صحيحة من الوحي كل هذا أعطى فرصة للمفكرين من اليهود وغيرهم بأن يقوموا بتوجيه النقد إلى اليهود واليهودية و إلى التوراة في صورتها المحرفة وهي الصورة الباقية بين أيدي المفكرين المتخصصين في مثل هذه المباحث والدراسات(7) ومما هو جدير بالاشارة هنا تلك المحاورات والنداءات المتكررة التي وجهها القرآن ـ وهو الوثيقة الدينية الوحيدة المقطوع بصحتها ـ إلى اليهود ضمن أهل الكتاب داعياً الرسول محمداً ﷺ إلى التدرج معهم في المجادلة والمحاورة وإلى الاحتكام للتوراة ذاتها إن كانت لديهم النية الصادقة في الوصول إلى الحقيقة فيما يجادلون فيه: «**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**»(8) إن اختفاء أو إخفاء أو تحريف النص الأصلي الذي إليه ترجع أصول العقيدة، وعليه يعتمد المؤمنون في إيمانهم كل تلك العوامل وغيرها يعطي دفعة للقائمين بأمر اللاهوت فتتعدد التصورات وتنشأ المذاهب، ويتفرق أتباع العقيدة الواحدة إلى أحزاب وفرق وتتراءى في الأفق ثم تتمثل على أرض الواقع ضروب من الصراع ليس أقلها حدة صراع الأفكار حول ما يظن أنه عقيدة أو دين لكنه في حقيقته لا يتجاوز أن يكون أفكارًا أو تصورات شخصية للعقيدة والدين، إن الحقيقة الإنسانية التي أيدها التاريخ في كل أطواره أن الإنسان يختلق أسباب الصراع اختلاقًا ثم يتذرع بذرائع من العقيدة والدين لا صلة لها بنشأة الصراع ولا باستمراره لأن هذا الصراع قد ينشأ حتى مع وجود النص المتفق عليه من قبل الجميع فلا يعدم المتخاصمون ما يثير الفتنة ويفرق الوحدة ويقسم الصفوف هذا هو ديدن أدعياء الإيمان وما هم بمؤمنين:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾(9).

(8)

لقد كانت المسيحية في دورها الأول في حياة المسيح والحواريين دعوة إلى التوحيد الخالص لكنها بعد رفع المسيح واختفائه من تاريخ الدعوة وموت الحواريين انتقلت إلى أدوار أخرى لن يكون آخرها هذا الدور الذي تمر به الآن حيث انتهى بها أتباعها من خلال المجامع المسيحية والمباحث اللاهوتية إلى تصورات متناقضة مع بعضها ومناقضة لأصولها الإلٰهية كما نزل بها الوحي على المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾(10) فكانت نتيجة هذا الانحراف عن الأصل الإلٰهي ما نجده في المسيحية من هذا الخلط العجيب المتناقض بين التوحيد والوثنية في صورة التثليث بتطوراتها حيث اختلط فيها ما هو إلٰهي بما هو بشري بدون ضوابط أو حدود مما أوقع العقل الغربي الذي انتقلت هذه العقيدة إلى بيئته خطأً في حيرة لم يتمكن من الخروج منها إلا بالخروج من هذه العقيدة فكان انسلاخ الغربيين من المسيحية من الأسباب التي دعت القائمين بأمر المسيحية إلى أن يُعِدوا المبشرين المهرة للقيام بمهمة نشر المسيحية والدعاية والتمكين لها في أقطار أخرى من العالم خارج القارة الأوروبية بأساليب مبرمجة وخطط مدروسة تقدم هذه العقيدة المحرفة المتناقضة والمناقضة لأوليات العقل بعد أن زهد فيها معتنقوها تقدمها مع رغيف الخبز إلى الحشود من الجوعى في أدغال أفريقيا، وتبشر بها مع حقنة الدواء إلى الملايين من المرضى في أحراش آسيا. إن الذين تقدم لهم عقيدة بهذه الصورة لا تسمح لهم ظروفهم الحياتية بأن يتساءلوا عن مدى صحة هذه العقيدة أو زيفها فيتقبلونها مؤمنين وماهم بمؤمنين.

وهكذا تفقد العقيدة حقيقتها فتفقد بهذا أحقيتها وأتباعها فتحاول جاهدة أو يحاول المتنفعون بها على صورتها هذه جاهدين أن يكسبوا في نطاقها الأتباع الآخرين من أجناس أخرى وتستعمل في سبيل ذٰلك كل الوسائل الممكنة وجميع الامكانات المتاحة. وقد كان كل هذا سر التناقض الحاد والصراع الدامي بين ممثلي الفكر والقائمين بأمر الكنيسة في الغرب. ولم تكن الثورة داخل الكنيسة لتوقف هذا الصراع لأن تلك الثورة عُنيتْ بالشكل والمظهر أكثر من الأساس والجوهر حيث اعترضت على بعض الأجراءات داخل الكنيسة وشجبت بعض الممارسات اللادينية من قبل رجال الدين الذين لهم وحدهم حق تفسير النصوص، وبقيت المعضلة الأساسية في الدوائر المسيحية معضلة العقيدة المسيحية في تصور الإلٰه كما تقررها المجامع المسيحية الدورية وكما تصورها الدراسات اللاهوتية التي تذرعت بالفلسفة قصد الاستفادة منها والاستعانة بها في التمكين لهذه الدراسات داخل الدوائر الفكرية. والمتأمل قليلاً لمسيرة ومسارات الفكر الغربي فيما يتعلق بالمسيحية يلاحظ عدة اتجاهات في هذا الفكر فهناك اتجاه يساند المسيحية ويعاضدها وهناك اتجاه يعارضها ويفند أسسها. وهناك اتجاه لا يوليها اهتمامًا ولا ينشغل بها.

إن منشأ الانحراف في المسيحية كان على نمط ما سبقت إليه اليهودية من قبل إنه البعد قليلاً أو كثيرًا عن

النص الصحيح للوحي في فهم أصول العقيدة ثم عرض هذه القضايا للبحث في نطاق الفكر بمناهجه المتباينة فتنشأ الآراء المتناقضة، والمذاهب والفرق المتصارعة.

لقد انقسمت المسيحية على نفسها من خلال الكنيسة الممثلة لها إلى شرقية وغربية، وانقسم المسيحيون في دور من أدوار تاريخهم ـ وهو دور حديث نسبيًا ـ إلى كاثوليك وبروتستانت. ولم تقتصر الانقسامات في المسيحية وبين المسيحيين على هذا الحد. ولم تكن كل هذه الانقسامات راجعة إلى أصل من أصول العقيدة ولكنها في حقيقة الأمر إنما ترجع إلى قرارات المجامع وأمزجة الأتباع، واختلافهم بين محافظ متبع أو منشق مبتدع. وكان الفكر بحركته الدائمة وتطوره السريع ومذاهبه المتعددة يغذي هذا الاتجاه أو ذاك، وهو في الاتجاهين كليهما يبحث صادقاً حيناً وعابثاً أحياناً عن مرتكز صحيح للعقيدة المسيحية التي كتب عليه أن يلتقي بها فيلقي عليه الجزء الأكبر من أعبائها. وهو إذ يبحث بصدق يقترب من المسيحية الحقة ويبتعد في ذات الوقت من المسيحية السائدة بين المسيحيين اليوم وهو في قربه وفي بعده يلتقي وجهًا لوجه مع الإسلام.

(9)

في محيط الأمة الإسلامية وفي دائرة العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي بين الجماعة المؤمنة يعيد تاريخ الفكر والعقيدة نفسه فتتشابه الصور ولكنها لا تتطابق وذلك لعدد من الأسباب والمعطيات، على أن النتيجة والغاية التي انتهت إليها اليهودية ومن بعدها المسيحية لم ينته إليها الإسلام ويقيني أنه لن ينتهي إليها وذلك فيما أرى راجع إلى أن الاختلاف بين الإسلام من جانب واليهودية والمسيحية من جانب آخر ليس شكليًا مرتبطًا بمظاهر خارجية أو ظروف تاريخية واجتماعية وبيئية لكنه موضوعي وثيق الصلة بالجوهر. ومما هو جدير بالبحث هنا لتحديد معالم الصورة:

أولاً: تحديد بعض الصور التي برزت في تاريخ العقيدة الإسلامية وكانت من قبل قد ظهرت في تاريخ اليهودية والمسيحية.

ثانيًا: إبراز الفروق الجوهرية التي يلزم وضعها في الاعتبار.

ثالثًا: معالجة القضية في المحيط الإسلامي حيث العلاج ممكن وذلك لعدد من الأسباب. ولن يكون بحث هذه الجوانب مجزأة ولكن الدراسة ستتناولها منتظمة حتى لا يخرج هذا البحث عن إطاره المرسوم.

إن من سمات العقيدة أية عقيدة أنها تمر لدى معتنقيها بعدة أطوار تكون في الطور الأول موضع تقديس لها، و إيمان مطلق بها، و إذعان كامل لمضمونها، وعاطفة صادقة نحوها، وتقديم النفس والنفيس دفاعًا عنها وحفاظًا عليها وتمكينًا لها ثم يأتي من بعد ذلك طور آخر توضع فيه قضايا العقيدة موضع البحث والدراسة والنقد حيث تعرض أصولها على قضايا المنطق والفكر. وفي هذا الطور تتعدد الآراء وتتفرق الفرق وتؤول النصوص وتطرح الأسئلة وتشرع الأقلام ـ والسيوف أحيانًا ـ بين أتباع العقائد المتباينة بل بين أتباع العقيدة الواحدة من أجل الدفاع والمدافعة.

وقد مرت اليهودية بهذين الطورين ومن بعدُ كان شأن المسيحية كذلك ومن بعد الاثنتين كان كذلك شأن

المسلمين مع الإسلام ثم تباينت بين الإسلام وبين الديانتين من قبله المشارب والمسالك والمناهج والنتائج. لقد تفرق المسلمون فرقًا لا يحصيها العد حول قضايا تتصل بالعقيدة ولكن يلاحظ هنا أمران:

الأمر الأول: أن الخلاف الذي امتدت آثاره إلى الأجيال المعاصرة من المسلمين كان في بدايته خلافًا حول قضايا سياسية عولجت في جو من التعصب بعيدًا عن الدين ثم عملت السياسة في الأجيال المتلاحقة على إذكاء ناره و إحياء آثاره.

الأمر الثاني: أن هذا الخلاف كان متعلقًا دائمًا بجزئيات في العقيدة وينظر إليه دائمًا على أنه الانحراف وليس الأصل على أن القرآن الكريم كان دائمًا سدًا منيعًا أمام هذه الاختلافات بين هذه الفرق كان ذلك في الماضي وفي الحاضر هو كائن وفي المستقبل سيكون هذا السد المنيع أمام ما قد يكون من تفرق أو اختلاف. على أن نقد القرآن لاختلاف اليهود والنصارى في عقيدتهم وتفرقهم على أنفسهم كان مؤكدًا من القرآن ذاته على أن الاختلاف ليس من طبيعة العقيدة وأنه في كل صورة برز فيها إنما هو مظهر من مظاهر الانحراف لا يقره القرآن بل يشجبه وينعاه على أنصاره ومؤيديه.

(10)

حين أعمل الفكر في قضايا العقيدة في البيئة الإسلامية لم يكن هناك بد من الاختلاف بعد الابتعاد عن المنهج الذي وضعه الرسول ﷺ وسار عليه من جاء بعده ممن عرفوا في تاريخ الفكر الإسلامي بالسلف. ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن هذا المصطلح قد استعمل في فترات تاريخية لاحقة استعمالاً خطأ.

لم يكن في إمكان فرقة من الفرق الإسلامية وهي تعالج قضايا العقيدة وترد على الفرق المناوئة لم يكن في الامكان إغفال النص القرآني حتى في حال الاعتماد على قضايا المنطق والإستدلال العقلي وانطلاقًا من هذا المبدأ استعملت آيات القرآن حسب دلالاتها ومناسباتها ستارًا يتخفى وراءه الساسة للوصول إلى أهدافهم ومآربهم ويستخدمه الفلاسفة بتعسف للبرهنة على مذاهبهم وصبغها بصبغة دينية إسلامية ويلعب بألفاظه المتكلمون ليؤسسوا بناء الفكر على أنقاض العقيدة ويتناوله فلاسفة التصوف أو متصوفو الفلسفة ليحملوا ألفاظه من المعاني ما لا تحتمل.

إن الهوة التي انزلق فيها هؤلاء جميعًا على اختلاف مشاربهم وأهوائهم بوعي أو بدون وعي هذه الهوة هي التأويل وكان التأويل للنص بدرجات متفاوتة تبدأ بهذا النمط من التأويل الذي لا يأباه النص حسب الوضع اللغوي وفي ضوء النصوص الأخرى وتنتهي إلى نمط من التأويل يحرف الكلم عن مواضعه، ويطمس معالم النص حتى لا يبقى منه إلا الرسم ونجد نماذج من هذا في الاتجاه الباطني قديمًا وحديثًا وعند نفر من ذوي التصوف الفلسفي في طليعتهم محي الدين بن عربي إذا صحت نسبة الفتوحات والفصوص في طبعتهما المتداولة إليه.

إن قضية التأويل لها من الأهمية والخطورة بحيث انشطر المسلمون بتأثير منها قديمًا وحديثًا إلى سنة وشيعة. وعلى الرغم من المحاولات الجادة من بعض أعلام الفكر الإسلامي المعنيين بقضايا العقيدة في مقدمتهم أبو

حامد الغزالي وأبو الوليد بن رشد وابن تيمية بقصد وضع ضوابط للتأويل إلا أن تلك المحاولات لم تجد.

إن قضية تأويل النصوص القرآنية لا تمثل في ذاتها مشكلة مستعصية على الحل في إطار البحث المنهجي لقضايا العقيدة لو صدقت العزائم وحسنت النوايا لأن الآيات المتشابهة التي تحتاج إلى تأويل قليلة جدًا بل نادرة إذا ما قيست بالنسبة إلى الآيات المحكمة الصريحة في بابها والتي يمكن فهم الآيات المتشابهات في ضوئها ولكن كما سلف القول حين وجدت الفرق أن القرآن الكريم يمثل سدًا منيعًا أمام مثيري الخلاف والاختلاف بكل صوره وأسبابه وغاياته اختلق أقطابها مشكلة التأويل وفتحوا بذلك بابًا لم يتمكن المسلمون حتى الآن من إيصاده.

(11)

إن المعضلات التي نعانيها في دراستنا لقضايا العقيدة ومحاولتنا لفهم كلياتها وجزئياتها هذه المعضلات إنما نشأت في جو علم الكلام الذي نشأ في البيئة الإسلامية مقابل علم اللاهوت في العالم المسيحي، إن هذا اللون من البحث قد عمق الخلافات السياسية وأعطاها صبغة دينية عقدية ليست جديرة بها فنشأت في ظله الفرق وترعرعت المذاهب الكلامية ومنه استمدت عناصر الوجود والبقاء.

و إذا كان بعض الباحثين من مفكرين إسلاميين(11) ومستشرقين(12) يرون أن الفلسفة الإسلامية على حقيقتها إنما تكمن في هذه المذاهب الكلامية وما انتهت إليه من مباحث طريفة في بابها فهذا حق ولكن الحق أيضًا هو أن هذه المذاهب الكلامية بقدر ما اقتربت من الفلسفة ومناهجها كان ابتعادها عن العقيدة وطرائقها، لقد كانت هذه المباحث الطريفة إذن على حساب العقيدة. هذا ما يثبته تاريخ الفرق ويؤكده تاريخ نشأة علم الكلام فلم يكن هذا العلم في أي دور من أدوار تاريخه مقتصرًا على هذه المهمة التي حددها العلامة ابن خلدون في مقدمته ولا متضمنًا لها على الوجه الصحيح إنه يرى أن علم الكلام «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة»(13) والمتصفح للكتب الأصول في هذا العلم لا يجد بغيته التي أشار إليها ابن خلدون إلا في مواضع قليلة لكنه سيجد ألوانًا من الجدل واللعب بالألفاظ وسيلتقي بمباحث لا صلة لها بالعقيدة وأصولها وليس فيها شيء من الدفاع عنها. فإذا وضعنا في الاعتبار أن معظم الكتب التي ألفت في علم الكلام وبمناهجه إنما كانت من أجل الرد على فرق محسوبة داخل دائرة الإسلام أصبح في إمكاننا أن نشكك في أمر قيام هذا العلم بتلك المهمة التي أشار إليها ابن خلدون. على أن الغريب والجدير بالملاحظة هنا هو ما ذهب إليه ابن خلدون من أن هذا العلم ــ علم الكلام ــ غير ضروري لهذا العهد أي عهد ابن خلدون: القرن الثامن للهجرة، «إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا»(14). وموضع الملاحظة على ابن خلدون من وجوه عدة:

أولاً: ليس هناك عصر من العصور خلا من الملاحدة والمبتدعين من قبل ابن خلدون وفي عصره ومن بعده إلى يوم الناس هذا.

ثانيًا: من المسلم به أن طرائق الاحتجاج قد تختلف بين عصر وآخر ومن ثم فإن ما كتب قديمًا دفاعًا عن العقيدة قد لا يكون ملائمًا دائمًا للقيام بمهمة الدفاع عن العقيدة.

ثالثًا: إن حصر مهمة هذا العلم في الدفاع أمر ليس له ما يبرره: فنشر مباديء العقيدة والمحافظة عليها نقية خالصة من الشوائب وأخذها في الاعتبار ضمن منهج الدعوة ووضعها دائمًا في دائرة القرآن كل هذه الأمور والمهام من المفترض أن تدخل في إطار هذا العلم.

رابعًا: على أن الجدير بالملاحظة هنا أن العقل الحديث داخل العالم الإسلامي وخارجه لم يعد بامكانه أن يدرك مباحث العقيدة الإسلامية ويستوعب كلياتها وجزئياتها بطرائق البحث القديمة لا من حيث موضوعاتها أحيانًا ولا من حيث مناهجها دائمًا.

خامسًا: الجهات المناوئة للعقيدة الإسلامية سواء أكانت هذه الجهات متمثلة في التيار اليهودي المسيحي المعادي سرًا وعلانية لهذه العقيدة أم في الاتجاه الالحادي المعادي للعقائد الإيمانية على الاجمال هذه الجهات جميعها قد غيرت من خططها الهجومية والدفاعية دائمًا: فالشبه التي تختلقها الشيوعية اليوم وتضعها في طريق المد الإسلامي فتلقنها الشباب، وتروج لها عبر كل وسائل الإعلام وتمكن لها بالقوة أحيانًا هذه الشبه لم تعد هي تلك الشبه التي كان يثيرها الزنادقة والبراهمة والدهريون وكنا نقرأها ونقرأ الرد عليها في مباحث المتكلمين. كما أن تعامل مدارس الاستشراق ومراكز التبشير مع الإسلام والمسلمين لم يعد على ذلك النمط الذي كان سائدًا في فترة سابقة بين آباء الكنيسة في حوارهم مع المفكرين الإسلاميين المعنيين بأمر العقيدة ومباحثها والدعوة إليها(15) لقد انتهى الأمر في هذا الشأن إلى لون من الالتواء بطرق البحث بدرجة يصعب معها ادراك الحد الفاصل بين الاطراء والثناء من جهة والتشويه والهجوم من جهة أخرى. لقد أصبح من المستساغ في ظل تعدد المناهج وتشابكها أن يكتب مستشرق عن العقيدة الإسلامية بحوثًا يكون لها شأن بين بني قومه أو بين من يكتب بلغتهم في حين أن هذه البحوث إذا ما عرضت على أصول العقيدة الإسلامية وبمنهجها تنتهي إلى النقيض(16). أما في دائرة التبشير فقد استحدثت الكنائس ممثلة في مجلسها العالمي أنماطًا جديدة من طرق التبشير ووسائله ليس آخرها ما أعلن عنه في الدوائر المسيحية من تقديم المساعدات للأسر المسلمة التي شردتها الحرب في أفغانستان، و إيواء عدد من الأطفال المسلمين الذين فقدوا أسرهم في هذه الحرب على أننا لا نملك معلومات دقيقة عن الأسلوب الذي يستخدمه المبشرون في الدعاية للمسيحية وفي تشويه عقيدة الإسلام إن هذه القضايا جميعها وثيقة الصلة بمباحث العقيدة الإسلامية في تاريخ الإسلام المعاصر.

(12)

إن علم الكلام بوضعه الراهن وكما هو منذ قرون قد فشل فشلاً ذريعًا في القيام بالمهام الملحة المنوطة به وذلك بسبب من هذه الشوائب التي علقت به من خلال اتصاله الوثيق بتلك التيارات المتصارعة والمنتمية إلى هذه الفرقة أو تلك من عديد الفرق التي زخر بها تاريخ الفكر الإسلامي حتى أصبح الترويج للمذهب والدفاع عنه بعد الانتماء إليه هو الهدف الأول قبل التعريف بالعقيدة وتأييدها ببراهين العقل من خلال منهج القرآن.

أما الدعاوي العريضة بأن هذه الفرقة أو تلك هي التي على حق ومخالفوها على باطل وهم كفرة ملحدون أو فسقة مارقون وبالتالي فهي الفرقة الناجية وما عداها من الفرق هالكة، هذه الدعاوي لا زالت في تاريخ المسلمين المعاصر كما كانت من قبل حين صورها الغزالي في كتاب «المنقذ» كل هذا إنما نشأ في جو علم الكلام وبنمهجه الجدلي بعيدًا عن نصوص القرآن ومنهج الرسول ﷺ في فهم أصول العقيدة من هذه النصوص.

إن هذا اللون من البحث كما تصوره بحوث المتكلمين ودراساتهم قد استنفذ كثيرًا من الجهود في غير الاتجاه الصحيح ذلك لأن منطلق البحث والحوار سواء من حيث القضايا والموضوعات أو من حيث المناهج وطرق البحث كان من بدايته غير ذي صلة بالعقيدة وقضاياها فكانت نتائج هذه الدراسات على نسق مقدماتها: إنك تقرأ مؤلفا في علم الكلام ثم تقرأ بعده عشرة أو عشرين في الموضوعات ذاتها فلا تجد كبير فرق بينها إلا ما تضفيه شخصية المؤلف على البحث من حدة أو اعتدال.

قد يكون هذا النمط من البحث بهذا المنهج مما أملته طبيعة العصر، وفرضته المعطيات الفكرية والثقافية بعامة والتي كانت سائدة آنذاك ولكن هذا لا يبرر أن تسير الدراسات المتصلة بقضايا العقيدة في تاريخ المسلمين المعاصر في نفس الاتجاه. لقد انتهت الدواعي التي كانت تفرض وجود مثل تلك البحوث، واستجدت قضايا ومناهج وظروف اجتماعية وثقافية وسياسية تتطلب بحوثًا في العقيدة مغايرة في موضوعاتها ومناهجها لما كان سائدًا من قبل من هذه الموضوعات والمناهج.

(13)

لقد شوهت صورة الخلافة الإسلامية بسبب الطريقة التي طرحت بها على بساط البحث في تاريخ الفكر الإسلامي المعاصر، وحين اطلع القراء مؤيدين أو معارضين لهذا النمط البسيط الفريد في تنظيم أمور الأمة وسياستها حين اطلعوا على ما كتب عن الخلافة علقت بأذهانهم شبه نظروا من خلالها الى الخلافة الرشيدة على أنها شبح مخيف وأنها مؤامرات تحاك وخطط تدبر ومعارك تدور ودماء تسيل كل ذلك من أجل الخلافة ولم تخرج إلى الوجود حتى الآن ـ فيما أعلم ـ دراسة موضوعية منهجية تقدم صورة للخلافة نقية، وتربطها ربط محكمًا بأساسها الأول والأخير المتمثل في مبدإ الشورىٰ كما حدده القرآن وطبقه الرسول ﷺ بعيدًا عن هذا الاجترار للأحداث التاريخية وخارج نطاق هذه التأويلات والاتهامات والاعذار التي توجه من هذا الطرف أو ذاك.

وعلم الكلام على الرغم من اعتباره قضية الإمامة من مباحثه إلا أنه لم يقم بهذا العمل الجليل بهذه الصورة الصادقة. وهذا مثال واحد يضاف إلى عدد كبير من الأمثلة تقدمت الاشارة إلى بعضها خلال هذه الصفحات.

(14)

لعل في هذا الذي تقدم ما يكفي لدعوة الباحثين في شئون العقيدة وقضاياها والمتطلعين إلى لون جديد من

البحث في هذا الموضوع القديم قدم التاريخ الإنساني كله لعل في ذلك ما يكفي لدعوة هؤلاء وأولئك دعوة ملحة صادقة إلى وقفة طويلة متأنية نعيد من خلالها النظر في هذا التراث من الفكر الديني الذي اختلط فيه الدين بالفكر والحق بالباطل والاعتراضات بالشبهات والنتائج بالمقدمات وخاض في قضاياه المحق والمبطل والمتبع والمبتدع والمؤمن والملحد حتى انه لم يعد في قدرة المؤمن أو الباحث عن الحقيقة في هذا الجيل أن يميز الخبيث من الطيب.

و إنها لمهمة صعبة ومجهدة ولكنها فريضة لابد منها لمن ينتمي للدين الحق وهو حريص في ذات الوقت على أن يعود هذا الدين إلى مركز القيادة والريادة في هذا العصر الذي تنازعت فيه المشارب فزخر بالمذاهب وأصبح النزوع إلى العقيدة أية عقيدة أمرًا تفرضه ظروف العصر وتياراته وانقساماته وتكتلاته قبل أن يدعو إليه صوت الدين بوحي من فطرة الانسان.

(15)

هذا الذي نرجوه ليس دعوة إلى طي صفحات الفكر الإسلامي القديم والوسيط طيًا كما أنه ليس تنديدًا خالصًا بالاتجاهات المتباينة والمتصارعة في دائرة علم الكلام قضايا ومناهج إن بعض الأسس السليمة في هذا اللون من الفكر قد وضعها الجهابذة من أعلامنا المفكرين ولو أنها لم تراع حتى من قبلهم هم أنفسهم لهذا السبب أو ذلك.

إن ما ندعو إليه الآن هو إعادة النظر في مباحث علم الكلام: إعادة النظر فيها من حيث القضايا والموضوعات و إعادة النظر فيها من حيث المناهج وطرق البحث و إعادة النظر من حيث صلتها بالقرآن ومنهج الرسولﷺ قربًا أو بعدًا. المطلوب هو توجيه هذا اللون من الدراسة وجهة صحيحة بعيدًا عن الاتجاهات المتعارضة والتيارات المتصارعة والفرق المختلفة، بل بعيدًا عن علم الكلام ذاته ليكون ذلك العمل المرتقب في دائرة علم التوحيد أو علم العقيدة. إن تسمية هذا اللون من البحث بعلم الكلام توحي بانتكاسة هذا العلم وانحرافه من البداية إلى جوانب وأغراض من الجدل العقيم والتمويه المريب بل إلى استعمال العنف والاقتتال بالسيف بدل الحوار بالكلمة والدفاع عن وجهة النظر بالرأي والحجة واحترام الرأي المقابل، هذا اللون من البحث في مثل هذه القضايا جدير بأن نطلق عليه علم التوحيد أو علم العقيدة أو علم أصول الدين: إن قضية الوحدانية هو مرتكز الدين الإلهي ولذلك كانت لب جميع الرسالات على الإطلاق. وإن الوثنية بكل صورها وفي شتى مظاهرها هي التي تمثل جبهة الصراع المقابلة لقضية الوحدانية إن هذه التسمية هي التي تضع الأمور في نصابها، وهي التي تحدد مسار البحث وترسم خطوطه وتعين آفاقه من البداية. كما أنها هي التي تعصم الباحث من الوقوع في الخطأ في المقدمات أم في النتائج. وهي التي تربط جميع الرسالات السماوية برباط عقدي واضح فيكون من المحال التأرجح بينها وبين نقيضها. هذا من حيث الشكل أما من حيث الموضوع والجوهر فإن القضايا التي تبحث في محيط علم العقيدة تختلف منهجًا وموضوعًا عن تلك التي يبحثها علم الكلام، إن هناك قضايا من اللازم أن تطوى طيًا فتبعد عن دائرة البحث:

إن كل كلية أو جزئية تتصل من قريب أو من بعيد بذات الله المقدسة يجب أن تبقى بعيدة عن دائرة البحث العقلي وهذا هو المنهج السديد والرشيد في هذه القضايا وما شابهها لأنه هو المنهج الذي توحي به كل نصوص القرآن المتصلة بهذه العقيدة كما أنه هو المنهج الذي دعا إليه الرسول ﷺ، ولكن مؤثرات خارجية وداخلية في البيئة الإسلامية أقحمت هذه القضية في نطاق مباحث علم الكلام فوجدنا من علماء الكلام من يتصور واهمًا أنه أدخل الذات الإلهية المقدسة في مشرحة وصار ينظر إليها من خلال مجهره الموهوم. وهذا العمل عبث وهو نزول بالذات الإلهية المقدسة إلى أوهام العقول البشرية القاصرة بل إلى تفاهات هذه العقول مهما كانت الدواعي ومهما حسنت المقاصد والنيات.

إن من هذا القبيل مما يجب إبعاده عن دائرة البحث العقلي في علم التوحيد المباحث المتعلقة برؤية الله هل هي جائزة أم مستحيلة وبالقرآن هل هو مخلوق أم لا.

إن قضية الحرية الانسانية أو مسألة القضاء والقدر في جانبها المتصل بالانسان وضعت في إطار علم الكلام وضعًا مضطربًا مشوشًا بدون منهج ودون تحديد فكانت النتائج متباينة متذبذبة ارتفاعًا إلى حرية الإنسان المطلقة وانخفاضًا إلى الجبرية المطلقة وما بين الاتجاهين يقترب من أحدهما ولا يتوسط. وهكذا في غياب المنهج وفي اغفال بعض النصوص القرآنية وتأويل بعضها الآخر على غير قانون ثابت في التأويل في هذا الجو غابت الحقيقة في متاهات الشكوك وتسربلت بحجاب من ظنون الفلسفة وأوهام علم الكلام، وباء معظم المسلمين وغير المسلمين من مؤمنين وملحدين يظنون بالإسلام الظنون معتقدين أن الجبر هو الإسلام أو أن الإسلام هو الجبر وفي محيط علم الكلام ما زال الاتجاه الجبري من الاتجاهات التي تنتمي إلى الإسلام وليست منه في شيء.

بعيدًا عن منهج إسلامي أصيل في دراسة العقيدة وفهمها وتحديد قضاياها لم يزل بين المسلمين حتى اليوم «نزاع يفصم وحدتهم حول ما دار بين علي بن أبي طالب وغيره من الصحابة في مسائل الخلافة. فهل عَلَى وجه الأرض أمة تجتر ماضيها السحيق لتلوك منه خلافات قاسية كهذه الأمة. ولماذا نقحم هذه الأمور إقحامًا في شئون العقيدة ولماذا لا تبقى في نطاق الذكريات التاريخية التي تدرس كأي تاريخ لتؤخذ منها العبرة فحسب»(17).

هذه بعض اللمحات عن بعض الأساسيات التي يمكن أن تكون بداية لسير أفضل نحو دراسة العقيدة دراسة موضوعية منهجية واعية تستفيد من الماضي وتقدم للحاضر في محيط الفكر والعقيدة ما يمكن أن يكون تأسيسًا لمستقبل يبحث فيه الانسان أي إنسان قضية العقيدة بصدق وجد فيركن إليها ويحيا بمقتضاها وتلك على ما أحسب قضية العصر في كل قطر وفي كل مصر على تباعد الأقطار وتعدد الأمصار؟

هـوامـش

1 ـ سورة الإسراء: الآية 85.
2 ـ سورف الكهف: الآية 109.
3 ـ صـ6 الإسلام والعقل: الدكتور عبد الحليم محمود.
4 ـ صـ19 خصائص التصور الإسلامي: الأستاذ سيد قطب.
5 ـ صـ18 الإسلام والعقل: الدكتور عبد الحليم محمود.
6 ـ في هذا الموضوع مفصلاً ينظر ما كتبه الدكتور توفيق الطويل في كتاب: قصة النزاع بين الدين والفلسفة.
7 ـ صـ276 : رسالة في اللاهوت والسياسة: اسبينوزا: الطبعة العربية ترجمت د حسن حنفي.
8 ـ سورة آل عمران: الآية 93.
9 ـ سورة البقرة: جزء من الآية 113.
10 ـ سورة المائدة: جزء من الآية 117.
11 ـ صـ38 الجزء الأول نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: الدكتور علي سامي النشار.
12 ـ صـ116 الجزء الأول ابن رشد والرشدية: ارنست رينان: الترجمة العربية: عادل زعيتر.
13 ـ صـ458 المقدمة: عبد الرحمٰن بن خلدون.
14 ـ المقدمة صـ467.
15 ـ ينظر في هذا الموضوع: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية: تأليف: لويس غوردب وج قنواتي ترجمة الدكتور صبحي الصالح والدكتور فريد جبر ص9 وما بعدها.
16 ـ نلاحظ أمثلة من هذا النمط في كتاب المستشرق المجرى جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام. وقد تبنت هذا المستشرق وبحوثه بعض المؤسسات الثقافية الدينية في أمريكا الشمالية.
17 ـ صـ11 من كتاب عقيدة المسلم: محمد الغزالي.

خصائص الاستشراق
في مرحلته الثالثة

الدكتور : محمد الدسوقي

إن الدارس لتاريخ الاستشراق يلاحظ أنه بدأ أولى خطواته في رعاية الكنيسة ، وأن الجيل الأول من المستشرقين كان من الرهبان والقساوسة ، وما زال بعضهم حتى الآن من رجال اللاهوت وأن روح التعصب والأفكار الكنيسية والنظرة إلى الإسلام نظرة غير موضوعية قادت الفكر الاستشراقي عبر تاريخه الطويل حتى العصر الحاضر .

على أن الاستشراق مع هذا مر بعدة مراحل أو فترات تاريخية ويمكن تقسيمها على النحو التالي :

1 ـ المرحلة الأولى : وتبدأ بعد فتح الأندلس ، وازدهار الحياة العلمية فيها ، وكذلك جزر البحر المتوسط ، وجنوب ايطاليا ، وتنتهي هذه المرحلة بانتهاء الحروب الصليبية .

2 ـ المرحلة الثانية : وتبدأ بعد الحروب الصليبية ، وتمتد الى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي تقريباً .

3 ـ المرحلة الثالثة : وقد بدأت في منتصف القرن الثامن عشر على وجه التقريب ، واستمرت الى نهاية الحرب العالمية الثانية .

4 ـ المرحلة الرابعة : وبدأت بعد الحرب العالمية الثانية ، وما زالت مستمرة حتى الآن .

وقد روعي في هذا التقسيم تميز كل مرحلة بخصائص معينة ، وإن كان هناك قاسم مشترك بين كل هذه المراحل ، وبخاصة تلك التي بدأت بعد الحروب الصليبية .

لقد كانت المرحلة الأولى للاستشراق بداية تعرف أوربا على الشرق وحضارته ، وبخاصة الشرق الاسلامي ، ولا يفيدنا ما كان قبل بزوغ الإسلام[1] من محاولات الغرب لمعرفة الشرق فهذه المحاولات ما كانت تسعى الى ما يسعى اليه الاستشراق بعد أن عبر المسلمون مضيق جبل طارق وبسطوا نفوذهم على شبه جزيرة اسبانيا ، ومكنوا لدين الله فيها .

أن أوربا التي كانت غارقة في ظلمات الجهل والتخلف سعت لأخذ علوم المسلمين وثقافتهم وكذلك

لمعرفة مناط قوتهم وعوامل مجدهم ، وأسباب وصولهم إلى مراكز القيادة في العالم الذي كان معروفاً حين ذاك[2] .

فالمرحلة الأولى للاستشراق تعد مرحلة التلمذة والأخذ عن المسلمين وأن الكنيسة قد حاولت منع الأوربيين من ذلك دون أن تنجح فيها حاولت .

أما المرحلة الثانية فقد كانت بداية الهجوم الفكري على الإسلام والمسلمين ، والسطو على تراثهم العلمي ، وادعاء أنه فكر أوربي خالص ، إن الاستشراق في مرحلته الثانية حاول أن يثأر مما فعله صلاح الدين بالصليبيين فأخذ يكتب عن الإسلام كتابات كلها افتراء وتشويه ، وتضليل وسخافات وجهالات .

وتعد المرحلة الثالثة من أخطر مراحل الاستشراق ، وقد اتسمت بخصائص متعددة أطمع أن اكشف عنها في هذه الدراسة .

والمرحلة الرابعة امتداد متطور للمرحلة الثالثة ، فلم يعدل الاستشراق في المرحلة الرابعة من أهدافه وغاياته ، وأن عدل من طرائقه ووسائله ، ولذا يمكن القول بأن الاستشراق الآن . هو نفس الاستشراق الذي كان من قبل ، وأنه ليس نشاطاً علمياً خالصاً ، ولا عملاً خالياً من شوائب التعصب ، وبرهان ذلك ما يظهر كل يوم من دراسات،تطفح بالإساءة الى الاسلام والمسلمين، وتشد من أزر الصهيونية العالمية الباغية . لقد أومأت آنفاً الى أن هذه الدراسة للحديث عن أهم خصائص المرحلةالثالثة للاستشراق وهي تعد أخطر مراحله ، لأنه في المرحلتين الأولى والثانية لم يستطع أن يغزو العقلية الاسلامية بما سطره من أباطيل ، وإن كان قد نجح في اختراع الاتهامات ضد الإسلام،والمسلمين،والترويج لها بين الأوربيين فأورثهم بذلك حقداً على هذا الدين وأهله ، وتشويهاً لحقائقه وتاريخه حتى بين كبار المفكرين منهم فمارتن لوثر ـ وهو من زعماء الإصلاح في عصر النهضة ـ ينتقد الاسلام انتقاداً لاذعاً في مقدمة الترجمة اللاتينية للقرآن الكريم والتي قام بها روبرت تشستر سنة ١٩٤٣م ، ويصف نبي الاسلام بما وصفه به الرهبان في العصور الوسطى فهو في نظره رجل لا يتعاطى الا اللذات الشهوانية ، ولا يمثل فضيلة من الفضائل الانسانية[3] .

ولكن الاستشراق في مرحلته الثالثة ـ اضافة الى استمرارية التشويه للاسلام بين الأوربيين وغيرهم ـ استطاع أن يقوم بدوره كاملاً في خدمة السياسة الاستعمارية ، وبلبلة الأفكار حول الكثير من قضايا الفكر الاسلامي ، وأن يتعاون القائمون به في كلّ قارات العالم على الاثم والعدوان ومن ثم اتسمت هذه المرحلة بما يلي :

أولاً : تبلور مصطلح الاستشراق ، واستخدم لأول مرة عام 1969م في قاموس اكسفورد للغة الانجليزية ، وأدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838 م ، وأصبح يطلق هذا المصطلح على كل فروع العلم التي تهتم بدراسة الشعوب الشرقية من جميع جوانبها بما لها من ديانات ولغات وعلوم وآداب وفنون . . . الخ .

ويقصد بالعالم الشرقي أجزاء العالم المصنفة حسب التصنيف الأوربي ، والتي تضم كل الشعوب التي تقع

شرق قارةأوربا، والتي قسمتها النظرية الأوربية ثلاثة أقسام : الشرق الأدنى ، والشرق الأوسط ـ والشرق الأقصى . .[4] .

ويلاحظ أن ذلك المصطلح وفق النظرية الأوربية يسوي بين ديانات وعادات العالم الشرقي ولا يكاد يفرق بين العقيدة الاسلامية والديانة البوذية ، وهذا خطأ علمي نجمت عنه إساءة بالغة للإسلام وحضارته .

ثانياً : توطدت العلاقة بين الاستشراق والاستعمار ، بل أن الاستشراق أصبح الطريق العلمي لاحتلال الشعوب الاسلامية ، وأصبح المستشرقون بوجه عام موظفين في دوائر ـ الاستخبارات في وزارتي الخارجية والمستعمرات ، وكانوا مستشارين لدولهم فيما يتعلق بمواقفها السياسية والحربية من الدول الاسلامية ، وقام بعضهم بأدوار التجسس تحت ستار مزيف من الاسلام أو البحث الأكاديمي ، ومنهم من دخل مكة والمدينة باسم ذلك الستار[5] كذلك المستشرق الهولندي الذي يدعى « شرود » فقد تظاهر بالاسلام وذهب الى مكة والمدينة في القرن التاسع عشر ، وكان جاسوساً يعمل ضد تركيا .

ومنهم من كان يعد لمهمة التجسس بطريقة تنفي كل الشبهات حوله كهذا المستشرق الذي حدثني عنه الدكتور طه حسين قال :

إن مستشرقاً فرنسياً جاء الى مصر ومعه زوجته وأسلم والتحق بالأزهر وادعى أنه كفيف ، وكانت زوجتي تعطف عليه ، وتتألم لحاله ، وقد زارني كثيراً وتبين بعد ذلك أن هذا ـ المستشرق ليس كفيفاً ، وأنه في سبيل القيام بوظيفة التجسس كاملة ، وحتى لا ينكشف أمره أجريت له عملية جراحية بدأ بعدها وكأنه كفيف لا يبصر ، وقد رحل هذا المستشرق من مصر دون أن يحقق ما جاء هو وزوجته من أجله[6] .

أن العلاقة بين الاستشراق والاستعمار من الحقائق التاريخية التي لا ريب فيها[7] ، لقد مهد الاستشراق للاستعمار ، وكان عوناً له في رسم سياسته واتخاذ مواقفه حتى الآن فالمستر ايدن رئيس الوزراء البريطاني الأسبق لم يكن ليضع قراراًسياسياً في شئون الشرق الأوسط قبل أن يجتمع بأساتذة من المستشرقين في جامعة اكسفورد ، وكلية العلوم الشرقية[8] . وما كان يفعله ايدن كان يفعله غيره من القادة السياسيين في أوربا وأمريكا وروسيا ، وما يزالون يفعلون . . . .

إن ما ذكرته عن هذه العلاقة لا يعدو إشارة مجملة اليها وتفصيل القول فيها يحتاج الى دراسة مستقلة ، بيد أني مع هذا أود الحديث في ايجاز عن دور الاستشراق في حملة نابليون على مصر ، وحملة كانيفا على ليبيا ، ففي كلا الحملتين كان للفكر الاستشراقي دور بارز في القضاء على كل مقاومة للاحتلال ، فقد سبقتهما دراسات استشراقية بينت العقبات التي ستواجه الجيوش الغازية ، ومن ثم وضعت الخطط العسكرية والسياسية وفق ما جاء في تلك ـ الدراسات من معلومات ، وكان من بينها ما أصدره بونابرت وكانيفا من منشورات باللغة العربية زعما فيها أنهما يرغبان في نصرة الاسلام وحماية المسلمين من ظلم المماليك والعثمانين وأسرف نابليون فيما وجهه

الى الشعب المصري فادعى أنه مسلم حقيقي ، وأنه قضى على البابا الذي كان يحض النصارى على محاربة المسلمين ، وقد ورد في منشور نابليون الذي أعده المستشرقون والذي صدر يوم 6 يوليو 1798 ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ـ ، ولا شريك له في ملكه . هكذا يبدأ المنشور بنفي قاطع للتثليث ، ولكن كيف تعامل الاستشراق مع هذا الموقف الذي اتخذه نابليون ؟ لقد تعامل معه بالتزييف نحو قرنين من الزمان ، فقد صدر في باريس 1979 م . كتاب بعنوان « مذكرات أحد أعيان القاهرة خلال الحملة الفرنسية 1798 - 1801 م » ، وهو عبارة عن ترجمة لفصول من كتاب عجائب الآثار للجبرتي ، ولكن المترجم يحذف الجملة التي ينفي فيها بونابرت التثليث ، وهكذا يخون الاستشراق الأمانة العلمية في الربع الأخير من القرن العشرين . وقد زال التعصب الديني من أوربا كما يقولون فما بالك بمن سبقه ممن عاشوا في عصور الظلام والتعصب . . . ثم يقول ، بونابرت في منشوره :

يا أيها المصريون : قد قيل لكم بأنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين أنني ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وأنني أكثر من المماليك عبادة لله سبحانه وتعالى . . . أحترم نبيه والقرآن العظيم . أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى (روما الحالية) وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحث النصارى على محاربة المسلمين ، ثم قصدوا جزيرة مالطة ، وطردوا منها « الكواللرية » الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .

ويطلب بونابرت بعد ذلك من المصريين ألا يحاربوا مع المماليك ، وعليهم أن يلوذوا بمساكنهم ، وستثبت الأحداث والأيام أن الفرنسيين عون لهم ، على التخلص مما هم فيه من جور وفساد[9] .

وخاب ظن نابليون ، فلم يصدق الشعب المصري بمنشوره ، وثار ضد الغزاة ، فما كان من هذا الذي زعم أنه مسلم لا يشرك بربه أحداً الا أن أحرق القرى بأهلها ، وحول الأزهر الى اسطبل لخيوله ، ولكن جنوده خرجوا من مصر مدحورين بعد نحو ثلاث سنوات من اعلان ذلك المنشور .

أما كانيفا فقد وزع في الخامس من اكتوبر 1911 م بعد أن استولى على القلعة الحمراء في طرابلس منشوراً على الشعب الليبي جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على كافة المرسلين صلى الله عليهم وسلم اجمعين .

ويلاحظ أن كانيفا لم يبدأ منشوره بنفي التثليث كما فعل بونابرت ، والسبب في ذلك ليس تعلقاً بالكاثوليكية ، وانما هو مراعاة للفاتيكان الذي مكن من تحقيق التغلغل الاقتصادي الايطالي في ليبيا بما ساهم به من استثمارات مالية من خلال فرعي بنك روما في طرابلس وبنغازي . ومثلما فعل بونابرت أوضح « كانيفا » لأهل البلاد أين تكمن مصالحهم الحقيقية ، وكشف لهم أعداءهم وكأنهم لا يعرفونهم . . ثم لجأ الى القرآن الكريم ليبرهن على أنه مبعوث العناية الالهية وأن طاعته واجبة :

« فيا سكان طرابلس ، وبرقة .. اذكروا أن الله قال في كتابه العزيز » ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم أن الله يحب المقسطين ﴾ .

ثم بعد الاستشهاد خمس مرات بالآيات القرآنية خلص كانيفا « الى القول بأن » ارادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضتا أن تحتل ايطاليا هذه البلاد ، لأنه لا يجري في ملكه الا ما يريد ، فهو مالك الملك ، وهو على كل شيء قدير ، فمن أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهره مالك الملك رب العالمين المنفرد بتصرفاته ، بملكه الذي لا شريك له فيه فقد جمع الجهل بأنواعه ، وكان من الممترين .

وبناء عليه ، يلزم كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الإرادة الربانية وأبرزته القدرة الالهية ، فالملك له سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء .

وإذا أوجد من لا يحترم أو يثور على العناية الالهية التي أرسلت ايطاليا الى هذه البلاد وباسمها صدرت لي هذه الأوامر ، وقبلتها ممن يملك حق الأمر فسيكون الانتقام منه عظيمًا ، وسأحافظ على تنفيذها بالقوة الموكلة لعهدتي .

وعلى الرغم من هذا التهديد ، والوعيد الذي ختم به كانيفا منشوره هجم المجاهدون الليبيون بعد ثمانية عشر يوماً من اذاعة هذا المنشور على القوات الغازية ، واشتبكوا ، معها في معركة رهيبة دارت رحاها في منطقة الهاني التي تبعد عن أسوار مدينة طرابلس ثلاث كيلومترات ، وانهزمت القوات الايطالية شر هزيمة ، غير أن هزيمة المستشرقين الذين أعدوا المنشور كانت أشد مما جعل رد فعلهم أعنف[10] .

وهكذا يبدو جلياً أن المستشرقين من القرن الثامن عشر الى القرن العشرين كانوا أهم وسائل الاحتلال ، أنهم درسوا الشعوب الاسلامية دراسة شاملة ليقدموا للقادة العسكريين كل أسباب النصر على هذه الشعوب ، وهم في سبيل ذلك لا يقيمون وزناً للموضوعية والامانة العلمية .

ثالثاً :ـ وإذا كان المستشرقون في المرحلة الثانية قد عكفوا على دراسة الشرق دون تنظيم أو تعاون وتنسيق بينهم فهو نشاط فردي غالباً وإن كان للكنيسة دورها في التوجيه العام لهذا النشاط فانهم في المرحلة الثالثة أخذوا يعملون على جمع شملهم وتنسيق جهدهم ، وتجلى هذا في المؤتمر الاستشراقي الدولي الذي عقد لأول مرة في باريس 1873 م . وكان بعد ذلك يعقد كل سنة ثم كل سنتين ، ثم كل ثلاث سنوات على الأغلب أو أربع في بعض الأحيان[11] .

وفي هذه اللقاءات التي كانت تضم ممثلين عن كل المستشرقين في مختلف البلدان ، وأيضاً بعض الأساتذة العرب كانت تلقى الأبحاث والدراسات التي تدور حول الشرق ـ وبخاصة الاسلامي ـ وتاريخه ، وتراثه العقائدي والفكري ، وما كانت بوجه عام تعرض لوسائل النهوض به والحرص على تقدمه واستقلاله .

رابعاً : وكان من وسائل التنظيم والتنسيق انشاء الجمعيات الاستشراقية في مختلف البلدان هذه الجمعيات كانت تدعو الى عقد المؤتمرات الاستشراقية ، وتضع لها جداول أعمالها .

وكان الفرنسيون أسبق من غيرهم في هذا ، ففي عام 1787 م أنشأوا جمعية للمستشرقين الحقوها بأخرى عام 1820 م .

وفي لندن تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية في عام 1823 م . وقبل الملك أن يكون ولي أمرها .

وفي عـام 1842 م . أنشأ الأمريكيون جمعية باسم الجمعية الشرقية الأمريكية . .

وقامت جمعيات أخرى في دول متعددة ، وكانت كل هذه الجمعيات بالاضافة الى اشرافها على المؤتمرات الاستشراقية تبذل جهوداً جبارة في دراسة الشرق ولغاته وتاريخه ، ولا سيما اللغة العربية والعقلية العربية والثقافة العربية ، وما يتصل بذلك كله من دين وفلسفة ، وعلم ، وأدب لتقدم للحكومات في آخر كل سنة تقريراً لا يضم بين دفتيه الحقائق التي تمليها العدالة ، ويبعثها الواقع ، وإنما ينطوي على سموم من الحقد مع كثير من التزييف والمغالطة .

على أن تأسيس تلك الجمعيات ، من جهة أخرى أدى الى تجمع القوى المتفرقة للدراسات الشرقية ، وازدياد نشاطها واشتداد التنافس بينها[12] ، لتحقيق الأمال الغربية في الهيمنة على الشرق ونهب ثرواته ، واستعمار شعوبه .

خامساً : بدأ ظهور الدوريات التي تعبر عن الفكر الاستشراقي ، وما زال بعض هذه الدوريات يصدر حتى الآن فقد كانت كل جمعية استشراقية تصدر مجلة غالباً بل حاول مستشرقو كل أمة اصدار دورية خاصة بهم .

وأخطر الدوريات التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر هي مجلة العالم الاسلامي ، وطابع هذه المجلة تبشيري سافر ، كما أن للمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة العالم الاسلامي في روحها واتجاهها العدائي التبشيري[13] .

سادساً : ـ لم يكن النشاط الاستشراقي في مرحلته الثانية قد شمل كل دول أوربا بدرجة سواء ، فقد كانت دول غرب أوربا أسبق من سواها في هذا النشاط ، فألمانيا مثلاً لم تكن كفرنسا أو ايطاليا في الاهتمام ، بالدراسات الشرقية .

وفي المرحلة الثالثة دخل ميدان الاستشراق كل دول أوربا ، وتسابق الجميع في هذا الميدان بشتى الأسباب لا انتصاراً للحق ، وإنما حرصاً على الفوز بأكبر قدر من غنائم الشرق .

وفضلاً عن ذلك ظهر في هذه المرحلة الاستشراق الأمريكي ، وهو وإن كان امتداداً ، للاستشراق الانجليزي ، فقد تطلع نحو السيطرة الاستعمارية ، ومنافسة أوربا في هذا المجال وإن لم يتحقق ما سعى اليه الا في القرن العشرين ، ففي الاجتماع السنوي الأول للجمعية الشرقية الأمريكية عام 1843 م . أشار رئيس الجمعية الى أن النشاط الاستشراقي الأمريكي ينبغي أن يقتفي خطوات الاستشراق ، وجاء في تقرير عن النشاط

الاستشراقي الأمريكي أنه عمل ضروري لحماية الأمن القومي[14] .

كذلك ظهر ما يمكن أن يطلق عليه الاستشراق الشرقي ، أي ذلك الاستشراق الذي قامت به دول شرقية لا تدين بالاسلام ، كروسيا ، وقام الاستشراق الروسي بدور كبير في مساعدة ـ الصهيونية للتغلغل في فلسطين وانشاء الوطن اليهودي في قلب الوطن العربي ، ففي عام 1852 م . أنشأت القيصرية الروسية لجنة من المستشرقين والمتخصصين في المسائل العربية كان بينها عناصر يهودية هدفها الأول : تهيئة الوسائل اللازمة لتأسيس بيوت لايواء اليهود المهاجرين الى فلسطين ، وانشاء مستشفيات لمرضاهم تحت اشراف البعثة الروسية التي اتخذت القدس الشريف مركزاً لها بدعوى رعاية الكنائس التابعة لها والنصارى الذين ينتمون الى المذهب الأرثوذكسي الروسي .

وفي عام 1864 م . بعثت روسيا وفداً من أعضاء هذه الجمعية للسفر إلى فلسطين سراً لتهيئة الوسائل اللازمة لاقامة ملاجىء ومصحات ومستشفيات ودور للزوار اليهود الذين يصلون الى القدس لزيارة المبكي في بيت المقدس من جميع أنحاء العالم .

وفي عام 1882م . أصبحت هذه اللجنة جمعية قائمة بذاتها ، واحتفلت في عام ـ 1972 م . بذكرى مرور تسعين عاماً على تأسيسها ، وكان الاحتفال بمركز معهد الدراسات الاستشراقية التابع لأكاديمية العلوم بموسكو في أول مايو ، وألقى المستشرق الروسي س . ل . تيخفسكي كلمة رئيس الجمعية ، ثم قدم للحاضرين التقرير العام عن أعمال الجمعية ونشاطاتها ومنجزاتها التي قامت بها خلال تسعين عاماً ، وجاء في كلمته التي ألقاها : أن جمعية الاستشراق الروسي قد ساهمت مساهمة فعالة في انجاز وتحقيق الوطن القومي اليهودي في فلسطين[15] .

سابعاً : ـ على أن جهد الاستشراق الروسي في خدمة الأطماع الصهيونية لا يعني أن غير هذا الاستشراق كان بمنجاة من التحالف مع تلك الأطماع ، والعمل في سبيل تحقيقها فقد بدأ التحالف الأثم بين اليهود والكنيسة عام 1505 م ففي هذه السنة قدم اليهود مشروعاً الى البابا ، وتضمن هذا المشروع النقاط التالية : ـ

1 ـ احتلال العالم الاسلامي .
2 ـ انتزاع الأرض المقدسة من المسلمين .
3 ـ احتلال اليهود لفلسطين[16] .

ولهذا دخل اليهود ميدان الاستشراق في رعاية الكنيسة ، وقدموا الى الدول الأوربية كل ما عرفوه من المسلمين من مواطن الضعف والقوة ، ومن ثم كانوا عوناً لهذه الدول على احتلال الشعوب الاسلامية ، ونجحوا في تسخير كثير من المستشرقين للأهواء الصهيونية ، ولم يكن وعد بلفور المشئوم في عام 1917 م الا ثمرة من ثمرات التحالف الصهيوني المسيحي الظالم .

ثامناً : ـ قام الاستشراق الى جانب تنظيم نشاطه وتوسيعه عن طريق المؤتمرات ، والجمعيات واصدار

الدوريات والنشرات بتأسيس المراكز والمعاهد والكليات الخاصة بالدراسات الشرقية ، ولا تكاد تخلو عاصمة أوربية أو أمريكية أو روسية من مركز أو معهد استشراقي ، بل أن بعض هذه المراكز والمؤسسات العلمية في ظاهرها أنشئت في كل العواصم العربية تقريباً ، وما زال بعضها يقوم بمهمته التغريبية حتى الآن[17] .

تاسعاً : ـ استمرت في هذه المرحلة ولا سيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حركة نقل التراث الاسلامي الى أوربا وغيرها ، وقد ترجم قدر منه الى اللغات الأجنبية ، وكان جل ما ترجم خاصاً بالأدب واللغة والدراسات التاريخية ، كما طبع منه قدر لا بأس به ، وهذا الذي طبع يتناول غالباً ما يتناوله القدر الذي ترجم من قضايا الأدب واللغة والتاريخ[18] .

وقد نظمت المكتبات التي تضم ذلك التراث ، ووضعت لها الفهارس ، وقد نقل بعضها الى اللغة العربية ، كذلك أنشئت المكتبات التي تحتوي على الدراسات الاستشراقية ، وما صدر في العالم الشرقي من مؤلفات ودوريات .

عاشراً : ـ رحل كثير من المستشرقين الى العالم الاسلامي ، وأقام بعضهم في ربوعه مدة وكان منهم كما أشرت سابقاً من يعمل جاسوساً ويزعم أنه مسلم ، ومنهم من رغب في دراسة هذا العالم عن مشاهدة ومعاينة ، ومنهم من كان يقوم بالتبشير ، ومنهم من تولى التدريس في المدارس والجامعات ، كما أن منهم من دخل المجامع العلمية عضواً بها .

حادي عشر : ـ تتلمذ كثير من الطلاب المسلمين على أيدي المستشرقين سواء في داخل ديار الاسـلام أو في خارجها ، فقد أومأت آنفاً الى أن بعضهم درس في المدارس والجامعات في بلادنا وهؤلاء الذين درسوا لطلابنا لم يدرسوا لهم الا تشريعاتنا وآدابنا ولغتنا وتاريخنا ، وهم ينظرون الى هذا التراث كله نظرة غير موضوعية ، ففقهنا الاسلامي مستمد من القانون الروماني ، وآدابنا يغلب عليها طابع الهجاء والاستجداء ، وتفتقر الى التعبير الصادق عن المشاعر الانسانية ولغتنا كلاسيكية لا تصلح للحياة العصرية ، أنها لغة معقدة صعبة ، تضيق عن استيعاب العلوم والمبتكرات ، وتاريخنا ملفق مشوه يسوده الافتراء حتى فيما روي من أحاديث عن خاتم الرسل والأنبياء .

وأوفد بعض هؤلاء الطلاب الى الخارج للحصول على مؤهلات جامعية عليا كالماجستير والدكتوراه في العلوم العربية ، وكان المستشرقون ومنهم اليهود يشرفون عليهم ويوجهونهم في أبحاثهم ، وكانوا يفرضون عليهم الموضوعات ، ويأبون أن يدرس الطالب كما يريد ، وكانوا أيضاً لا يسمحون لأي طالب بالخروج على الآراء الاستشراقية[19] بل مهاجمتها أو مناقشتها مناقشة عن زيفها وبطلانها ، وترتب على هذا أن تبنت طائفة من المثقفين المسلمين آراء المستشرقين وأصبحوا حماة لهم يذودون عنها ويدعون اليها ولا سيما في مجال التدريس الجامعي ، مما نجم عنه ما يمكن أن يسمى بالاستشراق العربي ، وهو بلا ريب أخطر من الاستشراق الغربي .

ثاني عشر : ـ وكما تنافست الدول في اقامة المراكز والمعاهد الاستشراقية تنافست كل الجامعات في أوربا وأمريكا في انشاء الأقسام الخاصة بدراسة اللغة العربية والحضارة الاسلامية والعلوم الشرقية وأصبح بحلول عام 1850 م . لكل جامعة رئيسية في هاتين القارتين منهج متكامل في أحد فروع تلك العلوم الاسلامية والشرقية[20] .

ثالث عشر : ـ عكف المستشرقون في هذه المرحلة على دراسة الاسلام والمسلمين قديماً وحديثاً ولم يدعوا جانباً من جوانب ثقافتنا الا وكتبوا فيه ونشروا عنه ، وهم الى هذا أكثروا من ترجمة القرآن الكريم وبعض مجامع السنة ، كما أنهم عملوا الفهارس المتنوعة للمصدر الأول والثاني للتشريع في الاسلام ، وأصدروا الموسوعات الخاصة بتاريخنا وتراثنا ، وحاولوا حصر ما خلفه السلف من آثار علمية مبعثرة في شتى المكتبات في كل دول العالم تقريباً .

وقد بلغ ما كتب عن الشرق ـ وكان للاسلام الحظ الأوفر ـ نحو ستين ألف كتاب[21] ، فضلاً عن البحوث والمقالات التي نشرت في الدوريات الاستشراقية ، وغيرها من الصحف والمجلات .

رابع عشر : ـ وكل هذه الكتب والمقالات تدخل في نطاق ما يسمى بالاستشراق الظاهر ، أو الذي يعلن عن نفسه بصورة مباشرة ، وذلك لأن المرحلة الثالثة ، عرفت أيضاً الاستشراق الكامن[22] أو الذي يتوارى في ثنايا الكتب التي ألفت في الأدب والعلوم ، ففي القصة الغربية وآداب الرحلات كان يصور الشرق على نحو خيالي خرافي يظهره بأنه ليس جديراً بالحياة الحرة ، وأن الغرب ينبغي أن يستحوذ عليه ويسوده .

أما الدراسات الفلسفية ، والاجتماعية والقانونية ، وحتى العلمية الخالصة كالطبيعة والفلك فانها كانت تحرص على وضع الشرق والشرقيين في اطار التخلف ، وأنهم دون الغرب قدرة على الابتكار العلمي والتطور الحضاري ، ومن ثم كان على أهل أوربا خاصة أن يبسطوا ارادتهم على هؤلاء المتخلفين .

وكان هذا هو الاستشراق الكامن الذي ظهر في هذه المرحلة . أنه الاستشراق الذي تنبىء عنه فحوى الكلمات ، أو تدل عليه بعض الاشارات ، اذ يأتي عرضاً وكأنه غير مقصود لذاته .

خامس عشر : ـ وكل ما أسلفته عن أهم خصائص المرحلة الثالثة من مراحل الاستشراق يشهد على أن هذا النشاط الاستشراقي كان من ورائه قوى متعددة توجه سياسته ، وتغدق عليه ، وثم كانت هذه المرحلة أخطر مراحل الاستشراق ففيها غزا العقول وبلبل الأفكار وقدم دراسات تناولت كل جوانب ثقافتنا وتاريخنا ، وأراد لنا أن ندرس تراثنا من منظور الفكر الكنسي وكأن الشعور الغربي بالفوقية وأن الشرقي دونه حضارة ، وعلماً أوحى الى المستشرق أنه أخلق من الشرقي بفهم تراثه وثقافته ، وتقديمه له ، فكانت تلك الدراسات المختلفة . التي لم تغادر قضية من قضايا الفكر الاسلامي الا عرضت لها ، وقالت كلمة فيها .

سادس عشر : ـ ولكن ماذا عن آراء الاستشراق في هذه المرحلة ؟

هل تغيرت عن مرحلة العصور الوسطى ، فأصبحت أكثر بعداً عن السخافات والضلالات وأقرب الى

الموضوعية ، والأمانة العلمية ، أو أنه على الرغم من التطور الحضاري، وعدم الخضوع الكامل لهيمنة الكنيسة . لم تتغير ، وسلكت نفس الدرب الذي سارت فيه في المرحلة الثانية ؟

لا مجال لاستقراء الفكر الاستشراقي في مرحلته الثالثة ، ويكفي الاشارة الى أهم منطلقاته ومفاهيمه العامة فالاسلام لدى جمهور المستشرقين دين بشري ، ومحمد ليس نبياً ـ مرسلاً ، والمسلمون برابرة متوحشون ، وليس لهم دور ابداعي في التاريخ الحضاري ، وعودتهم الى الاعتصام بدينهم يعني عودة الهمجية التي تعوق التقدم ، وتهدد حرية العالم المسيحي ، ومصالح المعسكر الأمبريالي ، فقد جاء في تقرير وزير المستعمرات البريطاني أورسبيغو لرئيس حكومته بتاريخ 9 يناير 1938 م . ما يأتي : ـ

« أن الحرب علمتنا أن الوحدة الاسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الأمبراطورية أن تحذره وتحاربه ، وليس الأمبراطورية وحدها ، بل فرنسا أيضاً ، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة ، وأتمنى أن تكون الى غير رجعة[23] .

ويقول المستشرق جوزيف شاخت : كانت حركة الجامعة الاسلامية هي الغول المرعب في ذلك العصر على نفس الطريقة ، وفي نفس الزمن اللذين انتشر الرعب فيهما من « الخطر الأصفر » فكانت كل ظاهرة مناهضة للأمبريالية ، حتى ولو كان مبعثها مشاعر محلية خالصة تعزى الى تلك الحركة الاسلامية ، وكانت الكلمة نفسها توحي بالتطلع الاسلامي للسيطرة ، وبأيديولوجية عدوانية ، وبمؤامرة على نطاق عالمي . وبفضل الصحافة والأدب الشعبيين وكتب الأطفال وأخذت هذه النظرة تتسرب الى عقول الجماهير الغفيرة من الأوربيين ولم تخل من تأثير على العلماء أنفسهم ، وخصوصاً حين كانوا ينبرون لتقديم النصح الى أولئك الذين كانوا يوجهون سياسة الحكومات الاستعمارية .

أما أولئك العلماء الذين اهتموا كثيراً بالدراسات المعاصرة ، والذين كانت فكرة الجامعة الاسلامية تشغل اهتمامهم فانها في تحليلاتهم التي كانت تتصف بدرجات متفارقة من الدقة كانوا يميلون لأن يروا فيها حركة رجعية[24] .

وهؤلاء الذين مجدوا العرب والمسلمين ، وأشادوا بما قدموا من عطاء للانسانية كانوا يقومون بدور المخدر الذي يحاول الهاء المريض عن علته بالحديث عن أيام فتوته وقوته دون أن يقدموا له الدواء الناجع لما يعاني منه ، ويحول دون نهضته وتقدمه .

سابع عشر : ـ وكان ضعف العالم الاسلامي وخضوعه للاحتلال المسيحي من العوامل التي ساعدت على تصوير الاسلام في صورة الدين الذي لا يصلح للحياة وأن المسيحية بطبيعتها ملائمة للتقدم ، لأن المستشرقين استغلوا ضعف المسلمين وركود ريحهم ، وحكموا على دينهم من واقعهم ، ورجحوا المسيحية ، عليه لرجحان أهلها في التطور والتقدم . لقد صورت المسيحية على أنها بطبيعتها ملائمة للتقدم ، وقرن الاسلام بالركود الثقافي والتخلف ، وأصبح الهجوم على الاسلام على أشد ما يكون ، وبعثت حجج

العصور ـ الوسطى بعد أن أضيفت اليها زخارف عصرية ، وصورت الجماعات الدينية الاسلامية بصورة خاصة على أنها شبكة من التنظيمات الخطرة يغذيها حقد بربري على الحضارة .[25] فالاستشراق في مرحلته الثالثة كرر نفس الأفكار في مرحلته الثانية ، وزاد على ذلك اتساع نشاطه وكثرة أعماله ودقة تخطيطه ، وتغلغله في حياة الشرق وأفكاره ، وتعاونه الوثيق مع الاستعمار والصهيونية ، ثم استعلاؤه وطغيانه وانحرافه ، وبعده عن الدقة والموضوعية .

ثامن عشر : ـ وإذا كان هناك من المستشرقين الذين يمثلون الاستثناء في الموقف المضاد للفكر الاسلامي أو المتحامل عليه والممتهن لذويه ، وكانوا يتمتعون بقسط وافر من الشجاعة الأدبية ، والأمانة العلمية ،ومنهم من ارتضى الاسلام ديناً فإن صوت هؤلاء الذين احترموا عقولهم ، وصدقوا مع أنفسهم كان أشبه ما يكون بالهمس وسط المكاء والتصدية ، أو الضجيج الهائل فلا يسمعه أحد وإذا سمعه لا يأبه ، أو يركن اليه ، لأن الضجيج الذي ساد جو الاستشراق غطى على مثل تلك الهمسات ، وجعل عامة الناس لا تطمئن اليها ، بل ترى فيها مروقًا من العقيدة الصحيحة الى دين الشرق الملفق ، ومن ثم لم تستطع أن تصد تيار الافتراء أو التشويه ، أو تحدث ثغرة في الجدار السميك الذي أقامه الفكر الاستشراقي بين الاسلام وغير المسلمين .

وفضلاً عن ذلك كان أصحاب هذا الصوت يلقون العنت والاضطهاد ، أو اللوم والعتاب ، في مجتمعهم ، لأنهم تجاوزوا حدوداً ما كان ينبغي عليهم ألا يتجاوزوها[26] لقد كانوا يحاربون في أعمالهم وأرزاقهم ، ويحال بينهم وبين نشر آرائهم ، ولذا كان بعضهم يلوذ بالصمت لكي لا يموت جوعاً ، ومنهم من كان يؤثر الرحيل عن بلده ، عله يجد في موطن آخر الحرية والحياة المطمئنة .

تاسع عشر : ـ أما رد فعل النشاط الاستشراقي بين المثقفين المسلمين فإنه كان متفاوتاً ، حيث أن كثيراً منهم ، وبخاصة أولئك الذين تعلموا في المدارس الرسمية أو الأجنبية أو سافروا لطلب العلم على أيدي المستشرقين في بلادهم ـ هؤلاء بوجه عام رددوا ما قاله الفكر الاستشراقي ، أما إيماناً به ، أو محاولة للظهور بمظهر التجديد ومواكبة العصر في التفكير ، والبحث العلمي ، ولأنه أتيح لهم أن يوجهوا الثقافة والتربية في أوطانهم فقد نقلوا ذلك الفكر بصورة مباشرة أو غير مباشرة الى الجيل الذي قاموا على تثقيفه وتعليمه مما أدى الى غربة عامة المثقفين المسلمين عن دينهم ، وأصبح انتماؤهم اليه مجرد تقليد عاطفي لا يحميه فكر يعي في دقة مبادىء العقيدة التي ينتمي اليها .

ومن المثقفين المسلمين الذين قدر لهم أن يتزودوا في مراحل تعليمهم بفكر اسـلامي صحيح من نبه الى خطر الاستشراق ووجوب التصدي له ، وتفنيد أباطيله ، ومنعه مما يريد بنا محذراً من عقدة الخواجة التي دفعت بنا الى التقليد الجاهل ، الذي لا يميز بين ما يجب أن ننقله عن غيرنا أو نتأسى به فيه ، وما لا يجب أن نأخذ به لأنه لا يكفل لنا نهضة مادية ولا نبقى معه أمة معتصمة بدينها ، ومحافظة على أصالتها في القيم والفكر والسلوك .

لقد ظهرت بعض الدراسات التي ناقشت المستشرقين في بعض آرائهم ، كما ظهرت أيضاً بعض الدراسات التي أرخت للاستشراق واعلامه ، ورصد آثاره ، وهناك دراسات أخرى دارت حول ـ الاستشراق على هيئة محاورة أو مناظرة ، فيها ينتصر أحد المحاورين للاستشراق معدداً محاسنه ويرد عليه آخر مهاجماً الاستشراق معدداً مثالبه وأخطاره[27] .

وكل هذه الدراسات على تنوعها تؤكد مدى تغلغل الفكر الاستشراقي في حياتنا ، وأنه في أحسن أحواله ليس فكراً منصفاً ولا مستقيماً ، وأنه استعمار فكري ، يمهد للاستعمار العسكري ، أو يعزز سلطانه .

وبعد فتلك أهم خصائص الاستشراق في مرحلته الثالثة ، ومنها يتضح كما ذكرت أنها أخطر مراحل الاستشراق وأنه فيها أساء الى العالم الاسلامي ، أبلغ اساءة ، وأن الجهد الطيب لبعض المستشرقين سواء منهم من آمن بالإسلام ، ومن لم يؤمن به لم يكن له تأثير ذو بال في صد تيار التشويش والتضليل ، أو في تقديم الصورة الصحيحة للاسلام والمسلمين تلك الصورة التي تهزم ما روجت له الأقلام الاستشراقية المناوئة من تصوير الاسلام والمؤمنين تصويراً منفراً ، تجاوز كل حدود الموضوعية والأمانة العلمية .

وإذا كانت المرحلة الرابعة للاستشراق امتداداً متطوراً للمرحلة الثالثة ، وإذا كانت المواقف المعادية والمتربصة بنا ما زالت هي الطابع الأساسي للفكر الاستشراقي اليوم فان هذا يفرض علينا ، حماية لعقيدتنا ، ووجودنا أن نعمل وفق تخطيط علمي مدروس لمناهضة ذلك العدوان والحيلولة بينه وبين ما يريده بنا ، ولا نلقي بالاً لتلك المزاعم التي تردد في بعض المؤلفات والمؤتمرات ، وتحاول أن تضفي على الاستشراق هالة من الاكبار والاجلال ، وأنه يقوم بدور السفارة العلمية بين الشرق والغرب ، بعيداً عن أهواء السياسة ، أو نزعات التعصب الديني . فهذا أسلوب جديد في التضليل ومنهج حديث في الغزو الفكري ، وما لم نكن أيقاظاً لما يبيت لنا ، ويموه به علينا فان العاقبة ستكون ، وخيمة لأنها ستقتل الفكر والوجدان ، وتزحزحنا شيئاً فشيئاً عن أصالتنا ومقومات وجودنا ، فنصبح غرباء عن عقيدتنا ونفقد في هذه الحالة كل شيء **﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾**[28] .

الهوامش

(1) أنظر فلسفة الاستشراق الدكتور أحمد اسمايلوفيتش ص 39 طبعة دار المعارف .

(2) انظر التشريع الاسلامي وأثره في التشريع الغربي الدكتور محمد يوسف موسى ص 107 القاهرة .

(3) انظر تصور أوربا الغربية للحضارة العربية . بقلم السندر بوزاني مجلة الآداب البيروتية العدد 4 - 5 سنة 83 ص 16 وكذلك تراث الاسلام ص 78 .

(4) الاستشراق ماله وما عليه الدكتورة : رشا الصباح - جريدة الأنباء الكويتية ، 1982/9/14

(5) أنظر أيام مع طه حسين للكاتب ص 53 المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت .

(6) انظر أيام مع طه حسنين للكاتب ص 53 المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت .

(7) انظر الاستشراق للدكتور ادوارد سعيد ترجمة دكتور أبو ديب ص 74 -120 -121 -208 -221 مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت .

(8) التبشير والاستشراق للمستشار محمد عزت الطهطاوي ص 43 مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة .

(9) انظر مجلة العربي عدد أغسطس 1981 م . ص 35 ، والجدير بالذكر أن مستشرقاً فرنسياً عاصر حملة نابليون لم يورد هذا المنشور في كتابه « المنتقيات الأدبية العربية الذي صدر عام 1806 خوفاً على نفسه من جراء التذكر بنص يفتخر فيه بونابرت بتدمير البابوية ، ولما سقط نابليون /1815 سارع هذا المستشرق بإعادة طبع كتابه مدرجاً فيه المنشور الذي يدين بونابرت ، ولكنه يدين أيضاً ممارسات المستشرقين اذ أنه من صنعهم (وانظر المصدر السابق) .

(10) انظر مجلة العربي عدد أغسطس 1981 م ص 37 - 38 .

(11) انظر الدراسات العربية والاسلامية في أوربا للدكتور ميشال جحا 278 معهد الإنماء العربي ، بيروت .

(12) انظر فلسفة الاستشراق ص 82 .

(13) انظر مجلة الأزهر المجلد 31 ص 523 .

(14) انظر الاستشراق ص 293 - 294 .

(15) انظر الاستشراق الروسي للأستاذ محمد أسد شهاب مجلة الأمة القطرية العدد 20 .

(16) انظر التبشير والاستشراق ص 107 .

(17) انظر الدراسات العربية والاسلامية من بعض البلاد الأوربيه وهو مجموعة من المحاضرات لخمسة من المستشرقين ألقيت على طلبة دبلوم الدراسات العربية والاسلام عام 1973/72 بجامعة بيروت العربية . ص 25 بيروت .

(18) انظر الدراسات العربية والاسلامية في بعض البلاد الأوربية ص 40 .

(19) انظر السنة ومكانتها من التشريع الاسلامي للدكتور مصطفى السباعي ص 27 مكتبة دار العروبة بالقاهرة .

(20) انظر الاستشراق ص 203 .

(21) المصدر السابق ص 216 .

(22) المصدر السابق ص 213 .

(23) انظر الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري للدكتور محمود زقزوق ص 98 « سلسلة كتاب الأمة » القطرية صفر 1404 هـ .

(24) انظر تراث الاسلام ص 85.

(25) المصدر السابق ص 84 .

(26) انظر التبشير والاستشراق ص 41 .

(27) انظر مجلة الهلال 1942 ص 321 - 327 .

(28) سورة الحج آية 40 .

الطب في الاسلام

الدكتور أبو بكر محمد عثمان

مع أن القرآن الكريم لم يقصد به أن يكون كتاب علوم ـ بل كتاباً يثبت عقيدة التوحيد ثم يبني عليها العبادات التي تولد التقوى ـ والتقوى هي الضمان لصلاح المعاملات بين الناس فيكون المجتمع الفاضل الذي ينتشر فيه الخير وينعدم فيه الشر أو يكاد .

رغم ذلك إلا أن القرآن الكريم قد اشتمل على إشارات علمية من مقاصدها تنبيه العقل البشري واستثارتـه للبحث الذي من نتائجه أن يثبت الانسان لنفسه أن الله على كل شيء قدير وأنه قد أحاط بكل شيء علمًا .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾[2] .

وقوله : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾[4] .

وقوله : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾[5] .

وقوله : ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾[6] .

وقوله : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾[7] .

وقوله : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾[8] .

وقوله : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً ﴾[9] .

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ﴾[10] .

وقوله : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾[11] .

وقوله : ﴿ والى السماء كيف رفعت ﴾[12] .

وقوله : ﴿ والى الجبال كيف نصبت ﴾[13] .

وقوله : ﴿ والى الأرض كيف سطحت ﴾[14] .

وقوله : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾[15] .

وقوله : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ﴾[16] .

وقوله : ﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكراناً واناثاً ويجعل من يشاء عقيمًا ﴾[17] .

وقوله : ﴿ وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاًومن الشجرومما يعرشون * ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾[18] .

وقوله : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾[19] .

وقوله : ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾[20] .

وقوله : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾[21] .

وقوله : ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحمًا طرياً وتستخرجون حليه تلبسونها ﴾[22] .

وقوله : ﴿مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان ﴾[23] .

وقوله: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ﴾[24] .

وقوله : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾[25] .

وقوله : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾[26] .

وقوله : ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾[27] .

وقوله : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾[28] .

وقوله : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴾[29] .

وقوله : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم ﴾[30] .

وقوله : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾[31] .

وقوله : ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾[32] .
وقوله : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾[33] .
وقوله : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾[34] .
وقوله : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[35] .

ولعل أكثر الإشارات العلمية التي وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة هي الإرشادات الطبية ، ولا عجب فإن أول ما يلزم للمجتمع الفاضل هو أن يكون أفراده صحيحي الأبدان والنفوس .

وأحب عند البدء أن أنبه الى أن ما أذكره على أنه الحكمة من التشريع إنما هو تطبيق لما علمني الله من فن الطب وليس ذلك على سبيل الحصر فقد تتبين لغيري غير ذلك من الحكم ، وأن القرآن لا تنقضي عجائبه وفوق كل ذي علم عليم ، وأن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

يقول الرسول الكريم ﷺ : «المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير . . . » الحديث[36] .

وسنرى فيما يلي كيف سعى الإسلام الى بناء المؤمن القوي مبتدئاً بانشاء الأسرة إلى بناء الفرد ثم بناء المجتمع .

الـــــزواج

يقول الرسول ﷺ : «تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم»[37] .

وهذه اشارة واضحة الى الراغبين في الزواج أن يأخذوا في اعتبارهم أن تكون المخطوبة وأسرتها خالية من الأمراض التي أثبت علم الوراثة أنها تنتقل من جيل الى جيل كأمراض القلب الخِلْقية والأمراض العصبية والنفسية ونقص الذكاء وبعض أمراض الدم وبعض أمراض الغدد .

وقد أخذت بذلك دول كثيرة فهي الآن تحتم على المخطوبين أن يجتازا كشفاً طبياً دقيقاً يثبت أنهما لا يحملان عوامل وراثية مرضية من شأنها أن تظهر أو تستفحل في ذريتهما ، كما أن بعض البلدان تمنع زواج الأقارب لأن ذلك من شأنه أن يساعد في تكرار الأمراض الوراثية أو ظهورها لأول مرة في الذرية حيث تكون العوامل الوراثية المرضية كامنة في كل من المخطوبين فيقوي بعضها بعضاً عند التقاء النطف وتكون الجنين .

قال الله تعالى : ﴿ ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾[38] .

والحيض هو خروج الدم مع ما تهتك من بطانة الرحم من الأنسجة الميتة أو المتهتكة . وهذه الأنسجة والدم أيضاً مما تعافه النفس وتأباه إلى جانب أنه مرتع خصب للجراثيم ، كما أن فترة الحيض لا تحدث فيها متعة لسكون الرغبة فيها عند النساء وأيضاً لا احتمال فيها للحمل والانجاب .

وقال تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾[39]

والحرث لا يكون إلا في مكان الزرع، ومخالفة ذلك عمل مؤلم منفر وأيضاً لا احتمال فيه لحمل ولا انجاب .

ومن السنة غسل منطقة العانة ، وقد ثبت أن أهم عامل للوقاية من الأمراض التناسلية التي هي شديدة الفتك وعظيمة التدمير للأنسجة وصعبة التشخيص أحياناً كثيرة ، ومعقد مطول علاجها بل قد يستعصى التخلص منها بالكلية ، وبعضها وراثي يصيب الذرية البريئة، هو غسل منطقة العانة في ظرف ست ساعات .

وفي سبيل المحافظة على صحة الحائض والنفساء فرض عليهما الفطر في رمضان والقضاء ، فإنما هما تفقدان خلاصة الغذاء فكيف يجمع عليهما ذلك والحرمان من الطعام والشراب .

ولما كانت الحامل والمرضع تغذيان جنيناً أو رضيعاً مع ما يصحب الحمل والرضاعة من الألم والسهر وفقدان الشهية للطعام فقد أذن لهما في الفطر في رمضان مع الفدية إن خافتا على نفسيهما أو على الجنين والرضيع من نقص التغذية .

وقال تعالى : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾[40] .
وقال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه** ﴾[41] .

أما فوائد الرضاعة الطبيعية فقد بلغت من الشهرة بحيث لم يعد لذات لب عذر في حرمان طفلها منها ،وذلك بسبب مناسبته لجسم الطفل كيمائياً ودفئاً واحتوائه على مضادات للأمراض وخلوه من الجراثيم وتوفره في كل لحظة من ليل أو نهار دون الحاجة إلى إعداد مع الفوائد النفسية للأم والطفل بالتصاق جسديهما وشعور كل منهما بدفء الأخر . كما أن الرضاعة من الثدي تقلل من فرص اصابته بالسرطان وتساعد أنسجة الرحم على استعادة حيويتها بعد عمل طويل مجهد دام تسعة أشهر ، والرضاعة الطبيعية هي من موانع الحمل المجانية الخالية من الأذى فتكون لدى الأم والأسرة مدة كافية لتنشئة ذلك الطفل قبل استقبال أخيه .

الأكل والشرب :

قال الرسول ﷺ: «يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل ما يليك[42] . . . » الحديث. وذكر اسم الله هو اعتراف له بالفضل وضمان أن لا يقع الانسان على الطعام وقوع البهائم .

والأكل باليمين هو جزء من أدب الإسلام في تخصيص اليمين للأكل والشرب والأخذ والعطاء والبدء به في اللبس ودخول المساجد والوضوء والغسل ، وتخصيص اليسار للأعمال التي هي أقل نظافة مثل الاستنثار والاستنجاء والاستجمار وإزالة الأقذار والبدء بها في الدخول لبيت الخلاء .

وفي هذا التخصيص ما لا يخفى من منع انتشار الأمراض لو أن كلتا اليدين استعملتا في كل شيء .

قال الرسول ﷺ : «إذا لبستم وإذا توضأتم فابدءوا بايمانكم[43] » . والأكل مما يلي الانسان هو من آداب الطعام وتعليم للقناعة إذ لا تجوز ملاحقة الحسن من الطعام مما يلي الآخرين وهو تدريب على ضبط النفس والصبر على المغريات له أثره في السلوك فإنما الناس يتظالمون لقلة صبرهم على المغريات وعلى ضبط النفس .

يقول الرسول ﷺ : «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن . . .» الحديث[4] .

وإن أعظم مايضرّ به الانسان نفسه ـ صحيحاً كان أم سقيماً ـ هو أن يملأ معدته بالطعام والشراب ، فالطعام الكثير يصعب هضمه ويرهق المعدة والكبد وسائر الغدد الهضمية كما أنه يضغط على الرئتين والقلب عند النوم .

وإذا داوم الانسان على ملء معدته أصابته السمنة التي من المؤكد أنها تساعد على الإصابة بمرض البول السكري وارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين وأمراض القلب والرئتين كما تؤثر على كمال المتعة بين الزوجين .

وإذا كانت المعدة بيت الداء فإن الحمية هي رأس الدواء ، ومن أجل هذا وغيره شرع الصيام ففيه راحة للمعدة والكبد والغدد والقلب والرئتين ويخلص صاحبه من السمنة فيقيه شر ما تقدم ذكره من الأمراض .

ومن السنة الفطر عند الغروب على التمر أو الماء ترتيباً ، وأن أهم ما ينقصُ الصيام من الجسم هو السكر والماء ، وفي هذا تعويض للجسم عن أهم ما فقده أولاً .

قال الرسول ﷺ : «إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإن لم يجد فليفطر على ماء فانه طهور»[45] .

وعن جابر قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نوكي أسقيتنا ونغطي آنيتنا[46] .

وهذا يضمن بقاءها نظيفة وأن لا يسقط فيها ما يضر من الميكروبات والحشرات .

وقال الرسول ﷺ : «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء[47] » .

وعن أبي هريرة قال : نهى الرسول ﷺ أن يشرب من فِي السقاء أو القربة[48] .

وواضح أن التنفس في الإناء والشرب من فم السقاء أو القربة قد يلوث ما به ويعرض الشاربين بعده للأمراض .

وفي حديث طويل لأبي هريرة أن النبي ﷺ شرب الفضلة من إناء فيه لبن بعد أن سقى منه أهل الصفة جميعاً[49] .

والفضلة والسؤر هو ما بقي في الاناء بعد الشرب ، وربما قصد النبي ﷺ من ذلك العامل النفسي إذ لو شرب شخص سؤر آخر دل على عدم النفور أو التقزز بل قد يدل على المعزة كما تفعل الأم مع أبنائها .

ومن الطعام والشراب ما حرم :

قال تعالى : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغيرالله به ﴾[50] .
والميتة تعافها النفوس الزكية بجانب أنها مظنّة الأمراض التي سببت الموت أو نتجت عنه .

والعروق هي المجاري التي يُلقي فيها كل عضو نفاياته لتحملها إلى أعضاء النظافة وهي الكبد والكليتان والرئتان والجلد والأمعاء الغليظة ، والدم يجري في العروق حاملاً تلك النفايات .

وثبت أن لحم الخنزير ينقل جملة من الأمراض بينها دودة شريطية خاصة به تسبب الصرع بحويصلاتها التي تنتشر في أنسجة المخ وهو ما لا تفعله دودة شريطية أخرى تعيش في أجسام البقر . وقد يقول قائل : لقد أمكننا الآن ضمان خلو لحم الخنزير من تلك الآفات، أفلا نأكله ؟ ونقول : لقد كنتم في غنى عما قاسيتموه في السابق قبل أن يعلمكم الله فن التعقيم ثم ما يدريكم أن ما خفي من الآفات ليس أعظم ؟

وهكذا المحرمات جميعاً ، أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ بلى أشهد .
أما الإهلال في الذبح لغير الله فهو غاية الجحود ونكران الفضل والجميل فكيف ينعم الله علينا بهذه الأنعام التي منها غذاؤنا وشرابنا ولباسنا ودفؤنا ولنا فيها جمال حين نريح وحين نسرح وتحمل أثقالنا إلى بلد لم تكن لتبلغه إلا بشق الأنفس ثم يكون الشكر لغيره؟ إن ذلك لا شك خلق ذميم بين البشر ولو تفشى في مجتمع لكان سبباً لانعدام التعاون والعطف فإن الناس جُبلوا على حب المدح مع أنهم يعطون مما استخلفوا فيه وليسوا له ملاكاً أصليين، وهو خلق في حق الله أعظم قبحاً فإن الله يعطينا من خزائنه وليس أحد أحب إليه الحمد من الله لذلك مدح نفسه .

قال تعالى : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾[51] .
وقال الرسول ﷺ : «كل شراب أسكر فهو حرام[52] » .
فالتحق بذلك بالخمر كل ما يكتشفه الانسان أو يصنعه من أنواع المسكرات .

ومن آثار الخمر على الصحة التهاب المعدة وتليف الكبد وضعف البصر وضعف عضلة القلب وترهلها وضمور خلايا المخ والأعصاب والتهابها والإصابة بالجنون بجانب فقدان الرعاية الأسرية وبالتالي فساد المجتمع .

النوم :

نهى الرسول ﷺ عن النوم على سطح لا حاجز له وإن من فعل ذلك فوقع فمات فقد برئت منه ذمة الله .

قال الرسول ﷺ : «من بات على ظهر بيت ليس له حجار فقد برئت منه الذمة» .
ولفظ الترمذي : نهى النبي ﷺ أن ينام الرجل على سطح ليس بمحجور عليه[53] .

وقال الرسول ﷺ: «لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون[54]» .

وكم رأينا من المآسي بسبب اهمال هاتين السنتين في النوم .

قال الرسول ﷺ : «مروا أولادكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً وفرقوا بينهم في المضاجع[55] » .

فالنوم أخو الموت ولا يدري النائم ما يفعل بنفسه ولا بمن في جواره وخصوصاً في تلك السن المبكرة التي قد تتولد فيها الانحرافات وتنطبع في النفس الغضة ، والتعليم في الصغر كالنقش على الحجر .

ومن السنة أن يتفاءل الانسان بالرؤ يا الحسنة ويقصها على أهله وصحبه وأن لا يتشاءم من المنام السيء ولا يقصه على أحد والتفاؤ ل يشرح الصدر ويطيب الخاطر ويدفع للعمل والانتاج أما التشاؤ م فإنه يغم النفس ويكدر الخاطر ويهبط الهمة ويفتت العزيمة .

قال الرسول ﷺ: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنما هي من اللّه فليحمد اللّه عليها وليحدث بما رأى ، «إذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لأحد فانها لا تضره[56]» .

ومن السنة لمن فزع في نومه أن يقوم ويتفل عن شماله ثلاثاً ثم يذكر الله ما شاء ثم يتحول عن جنبه . والتفل عن الشمال رمز لطرد الشيطان ، والذكر به تطمئن القلوب وتلين. فاللهم صلِّ على سيدنا محمد .

ومن السنة تنظيف السرير بطرف الثوب قبل النوم وذلك يزيل الأقذار وما قد تتسبب عنه الحساسية إذا استنشقه أثناء النوم .

قال الرسول ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخله إزاره . . . » الحديث[57] .

الاستجمار :

نهى في الاستجمار عن استعمال الروث والعظم .

والروث مزرعة الميكروبات إذ هو خلاصة نفايات الطعام. أما العظم فيمكن أن يتسبب في جرح الانسان كما أنه كذلك قد يحمل الميكروبات التي تدخل إلى الجسم من ذلك الجرح .

قال سلمان : نهانا رسول الله ﷺ أن نستقبل القبلة بغائط أو ببول . . . وأن لا يستنجى برجيع أو بعظم[58] .

النظافة :

أمرنا الله تعالى بتحري الطيب ونبذ الخبيث من الطعام والشراب والكلام والخلق والمعاملات .

قال تعالى : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾[59] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾[60] .

وقال تعالى : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾[61] .

وقال تعالى : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ﴾[62] .

وقال الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم[63]» .

فمن سنن الفطرة إكرام الشعر بالغسل والتمشيط والدهن والطيب ومعاملته بما يتفق مع وقار المسلم واحترامه لذاته وصفته .

قال الرسول ﷺ: «من طار له شعر فليكرمه[64]» .

حتى أنه أذن للمحرم بالحج أو العمرة أن يحلق رأسه إن كان مريضاً أو به أذى من رأسه . فالشعر مخبأ جيد للأتربة والأقذار والحشرات وبويضاتها ، والتيفوس مرض خطير شديد الفتك ينقله القمل الذي يعيش في شعر الرأس .

قال تعالى : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ .

قال رسول اللّه ﷺ: «لولا أن شق على أمتي ـ أو على الناس ـ لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة[65]» .

والسواك ينظف الأسنان ويزيل ما بينها من الفضلات فتمتنع الروائح الكريهة وأمراض الفم واللثة والأسنان والمعدة والأمعاء وكذلك بعض أمراض المفاصل والعيون التي تنشئها الأسنان المعطوبة وهو ما يسمى في الطب بالبؤرة العفنة .

والأظافر مخابىء مثالية للميكروبات وبويضات الطفيليات ويستحيل علاج بعضها دون قص الأظافر حيث يعدي المريض نفسه فيبتلع البويضات التي خرجت منه واحتفظ بها تحت أظفاره، وقد رأيت أناساً على درجة عالية من الثقافة الجامعية أظفارهم طويلة وقذرة ولا يستحي أحدهم أن يطعن في حكمة الصلاة أو غيرها من شرائع الاسلام .

وحلق شعر الإبط والعانة وتقصير الشارب، كل ذلك إزالة للشعر الذي هو مخبأ للأوساخ والحشرات والطفيليات التي يصعب التخلص منها في وجوده .

قال الرسول ﷺ: «خمس من الفطرة الاستحداد والختان وقص الشارب ونتف الابط وتقليم الأظافر[66] » .

والختان من أسباب النظافة وهو يمنع الالتهابات والاصابة بالسرطان وأدعى لكمال المتعة بين الزوجين .

أما ختان البنات ففيه خلاف ، والطب لا ينصح به .

أما اعفاء اللحية فهو من كمال جمال الرجل ووقاره وعنوان الحرص على الاتباع وهي تمنعه من سوء السلوك في المجتمع .

قال الرسول ﷺ: «خالفوا المشركين اعفوا اللحى وأحفوا الشوارب[67]» .

أما الوضوء والغسل فهما مستحبان في الأعياد والجمع وقبل الذكر وتلاوة القرآن ومس المصحف ودخول المساجد وعند الاحرام بالعمرة أو الحج وغير ذلك الى جانب أنهما شرطان لصحة الصلاة والطواف .

ومن السنة في الوضوء الاستنشاق باليمنى والاستنثار باليسرى كما تقدم وتخليل اللحية وأصابع اليدين والرجلين استكمالاً للنظافة البدنية .

والتطيب من سنن الفطرة أيضاً يدخل السرور على النفس وينشط البدن وأدعى للألفة.

قال الرسول ﷺ: «حبب إلّي من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة[68]» .

الوقاية :

تحدثنا عن الوقاية من السمنة وآثارها بالإقلال من الطعام والشراب وأضبط المقاييس لذلك هو .

ـ قول الرسول ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن،حسب الأدمي لقيمات يقمن صلبه فإن غلبت الأدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس[69]» .

وتحدثنا عن الوقاية من الأمراض بالنظافة من حيث قص الأظافر وإزالة الشعر من بعض مناطق الجسم والوضوء والغسل وعموم تحري الطيب وتجنب الخبيث .

وتحدثنا عن النهي عن النوم على سطح بدون حاجز أو في وجود نار مكشوفة .

وفي الوقاية من الصمم والعمى وفقدان الحواس والأطراف نسوق الحديث: «. . . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. . .» الحديث[70]» .

ونحن نرى من حوادث المنازل والطرقات والمصانع ما تقشعر منه الأبدان وما نأسف له من هلاك الأنفس والأطراف والأموال وفقدان العائل وتيتيم الأطفال وترميل النساء مما كنا في مأمن منه لو حرصنا على ما ينفعنا باتباع طرق الوقاية التي يزودنا بها المختصون في كل مجال وهداهم إليها رب العالمين .

قال رجل للنبي ﷺ: أوصني قال: لا تغضب. فرد مراراً قال لا تغضب[71]. ومن المعلوم أن الغضب يرافقه سرعة في النبض وارتفاع في ضغط الدم وزيادة في سكر الدم وتوتر في العضلات وزيادة افراز الغدد واتساع حدقة العين وسرعة في مرور التيارات الكهربائية المنبهة للأعصاب وكل ذلك يعرض الانسان لأخطار هو في غنى عنها لو أخذ بوصية النبي ﷺ .

قال الرسول ﷺ : «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار[72]» .

وقد سمع أكثرنا عن حوادث قتل فيها الابن أباه أو أمه والأخ أخاه أو أخته والأب ابنه أو ابنته فيدفن المقتول ويساق القاتل إلى السجن أو مستشفى الأمراض النفسية ، وما ذلك إلا لإهمال هذه النصيحة النبوية ، ألم يقل الله تعالى عنه ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[73] .

قال الرسول ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان[74]» .

والأوساخ تفسد المنظر وتولد الروائح الكريهة وتقزز النفس وتنشر الأمراض كالسل وغيره والزجاج المكسور والأشياء الحادة تجرح الناس وكل شيء في غير مكانه هو من الأذى ويثاب من يزيله من طريق الناس .

قال الرسول ﷺ : «البصاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها[75]» .

ج : أمرنا الرسول ﷺ بالتداوي لأن لكل داء دواء

قال الرسول ﷺ : «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء[76]» .

وتعجب إذا علمت أنه إلى يومنا هذا وفي أمريكا حيث ذروة التقدم المادي توجد جماعة ترفض التداوي وتحرم منه أولادها ومن يعولون حتى مات كثير منهم ، بحجة أن ذلك رفض لقضاء الله . وتبحث الحكومات عن وسيلة لإصدار تشريع يرغم هؤلاء على تلقي العلاج ويمنعهم من حرمان أنفسهم وذويهم من الاستفادة مما فتح الله على عباده من وسائل الشفاء .

قال الله تعالى عن النحل : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ﴾[77] .

فمادة الجلوكوز التي هي أهم ما في العسل هي مصدر الطاقة الوحيد لخلايا المخ والاعصاب خاصة والمصدر الرئيسي للطاقة في بقية خلايا الجسم بصفة عامة ، فإذا نقصت في الدم اختلت وظيفة المخ فيفقد الانسان قدرته على الادراك والتمييز والفهم ويفقد توازنه ثم قدرته على الحركة ثم تصيبه تشنجات تشبه الصرع أثناء فترة غياب عن الوعي تفضي إلى الموت ما لم يسعف بحقنه بمادة الجلوكوز في العروق .

وحتى مرضى السكر يحتفظون بقطع من السكر في جيوبهم أينما ذهبوا فإذا شعروا بأعراض نقص السكر في دمائهم تناولوا بعضاً من السكر يسعفون به أنفسهم قبل أن تصيبهم الغيبوبة ، وهذا السكر يتحول بسرعة إلى جلوكوز يجري امتصاصه في الدم فيكون سبباً في النجاة من الموت المحقق .

والجلوكوز هو وسيلة التغذية الرئيسية لمن لا يستطيعون التغذي عن طريق الفم بسبب غياب الوعي أو أثناء العمليات الجراحية أو بعدها وأثناء الصوم الاختياري او العلاجي ، ولعلاج من يجري العثور عليهم بعد فترة من التيه في الصحراء وغير ذلك .

وشمع العسل يستعمل في العلاج الطبيعي في صورة حمامات ساخنة لبعض امراض المفاصل .

قال الرسول ﷺ : «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء[78]» ، وعندما اصابته ﷺ الحمى أمر أن يصب عليه من سبع قرب من الماء قال الرسول ﷺ عندما اشتد وجعه ﷺ : «هريقوا علي من سبع قرب . . . » الحديث[79] .

فهذه سنة قولية وعملية ، ولا زال الماء إلى يومنا هذا هو العلاج المثالي لخفض حرارة الجسم من حيث سرعة مفعوله وكونه رخيصاً في متناول الجميع ومأموناً لا تترتب على استعماله مضاعفات أو آثار جانبية كما في الأدوية والعقاقير التي تنصح الشركات بها ترويجاً لمنتجاتها .

ذكرنا قبل حديث رسول الله ﷺ ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن . . . وما دام ملء البطن شراً على الإنسان فإن الاقتصاد في الطعام لا بد أن يكون خيراً .

ولا أظن أحداً يجهل أن الحمية هي من دعائم العلاج قديماً وحديثاً في معظم الحالات المرضية بل إن بعض الناس لا يشعرون بالراحة الكاملة إذا وصف لهم الطبيب دواء ثم لم يمنعهم من شيء يأكلونه أو يشربونه .

ففي امراض الفم واللثة والأسنان واللوزتين والمريء يمنع الطعام الجاف وينصح بالطعام اللين كالثريد والموز والمانجو .

وفي أمراض المعدة ينصح بمنع الطعام الحار والوجبات الدسمة الكبيرة .

وفي أمراض الكبد تمنع الدهنيات وتزاد السكريات والنشويات على حسابها .

وفي بعض أمراض الكليتين تمنع البروتينات والسوائل الكثيرة والملح .

وفي البعض الآخر تزاد البروتينات وتمنع السوائل الكثيرة والملح .
وفي مجموعة ثالثة تنقص البروتينات وتزاد السوائل والملح .
وفي أمراض القلب والشرايين تنقص الدهون الطبيعية والصناعية .
وفي أمراض الأمعاء الغليظة تمنع الأطعمة ذات الألياف .
وفي أمراض الجلد تمنع أطعمة كثيرة ، كل مرض بحسبه .
وفي حالات السمنة المفرطة تنقص السكريات والنشويات والدهنيات .
وفي حالات البول السكري تنقص السكريات والنشويات .
وفي حالات ضغط الدم المرتفع ينقص الملح والقهوة والشاي والدخان .
وهكذا وهكذا .

ولعل فقدان الشهية للطعام اثناء المرض هو محاولة فطرية من الجسم لتنفيذ الحمية التي لا يتقيد بها

المريض إذا هو ترك لاختياره ، بل إنك واجد في بعض الأحيان أن فقدان الشهية يكون في كل حالة مرضية تجاه الأطعمة التي يضر المريض تناولها .

سئل رسول الله ﷺ عن العلاج بالرقية فقال: «اعرضوا عليّ رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك[80]» .

وقال الرسول ﷺ: «ان كان من شيء من أدويتكم أو يكون في شيء من ادويتكم خير ففي شرطة محجم أو شربة عسل أو لذعة بنار توافق الداء وما أحب أن أكتوي[81]» .

والرقية علاج نفسي ولا يخفى أن كل حالة مرضية عضوية تلازمها حالة نفسية فإما قلق من نتائج المرض ومضاعفاته أو من أنه لم يسبق لذلك المرض مثيل، وقد سئلت مراراً هذا السؤال : هل مرض أحد بمثل مرضي هذا من قبل ؟ وإما قلق من نتائج الاختبارات العملية او الشعاعية أو من مضاعفات الأدوية أو الجراحة اللازمة للعلاج ، وإما حالة من الاكتئاب لشعور الإنسان بالضعف وعدم استطاعته مزاولة نشاطه العادي من حيث الأكل والشرب والنوم والعمل والدراسة والسفر وبأن الموت أقرب اليه من ذي قبل ، كما قد يصيبه بعض الخجل إذا كان سبب المرض إهمالاً منه لقواعد الوقاية المشهورة .

كل ذلك يزيله كلام الله الذي به تطمئن القلوب فيذكره بأن ما أصابه مكتوب في الأزل وأنه لم يكن ليخطئه وانه كفارة لذنوبه وانه يثاب اذا هو صبر واسترجع .

قال الله تعالى: ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون**﴾[82] .

وتحدثنا عن العسل وفوائده العلاجية .

وعن الحجامة نقول إنها استخراج كمية من الدم من العضو المعطوب أو قريباً منه، وقد كان إلى عهد قريب يستعمل في الطب وكذلك في حالات الارتفاع المفاجيء لضغط الدم إلى معدل يخشى معه من انفجار الشرايين .

أما الكي فلا زال يستعمل في علاج قرحة عنق الرحم ولإيقاف النزيف من الشرايين الصغيرة اثناء العمليات الجراحية وبعض امراض العيون ولاستئصال بعض الأورام الجلدية وقد كان سابقاً بالحديد المحمّى ثم صار بالمواد الكيماوية ثم بالكهرباء ثم الآن بأشعة الليزر .

ولعل الكي الخارجي للجلد هو الذي قصده الرسول ﷺ عندما قال ولا أحب أن أكتوي فلم يثبت في الطب نفعه وهو يشغل الإنسان بالألم الخارجي عن الألم الداخلي .

الطب النفسي :

لقد اكتشف علماء الغرب فوائد كثير من النصائح التي ورد ذكرها بواسطة العلوم التجريبية فعرفوا

الميكروبات وطرق عدواها وعلاجها والوقاية منها وعرفوا الطفيليات ودورة حياتها وطرق دخولها إلى الجسم واعراضها وعلاجها والوقاية منها وعرفوا فوائد الأطعمة المختلفة والكميات اللازمة من كل منها واعراض نقصها او زيادتها وقطعوا في ذلك شوطاً كبيراً .

ومع ذلك فإن افراد مجتمعاتهم ليسوا اصحاء فلا زالت بينهم حالات القلق والاكتئاب والهستيريا والجنون والانتحار وفوضى الجنس حتى تزوج الرجال بعضهم بعضاً بوثائق تصدرها الدولة والخوف الدائم على النفس والعرض والمال .

فأموالهم مهددة بالسرقة والاغتصاب والاحتيال والربا والاحتكار واعراضهم منتهكة ، حتى اطفال مدارسهم ابتداء من سن السنتين فصاعداً ذكوراً واناثاً ليسوا في مأمن من اعتداء مدرسيهم ، ونفس الواحد منهم لا تساوي أكثر من ثمن الرصاصة ولا يمنعهم من ازهاقها إلا عين الشرطي ، ولكن أنى لهم بكل هذه العيون حتى يأمن الانسان على حياته .

والمرأة عندهم فاقدة الكرامة فهي لا تأكل إلا ان تعمل أو تزل قدمها فلا هي مكفولة ولا عرضها مصان بل هي وسيلة للدعاية التجارية .

إن الفرد في المجتمع تتحقق راحته النفسية اذا اعتقد ان له مالكاً واحداً هو الذي يكلؤه برعايته وانه ليس نهباً لرغبات ملاك أو آلهة متعددة يتشاكسون فيه ؛ هذا يرسل الريح وذلك يمنع المطر وتلك تغيب الشمس وآخر ينزل الصقيع وغيره يرسل السموم .

قال تعالى : ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً﴾[83] .

وقال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[84] .

وقال تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾[85] .

وإذا اعتقد ان مالكه يرسل له من يهديه إلى ما ينفعه ويحذره مما يضره .

قال تعالى: ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾[86] .

وقال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترا ﴾[87] .

وأنه لا يأخذه على غرة .

قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[88] .

وإنه يقدر ضعفه .

قال تعالى : ﴿ وخلق الانسان ضعيفاً ﴾[89] .

وأنه يرفق به .

قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾[90] .

وقال الرسول ﷺ : «اللّه أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة[91]» .

وأنه قريب منه مطلع على أحواله يستجيب لندائه .

قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ﴾[92] ..

وأنه غني لا يفقره الإنفاق .

قال تعالى : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء ﴾[93] .

وأنه يخرجه من كل كرب إذا هو أطاعه بل يرزقه بغير حساب .

قال تعالى: ﴿ومن يتق اللّه يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[94] .

وأن ما أصابه من خير أو شر فلم يكن سبيل إلى تغييره فلا داعي للغرور بما أوتي أو السخط على ما يكره .

قال تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على اللّه يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾[95] .

ومن ثمرة ذلك الاعتقاد بالرضا بما قسم اللّه له من العمر والرزق والصحة والولد والجاه والنسب وغير ذلك .

بل الرضا عن ربه عز وجل .

قال اللّه تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾[96] .

فهل ترى أن من رضي عن ربه يقلق على مستقبله أو ينشغل بما يغيب له ، كلا بل هو متفرغ للعمل والأخذ بالأسباب متوكل على الله في شأنه كله .

قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[97] .

وإذا اعتقد أن الله شرع شرائع تنظم علاقات الناس حتى لا يتظالموا .

قال تعالى : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان﴾[98] .

وقال الرسول ﷺ : « . . . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه[99] . . . » الحديث وإنما الناس في قلق وتوجس وكرب لا يجدون معنى لحياتهم ما خافوا على دمائهم واموالهم واعراضهم بسبب اهمالهم لاحكام الله .

فالمؤمن آمن على نفسه .

قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ﴾[100] .

وقال تعالى : ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كـان منصوراً ﴾[101] .

وقال تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيمًا ﴾[102] .

وقال تعالى : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾[103] .

والمؤمن آمن على ماله .

فلن يسرقه أحد .

قال تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله ﴾[104] .

ولن يؤكل بالربا .

قال تعالى : ﴿ يمحق الله الربا ﴾[105] .

ولا بالاحتكار .

قال الرسول ﷺ من احتكر فهو خاطىء .

ولا بالتطفيف .

قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾[107] .

ولا بالغش .

قال الرسول ﷺ : « من حمل علينا السلاح فليس منا ومن غشنا فليس منا »[108] .

ولا يغير ذلك من الوسائل المحرمة .

قال تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾[109] .

والمؤمن آمن على عرضه .

قال تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾[110] .

وقال تعالى : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ﴾[111] .

وقال تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً واولئك هم الفاسقون ﴾[112] .

وقال تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾[113] .

وقال تعالى : ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ﴾[114] .

وقد تفشى في أمريكا وأوروبا وجزر الهاواي مرض عضال بين الرجال الشواذ تبلغ نسبة وفياته 50% . أما الذين يعيشون فهم فاقدو المقاومة ضد الميكروبات والفيروسات والطحالب والطفيليات بسبب شلل أجهزة الوقاية في الجسم ويصابون في النهاية بسرطان لا علاج له .

والمؤمن في مجتمعه آمن من السخرية والاستهزاء .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾[115] .

وآمن من الهمز واللمز .

قال تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾[116] .

وقال تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾[117] .

وآمن من الهجاء الموارب الخبيث .

قال تعالى : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾[118] .

وآمن أن يظن به السوء بغير حق .

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾[119] .

وآمن على سره أن يطلع عليه أحد بغير إذنه .

قال تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾[120] .

بل آمن من الفضيحة إن اكتشف سره عفواً .

قال الرسول ﷺ : « . . . . ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة »[121] .

وعرضه محفوظ في غيبته .

قال تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾[122] .

بل إن إخوانه يدافعون عن عرضه دون علمه .

قال الرسول ﷺ : «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة »[123] .

والمؤمن آمن أمام القضاء فلا يؤخذ بشبهة ولا يظلم .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا ﴾[124] .

وهو آمن من شهداء الزور .

قال تعالى : ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾[125] .

والقاضي حريص على تبرئته أكثر من حرصه على إدانته .

قال الرسول ﷺ : « ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ؛ فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام لأن يخطىء في العفو خير له من أن يخطىء في العقوبة »[126] .

والحكم بالعدل .

قال تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾[127] .

بل هو آمن من خصمه لو التبس الأمر على القاضي .

قال الرسول ﷺ : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها[128]» .

والمؤمن آمن من الشماتة .

قال الرسول ﷺ : « لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك »[129] .

آمن مع خطيبته وفي بيعه وشرائه .

قال ابن عمر : نهى النبي ﷺ أن يبيع بعضكم على بيع بعض ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب[130] .

وهو آمن من قطاع الطرق والمحاربين .

قال تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾[131] .

وهو آمن مع جاره .

قال الرسول ﷺ : « والله لا يؤمن ثلاثاً قيل من يا رسول الله؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه »[132] .

وقال الرسول ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره »[133] .

وقال الرسول ﷺ : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[134] .

والمؤمن آمن في المجتمع .

فهو يعيش بين إخوة متحابين .

قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[135] .

يحب كل منهم له ما يحبه لنفسه .

قال الرسول ﷺ : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[136] .

بل يؤثرونه على أنفسهم ولو كانوا معوزين .

قال تعالى : ﴿ **ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[137] .

وقال تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمًا وأسيراً** ﴾[138] .

يدعون له بظهر الغيب .

قال الرسول ﷺ : « أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب »[139] .

له على اخوانه حقوق .

إذا سلم أن يردوا عليه .

وإذا دعاهم أن يجيبوه .

وإذا عطس شمتوه .

وإذا مرض عادوه .

وإذا مات تبعوه .

قال الرسول ﷺ: «حق المسلم على المسلم خمس رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس»[140] .

ولم يحصر الطب حتى الآن الفوائد المترتبة على العطس بحيث تستحق الحمد والدعاء بالرحمة وأشدها وضوحاً هو خروج كمية كبيرة من الميكروبات أو الفيروسات من جسم الإنسان ولو بقيت فيه لتأذى بها .

والمؤمنون أعزة على أعدائه أذلة عليه .

قال تعالى : ﴿ **أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** ﴾[141] .

يقدمون العفو على الانتقام منه .

قال تعالى : ﴿ **وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾[142] .

يأخذون العفو من أخلاقه .

قال تعالى : ﴿ **خذ العفو** ﴾[143] .

ويعرضون عنه إذا جهل .

قال تعالى : ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾[144] .

يكظمون غيظهم ويعفون عنه ويحسنون إليه .

قال تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[145] .

يتسابقون إلى عونه .

قال الرسول ﷺ : « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . . . » الحديث[146] .

هو مكفول من المجتمع .

فإن كان من أهل الصدقة كانت حقاً له .

قال تعالى : ﴿ **وفي اموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾[147] .

وقال تعالى : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله** ﴾[148] .

آمن من عواقب الكوارث والنوائب .

قال الرسول ﷺ : « من كان معه فضل ظهر فلْيعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له » . قال الصحابي فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل [149] .

آمن لو انقطع به السبيل فله حق في مال الزكاة كما تقدم وله حق في الفيء وفي الغنائم .

قال تعالى : ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾[150] .

وقال تعالى : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى**

والمساكين وابن السبيل ﴾[151] .

مكفول من أبنائه .

قال تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾[152] .

بل من أبناء أصدقائه .

قال الرسول ﷺ : « إن أبرَّ البر أن يصل الرجل ود أبيه »[153] .

مكفول من ذوي قرباه .

قال رسول الله ﷺ : «من سرّه أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في اثره فليصل رحمه»[154] .

وهم يصلونه ولو قطعهم .

قال الرسول ﷺ : « ليس الواصل بالمكافيء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها »[155] .

له نصيب في تركتهم بالفرائض أو الوصية .

قال تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾[156] .

وقال تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصين بها أو دين ﴾[157] .

مكفول أو محفوظ المال إذا تيتم .

قال الرسول ﷺ : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بأصبعيه[158] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا ﴾[159] .

والمرأة لضعفها أحق بحسن الصحبة من الرجل .

سأل رجل النبي ﷺ : «من أحق بحسن صحابتي؟ فقال : « أمك قال : ثم من؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال أبوك »[160] .

مذموم من يتشاءم لولادتها .

قال الله تعالى : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[161] .

من أدَّبها وأحسن إليها كان مثواه الجنة .

قال الرسول ﷺ : « من ابتلى من هذه البنات بشيء كن له ستراً من النار »[162] .

معاملتها كزوجة مقياس لصلاح الزوج .

قال الرسول ﷺ : «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقًا وخياركم خياركم لنسائهم »[163] .

لها حق العدل بينها وبين ضرتها .

قال الرسول ﷺ : « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة شقة مائل »[164] .

مكفولة عند زوجها .

سئل رسول الله ﷺ عن حق الزوجة على الزوج فقال : « تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت » .

مكفولة إذا طلقت .

قال تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾[165] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾[166] .

وان طلقت حاملاً بقيت في البيت إلى الوضع .

قال تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾[167] .

مأجورة إذا أرضعت .

قال تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾[168] .

مكفولة إذا ترملت، وكذلك لا تورث .

قال الله تعالى : ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ﴾[169] .

وقال تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير اخراج ﴾[170] .

وقال تعالى : ﴿ ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ﴾[171] .

كما لها حق إنشاء زواج جديد إذا انقضت عدتها .

قال تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف ﴾[172] .

آمن في الخصام والحرب .

قال تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها اربعة حرم ﴾[173] فهو في أمن مطلق ثلث أيام السنة .

لا يطول الهجر بينه وبين اخوانه .

قال الرسول ﷺ : «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »[174] .

آمن من جلساء السوء الذين ينمون العداوة .

قال الرسول ﷺ : « لا يدخل الجنة قتات »[175] .

بل يجد من يصلح بينه وبين أخيه .

قال تعالى : ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾[176] .

فإن بغى عليه كان إخوانه معه على البغاة .

قال تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾[177] .

له حق رد العدوان .

قال تعالى : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾[178] .

آمن من الغدر .

قال الرسول ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها اذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر »[179] .

وقال تعالى : ﴿ **ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار** ﴾[180] .

إذا خاف الغدر فله أن يعلم خصمه بالحرب .

قال تعالى : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء** ﴾[181] .

آمن من القتلة الفاحشة .

قال الرسول ﷺ : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته »[182] .

آمن من القتل إذا لم يقاتل كأن كان متفرغاً للعبادة .

قال تعالى : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** ﴾[183] .

وهكذا يأمن الانسان على نفسه وماله وعرضه وعلى زوجه وأولاده وقرابته من بعده كما تأمنت له صحته الجسمانية . وهكذا يكون المسلم صحيح البدن صحيح النفس منسجمًا مع المجتمع وهذا هو تعريف الصحة كما جاء في ميثاق منظمة الصحة العالمية ولا يحقق ذلك إلا الإسلام متكاملاً .

الهوامش

(1) الأنبياء30 .
(2) الأنبياء 30 .
(3) الذاريات 49 .
(4) الحجر 22 .
(5) يس 38 .
(6) يس 39 .
(7) الملك 5 .
(8) الأنبياء 31 .
(9) الزمر 21 .
(10) السجدة 27 .
(11) الغاشية 17 .
(12) الغاشية 18 .
(13) الغاشية 19 .
(14) الغاشية 20 .
(15) فاطر 27 ، 28
(16) النور 45 .
(17) الشورى 49 ، 50 .
(18) النحل 68 ، 69 .
(19) النحل 66 .
(20) المؤمنون 12 ، 13 ، 14 .
(21) النمل 88 .
(22) فاطر 12 .
(23) الرحمن 19 ، 20 .
(24) الشورى 32 ، 33 .
(25) النور 43 .
(26) الحديد 6 .
(27) الزخرف 32 .
(28)الروم 20 .
(29) الروم 21 .
(30) الروم 22 .
(31) الروم 23 .
(32) الروم 24 .
(33) الروم 25 .
(34) يس 80 .
(35) طه 55 .
(36) رواه مسلم .
(37) سنن ابن ماجه .
(38) البقرة 222 .
(39) البقرة 223 .
(40) البقرة 233 .
(41) القصص 7 .
(42) أخرجه البخاري .
(43) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي .
(44) رواه الترمذي .
(45) رواه الترمذي وأبو داود .
(46) ابن ماجه .
(47) اخرجه البخاري .
(48) متفق عليه .
(49) رواه البخاري .
(50) النحل 115 .
(51) المائدة 90 .
(52) أخرجه البخاري .
(53) رواه الترمذي .
(54) متفق عليه .
(55) رواه أحمد وأبو داود والحاكم .
(56) رواه الترمذي .
(57) متفق عليه .
(58) رواه مسلم وأبو داود والترمذي .
(59) المائدة 100 .
(60) المؤمنون 51 .
(61) البقرة 172 .
(62) النساء 148 .
(63) رواه الترمذي .
(64) رواه أبو داود .

(65) متفق عليه .
(66) رواه الجماعة .
(67) رواه مسلم .
(68) رواه أحمد والنسائي .
(69) رواه ابن ماجه .
(70) رواه مسلم .
(71) رواه البخاري .
(72) متفق عليه .
(73) التوبة 128 .
(74) متفق عليه .
(75) متفق عليه .
(76) رواه البخاري .
(77) النحل 69 .
(78) متفق عليه .
(79) رواه البخاري .
(80) رواه مسلم وأبو داود .
(81) أخرجه البخاري .
(82) البقرة 156 .
(83) الزمر 29 .
(84) الأنبياء 22 .
(85) المؤمنون 91 .
(86) يس 13 ، 14 .
(87) المؤمنون 44 .
(88) الاسراء 15 .
(89) النساء 28 .
(90) الانعام 160 .
(91) أخرجه البخاري .
(92) البقرة 186 .
(93) محمد 38 .
(94) الطلاق ، 2 ، 3 .
(95) الحديد 22 ، 23 .
(96) البينة 7 ، 8 .
(97) الانعام 82 .
(98) الرحمن 7 ، 8 .
(99) رواه مسلم .
(100)النساء 92 .
(101)الإسراء 33 .
(102)النساء 93 .
(103)المائدة 45 .
(104)المائدة 38 .
(105)البقرة 276 .
(106)رواه أبو داود والترمذي ومسلم .
(107)المطففين 1 .
(108)رواه مسلم .
(109)البقرة 188 .
(110)النور 30 .
(111)النور 31 .
(112)النور 4 .
(113)النور 2 .
(114)النساء 16 .
(115)الحجرات 11 .
(116)الحجرات 11 .
(117)الهمزة 1 .
(118)الحجرات 11 .
(119)الحجرات 12 .
(120)الحجرات 12 .
(121)متفق عليه .
(122)الحجرات 12 .
(123)رواه الترمذي .
(124)الحجرات 6 .
(125)الحج 30 .
(126)رواه الترمذي .
(127)النساء 58 .
(128)متفق عليه .
(129)رواه الترمذي .
(130)أخرجه البخاري .
(131)المائدة 33 .
(132)متفق عليه .

(133)متفق عليه .
(134)متفق عليه .
(135)الحجرات 10 .
(136)متفق عليه .
(137)الحشر 9 .
(138)الانسان 8 .
(139)رواه الترمذي وأبو داود .
(140)متفق عليه .
(141)المائدة 54 .
(142)النور 22 .
(143)الأعراف 199 .
(144)الأعراف 199 .
(145)آل عمران 134 .
(146)رواه مسلم .
(147)الذاريات 19 .
(148)التوبة 60 .
(149)رواه مسلم .
(150)الحشر 7 .
(151)الأنفال 41 .
(152)الاسراء 23 .
(153)رواه مسلم .
(154)متفق عليه .
(155)رواه البخاري .
(156)الأنفال 75 .
(157)النساء 12 .
(158)رواه البخاري .
(159)النساء 10 .
(160)متفق عليه .
(161)النحل 58 ، 59 .
(162)متفق عليه .
(163)رواه الترمذي .
(164)رواه الترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه .
(165)البقرة 241 .
(166)الطلاق 1 .
(167)الطلاق 4 .
(168)الطلاق 6 .
(169)النساء 19 .
(170)البقرة 240 .
(171)النساء 12 .
(172)البقرة 234 .
(173)التوبة 36 .
(174)متفق عليه .
(175)متفق عليه .
(176)الحجرات 10 .
(177)الحجرات 9
(178)البقرة 194 .
(179)متفق عليه .
(180)النساء 145 .
(181)الأنفال 58 .
(182)رواه مسلم .
(183)البقرة 190 .

المسلمون في اليابان

سليمان أكيرا هاماناكا
طالب بكلية الدعوة الإسلامية

1) الأديان في اليابان

تنص المادة 20 من الدستور الياباني على أن « حرية الدين مكفولة للجميع » وانطلاقاً من هذا الدستور (لا يحق لأي تنظيم ديني أن يتلقى امتيازات من الدولة أو يقوم بأي نشاط سياسي) .

فاليابانيون بصفة عامة يجدون أنفسهم في حرية تامة في اختيار اي دين يؤمنون به وممارسة طقوسه وإقامة الحفلات الدينية وغيرها مما يتعلق بالدين .

ويوجد في اليابان تياران رئيسـان ، الأول هو البوذية وقد وصلت إلى اليابان في القرن السادس ويقدر عدد البوذيين الآن حوالي 78 مليون شخص أي 70 في المائة من عدد السكان والثاني هو الشينتوية وقد ظهرت وتطورت باعتبارها ديناً شعبياً يبلغ عدد المنتسبين إليه حوالي 89 مليون شخص أي 80 في المائة وهذان الرقمان يشيران بوضوح إلى ميل اليابانيين إلى اعتناق أكثر من عقيدة دينية في وقت واحد .

وتمارس الطقوس الشينتوية عادة في الاحتفال بالميلاد والزواج بينما تقام المراسم البوذية في الجنازات وفي إحياء الذكرى السنوية للمتوفين .

وقد ظهرت في أواخر القرن الماضي وفي هذا القرن كثير من الديانات مثل ديانة (تينري) و (ربوكاي) و (ريشوكوسيكان) وغيرها ولكن معظمها لا تخرج في طابعها عن تأثير فكرة الديانتين السابقتين وهما البوذية والشينتوية .وبجانب هذه الأديان توجد ديانتان سماويتان هما المسيحية والإسلام إلاّ أن المسيحية برغم قدم وصولها إلى اليابان ، (1549م) لم تجد قبولاً واهتماماً من اليابانيين إذ أن عدد المسيحيين لم يصل إلى واحد في المائة . وأما المسلمون فإنهم أقل من ذلك بكثير ويقدر عددهم بثلاثة آلاف شخص تقريباً بحسب العدد المسجل عند الجمعيات الإسلامية اليابانية .

2 ـ دخول الإسلام وانتشاره في اليابان

سجل التاريخ أن وصول الإسلام وانتشاره في اليابان كان متأخراً جداً بالنسبة للأديان الداخلية

الأخرى مثل البوذية والمسيحية ، ولم ينتشر الإسلام فيها انتشاراً واسعاً وسريعاً كما كان يحدث في جنوب شرقي آسيا حيث بدأ دخول الإسلام فيها قبل قرابة قرن من الزمن حتى الآن ولم يعتنق من اليابانيين الإسلام إلا أفراد قلائل . وقد أثبت التاريخ أيضاً أن وصوله إلى اليابان كان بطرق متعددة يمكن تلخيصها في ثلاثة طرق .

1) عن طريق احتكاك جيوش اليابان بالمجتمع الإسلامي الموجود في الجزء الشمالي من الصين عندما احتلته اليابان قبل الحرب العالمية الأولى . وقد أسلم بعض أفراد الجيش الياباني نتيجة لهذا الاحتكاك ولكن عددهم ضئيل جداً .

2) عن طريق هجرة التركستانيين إلى اليابان وحدث ذلك بعد الثورة الروسية حيث فروا أمام ضغط واضطهاد الروس الشيوعيين في تركستان ومنشوريا . ولعب هؤلاء المهاجرون بعد ذلك دوراً مهمّاً في التعريف بحقيقة الإسلام في جميع جوانبه .

3) عن طريق الكتب والأبحاث المتعلقة بالإسلام ، وظهر هذا مع الحدثين المهمين في دخول الإسلام إلى البلاد وهما كما ذكرت احتكاك جيوش اليابان بالمجتمع المسلم الصيني وهجرة التركستانيين ، حيث إن هاتين الظاهرتين جعلتا علماء اليابان ومثقفيها يلتفتون إلى الدين الجديد ويتناولونه في مؤلفاتهم وأبحاثهم تعريفاً ونقداً . ولقيت هذه النشاطات تشجيعاً مادياً ومعنوياً من الحكومة الامبراطورية آنذاك لأنها تريد استخدامها كذريعة لسياستها التوسعية فقد أصبحت في حاجة إلى كل المعلومات المتعلقة بالدين الإسلامي ولا سيما عندما بسطت نفوذها على أرض مستعمراتها في شرق آسيا . ومع مرور الزمن كان المسلمون جادين في نشر هذا الدين ، يتحركون باستمرار وإن كان تحركهم بطيئاً ، حتى ظهرت النتائج الطيبة في الثلاثينيات من هذا القرن متمثلة في بناء ثلاثة مساجد في طوكيو العاصمة وكوبن وناغويا ، وترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اليابانية (على يد مستشرق ياباني) ، ومنها إقامة المعرض الإسلامي في طوكيو وأوساكا وهما المدينتان الرئيسيتان في اليابان وقد حضر افتتاح هذا المعرض جمع غفير من كبار علماء المسلمين . وفي هذا المعرض ما يجعل هؤلاء الزوار من شخصيات إسلامية يتفاءلون بعض الشيء في أول وهلة إزاء هذه الانجازات العظيمة ولا سيما عندما رأوا المساجد في طوكيو وغيرها . وقد قال أحد علماء اندونيسيا «السيد أ.كاسمات A.Kasmat » في مجلة « الإسلام يتحرك » الصادرة سنة 1940 م : « خلال زيارتنا وصلاتنا في المسجد الضخم الموجود في اليابان كنا نلتفت يميناً ويساراً لكي نرى هل يوجد المسلمون اليابانيون بين هؤلاء المصلين وأخيراً تبين أنه ليس فيهم إلا ياباني واحد فقط وبين صفوف المرأة لم نر أية يابانية بين المصليات ومن هنا عرفنا أن عدد المسلمين اليابانيين كان ضئيلاً ، وهذا يرجع ، إلى أن الدعوة الإسلامية في هذا البلد لم تكن كبيرة ومكثفة كبقية الدول الأسيوية وبرغم هذه النواقص التي عانت وتعاني منها قضية الدعوة الإسلامية في هذا البلد ورغم أن اليابانيين كانوا يجهلون كثيراً عن الإسلام وعن العرب إلا أنه بعد أن تمكن الإسلام فيها صار يتطور شيئاً فشيئاً . وهذا التطور يظهر بوضوح عقب الحرب العالمية الثانية حيث ازداد عدد المسلمين بسبب احتكاك جيوش اليابان بالمجتمع في جنوب شرقي آسيا مثل ماليزيا

واندونيسيا . وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها بسبع سنوات تم بجهود المسلمين تشكيل أقدم المنظمات الإسلامية في اليابان .

ومنذ أوائل هذا القرن جرت محاولات عديدة لادخال الإسلام من قبل الدعاة الأجانب إلى هذا البلد ومنهم الداعية المصري علي أحمد الجرجاوي 1907م وعبد الرشيد ابراهيم مفتي مسلمي روسيا 1909م وجماعة التبليغ 1956م إلا أن عدد المسلمين اليابانيين في عام 1970م لم يتجاوز الأربعمائة شخص .

وبعد عام 1970م تغيرت الأمور بحيث تزايد عدد المسلمين تزايداً ملحوظاً وهذا يرجع إلى عوامل عدة ، منها زيادة عدد المسافرين اليابانيين إلى الخارج وتعارفهم مع شعوب العالم واكتشافهم تقاليد وديانات مختلفة منها الإسلام ، واهتمامهم بالعرب وقضيتهم وديتهم بعد أزمة البترول التي حدثت في عام 1973م ، وازدياد الكتب والمؤلفات المتعلقة بالدين الإسلامي والدول الإسلامية .

3) المسلمون اليابانيون اليوم

إن عدد المسلمين اليابانيين لا يمكن تحديده بالضبط نظراً لعدم وجود رابطة متينة واتصال راسخ ببعضهم بعد اسلامهم وكل الاحصائيات المتعلقة به متعارضة ومتناقضة منها ما يصل به إلى عشرات الآلاف ومنها آلاف ومنها المئات . أمّا الأرقام الموجودة في سجل جمعية مسلمي اليابان فتشير إلى أن عددهم يصل إلى ثلاثة آلاف شخص ، ويقول أحد موظفي هذه الجمعية إن عددهم يقرب من ألف شخص فقط ولعل هذا أصح عدد . ومعظمهم موزعون ومتفرقون في العاصمة وما حولها ومعظمهم من المسلمين الجدد . وهذه الحالة تجعلهم غير قادرين على تشكيل مجتمع مسلم في منطقة معينة . ويوجد في اليابان الآن مسجدان هما مسجد طوكيو ومسجد كوبي بالقرب من « أوساكا » والجدير بالذكر في هذا الصدد أن عدد المسلمين بدأ يتزايد تزايداً مستمراً في الآونة الأخيرة في جزيرة « هوكايدو » الشمالية وغيرها وهذا يدل على ان الإسلام بدأ يدخل إلى محافظات أخرى غير طوكيو .

أما من ناحية وضع المسلمين بصفة عامة فإنهم من الطبقة الوسطى ، ولكنهم على أية حال نشيطون في نشر الدعوة الإسلامية والاحتفاظ بها ويحاولون باستمرار تعميم نور الإسلام في اليابان ، وهو ما نلاحظه خلال نشاطاتهم في تشكيل الجمعيات المختلفة . وهذه الجمعيات رغم اختلاف أسمائها وشعاراتها ترمي إلى هدف واحد هو نشر الإسلام. فالجمعيات الإسلامية موزعة في مناطق عديدة؛ في طوكيو فقط توجد سبع جمعيات : منها 1) جمعية مسلمي اليابان : وهي أقدم الجمعيات وأكبرها ومعظم أعضائها وموظفيها من أبناء اليابان وأهم نشاطات هذه الجمعية :

القاء المحاضرات الدينية وتدريس اللغة العربية واصدار جريدة شهرية ويبذل فضل الله تشانج خريج كلية الدعوة الإسلامية جهده في تدريس اليابانيين المسلمين وارشاد أبناء اليابان كأحد المدراء في هذه الجمعية وفي الجمعيات الأخرى .

المركز الإسلامي : - ومعظم رواده من كبار مسلمي اليابان والدعاة الأجانب وأهم نشاطاته : نشر الكتيبات الإسلامية وإصدار مجلة « الإسلام » وفتح اعداد فصول اللغة العربية .

الجمعية الإسلامية اليابانية وقد شكلت في منتصف السبعينيات فكانت متأخرة عن الجمعيات الأخرى ويترأسها « الدكتور شوقي فوتاكي » الطبيب .

وأهم أنشطتها : اتصالها بالدول العربية وفتح المستشفيات لمساعدة المرضى المسلمين .

وبجانب هذه الجمعيات توجد هناك جمعيات أخرى في كل من مدينة « كيوتو » و« توكوشيما » و« كانازاوا » و« سينداي » ، بمعدل جمعية واحدة في كل منها وتوجد في جزيرة « هوكايدو » جمعيتان .

4) بعض قضايا المسلمين في اليابان

وإذا لاحظنا المسلمين اليابانيين ملاحظة دقيقة فسنجد قضايا عديدة ومشكلات متعددة لا تحصى لكنني سأتناول بعض تلك القضايا والمشكلات التي أراها مهمة أكثر من غيرها :

1) مفهوم الدين عند اليـابانيين : وبما أن الدين في معناه اللغوي يختلف من مجتمع إلى مجتمع آخر فلا داعي للاستغراب إذا وجدنا بوناً شاسعاً وفرقاً واسعاً في معناه الاصطلاحي من بلد إلى آخر .

فالعرب على سبيل المثال باعتبار جزيرتهم موطن الأديان السماوية يستعملون كلمة « الدين » في لغتهم التي تقابلها كلمة (Religio) باللغة اللاتينية عند الغرب ولهاتين الكلمتين العربية والغربية مدلول مشترك يدور حول علاقة الانسان بربه ، بينما كان مفهوم الدين لدى الهنود أصحاب الديانة الوضعية هو (سيدآنتا) (Siddhànta) باللغة السنسكريتية أي تحقيق الغاية . وأما إذا نظرنا إلى مفهوم الدين لدى الصينيين واليابانيين فسنجد اختلافاً واضحاً بينه وبين المفهوم الديني لدى العرب والغرب وتشابهاً كبيراً بينه وبين الهنود نتيجة لاعتناق عدد هائل منهم للديانة الوضعية .

فالدين في اللغة اليابانية هو (شيوكيو) أي كلمة مركبة من (شيو) بمعنى الغاية التي يستنير بها الإنسان وكلمة (كيو) أي موضع الشرح والتوضيح . ولعل مفهوم هذا جعل عامة اليابانيين والصينيين معتنقين أكثر من عقيدة دينية في وقت واحد .

وأما كلمة (الله) باللغة العربية فتقابلها كلمة (كامي) عند اليابانيين التي تعني الرب الخالق لدى المسلمين ، بالإضافة إلى أنها تطلق على أهل البيت الامبراطوري وتستعمل أيضاً لقباً خاصاً بالأجداد الأشراف . والجدير بالملاحظة أن هذه الاستعمالات الثلاثة كانت هي مفهوم الشينتوي لكلمة (إله) .

فكرة النبوة لدى بعض اليابانيين

وفيما يتعلق بقضية النبوة فبعض اليابانيين أخذوا هذه الفكرة من خلال تعرفهم على شخصية امرأة

يعتبرونها نبية جاءت بديانة (تينري) (Tenri) فهي المؤسسة الأولى التي قامت بإرساء أصول هذه الديانة اعتقاداً منها أن الوحي من الله نزل إليها ، الأمر الذي جعل بعض سكان اليابان يقعون في خطأ فاحش لمعنى النبوة الذي جاء به الإسلام .

نظراً للاعتبارات السابقة فإنه ليس من الأمر اليسير تغيير مفاهيم اليابانيين للدين والألوهية والنبوة ولعل هذا السر الأكبر لبطء انتشار الإسلام في هذا البلد ، ولكنني على غاية الثقة في أنه إذا عرف الإيمان الصحيح لدى الشعب الياباني وعرف الإسلام الحقيقي لديهم فلا شك أن هذا الدين الحنيف سينتشر داخل هذا البلد بشكل سريع وبصورة واسعة لأن من خصائص اليابانيين الاجتهاد والكد في عمل يؤمنون به مهما كانت الظروف التي تواجههم .

الترابط بين المسلمين

يتركز المسلمون اليابانيون غالباً في العاصمة وما حولها ولم يتمكنوا من تشكيل ما يسمى بالمجتمع المسلم في منطقة معينة . هذا الواقع ليس غريباً ولا عجيباً لأن سكان المدينة الكبرى إذا قورنوا بسكان الأرياف بصفة عامة فإنهم يشغلون بأمورهم الشخصية ويهتمون بمهامهم الخاصة ويعيشون عيشة منفردة حتى لا يعرفوا من يسكن في جوار بيوتهم . فهذه الظاهرة المدنية جعلت المسلمين اليابانيين أيضاً مجبورين أمام هذا الواقع ، ونجد بجانب الظاهرة المدنية أنهم موزعون في أماكن عديدة ، وهذان السببان جعلا الترابط بينهم ضعيفاً . فالفرصة التي يتمكن المسلمون اليابانيون من أن يلتقوا فيها بإخوانهم هي عند زيارتهم إلى الجمعيات الإسلامية ومن المعلوم أن هذه الجمعيات قامت بإعداد الدراسات الإسلامية وتعليم اللغة العربية إلا أن اشتغالهم بأنفسهم بجانب كونهم مسلمين جددا لم يمكنهم من استيعاب هذه العلوم، ولذلك نجدهم تارة يخطئون في أمور دينية كزواج المسلم بالمشركة والعكس .

وبالمناسبة أود أن أقول بأن العلاقة القائمة بين المسلمين اليابانيين والأجانب لم تصل بعد إلى المستوى المطلوب والسبب في ذلك يرجع إلى كلا الجانبين .

أما من جهة المواطنين فإن المشكلة الأولى التي تحول دون توثيق العلاقة بينهم وبين الأجانب فهي قضية اللغة حيث إن معظم اليابانيين لا يتقنون الا لغتهم الأصلية . والمشكلة الثانية التي أصبحت سداً مانعاً من انسجام اليابانيين مع المجتمع الأجنبي تكمن وراء التعصب القومي الذي يكون نفوس اليابانيين بحكم الموقع الجغرافي لبلدهم والتجربة التاريخية التي سجلت في تاريخ اليابان عصر الانقطاع . وأما من ناحية الأجانب فلعل أول سبب لعدم توطيد صلتهم بالمواطنين اليابانيين هو قلة معلوماتهم عن الأوضاع الاجتماعية لليابانيين ، الأمر الذي جعل بعضهم يشكون في إسلام الكثير من اليابانيين لان تصرفهم بعيد كل البعد عن التعاليم الإسلامية الصحيحة .

وانطلاقاً من المنهج الموضوعي للبحث يجب عليّ كمسلم ياباني أن اعترف بأن هذا الواقع ينطبق على

كثير من المسلمين اليابانيين وخاصة قريبي العهد بالإسلام غير أنني لا أسلّم بحال من الأحوال بأن عدم تمسكهم بالإسلام الصحيح وقع قصداً وعمداً .

وإنما الحقيقة التي يجب أن تقال هي أن جهلهم بأحكام الإسلام وقلة توسعهم في شريعة هذا الدين الحنيف هما السبب في تلك الظاهرة .

حاجة المجتمع الياباني إلى دعاة الإسلام

وقد أشرت في البداية إلى تزايد عدد المسلمين بشكل متواصل بعد السبعينات ، حيث إن عدد علماء الدين من أبناء المسلمين اليابانيين كان نسبة قليلة للغاية اذا قورنت بعدد المسلمين اليابانيين . وهذا من أهم القضايا التي لا بد من معالجتها في أسرع وقت ممكن على المستوى الداخلي والخارجي في الوقت ذاته ، لأن الحل الأمثل يكمن في تأسيس المدارس الدينية في الداخل ، وارسال العدد الهائل من الشباب المسلم الياباني إلى الدول العربية والإسلامية لعلهم يتفقهون في الدين وينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم . ولكن الحل الأول لا يتأتى إيجاده بصورة عاجلة لأن المسلمين في اليابان في عالمنا اليوم تنقصهم الإمكانيات المادية لبناء المدارس وإقامة المراكز الإسلامية .

وأما العلاج الثاني فرأيت ان أتناوله بالتحليل والتفصيل في العنصر الأخير من هذا المقال . فمن المؤسف حقاً أن الشركات اليابانية في معظم الشؤون أصبحت صاحبة المصلحة الأولى في جذب الشبان اليابانيين المسلمين الذين تلقوا دروسهم في الدول العربية وخاصة منهم من تخصصوا في اللغة العربية لأن هذه الشركات تعطيهم الامتيازات العالية كموظفين ومترجمين ، وهو الشيء الذي يجعلهم يتركون جانباً رسالتهم الحقيقية طمعاً في الحياة المادية .

الدعاة ومشكلة اللغة

أرسلت بعض الدول العربية والإسلامية الدعاة المتخصصين إلى اليابان لنشر دين الحق فيها، وهذه المساعدة الجبارة التي تدعو إلى الانصاف وتدل على الوعي الحقيقي جديرة بالاهتمام والشكر ، ولكنهم لم يحققوا نتائج ملموسة رغم ان بعضهم يبذلون قصارى جهودهم في سبيل نشر الدعوة وذلك لعدم اتقانهم اللغة اليابانية واللغة هي أهم وسائل الدعاة ، وبدونها لا يستطيعون أن يقنعوا عامة الناس . ومن

هذا المنطلق فلا سبيل للدعاة الأجانب إلا بمزيد من دراسة اللغة اليابانية .

وبعد أن لاحظت هذه المشكلة التي واجهها ويواجهها الدعاة في اليابان أقترح انضمام المسلمين اليابانيين إلى صفوف الدعاة ليقوموا بمهمة الدعوة ، وبعد ذلك يقسمون الأدوار فيما بينهم حيث يأخذ الدعاة اليابانيون دور الشرح والتوضيح في التعريف بالإسلام أما الدعاة الأجانب فيقومون بتدريس العلوم الإسلامية واللغة العربية .

5) أهمية نشر الكتب الإسلامية

لا تكاد توجد الأمية بين أفراد الشعب الياباني وكلهم يحبون قراءة الكتب والاطلاع على سبيل الاستفادة منها . فالكتب تؤثر في عقول الناس تأثيراً كبيراً وواضحاً ؛ وخير دليل على ذلك أن المذاهب الجديدة والأديان الحديثة النشأة في هذا القرن تنتشر انتشاراً سريعاً وبشكل خطير لاتخاذها وسيلتين مهمتين :

1) قيام الدعاة بزيارة المنازل ، 2) نشر الكتب والمطبوعات .

ولعل هاتين الوسيلتين أنسب وسائل الدعوة في هذا العصر وفي هذا البلد . وهكذا نجحت دعوة دين الباطل فما بال دعوة دين الحق الدعوة الإسلامية ؟ . . . . إن الدين الإسلامي أصلاً يستخدم في دعوته النقاش والحوار واقناع الناس بما جاء من عند الله أيضاً . فالوسيلة الأولى شبه معطلة لأن دعاة الإسلام في اليابان لم يستطيعوا القيام بهذه الأعمال لقلة عددهم ، وأما الثانية وهي نشر الكتب والمطبوعات فإن تأثيرها على الناس لا يقل عن الوسيلة الأولى حيث أن معظم المسلمين اليابانيين قد اعتنقوا الإسلام بهذه الوسيلة ، وهذه الكتب والمطبوعات متوفرة في الأسواق والمكتبات الا أن معظمها من مؤلفات المستشرقين الملأى بالدس والكيد للدين الإسلامي الحنيف ، وأما الكتب الإسلامية التي ألفها العلماء المسلمون فإنها غير متوفرة ، ويصعب الحصول عليها فكيف يملأ المسلمون اليابانيون هذا الفراغ .

6) الطلاب اليابانيون في الدول الإسلامية

أشرت سابقاً إلى أهمية إرسال الطلاب اليابانيين إلى الدول العربية والإسلامية لأجل زيادة عدد العلماء والمرشدين ، فمنذ الستينات أخذ يتلقى الشبان المسلمون تعليمهم في المدارس والجامعات في الدول العربية والإسلامية ، ولا شك أن بعض هؤلاء الشبان عزموا على الدراسة الإسلامية خاصة ولكن قلما نجد من استمروا في دراستهم الإسلامية حتى تخرجوا في الجامعات لأن الدراسة الإسلامية غاية في الصعوبة بالنسبة لهم ، وهذه الصعوبة جاءت من الأسباب التالية :

1) ليس عندهم أساس من المعلومات الإسلامية لأن جميع هؤلاء الشبان مسلمون جدد .

2) أسلوب الدراسة في الجامعات العربية والإسلامية المعتمد على حفظ الدروس لا تناسبهم لأنهم منذ الصغر لم يتعودوا على ذلك وإنما يركزون على فهم الدرس وتطبيقه .

3) لم يحفظوا آيات القرآن من قبل .

4) ضرورة التحاقهم مدة طويلة بدروس لا تناسب مستواهم الفكري مثل الاعداد بسبب عدم اتقان اللغة العربية تمهيداً للدخول في الجامعة وهذا ما جعلهم يشعرون بالملل لأن معظمهم من خريجي الجامعات أو الكليات في بلدهم .

نظراً لهذه الأسباب نتبين أن هؤلاء المسلمين الجدد كان من الصعب عليهم ان يتلقوا تعاليمهم

الإسلامية مع أبناء المسلمين الذين جاءوا من الدول الإسلامية كيفما كان الحال . فأرى أن الحل الوحيد لهذه المشكلة هو تأسيس مدرسة أو جامعة خاصة لهؤلاء المسلمين الجدد تدرس فيها مواد دينية ذات فكرة عميقة وثقافة عالية دون اجبارهم على حفظ النصوص والدروس والاهتمام باللغة العربية .

وإذا فتحت كلية الدعوة الإسلامية قسمًا خاصاً تجمع فيه المسلمين الجدد من البلدان غير الإسلامية الذين لهم المستوى الدراسي العالي وتمدهم بالمعلومات الإسلامية ، فلا شك أنهم سيحصلون على كفاءة عالية في مجال الدعوة لأنهم أعلم الناس بأمور مجتمعهم وخاصة ما يتعلق بالديانات التي كانوا عليها قبل اسلامهم وكم من المسيحيين والبوذيين بعد تقبلهم الإسلام يخدمون في مجال الدعوة خير خدمة ، ويحققون نتائج ملموسة .

الجمعيات الإسلامية في اليابان :

1 ـ المسجد الإسلامي بطوكيو .
2 ـ الجمعية الإسلامية اليابانية ـ طوكيو .
3 ـ المركز الإسلامي باليابان ـ طوكيو .
4 ـ مركز جماعة الثقافة الإسلامية ـ طوكيو .
5 ـ نيهوم اسلام كيدان .
6 ـ جماعة الرفاهة الإسلامية ـ طوكيو .
7 ـ مجلس المنظمات الإسلامية ـ طوكيو .
8 ـ الجمعية التركية بطوكيو .
9 ـ الجماعة الأندنوسية الإسلامية بطوكيو .
10 ـ جمعية الشباب المسلم ـ طوكيو .
11 ـ جماعة المعمار الإسلامي .
12 ـ مركز المعلومات والتعليم الإسلامي .
13 ـ الجمعية الباكستانية .
14 ـ جمعية الصداقة اليابانية الإسلامية .
15 ـ المسجد الإسلامي في كوب .
16 ـ اتحاد الشباب الياباني المسلم ـ كاذازاوا .
17 ـ المسجد الإسلامي الياباني .
18 ـ مركز الثقافة الإسلامية ـ سينداي .
19 ـ المركز التعليمي الإسلامي ـ توكوشيما .
20 ـ جمعية مسلمي هكايدو .
21 ـ جمعية مسلمي توماكوماي ـ هكايدو .

الدراسات اللغوية

الاصوات اللغوية

د . عبد الله عبد الحميد سويد
استاذ علم اللغة بجامعة الفاتح

يطلق على المولود في بعض اللغات الافريقية لفظة كونتو Kuntu بمعنى « شيء » فإذا تعلم اللغة اطلق عليه لفظة مونتو Muntu بمعنى « شخص »[1] ، فالصفة الإنسانية تلتصق بالمولود حين يتعلم اللغة ، وجعل ذلك الفلاسفة المتخصصين في الدراسات الاجتماعية يصفون اللغة بأنها حياة الانسان وقوته .

ومعرفة اللغة هو القدرة على فهمها واستعمالها استعمالاً صحيحاً ، وذلك يتطلب معرفة بخصائصها الصوتية والصرفية والنحوية ، فحفظ ثمانين ألف مادة لغوية مدونة في معجم لسان العرب لابن منظور على سبيل المثال لا يعني القدرة على فهم اللغة واستعمالها استعمالاً سليمًا خالياً من الأخطاء ، ففهم اللغة يتطلب معرفة بخصائصها وقوانينها الصوتية والصرفية والنحوية .

إن الدرس الصوتي هو الذي يدلنا على أن العربية لا تسمح بالابتداء بصوت ساكن أي مشكل بالسكون ، فلا يقال « بْحر » أو « مْطر » ، بباء أو ميم ساكنة ، ولا تبتدىء الكلمة العربية بحركة « فتحة او كسرة او ضمة» ، وتأخذ لغات أخرى اتجاهاً معاكساً ، فالانجليزية تسمح بتوالي الأصوات الساكنة نحو : Pray يُصَلي Stream بمعنى « مجْرى » .

وقد تبدأ كلمات اللغات اليابانية والفنلندية والانجليزية بحركة (فتحة ـ كسرة ـ ضمة) فمن اليابانية aimasu « يقابل » ومن الفنلندية iso « كبير » ومن الانجليزية angry « غضب » .

وتتميز اللغة العربية بالأصوات المطبقة والتي لها مقابلات وهي : الصاد والسين ، والضاد والدال ، والطاء والتاء ، والظاء والذال نحو :

ضَرْب	ـ دَرْب	طين	ـ تين
سفير	ـ صفير	ذَلَّ	ـ ظلَّ

والعين والحاء من الأصوات النادرة في اللغات ، وتعرفها العربية وحدتين صوتيتين أساسيتين ، ويتضح ذلك من المقابلة بين: « عليم » و « حليم » ، فقد اتفقت الكلمتان في جميع الأصوات ما عدا

الصوت الأول منها وأدى ذلك إلى تغير المعنى مما يدل على أنها وحدتان صوتيتان أساسيتان .

وقد تنبه العرب إلى دراسة الأصوات وأهميتها في علم العربية وفي قراءة القرآن الكريم ، فتجويد القرآن هو تحسينه وهو « إخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه ، وحق الحرف صفاته الذاتية اللازمة له كالجهر والشدة . . . ومستحقه صفاته العرضيـة الناشئـة عن الصفات الـذاتية كالتفخيم . . . وكالترقيق»[2] ، وغاية هذا العلم صون اللسان عن اللحن في كلام الله تعالى ومن اللحن تغيير صوت بصوت كنطق الطاء تاء والضاد دالاً والصاد سيناً مما قد يؤدي إلى الاخلال بالمعنى .

ومن أحسن ما عرض له العرب في دراسة الأصوات ما نجده عند الخليل وسيبويه وابن جني وابن سينا ، وكتاب الأخير في أسباب حدوث الحروف معروف ومشهور، وقد قسمه فصولاً منها في تشريح الحنجرة واللسان ، ومنها في سبب حدوث الصوت ، ومنها في حروف العرب ، ومنها في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب[3] .

وتقوم الدراسة الصوتية على أساس دراسة أصوات اللغة وتشمل النوعين المعروفين باسم علم الأصوات العام General Phonetics وعلم الأصوات الوظيفي Functional Phonetics وعلم الأصوات العام « يدرس الأصوات من حيث نطقها وانتقالها وإدراكها ، وينقسم علم الأصوات إلى فروع منها علم الأصوات النطقي Articulatory Phonetics الذي يعنى بوصف مخارج الأصوات ووصف الجهاز النطقي ومنها علم الأصوات الفيزيائي Acoustic Phonetics الذي يدرس الأصوات من الناحية الفيزيائية ويعنى بحركة مصدر الصوت وتردده وسعة الذبذبة والموجة الصوتية والرنين ، ومنها علم الأصوات السمعي Auditory Phonetics الذي يعنى بماهية إدراك الأصوات وبالعملية السمعية ، ومنها علم الأصوات التجريبي أو المعملي Experimental Phonetics الذي يستخدم الآلات والأجهزة لرسم مخارج الأصوات وخصائصها »[4] .

ويقوم علم الأصوات الوظيفي بدراسة الفروق الوظيفية بين الأصوات ، أي يدرس الوحدات الصوتية الأساسية ويقوم بتحديدها وتحديد وحداتها الثانوية وتوزيعها في الكلمة .

فالنون من الأصوات التي تتأثر بما يجاورها من أصوات ، وقد ذكر علماء التجويد لها أحكاماً أربعة[5] هي :

الاظهار مع الهمزة « ينأون » والهاء « منهم »
والعين « أنعمت » والحاء « ينحتون »
والغين «فسينغضون» والخاء «المنخنقة»

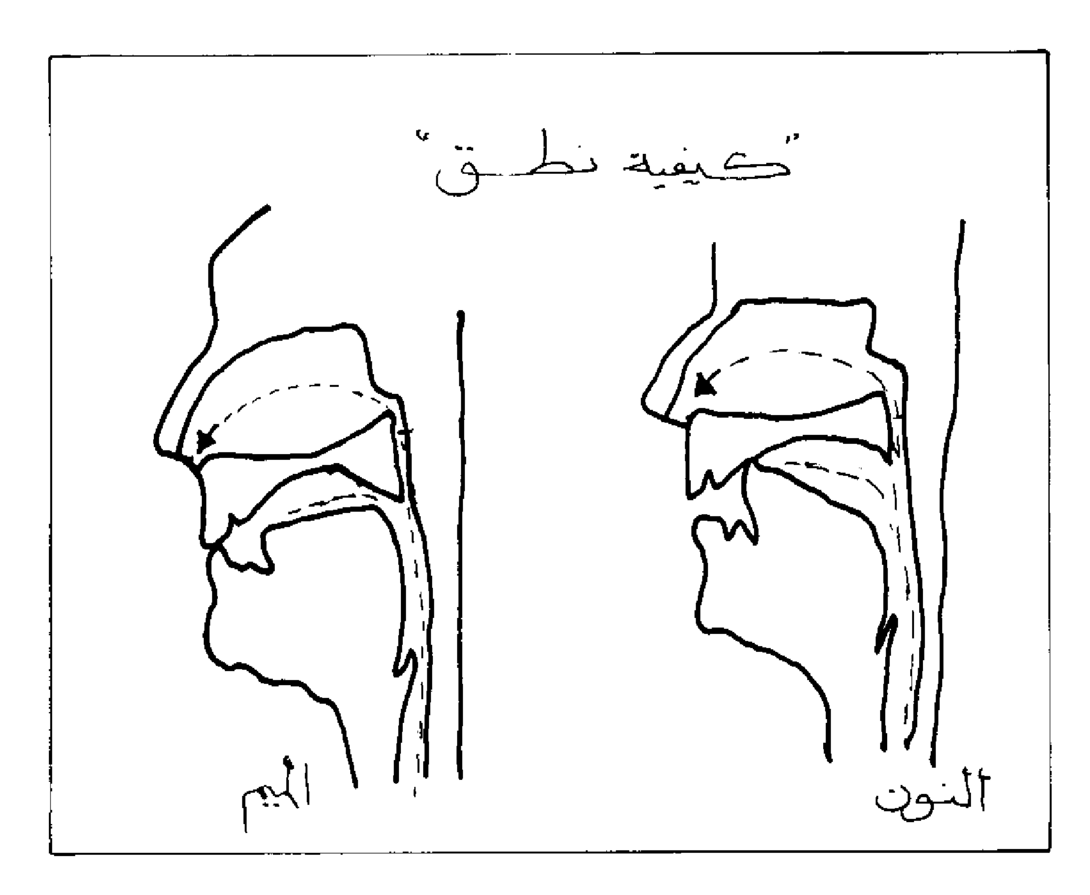
والاقلاب وهو قلب النون ميمًا قبل الباء نحو :
امبعث أي انبعث

وادغام النون إدغاماً كاملاً عند اللام « يكن له » وعند الراء « من ربهم » وإدغامها إدغاماً ناقصاً عند النون « من نعمة » وعند الميم « من ماء » وعند الياء « من يقول » وعند الواو « من ولي » وإخفاء النون عند خمسة عشر صوتاً :

ف ، ث ، ذ ، ظـ ـ د ، ض ، ت ، ط ، س ، ز ، ش ، ج ، ك ، ق ، ص .

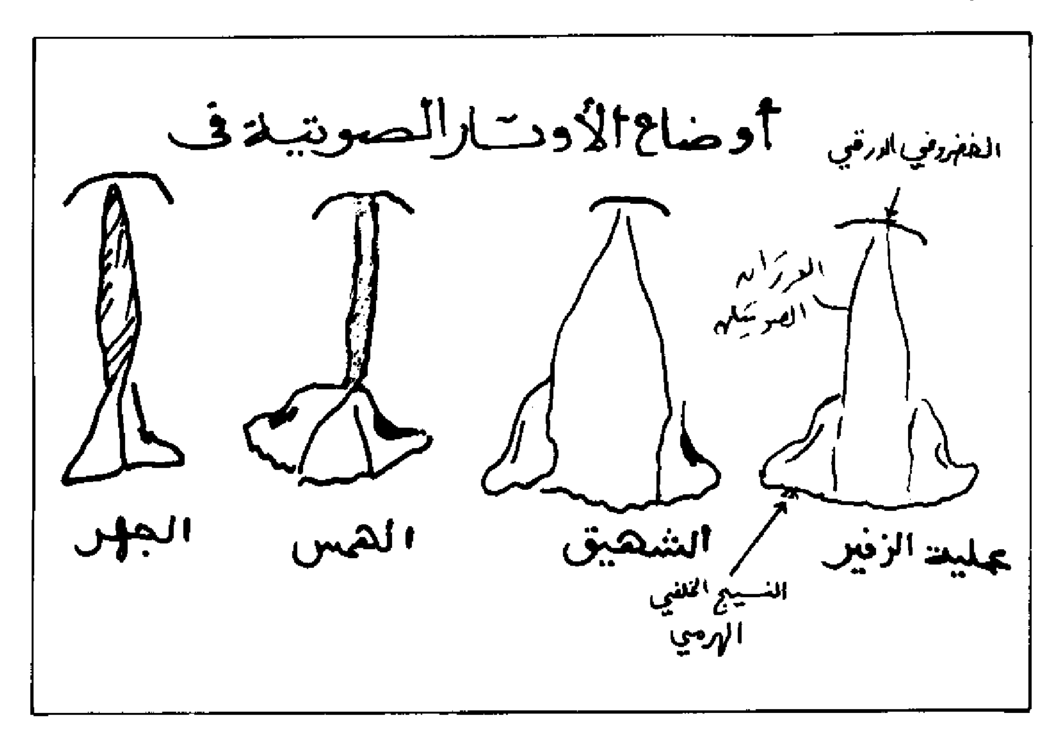
ويتم إنتاج الصوت اللغوي بواسطة أعضاء النطق؛ فالرئتان تقومان بوظيفة المنفاخ الذي يوفر التيار الهوائي «هذا التيار الهوائي يتجه إلى أعلى خلال القصبة الهوائية ، ويواجه تضـاريس مختلفة من التقبضات والانسدادات وبمجرد أن يغادر الهواء الأوتار الصوتية والحنجرة يمكن له أن يتجه إما إلى الفم أو إلى الأنف اللذين يقومان بوظيفة حجرتي رنين»[6] .

فإذا اتجه الهواء إلى الفم تنتج الأصوات الفموية مثل الباء والتاء ، أما إذا توجه الهواء إلى التجويف الأنفي بسبب غلق التجويف الفموي كما يحدث عند النطق بالميم والنون ، فإن ذلك يؤدي إلى إنتاج الأصوات الأنفية .



والصوت اللغوي إما مجهور أو مهموس ، والجهر هو الأثر السمعي لتذبذب الوترين الصوتيين في الحنجرة وأما الهمس فهو عدم تذبذب الوترين الصوتيين ، ومن المجهورات الزاي والذال والميم ومن

المهموسات السين والثاء والهاء .



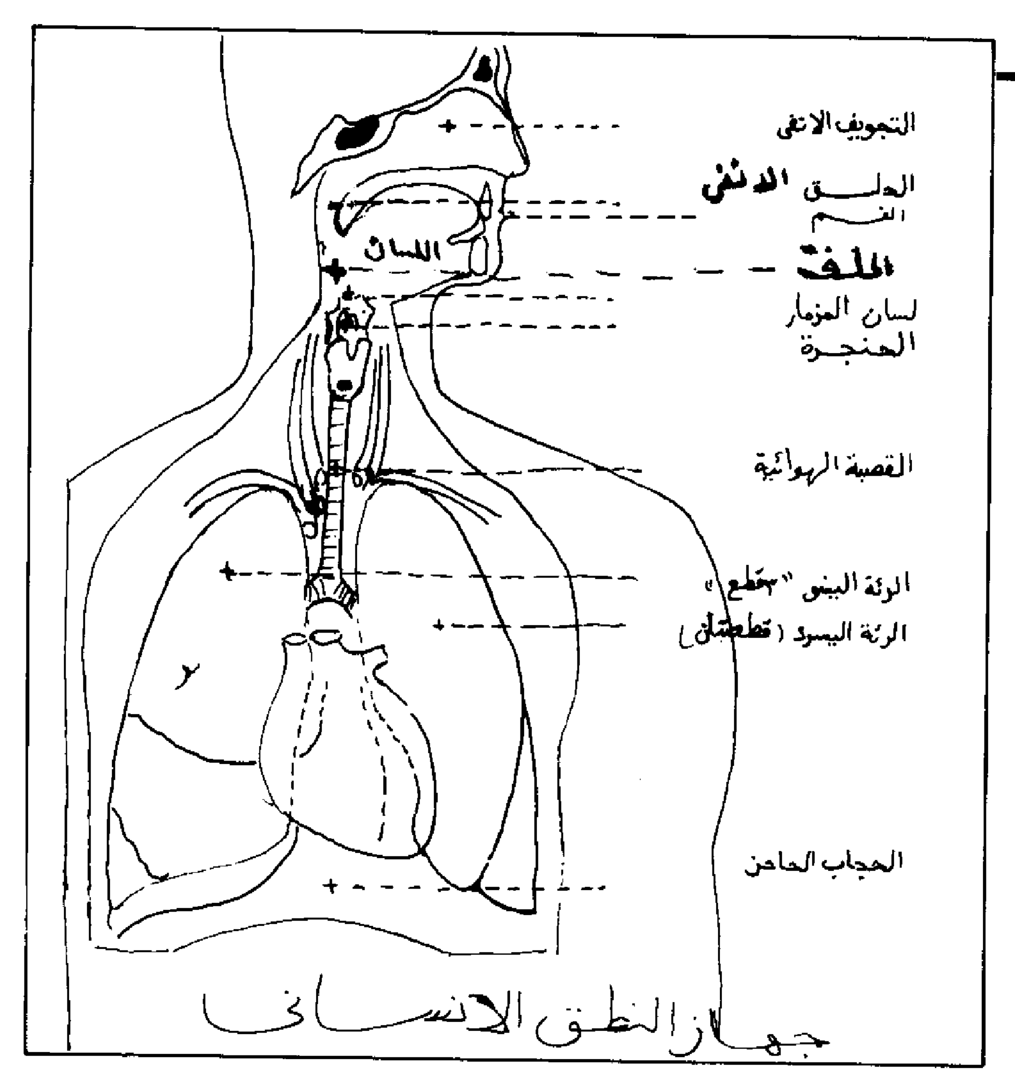
ومخرج الصوت هو النقطة المحددة في الجهاز النطقي والتي يتم عندها إنتاج الصوت ، فتتكون الباء عند التقاء الشفة السفلى بالشفة العليا فيحجزان الهواء خلفهما ثم فجأة يفتح مجرى الهواء فيتكون صوت الباء .

أما الكاف فتتكون عند التقاء مؤخر اللسان بأقصى الحنك اللين فهي حنكية قصية او حنكية لينة ، وتتكوّن الهمزة نتيجة غلق الوترين الصوتيين في الحنجرة وفتحهما فهي حنجرية Glottal Stop .

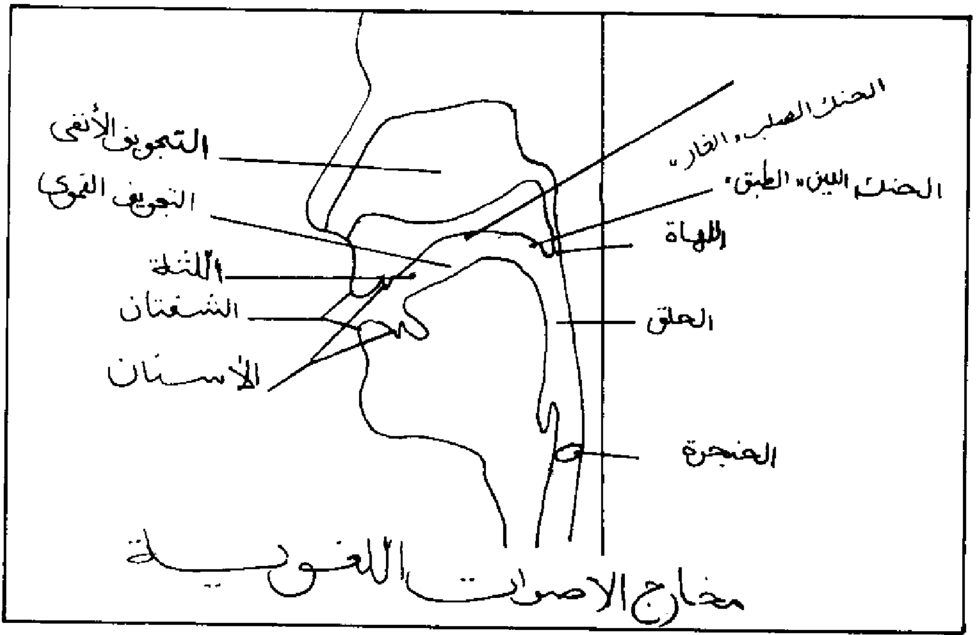
وتصنف الأصوات على أساس حالة ممر الهواء أثناء النطق فقد يغلق مجرى الهواء ثم يفتح فيندفع الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً كما في حالة النطق بأصوات الكاف والباء والقاف وتسمى هذه الأصوات بالأصوات الانفجارية أو الشديدة وقد يضيق مجرى الهواء في موضع من المواضع فيحدث في خروجه احتكاكاً مسموعاً كما في حالة النطق بأصوات الثاء والسين والزاي وتسمى هذه الأصوات بالاحتكاكية أوْ الرخوة .

وقد يكون الصوت مركباً أي يتكون من جزأين ، جزء انفجاري (شديد) وجزء احتكاكي (رخو) كالجيم الفصيحة التي ينطقها قراء القرآن الكريم في الوطن العربي .

وقد ينفذ الهواء من جانبي الفم أو من أحدهما فيسمّى الصوت جانبياً ويمثله صوت اللام في العربية ، لأن اللسان ينحرف فيه مع الصوت وتتجافى ناحيتا مستدق اللسان عن اعتراضهما على الصوت فيخرج



جهاز النطق الانسانى



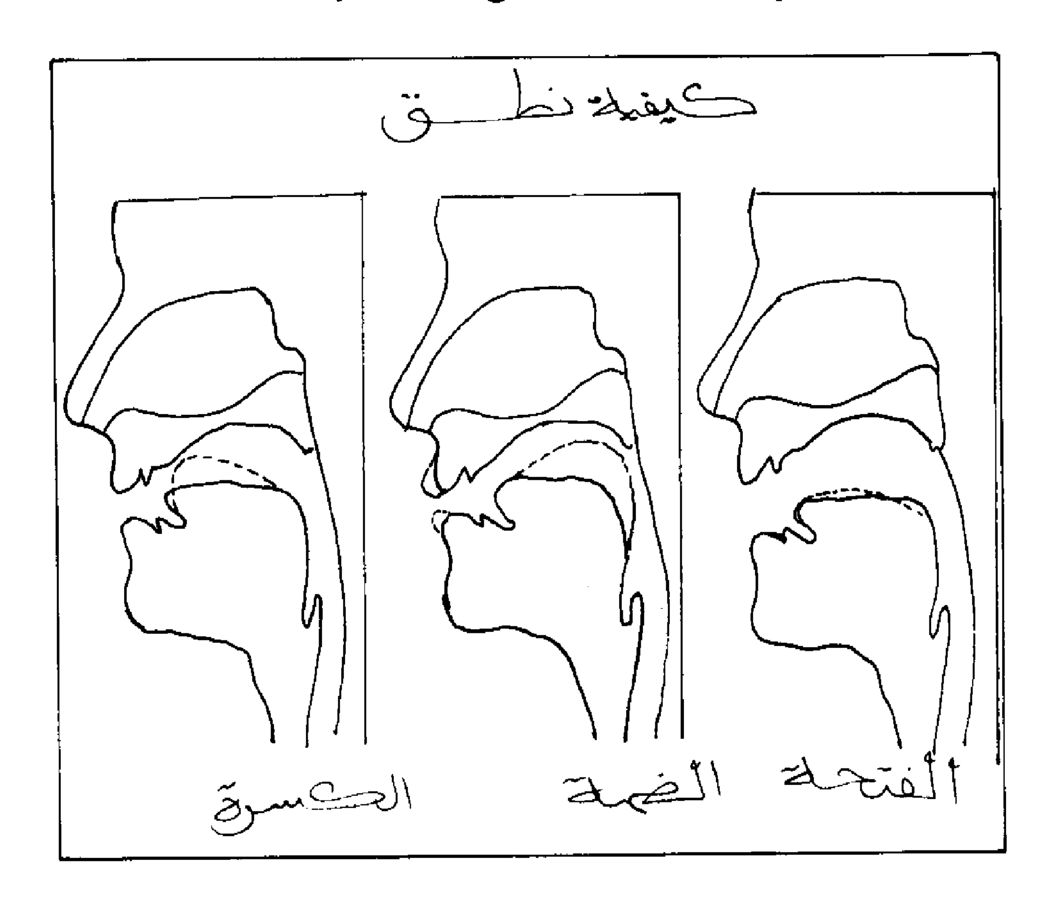
مخارج الاصوات اللغوية

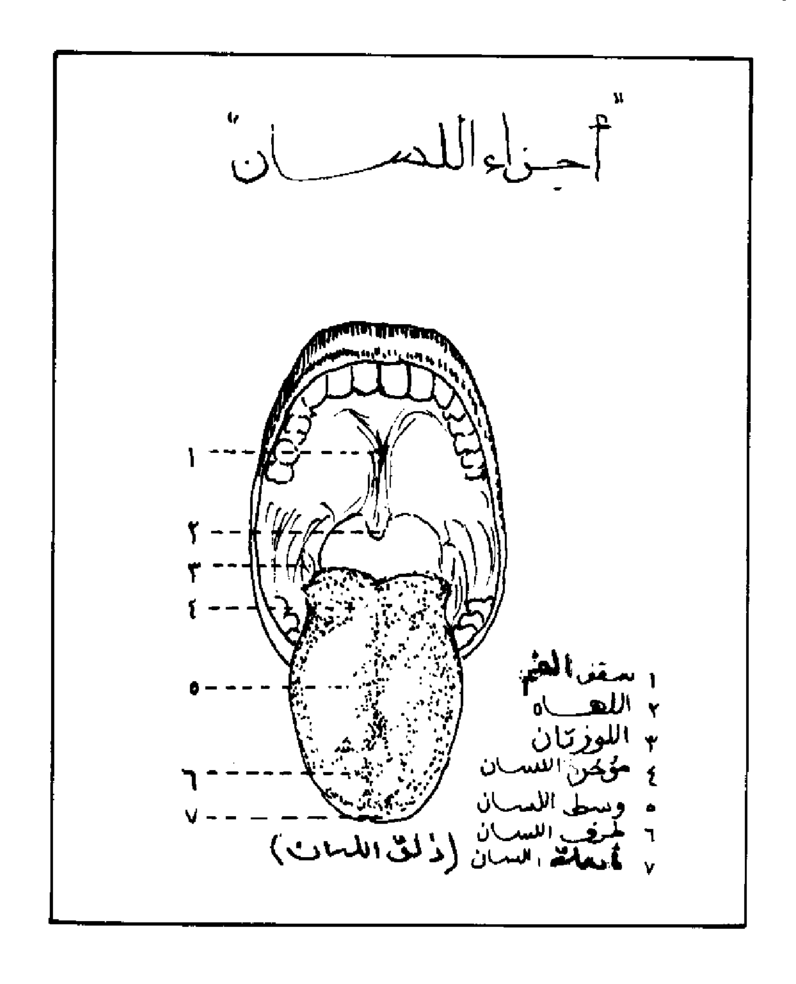
الصوت من تينك الناحيتين ومما فويقهما »[7] .

وقد اتفق اللغويون على تقسيم الأصوات اللغوية الى قسمين ؛ الأصوات الصامتة (الساكنة) نحو الباء والكاف والميم ، والحركات مثل الفتحة والألف والكسرة وياء المد والضمة وواو المد .

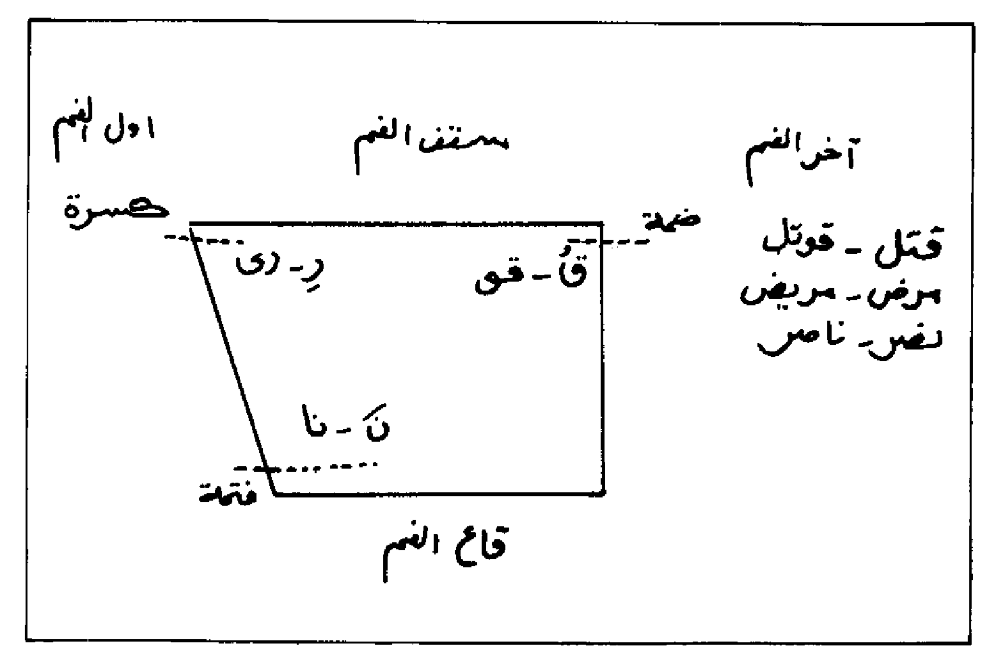
« وقد قرر العلماء أن الحركة صوت يتميز بأنه الصوت المجهور الذي يحدث أثناء النطق به أن يمر الهواء حراً طليقاً خلال الحلق والفم دون أن يقف في طريقه أي عائق أو حائل ، ودون أن يضيق مجرى الهواء ضيقاً من شأنه أن يحدث احتكاكاً مسموعاً »[8] .

ونصنف الحركات باعتبار عضوين هما : الشفتان واللسان ؛ فالشفتان قد تكونان مضمومتين أو منفرجتين أو في وضع محايد ، ويقسم اللسان إلى ثلاثة أجزاء : طرفه ووسطه ومؤخره ، ويتخذ أوضاعاً عدة من حيث الارتفاع والانخفاض بالنسبة للحنك الأعلى ، فالكسرة حركة امامية ضيقة ، والضمة حركة خلفية ضيقة ، أما الفتحة فهي حركة أمامية متسعة كما يتضح في الشكل التالي . .





"أجزاء اللسان"
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
١ سقف الفم
٢ اللهاة
٣ اللوزتان
٤ مؤخر اللسان
٥ وسط اللسان
٦ طرف اللسان
٧ أسلة اللسان (ذلق اللسان)



اول الفم
سقف الفم
آخر الفم
كسرة
ضمة
رِ - ري
قُ - قو
قتل - قوتل
مرض - مريض
نصر - ناصر
نَ - نا
فتحة
قاع الفم

وفيما يلي وصف للأصوات اللغوية مرتبة بحسب حالة مر الهواء أثناء النطق بالصوت وهي ، الصفة الانفجارية « الشدة » والصفة الاحتكاكية «الرخاوة » . . . الخ .

أولاً ـ الأصوات الانفجارية « الشديدة »

1 ـ الباء [ب]

للنطق بهذا الصوت تلتقي الشفتان التقاء محكمًا فينحبس الهواء الخارج من الرئتين خلفهما ثم تفترق الشفتان فيحدث افتراقهما انفجاراً مسموعاً ، ويتذبذب الوتران الصوتيان حين النطق به وعلى ذلك فهو صوت شفوي ثنائي انفجاري مجهور .

2 ـ **الپاء [پ]**

لا يتذبذب الوتران الصوتيان حين النطق بهذا الصوت فهو النظير المهموس لصوت الباء وعلى ذلك فهو صوت شفوي ثنائي انفجاري مهموس ، وكلا الصوتين من الأصوات الشائعة في اللغات الانسانية ، وتعتبر الباء المجهورة ، والباء المهموسة ، وحدتين صوتيتين أساسيتين في اللغات الهنداوروبية كالانجليزية والفرنسية ، والايطالية كما يدل برهان الثنائيات الصغرى Minimal Pairs ـ تأمل :

blow	ينفخ	plow	يحرث الأرض
bat	عصا غليظة	pat	ضربة خفيفة
Tab	عُرْوة	Tap	سدادة

وليست الباء المهموسة وحدة صوتية أساسية في اللغة العربية الفصحى؛ فهمس الباء في بعض الكلمات نتيجة عامل المجاورة لا يؤثر في تغير المعنى كما في نطقنا لكلمة « ابتسام » بباء مهموسة لتأثرها بصوت التاء المهموس ، وكما في نطق باء كلمة « كتاب » فقد تنطق مهموسة لوقوعها في آخر الكلمة . ورغم أن اللغة العبرية احدى اخوات اللغة العربية اذ ان أصلهما واحد لتفرعهما من اللغة السامية الأم الا أننا نجد أن الباء المهموسة فيها وحدة صوتية أساسية في مثل :

ب َ ر َ « بقرة » / م ِ ت پ َ خ َ ت «منديل»

ولصوت الباء المهموسة عدة صور نطقية بحسب موقعه في الكلمة الانجليزية؛ فالباء في كلمة Pit « حفرة » مصحوبة بدفعة هوائية على عكس الباء في كلمة Spit « يبصق » .

3 ـ التاء [ت] :

للنطق بهذا الصوت يحتجز اللسان الهواء الخارج من الرئتين عندما يلتقي طرفه باللثة وأسلة اللسان بالأسنان العليا فإذا افترق اللسان عنها حدث انفجار مسموع ولا يتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق به فهو صوت أسناني لثوي انفجاري مهموس ، وهذا النطق شائع في اللغات الانسانية كما في العربية والانجليزية وتختص بعض اللغات بنطق مختلف لهذا الصوت فالتاء في اللغة الاسبانية : اسنانية محضة كما في الكلمتين Taco «وجبة خفيفة» وTengo « أنا أملك » فأسلة اللسان تلتقي أو تقترب من أصول الأسنان

العليا وتوضع علامة [ـــ] تحت حرف التاء للدلالة على ذلك هكذا [ت] وقد تنطق التاء بالتواء اللسان إلى أعلى ويسمى صوتاً التوائياً ، وتختص اللغات الڤيتنامية والسنسكريتية بهذا النطق ، ويشار إلى هذه الظاهرة بوضع نقطة تحت الحرف هكذا [ت] .

4 ـ الطاء [ط] :

يرتفع مؤخر اللسان نحو الحنك اللين Soft palatal أو الطبق Velar عند النطق بهذا الصوت ، فهو الصوت المفخم لصوت التاء ، فهو صوت أسناني لثوي انفجاري مهموس مطبق ، وهو وحدة صوتية أساسية في اللغة العربية كما هو واضح من الفرق بين الكلمتين التاليتين : ت ي ن « تين » / ط ي ن « طين » فلا فرق بين الكلمتين إلا في صوت واحد هو التاء في الكلمة الأولى ، والطاء في الكلمة الثانية والمعنى غير واحد ، فالأولى تدل على الثمر المعروف وتدل الأخرى على نوع من التراب .

5 ـ الدال [د]

الدال هو الصوت المقابل لصوت التاء المهموسة فهو صوت أسناني لثوي انفجاري مجهور ، وهو من الأصوات الشائعة في اللغات الانسانية ، وينطق بطرق مختلفة كما هو في صوت التاء ، فقد يكون أسنانياً محضاً في بعض اللغات كالاسبانية ، وقد يكون التوائياً في بعض اللغات الأخرى كالڤيتنامية ، والرموز الدالة على ذلك هي :

[1] د [2] د [3] د

6 ـ الضاد [ض]

وهو النظير المطبق لصوت الدال ، فلا فرق بينهما نطقاً إلا في ارتفاع مؤخر اللسان نحو الحنك اللين حين النطق بصوت الضاد ، فهو صوت أسناني لثوي انفجاري مجهور مطبق ، والضاد وحدة صوتية أساسية في بعض اللغات كالعربية ، فالفرق في المعنى بين الكلمتين د ـَ ر ب «درب »/ ض ـَ رب « ضرب » بسبب صوت الدال في الكلمة الأولى ، واختيار صوت الضاد في الكلمة الأخرى .

7 ـ الكاف [ك]

للنطق بهذا الصوت يرتفع مؤخر اللسان حتى يلامس الحنك اللين (الطبق) فيحجز الهواء فترة من الزمن ثم ينطلق الهواء إلى الخارج محدثاً انفجاراً مسموعاً ولا يتذبذب الوتران الصوتيان ، وعلى ذلك فهذا الصوت هو صوت طبقي انفجاري مهموس كما في ك ـَ ل ب«كلب»/ت ـَ رـَ ك«ترك»، وقد يختلف نطق الكاف من كلمة إلى أخرى ففي اللغة الانجليزية كاف Keep تختلف نطقاً عن كاف Cop ، فمع الأولى يكون وضع اللسان بالنسبة إلى الحنك اللين أبعد منه مع الثانية ، ويشار إلى الأولى هكذا [ك] .

8 ـ الگاف [گ]

هو النظير المجهور لصوت الكاف ، فهو صوت طبقي انفجاري مجهور كما في الصوت الأول من الكلمة الانجليزية gone « ذاهب » وتنطق القاف المهموسة في بعض اللهجات العربية كافاً جافا [گ] فيقال گ ال «قال»/ گ ـَ ل ب «قلب »[9] .

9 ـ القاف [ق]

للنطق بهذا الصوت يلتصق أصل اللسان Root of the tongue باللهاة Uvular فيحجز الهواء، المندفع من الرئتين ولا يتذبذب الوتران الصوتيان ثم فجأة يخرج الهواء محدثاً انفجاراً مسموعاً فهو صوت لهوي انفجاري مهموس .ويوجد هذا الصوت في لغات عديدة كالعربية ولغات الهنود بامريكا كلغة Coeur d'apene[10] ولغة Guipeute ، ولغة Puget Salish وهو وحدة صوتية أساسية في اللغة العربية كما تدل الكلمتان التاليتان : كـ ـَ ل ب «كلب» / ق ـَ ل ب « قلب » .

10 ـ القاف المجهورة [ڨ]

وهو النظير المجهور لصوت القاف ، وهو من الأصوات غير الشائعة في اللغات ، ويوجد بالأخص في لغات الهنود كما في لغات Eskimo, Gitksan, Kwakiuth .

11 ـ الهمزة [ء]

للنطق بهذا الصوت يغلق الغضروفان الهرميان والوتران الصوتيان فراغ الحنجرة إغلاقاً تاماً ويحبس الهواء في فراغ الحنجرة ، وفجأة يفتح الوتران الصوتيان وينطلق الهواء محدثاً انفجاراً مسموعاً ، فهو صوت حنجري انفجاري مهموس وصوت الهمزة شائع في كثير من اللغات كالعربية في مثل ء ـَ خ ـَ ذ « أخذ »/ ب ـِ ء ر «بئر »/ س ـَ م اء « سماء » والانجليزية في مثل Fountain « نافورة » Mountain« جبل » فالتاء في كلتا الكلمتين تنطق همزة[11] .

ثانياً : الأصوات الاحتكاكية « الرخوة »

12 ـ الفاء [ف]

للنطق بهذا الصوت تلتقي الشفة السفلى بالأسنان العليا التقاء جزئياً بحيث تبقى نقطة صغيرة من الفراغ يخرج الهواء منها محدثاً احتكاكاً مسموعاً ، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق بهذا الصوت فهو صوت شفوي أسناني احتكاكي مهموس ، وهو من الأصوات الشائعة في اللغات الانسانية ، وقد ينتقل مخرج الفاء ليكون شفوياً ثنائياً كما في نطق الفاء من كلمة numph « حورية » عند بعض المتكلمين الأمريكيين،ويوجد هذاالصوت في اللغات الأسبانية واليابانية ولغة يو EWE إحدى لغات غرب أفريقيا

ويرمز لهذا الصوت هكذا [ɸ] .

13 ـ **الڤاء [ڤ]**

وهو الصوت المجهور للفاء فهو صوت شفوي أسناني احتكاكي مجهور ، وهو من الأصوات الشائعة في اللغات الهنداوروبية ، والفاء المجهورة ليست وحدة صوتية أساسية في اللغة العربية فقد تنطق الفاء مجهورة إذا وليتها زاي ولا يؤثر ذلك على المعنى كما في يَ ـ ڤ زَ ـ ع « يفزع » ، ومن الطريف أن اللغة العبرية بها الأصوات الأربعة وهي الباء المهموسة والمجهورة ، والفاء المهموسة والمجهورة ، ولكن الباء والفاء المهموستين يشكلان معاً وحدة صوتية أساسية واحدة والباء والفاء المجهورتين يشكلان وحدة صوتية أساسية واحدة فأينما تقع إحداهما لا تقع الثانية . تأمل :

س ـِ ف ـِ ر «كـتـاب» پ ـَ ر ـَ «بقرة» .

ش ـَ ت ـَ ف «غـسـل» م ـِ ت پ ـَ خ ـَ ت «منديل»

وقد تنطق الفاء المجهورة من مخرج الشفتين معاً ورمزها [β] أي بتـغير مخرجها ونلاحظ هذا النطق في كلمة abvious « واضح » عند بعض الأمريكيين كما أن هذا النطق منتشر في اللغتين اليابانية والأسبانية على سبيل المثال .

14 ـ **السين [س] .**

للنطق بهذا الصوت يلتقي طرف اللسان باللثة التقاء جزئياً بحيث يسمح للهواء بالتسرب من خلال نقطة صغيرة فوقه محدثاً احتكاكاً مسموعاً ولا يكون الوتران الصوتيان في حالة تذبذب وعلى ذلك فهو صوت لثوي احتكاكي مهموس وهو صوت شائع في اللغات الانسانية ، ومن مظاهر نطقه أن يكون أسنانياً [س̪] كما في الكلمة الفرنسية Sept « سبعة » أو التوائياً كما في الكلمة السويدية Fars « حشوة » و Kurs « مقرر تعليمي » و Forst « الأول » .

15 ـ **الصاد [ص]**

وهو النظير المطبق لصوت السين ، ويعد وحدة صوتية أساسية في اللغة العربية ، كما يتضح من المقارنة التالية :

س ـَ ب ـَ ر « سَـبَـرَ » / ص ـَ ب ـَ ر « صـبـر »

س ـَ ف ي ر « سـفـير » / ص ـَ ف ي ر « صـفـير »

16 ـ **الزاي [ز]**

للنطق بهذا الصوت يلتقي طرف اللسان مع اللثة التقاء غير محكم فيخرج الهواء عبر الفراغ الصغير فوق اللسان محدثاً احتكاكاً مسموعاً ، ويكون الوتران الصوتيان في حالة ذبذبة ، وعلى ذلك فهو صوت

لثوي احتكاكي مجهور ، وهو وحدة صوتية اساسية في اللغة العربية في مثل :
س َ ف ي ر «سـفـير» ز َ ف ي ر «زفير»

وقد يكون هذا الصوت أسنانياً محضاً كما في الكلمة الفرنسية oiseau «طائر» ويرمز له هكذا [ز]

17 ـ الثاء [ث]

للنطق بهذا الصوت تلتقي أسلة اللسان بالأسنان السفلى والعليا فيخرج الهواء مما بين الأسنان ولا يتذبذب الوتران الصوتيان فهو صوت مما بين الاسنان احتكاكي مهموس ، وهو من الأصوات النادرة في اللغات الانسانية ولكنه يوجد في اللغة العربية مثل ث ا ب «ثاب» في مقابل «ذاب»، وفي الصوت الأول من الكلمة الانجليزية Thin «رفيع» .

18 ـ الذال [ذ]

وهو المقابل المجهور لصوت الثاء ، فهو صوت مما بين الاسنان احتكاكي مجهور ، وهو من الأصوات النادرة في اللغات ، ولكنه موجود في العربية كما في كلمة «ذاب» وفي اللغة الانجليزية في مثل This «هذا» ، ولصعوبة النطق بالأصوات مما بين الأسنان تتجه اللهجات العربية الحديثة إلى إبدال الثاء تاء أوْ سيناً وإبدال الذال دالاً أوْ زاياً .

19 ـ الظاء [ظ][12]

هو الصوت المطبق لصوت الذال ، فحين النطق به يرتفع مؤخر اللسان نحو الطبق ، وعلى ذلك فهو صوت مما بين الاسنان احتكاكي مجهور مطبق ، والظاء في العربية وحدة صوتية أساسية كما تدل المقارنات التالية :

ذ َ ل ل «ذَلَّ» / ظ َ ل ل «ظَلَّ»
ض َ ن ن «ضنَّ» / ظ َ ن ن «ظنَّ»
ض َ ل ل «ضلَّ» / ظ َ ل ل «ظلَّ»

20 ـ الشين [ش]

للنطق بهـذا الصوت تلتقي مقدمة اللسان بالحنك الصلب (الغار) وتكون مقدمة اللسان متقدمة بحيث تلامس مؤخرة اللثة ، وهكذا يعترض اللسان الهواء اعتراضاً جزئياً تاركاً فتحة صغيرة يمر الهواء منها إلى الخارج محدثاً احتكاكاً مسموعاً ، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به ، فهو صوت لثوي حنكي احتكاكي مهموس ، وهذا الصوت مألوف في كثير من اللغات مثل العربية ش ا ب «شـاب» ، ج َ ي ش «جيش» والانجليزية في مثل Ship سفينة ، Fish «سمكة» .

21 ـ الجيم [ج]

وهو النظير المجهور لصوت الشين فهو صوت لثوي حنكي احتكاكي مجهور كما في الكلمات الانجليزية Vision « نظر » و measure « قياس » ، وينتشر هذا النطق للجيم في اللهجات العربية الحديثة كما في اللهجة الليبية ولهجة الصعيد بمصر ، وفي إقليم ساحل مربوط بمصر وفي سوريا ولبنان .

22 ـ الخاء [خ]

للنطق بهذا الصوت يقترب مؤخر اللسان من الطبق بحيث يخرج الهواء محدثاً احتكاكاً مسموعاً نتيجة التضييق الذي يحدث بين اللسان والطبق ، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به فهو صوت طبقي احتكاكي مهموس ويوجد هذا الصوت في كثير من اللغات كالعربية في نحو خ ـَ ر ي ر «خرير» في مقابل ح ـَ ر ي ر « حرير » وفي الكلمات الألمانية في نحو Bach « غدير » و Machen « يصنع » وفي الاسبانية Junta « مجموعة » و Ojo «عين » وتخلو معظم اللهجات الانجليزية من هذا الصوت ما عدا لهجة اسكتلندة في نحو Loch .

23 ـ الغين [غ]

وهو النظير المجهور لصوت الخاء فهو صوت طبقي احتكاكي مجهور ، وهو وحدة صوتية أساسية في اللغة العربية كما تبرهن الثنائيات الصغرى التالية :

غ ـَ م ر « غمْر » / خ ـَ م ر « خمر »
غ ا ب « غاب » / ذ ا ب « ذاب »
غ ـَ ن ـَ م « غنم » / ص ـَ ن ـَ م « صنم »

وهذا الصوت موجود في اللغة الاسبانية في نحو agua « ماء » و Cigarro « سيجارة » وفي اللغة الدنمركية كما في Kage «كعك » و daget « أيام » وقد تنطق الخاء والغين من اللهاة كما في لغتي الهنود الحمر Gitksan,Quipeute[13] .

24 ـ الحاء [ح]

للنطق بهذا الصوت يحدث ضيق في الحلق بسبب تراجع اللسان وعندما ينطلق الهواء الخارج من الرئتين عبر الفم يمر من الفراغ البسيط مما يسبب احتكاكاً مسموعاً كما أن الوترين الصوتيين يكونان في حالة عدم ذبذبة ، وعلى ذلك فهو صوت حلقي احتكاكي مهموس وهو وحدة صوتية أساسية في اللغة العربية كما يتبين من المقارنة التالية :

ح ـُ ر ر « حرٌّ » / م ـُ ر ر « مُرٌّ »
ح ـَ ر ي ر « حَرير » / خ ـَ ر ي ر « خرير »

25 ـ العين [ع]

وهو النظير المجهور لصوت الحاء فهو صوت حلقي احتكاكي مجهور وهو وحدة صوتية أساسية في اللغة العربية كما تبين المقارنة التالية :

ع ـَ ل ي م « عليم »/ ح ـَ ل ي م « حليم »

ع ـَ ل ـَ م « علم » / ء ـَ ل ـَ م « ألم » .

والحاء والعين من الأصوات النادرة في اللغات الانسانية ويوجدان في اللغة العربية ، وبعض لغات الهنود الحمر ، وبعض لغات القوقاز Caucasus وقد عدها اللغويون العرب من المجموعة المتوسطة التي جمعوها في قولهم «لم يروعنا» اي أصوات :

اللام ـ الميم ـ الياء ـ الراء ـ الواو ـ العين ـ النون[14] .

أما الألف فهي حركة طويلة .

26 ـ الهاء [هـ]

للنطق بهـذا الصوت يتقارب جدارا الحنجرة مما يسبب اعتراضاً جزئياً للهواء الخارج من الرئتين فنسمع احتكاكاً عند النطق ، بالصوت ولا يتذبذب الوتران الصوتيان فهو صوت حنجري احتكاكي مهموس وهو وحدة صوتية أساسية في اللغة العربية كما يتضح من المقارنة التالية :

ء ـَ ش ب ا ح « أشباح » / أ ـَ ش ب ا هـ « أشباه »

هـ ـَ ل ل « هَلّ » / ظ ـَ ل ل « ظل »

والهاء في اللغة الانجليزية قد تكون مهموسة كما في head « رأس » وقد تكون مجهورة كما في ahead «متقدم » .

ثالثاً : الأصوات المركبة « الانفجارية الاحتكاكية »

27 ـ الجيم المركبة [د ج]

هذا الصوت مركب من صوتين أحدهما انفجاري والآخر احتكاكي ، ويرمز له بالدال الانفجارية والجيم الاحتكاكية هكذا [د ج] فهو صوت مركب مجهور، والمقابل المهموس لهذا الصوت هو صوت [تش] كما في نطق الصوت الأول من كلمة Judge « قاض » ونطق الصوت الأخير من كلمة beach «شاطىء»، وينطق قراء « القرآن الكريم » الجيم مركباً من الصوتين الـدال الانفجاريـة والجيم الاحتكاكية ، وقد تطور نطق الجيم في اللهجات العربية المعاصرة إلى جيم احتكاكية خالصة في سوريا ولبنان وليبيا وينطق دالاً محضة عند بعض القبائل السودانية وقد ينطق جيماً جافاً [گ] كما في مدينة القاهرة المصرية وقد ورد في اللهجات العربية القديمة الصوت المركب المهموس (تش) وهو أحد

الخصائص الصوتية المميزة للهجة العراق العربية فيقال :

تش ـَ ل ب « كلب » /

تش ـَ ب ي ر « كبير » /

ف ي تش «فيك » /

28 ـ [تس] و [دز]

من الأصوات المركبة في اللغات الانسانية صوت [تس] المهموس وصوت [دز] المجهور ، ويجيء [تس] في آخر الكلمة الانجليزية كما في Cats« قطط » وهو من الأصوات الشائعة في اللغة الألمانية كما في Zehn «عشرة»و Zahne « أسنان » و herz « قلب » ، والصوت الاسناني اللثوي المركب المهموس من الأصوات المعروفة عند القبائل العربية القديمة ، ويتضح اليوم في لهجة نجد العربية فيقولون .

تس ـَ ي ف « كيف » / تس ـَ م « كم »

أما الصوت الاسناني اللثوي المركب المجهور [دز] فيتمثل في الكلمات الانجليزية Cads « أوغاد » و adze «قدّوم » .

29 ـ الفاء المركب [فف]

للنطق بصوت الفاء المركب تلتقي الشفة السفلى بالأسنان العليا التقاء تاماً ثم تنفصل الشفة عن الأسنان العليا على هيئة فاء احتكاكية، فهو صوت شفوي أسناني مركب مهموس ويوجد هذا الصوت في اللغة الالمانية كما في Pferd«حصان» و Kopf « رأس » .

30 ـ [كس] و [پس]

من الأصوات المركبة في اللغة اليونانية **Homeric Greek** الصوتان :

[كس] و[پس] كما في ios « سيف» و ΨŪX5 « حياة » فالصوت الأول من كلمة سيف ينطق [كس] والصوت الأول من كلمة حياة ينطق [پس][15] .

رابعاً : الأصوات الرنانة :

31 ـ الميم [م]

للنطق بهذا الصوت تلتقي الشفتان التقاء تاماً بحيث يمتنع خروج الهواء من الفم وتتدلى اللهاة إلى أسفل لتفتح مجرى الهواء الأنفي فيخرج الهواء منه ويتذبذب الوتران الصوتيان فهو صوت شفوي ثنائي أنفي مجهور ، وهو وحدة صوتية أساسية في اللغة العربية . قارن :

م ـَ ن « من » / ع ـَ ن « عن »

ع ـَ ل ـَ م « علم » / ع ـَ ل ـَ ف « علف »

وقد تنطق الميم شفوية أسنانية ورمزها [م] كما في الكلمات الانجليزية nymph «حورية» وSymphony «سيمفونية» فالتقاء الميم الشفوية الثنائية بالفاء الشفوية الأسنانية أدى إلى انتقال الميم إلى المخرج الشفوي الأسناني .

32 ـ النون [ن]

للنطق بهذا الصوت يلتقي طرف اللسان باللثة وأسلة اللسان بالأسنان العليا ، ويكون ممر الهواء الفموي مسدوداً فيخرج الهواء من التجويف الأنفي مع تذبذب الوترين الصوتيين فهو صوت أسناني لثوي أنفي مجهور ، وهو وحدة صوتية أساسية في اللغة العربية ، كما يتضح من المقارنات التالية :

ن ـَ ف ي ر « نفير » / س ـَ ف ي ر « سفير »
ن ا ر « نار » / ع ا ر «عار»
ص ـَ ن ـَ م « صنم » / ص ـَ م ـَ م « صمم»

وقد يتحول مجرى النون إلى الحنك اللين « الطبق » كما في الكلمات الانجليزية Singer «مغن» ، Hang «يعلق» ، فالحرفان ng ينطقان نوناً طبقية ونرمز لها هكذا [ڼ] ، وفي بعض الكلمات الانجليزية مثل Finger « إصبع » و Think «يفكر» تتكون من صوتين منفصلين هما : النون (ŋ) للدلالة على النون الطبقية مع الصوت التالي لها وهو إما (g) أو (K) .

وتعرف اللغتان الڤيتنامية والفرنسية وغيرهما بالنون اللثوية الحنكية ، ويرمز لها هكذا [نّ] كما في الكلمات التالية :

ڤيتنامية نّ ـَ «بين» / « نّ ـِ ـُ كثير » ،
«فرنسية ligne «خط» / montagne «جبل»
انجليزية Plunge « يغطس » / singe « يحرق » .

33 ـ اللام [ل]

للنطق بهذا الصوت يلتقي طرف اللسان باللثة وأسلة اللسان بأصول الثنايا العليا ويبتعد جانباه عن جانبي الفم فيخرج الهواء من جانبي اللسان ويتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به فهو صوت أسناني لثوي جانبي مجهور، واللام ذات نطقين، مرققة كما في الكلمات الانجليزية الأمريكية:

Leap « وثبة » ، Late « متأخر » و Last «أخيرًا» .

والكلمات العربية :

« لم » و « كلب » و « لما » .

فإذا ارتفعت مؤخرة اللسان نحو الحنك اللين نتجت اللام المفخمة في مثل Law «قانون » Loose «مفكوك» ؛ فاللام الانجليزية مرققة قبل الحركات الأمامية (الكسرة والفتحة المرققة) ومفخمة قبل

الحركات الخلفية (الضمة والفتحة المفخمة) .

واللام العربية تفخم في لفظ الجلالة الواقع بعد فتح أو ضم نحو : « تالله » و« يَعلمُ الله » وتفخم ايضاً حين تليها فتحة متبعة بأحد أصوات الاطباق وهي :

الصاد أو الضاد أو الطاء أو الظاء[16] .

ونرمز للام المفخمة هكذا [ل] .

وقد تنطق اللام أسنانية محضة كما في اللغة الفرنسية في نحو loup ثعلب وFoule «زحام » ورمزها هكذا [ل] .

34 ـ الراء [ر]

للراء عدة صور في اللغات الانسانية أشهرها :

أ ـ الراء المكررة :

وينتج هذا الصوت حين يلتقي طرف اللسان باللثة ويفارقها عدة مرات على التوالي فنسمع الصوت على صورة مجموعة من الانحباسات والانفجارات المتوالية ، فهو صوت لثوي مكرر مجهور وتتحقق هذه الصورة في اللغة العربية اذا كانت الراء مشكلة بالسكون أو مشددة كما في :

ف ـَ ر ر « فرَّ » / م ـَ ر ر « مَرَّ » .

ف ـَ ر ض « فَرْض » / م ـَ ر ض « مَرْض » .

كما توجد هذه الصورة في اللغة الاسبانية في نحو Perro «كلب » .

وفي اللغة السويدية في نحو röd « أحمر » .

ب ـ الراء اللمسية :

وهي الراء المتلوة بحركة في اللغة العربية فتسمع الصوت على صورة انحباس وانفجار متواليين أي في صورة ضربة واحدة كما في :

ر ـَ ح ـِ م «رَحِمَ» ر ـُ ب ب «رُبَّ».

ر ي ح «ريح» م ـ ر ـِ ض «مَرِضَ».

جـ ـ الراء الالتوائية :

وهي الراء الانجليزية كما في :

red «أحمر» ، rock « صخرة » و ride « يركب » ، حيث أن أسلة اللسان تلتوي لتلتقي بمخرج الصوت خلف اللثة .

د ـ الراء اللهوية :

وتتميز اللغة الالمانية بهذا النوع كما في الكلمات :

Rot «أحمر»، Regen «مطر» و rund «مستدير»، وللراء في العربية حالتان: التفخيم والترقيق، فتكون مرققة إذا تحركت بكسر نحو « رِزقاً» و «مريج» ، أو وقعت ساكنة بعد كسر أصلي ولم يتصل بها صوت استعلاء نحو « فِرْعون » و « ناصِرْ » أو كانت ساكنة متطرفة بعد كسر أصلي وجاء بعدها صوت استعلاء نحو « تُصَعِّرْ خَدك»، أو ساكنه متطرفة بعد صوت ساكن نحو « الذِّكْرْ » او ساكنة متطرفة بعد ياء المد « كسرة طويلة » نحو « قديرْ » وتكون مفخمة في غير تلك الأحوال .

35 ـ الياء [ي]

للنطق بهذا الصوت يرتفع وسط اللسان نحو الحنك الصلب(الغار)وتجاه مخرج الكسرة ، وارتفاع وسط اللسان مع الياء أكثر منه مع الكسرة ولكنه مع ذلك ليس بدرجة كبيرة مما يسمح بحدوث احتكاك مسموع فهو صوت حنكي صلب انحداري مجهور كما في العربية :

ب ـَ ي ت « بيت » / ب ـَ ي ض « بيض » .

ي ـَ د « يد » / ي ـَ ل ع ـَ ب « يلعب » .

ومن الانجليزية :

Yet «ما زال » ، you « أنت » .

36 ـ الواو [و]

للنطق بهذا الصوت يرتفع مؤخر اللسان نحو الحنك اللين « الطبق » وتجاه مخرج الضمة ، وارتفاع مؤخر اللسان مع الواو اكثر منه مع الضمة ، وإن كان ذلك الارتفاع غير شديد مما ينتج عنه إحتكاك مسموع ، وتستدير الشفتان حين النطق به وعلى ذلك فهو صوت حنكي لين شفوي انحداري مجهور كما في :

ح ـَ و ض « حَوْض » / م ـَ و ز « مَوْز » .

و ـَ ل د « وَلَد » ح ـِ ل و « حِلْو » .

ومن الانجليزية :

wet «مبلل» و width «عَرْض » .

ومن الفرنسية Oui «نعم » .

ويطلق مصطلح نصف حركات Semi vowels أو نصف صوامت semi consonants على الواو والياء باعتبارهما ذواتي علاقة بالحركات .

الهوامش

(1) Diabate, Massa, Makan, Oral tradition and Mali Literature in the Republic of Mali..

(2) محمد الصادق قمحاوي «البرهان في تجويد القرآن» ص 4 .

(3) أنظر : ابن سينا ، اسباب حدوث الحروف ، المقدمة .

(4) محمد علي الخولي، «معجم علم اللغة النظرى» ص 212 .

(5) أنظر : ابن الجزري : النشر في القراءات العشر ، ج 2/ص 22 وما بعدها .

(6) ماريو باي «اسس علم اللغة» ص 77 .

(7) ابن جني ، سر صناعة الاعراب ، ج 1 ، ص 72 .

(8) كمال بشر «دكتور» علم اللغة العام (الأصوات) ص 92 .

(9) هذا النطق متحقق في كثير من اللهجات العربية الحديثة وعلى سبيل المثال في جميع أنحاء ليبيا (تحققت من ذلك من زياراتي الميدانية) وفي إقليم ساحل مريوط بمصر (لهجة البدو في اقليم ساحل مريوط) (48,47) وفي الصعيد المصري وفي صنعاء باليمن (لهجات اليمن) 47 وفي بعض لهجات السودان (من أصول اللهجات العربية في السودان / 45) وفي حديث البدو السوريين وبدو الجزيرة العربية وفي جدة ومكة ونجد ، وفي بعض قبائل العراق والكويت (تاريخ اللغة العربية في مصر 104) ، أما في كتب اللغة فقد ذكر ابن دريد أن نطق القاف بين القاف والكاف (ڨ) لغة معروفة في بني تميم «الجمهرة ص 5 » ووصف سيبويه مخرجها من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى (الكتاب 405/2) وهذا النطق المتحقق اليوم هو نطق قديم وصفه ابن خلدون في عصره وهو أن القاف كانت تنطق في عصره ليس كالقاف الموصوفة في كتب العربية وليست من مخرج الكاف بل هي متوسطة بين الكاف والقاف (المقدمة : 558,557) .

(10) Clarence Sloat Introduction to phonology, p. 27-51.

(11) يتفق إبراهيم أنيس (الأصوات اللغوية : 71) ومحمود السعران (علم اللغة : 171) وكمال بشر (علم اللغة العام الأصوات : 143) في وصف الهمزة بأنها صوت لا هو بالمجهور ولا هو بالمهموس ، والسبب في عدم وصفهم لها بالهمس أو الجهر لأنها غير مجهورة أولاً ولأن الهمس ، ثانية ، نتيجة عدم تذبذب الوترين الصوتيين سببه انفراجهما ومن هنا لم يقولوا بأن الهمزة مهموسة لأن عدم التذبذب فيها نتيجة للاقفال التام للوترين الصوتيين وكأنهم رأوا تقسيمًا ثلاثياً باعتبار الوصف العضوي للأوتار الصوتية وهو حالة تذبذب الوترين الصوتيين وينتج الجهر ، وحالة عدم التذبذب نتيجة انفراج الوترين الصوتيين وينتج الهمس ، وحالة عدم التذبذب نتيجة إقفال الوترين الصوتيين وينتج لا همس ولا جهر ، ويأخذ فريق آخر من الباحثين بتقسيم ثنائي وهو إما أن يتذبذب الوتران الصوتيان فينتج ، الجهر أو لا يتذبذبان فينتج الهمس ومن ثم وصف عبد الرحمن أيوب (اصوات اللغة 183) وتمام حسان (مناهج البحث في اللغة 97) الهمزة بأنها صوت مهموس ، ويرى عبد الصبور شاهين أن من وصف الهمزة بالهمس أخذ بالأثر السمعي ، وأن من قال بعدم الجهر ، وعدم الهمس أخذ بالوصف العضوي (القراءات القرآنية ص 25) وهذا في رأيي تفريق جيد .

(12) أصوات مما بين الأسنان في اللغات السامية هي:

1 ـ الفصحى 2 ـ الاكادية 3 ـ العبرية 4 ـ السريانية 5 ـ الحبشية

الفصحى	الاكادية	العبرية	السريانية	الحبشية
ث	ش	ش	ت	س
ذ	ز	ز	د	ز
ظ	ص	ص	ع	-

انظر

Moscati, S., An Introduction to the Comparative grammar of the semitic Languages

(13) يكتب حرف الغين في اللغة الاسبانية واللغة الدنمركية على صورة [g] .

(14) والتوسط عند القدماء اعتدال الصوت عند النطق لعدم كمال انحباسه كما في الأصوات الانفجارية، وعدم جريانه كما في الأصوات الاحتكاكية فالتوسط عندهم بين الأصوات الانفجارية والاحتكاكية والصحيح أن التوسط بين الحركات والصوامت (السواكن) .

انظر : كمال بشر (علم اللغة العام) (الأصوات ص 155) .

تمام حسان (مناهج البحث في اللغة) ص 102 .

عبد الرحمن أيوب (أصوات اللغة) ص 216 .

والحروف المتوسطة عند علماء التجويد خمسة جمعوها في «لن عمر» .

(15) See, Sloat, Taylor and hoard Ed. Introduction to phonology. p. 37.

(16) لمزيد من التفصيل انظر : ابن الجزري : النشر في القراءات العشر ، الجزء الثاني ، صفحة 111 وما بعدها .

المراجع

1 ـ ابن الجزري ، أبو الخير محمد ، النشر في القراءات العشر ، تصحيح ومراجعة علي محمد الضباع ، مطبعة مصطفى محمد بمصر .

2 ـ ابن جني ، ابو الفتح عثمان ، سر صناعة الاعراب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين طبعة الحلبي ، 1954م .

3 ـ ابن خلدون، عبد الرحمن ، المقدمة ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

4 ـ ابن دريد ، أبو بكر الأزدي ، الجمهرة ، طبعة مؤسسة الحلبي .

5 ـ ابن سينا ، أبو علي الحسين ، اسباب حدوث الحروف ، مراجعة طه عبد الرؤوف سعد ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية 1978م .

6 ـ أنيس ، ابراهيم (دكتور) ، الأصوات اللغوية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦١م .

7 ـ أيوب، عبد الرحمن (دكتور) ، أصوات اللغة ، طبعة 1963م .

8 ـ بشر ، كمال (دكتور) ، علم اللغة العام ؛ الأصوات ، طبعة دار المعارف 1970م .

9 ـ حسان ، تمام (دكتور) ، مناهج البحث في اللغة ، طبعة الانجلو المصرية 1955م .

10 ـ الخولي ، محمد علي (دكتور) ، معجم علم اللغة النظري ، بيروت 1982م .

11 ـ السعران ، محمود (دكتور) ، علم اللغة ، مقدمة للقارىء العربي ، دار المعارف ، 1962م .

12 ـ سيبويه ، ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار القلم 1966م .

13 ـ شاهين ، عبد الصبور (دكتور) ، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، دار القلم ، 1966م .

14 ـ شرف الدين ، أحمد حسين (دكتور) ، لهجات اليمن قديماً وحديثاً ، طبعة 1970م .

15 ـ عابدين ، عبد المجيد (دكتور) ، من اصول اللهجات العربية في السودان ، طبعة 1966م .

16 ـ عمر ، أحمد مختار (دكتور) ، تاريخ اللغة العربية في مصر ، طبعة 1970م .

17 ـ قمحاوي ، محمد الصادق ، البرهان في تجويد القرآن ، مكتبة الجامعة الأزهرية 1968م .

18 ـ ماريو باي ، اسس علم اللغة ، ترجمة د . أحمد مختار عمر ، جامعة طرابلس ـ ليبيا 1973م .

19 ـ مطر ، عبد العزيز (دكتور) ، لهجة البدو في اقليم ساحل مريوط ، طبعة 1967م .

20 - Diabate, Massa, Makan, oral tradition and Mali literature in the Republic of Mali, Mali Information Center .

21 - Moscati, S., An Introduction To The comparative grammar of The Semitic languages. Wilesbaden - Germany Otto Harrassowitz .

22 - Sloat C., Taylor Sh., Hoarol, J., Introduction To phonology, Prentice - Holl, INC., 1978.

23 - Swed, Abdalla, Abdalhamid, (Dr)
A. ordering and directionality of iterative rules in Arabic, Al - CARABIYYA, VOL. 14, American Ass. of Teachers of Arabic.
B. The historical development of The Arabic Verb, Unpublished disseratation, University of washington, 1982.
C. Passivization in Arabic, Journal of The Faculty of Education, Tripoli - LIBYA, Vol . 16, 1981 - 1982 .

٢ الأصوات الصامتة • السواحلية

		شفوي ثنائي	شفوي أسناني	مما بين الأسنان	أسنان لثوي	لثوي	لثوي حنكي	حنكي صلب غاري	حنكي لين طبقي	لهوي	حلقي	حنجري
انفجاري	مهموس	پ			ت ط				ك	ق		ع
	مجهور	ب			د ض				گ	ڨ		
احتكاكي	مهموس		ف	ث		س ص	ش		خ		خ	هـ
	مجهور		ڤ	ذ ظ		ز	ج		غ		غ	
مركب	مهموس		فف		تس		تش		كس			
	مجهور				دز		دج					
أنفي	مجهور	م			ن							
تكراري	مجهور					ر						
جانبي	مجهور				ل							
انحداري	مجهور	(و)						ي	و			

الحركات العربية			
	أمامية	وسطى	خلفية
مرتفعة	ـِ (كسرة) ى (كسرة طويلة)		ـُ (ضمة) و (ضمة طويلة)
متوسطة	ـِمـ (كسرة ممالة) ىمـ (كسرة طويلة ممالة)	ə حركة القلقلة (القاف، الطاء، الباء، الجيم، الدال الساكنة في القرآن الكريم)	ومـ (ضمة ممالة) ومـ (ضمة طويلة ممالة)
منخفضة	ـَ (فتحة) ا (فتحة طويلة)		

من عيون

الأدب العربي في ليبيا

الأستاذ عبد الحميد عبد الله الهرامة

بين المقالة القيمة التي كتبها الأديب خليفة محمد التليسي في اكتوبر سنة 1952 م بعنوان «هل لدينا شعراء»(1) والملحوظات التي سجلها الاستاذ عمر التومي الشيباني في مارس 1984 م حول «مشاكل أدبنا المعاصر»(2) ما ينيف عن ثلاثين سنة والخيط الذي يجمعها هو الشكوى من عدم وجود أدب رفيع في هذه الجهة من الوطن العربي.

وواضح من قراءة المقالتين أن الدافع لها هو التطلع إلى أشواط متقدمة يندفع بها الأدب إلى آفاق جديدة، واسهامات أخرى أكثر ابداعًا وتألقًا. وهو ما عبر عنه التليسي حين قال في حق الشعراء الليبيين «والله يعلم أنني ما كتبت هذه الكلمة إلاَّ وبنفسي شوق عارم لأن أراهم في الطليعة بين شعراء المشرق»(3). ولذا فلست آخذ على الكاتبين تلك المقدمات والنتائج التي أثاراها، ولست متجاهلاً تلك الملحوظة التي دونها التليسي في حاشية الطبعة المعادة للمقالة مشيرًا فيها إلى عدم اتصالها بالحركات الشعرية التي وجدت بعدها(4) ولكني أعتب على نقادنا الليبيين قلة التعريف بالقدرات الأدبية المبدعة، والتقصير في مجال الكشف عن محاسن ما يكتبه أدباؤنا ويلقي في زوايا النسيان ومجاهل المفقود(5) ذلك أن على الناقد في مثل بيئتنا أن يكشف عن تلك المحاسن بمعاناته الشخصية ويقدمها للقراء والدارسين لا أن يتعقب ما ينشر وأكثره غث لا يمثل الأدب العربي في هذه البلاد.

ولنذكرْ دائمًا أن الأدب ينمو بجرعات النقد وتتفتح أكمامه بكلمات الثناء والعرفان أو بالتوجيه والعناية والتصحيح ولا شيء أقسى على صاحبه من التجاهل وعدم المبالاة ولا أدفع لهمته من التشجيع والرعاية.

وانصراف النقاد عن أدب مواطنيهم ليست ظاهرة جديدة في البيئات النائية عن مراكز الثقافة الكبرى. فقد شكا ـ قديمًا ـ ابن بسام من انصراف الأندلسيين إلى المشرق «وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية»(6) أي أنها قريبة منهم يسيرة التناول ولكنهم لا يلتفتون إليها حتى لقد تمنى بعض شعرائهم أن يسير إلى المشرق لا لشيء إلاَّ لتبدو محاسنه في نظر مواطنيه فقال: ـ

أنـــــا الشمسُ في جَوِّ العلوم منيرةٌ ولكنَّ عيبي أنَّ مطلعي الغــــربُ

ولو أنني من جـــانب الشرقِ طـــالـــعٌ لجدَّ على مـــا ضـــاع من ذكـرى النهبُ

ولي نحو أكنـــاف العـــراق صبـــابـــةٌ	ولا غـــرو أن يستـوحش الكـلـف الصبُّ
فـــإن ينـــزل الـــرحمٰنُ ركبي بينهـــم	فحينئـــذٍ يبـــدو التـــأسف والكـــربُ
لمن قـــائـــل أغفـلتـــه وهو حـــاضـــرٌ	وأطلُبُ مـــا عنـــه تجيءُ بـــه الكُتُبُ
هنـــالك يُـــدرىٰ أن للعبـــد قصـــةً	وأن كســـاد العلم آفتُـــه القُـــربُ(7)

ثم هاهم النقاد اليوم يُنصفون الأدب العربي في الأندلس بل يجدون من المتعة في بعض روائعه ما قد لا يجدونه في شعر المشارقة أنفسهم. وشبيهٌ بتلك المتعة الأدبية ما وجدتُه في أثناء نماذج ممتازة من الشعر العربي الليبي لم يَعرفْ بعضُها سبيلَه إلى النشر قبل الآن، وهو ما يدفع إلى التساؤل عن سبب احتجاب هذه الروائع عن الظهور وكيف لا تسعى الصحف والمجلات إلى نشرها حين تسوِّد صفحاتها بنماذج شعرية ضعيفة تفتقر أحيانًا إلى أبسط مقومات الأدب المقبول؟.

ويبدو أن احتجابَ مثل تلك النّماذج الممتازة يعود إلى أسباب متعددة لعل أبرزها: ـ

أولاً: ضعف الصلة بين النقاد والشعراء نتيجة لقلة توفر الجواء الأدبية في صورة الملتقيات الثقافية العامة والمجالس الأدبية الخاصة، الأمر الذي جعل مقياس صلاحية النصوص مختلاً أمام الناشرين.

ثانيًا: إحجام بعض الممتازين من شعرائنا عن نشر نتاجهم، ربما بسبب التواضع أو الأنفة من الاشتهار بالشعر، أو أنهم يبخسون أشياءهم وبذٰلك ظلت أعمالهم حبيسة وجدانهم أو أسيرة كراسات مطوية في عالم النسيان لا يطلع عليها غير خواصهم الأدنين.

ثالثًا: عدم التشجيع على نشر الأعمال الممتازة، إما نتيجة لعدم القدرة على التمييز بين الغث والسمين، أو لوجود ظروف خاصة بالجهة الناشرة ولعل ذٰلك ما طوى ديوان الشاعر أبي القاسم خماج ـ مثلاً ـ سنوات طويلة في أدراج الجامعة وقد قدمه إليها يبتغي نشره.

إن ما تجدونه في هذه الحوصلة الشعرية هو أقربُ إلى الجمع والاستكشاف منه إلى الدراسة النقدية الدقيقة، فقد كان أول أهدافها توجيه أنظار القراء والنقاد إلى بعض عيون أدبنا العربي في هذه البيئة المعطاء، لعلها تبعث الهمم لاستخراج مثل هذه الكنوز إلى بساط الدرس والمعالجة، وتلقي بعيدًا عن بلادنا الحبيبة تهمة الجدب الأدبي والضحالة في ميدان الشعر.

ولكم كنت أتمنى أن أقدم عمل كل واحد من شعراء هذه الحوصلة مستقلاً عن الآخرين حتى يستوفي حقه من الدراسة والتعريف، وحتى نعرض أكبر قدر من نتاجه على صفحات هذه المجلة، لكن الحرص على عرض العدد الأكثر من الأسماء والتعرف على تجارب مختلفة كان أقوى من تقديم شخصية منفردة، وعسى أن أتمكن في المستقبل أو يتمكن غيري من متابعة البحث واستيفاء النقص.

ـ 1 ـ

صاحب النص الأول هو الاستاذ والكاتب الكبير خليفة محمد التليسي، وهو شخصية متعددة المناشط لكن ظهوره في عالم الشعر لم يواكب شهرته في ميادين الثقافة والفكر، وليس ذٰلك عائدًا إلى قصور في شاعرية الرجل، فقد كان في شبيبته من أفضل تلامذة مدرسة الديوان، ثم إنه حقق ما لم يحققه العقاد في الربط بين النظرية والتطبيق في أعماله الأدبية أما السبب في قلة اشتهار شعره فيعود إلى عدم نشر أكثره واقتصار تداوله بين الخاصة من أصدقائه(8).

نشر التليسي حتى الآن ثلاث قصائد ـ فيا أعلم ـ بمجلة الفكر التونسية ضمن سلسلة «أوراق قديمة» ولا أدري أيكفي هذا العنوان لتأريخ تلك القصائد، أم كان ينبغي على الشاعر أن يرفق كل قصيدة بتاريخها الدقيق حتى يتمكن النقاد من دراسة التطور الفني لأعماله الادبية؟

نترك الإجابة عن هذا السؤال لصاحب الشأن لنلقي الضوء على القصيدة الأولى وهي بعنوان «الوجوه» وتعد من طوال داليات الخفيف، إذ تقع في ثمانٍ وخمسين بيتًا ساكنة الروى، أتاح لها البحر بخطاه الوئيدة، وقابليته الخاصة للتدوير رحابة في استقبال التأملات الطويلة واستكمال وجوه الفكرة وتفصيلاتها، و إن كاد الشاعر أن يحيل تلك الرحابة إلى موضوع نثري مثقل بالتفاصيل لولا تمكن روح الفنان من نفسه وانتقاله إلى الفكرة التالية قبل أن تستثقل الأذن ما قبلها.

والقاريءُ لهذه القصيدة ولغيرها من قصائد التليسي يجده حريصًا على تطبيق ما يؤمن به من آرائه النقدية، فهو يستهلها بقوله: ـ

أنـــا أهوي الوجوه تحمـــل معنـــا ... هـــا وتبـــدو في نسجهـــا المنفـــردْ

ثم يفصل ما أجمل قائلاً: ـ

ذاك وجـــهٌ فيـــه ابتهـــالٌ وهـــذا ... لوعـــةٌ في سعيرهَـــا يتوقَّـــدْ
ووجوهٌ حكيمـــــةٌ غضَّنتهـــــا ... محنـــةُ الخلقِ وهو يشقى ويجهـــدْ

هكذا يسترسل في تصوير الوجوه بحسب طبائعها وسماتها، فتلك بريئة هادئة، وهذه مشرقة مرحة، أو حزينة مكتئبة وغيرها الطاهرة والواجمة والوحشية والجميلة والحنون والثقيلة ثم اقرأ قوله: ـ

«الشاعر العظيم هو الذي يصور لك الحياة باسمة عابسة مشرقة متجهمة ضاحكة وباكية ساخرة وجادة..»(9) وانظر ماذا ترى؟

بل إن القاريء لكل ما نُشِرَ من شعر التليسي يجده متأملاً ومفكرًا يعرض على متلق أدبه فلسفته في الأدب والحياة، وهو ما عبر عنه نثرًا بقوله:

«إن الشاعر الكبير لابد له من فلسفة في الحياة، ولابد له من اتجاه معين يختلف فيه عمن سبقوه من الشعراء»(10) ولا يظنن ظان سطحي أن التليسي يدَّعي لنفسه العظمة والكبرياء من خلال مقارنة أدبه بنقده، فهو إنما يطبق مقاييس عامة وقر في نفسه أنها تعطي الشعر مكانته الأولى بين سائر الفنون الانسانية، فإذا وصل إلى منشوده من خلال تطبيق هذه المقاييس فلا لوم عليه في سعيه إلى الكمال.

القصيدة الثانية بعنوان «الجنية» وهي بسيطة البحر هائية القافية تقع في اثنين وخمسين بيتًا وتتميز كأختيها بالوحدة الموضوعية والترابط العضوي، وبالأسلوب المشوِّق الذي يغلق ثم يفسر، ويسرح بقارئه بعيدًا ثم يهديه إلى مقصوده في خاتمة القصيدة فيضطر معه إلى قراءة ثانية تطلعه على جواء جديدة لم تكن قد علقت بذهنه في سابقها:

لن أذرفَ الـــدمع حُزنًـا في مغـانيهـا ... أو أرفـــعَ الصوتَ شكوى من تجنِّيهـا
ولن تـــراني نجومُ الليـــل ألعنُهـــا ... إنَّ اللعين فؤادٌ لا ينـــــاغيهـــــا
بـل سوف أهتفُ بـاسم طـالما طـربت ... لَـــهُ الجوانحُ فـــانسـابَتْ أغـــانيهـا

من هي؟ ربما كانت حبيبته! بل إنَّ ذٰلك يبدو مؤكدًا.. ولكن بقية السياق تجعلك تستبعد فكرة الحبيبة المألوفة: ــ

لا تقربوها ولا تأسوا لعاصفة ... ألوتْ بها فترامتْ في مهاويها
فتلك جنيةٌ تجري برغبتها ... هوجُ الرياح فتغلو في مراميها
مزالقُ الخطرِ الملعون نزوتها ... ولافحُ اللهب المسعور راعيها
كُمُهرةٍ في فجاج الأرض سابحةٍ ... تسابق الريح لا تعنو لراعيها
تبدو لراكبها سمحاء وداعةً ... رهيفةً قد تُواتي من يواتيها
حتى إذا ما تراءتْ ثمَّ مهلكةٌ ... ألقتْ به وتعالتْ فوقه تيها

تشد أنفاسك، وتحدق بعينيك عبر السطور مستغربًا ما تسمع، ثم يعود بك الخيال إلى العنوان فتربط بينه وبين ما تقرأ: ــ

باقاتُ شعريَ من أزهار روضتها ... كلُّ القصائد فَيضٌ من معانيها
لولا هواها لما أبدعت قافيةً ... ولا نظمتُ من الأشعار ساميها
ولا ركبتُ بُحورَ الشِّعر عاصيةً ... كمثل عصيانها شتَّى دواهيها

.. تظل في حيرتك وفي ذهنك تفسيرات كثيرة حتى يعطيك الشاعر الجواب: ــ

وكيف أرسُمها رسمًا يحققها؟ ... وهي الطبيعة في أحلى مجاليها

وهنا أيضًا لا يخفى على المتتبع لكتابات التليسي أنه ينطق في شعره عن آرائه النقدية، فهذه الطبيعة المحبوبة الملهمة هي التي عبر عنها في نثره بقوله: ــ

«وحين نتحدث عن الطبيعة عند أيِّ شاعر ينبغي أن نميز بين إحساسين، بين احساس الشاعر الذي يعبد الطبيعة ويقدسها، ويضرع إليها ويرى فيها هيكل عبادة وملجأ أمينًا يلوذ به من شرور الحياة وأوصابها، ويعثر فيه على ما افتقده في الحياة الواقعية من سلام واطمئنان، وبين احساس الشاعر الذي يروقه من الطبيعة ما يروق جميع الناس(11).

* * *

القصيدة الثالثة بعنوان «شموخ» ضَمَّن الشاعر أبياتها الخمسين حوارًا شائقًا، أحسن عرضه وأرفقه بموسيقية عذبة عن طريق التفعيلات المتشابهة في البحر الكامل، وتكرار الراءات بشكل ملحوظ في مجموع القصيدة.

وقد أحسن الشاعر عَنْوَنَةَ قصيدته، و إن فضل بعض قرائها أن يكون عنوانها «شموخ وانكسار» حتى يعبر عن حقيقتها تمامًا ونسي أن ذٰلك يلغي عنصر المفاجأة وهو من خصائص قصائد التليسي الثلاثة.

فهذه الكبرياء التي نجدها في قوله: ــ

لن تُدركي همي ولا أغواري ... إني أغيبُ بها عن الأبصار
لن تدركي همي المنيعة وَبحَها ... كم أعجزتْ من كاسرٍ مغوار
رام الصعود سُدًى إلى آفاقِها ... فطوى الجناح وعادَ للأَوْكار

هذه الكبرياء تتحطم في ختام القصيدة أمام النظرة الفاحصة للحبيبة العطوف صاحبة الكلمة الأخيرة، تلك الكلمة التي انتهت بها نهايةً تدل على أنها أدرى من ذٰلك المحب المتعالي بخفايا نفسه:

للقلب شأنٌ غيرُ شأنِكَ في الهوى ... سلِّم له تَسْلَمْ من الأكدار
خَلْفَ المسوح القاتماتِ طفولةٌ ... لم تخف عن حَدْسي وعن ابصاري
ستدك قيدَ العُمر عن أسرارها ... وتهدُّ ما أعليت من أسوار
وتطالعُ الأفقَ الرحيبَ طليقةً ... مكشوفةً، مرفوعةَ الأسْتار
لا القمةُ الشماءُ تعلو عندها ... كلاًّ ولا الأغوار بالأغوار

وقد بدا لي أن في البيتين التاسع عشر والعشرين خروج لا مُسَوِّغ له عن لهجة الشموخ التي لا يوجد ما يهزها حتى ذلك الحد.

والبيتان هما: ـ

الحسن يجذبني إليه إذا نأى ... عني وأقلت كالنسيم الساري
ولربما حطمت كل مهابتي ... في السره فعثرت أيّ عثار

وتبقى هذه القصيدة برغم ذٰلك في ذروتها الشامخة بين الصفوة من مختارات القصائد العربية المعاصرة، بما تمتلكه من سعة الخيال، وجمال الأسلوب، وجلال الفكرة وطرافتها، ومن تشويق في طريقة عرضها.

والجديد الذي نقدمه في هذا العدد من نتاج خليفة التليسي قصيدة تقع في اثني عشر بيتًا بعنوان «حيرة»، تمثل تجربة الكهل وقد سألته عيون العذراء عن ذكرياته العاطفية في لغة استدراج وملاطفة: ـ

تناديني أستاذها في حنانِ ... وفي صوتها كلُّ ذلِّ الغواني
وتمضي وفي صدرها حَيرة ... تسائلني عن عميق المعاني
وماذا عن الحبِّ ما خطبه ... وما يفعل الحب في العنفوان
وما كان لي في دروب الحياة ... من الحب أو رائعات الحسان
وهل مسَّني طائف من جنون ... فغادرني شاردًا عن كياني
وكم لي في العمر من غزوة ... مظفرة بالمها والقيان
فقلت أعابثها قد بلوت ... وقاسيت قبل حلول الأوان
وجربت من رعشة في الفؤاد ... وعانيت من عُقلةٍ في اللسان
وكم جمعت من زهور يدي ... وكم عصرت من كروم الجنان
وجئتِ وقد خَمَدت جُذوتي ... ولم تبق من فضلة في الدنان
لغيري يا أختُ هذا الجمال ... وما فاض عن نبعه من حنان
كفاني من سحره حيرة ... تسائلني عن عميق المعاني

وحتى لا أثقل في الملاحظات، ووفاءً بما أسلفته من أن الغرض من تدوين هذه الحوصلة هو الجمع ولفت الأنظار إلى الجديد وليس التحليل والنقد أقتصر على ملاحظتين: -

الأولى: أن المتحرج يرى في نشر مثل هذه الغزليات بمجلة للدعوة خروجًا عن المألوف. ونود أن نخفف عنه الحرج بأمرين أولها أن الغزل كان يُلقى أمام الرسول ﷺ ويتطارحه الصحابة والفقهاء في المساجد، إذ هو معرض لفن القول وسحر البيان وليس وسيلة من وسائل التعبير عن الغرائز الجائعة. وثاني الأمرين أن الشعر من الفنون الجميلة التي تُقصد لذاتها بغض النظر عن قيمتها الموضوعية، فكما أن اللوحة الجميلة تثير اعجاب من يشاهدها حتى إذا كانت لوحةً لجيفةٍ نتنة فكذلك هي القصائد الجياد في أي عصر وفي أي موضوع كُتبت تحتفظ بجاذبيتها وتأثيرها بغض النظر عن ذلك العصر وذلك الموضوع.

والملحوظة الثانية هي أن هذا الموضوع الذي تعالجه القصيدة جديد في تناوله ولكنه قديم في فكرته، وبرغم ذلك لا نجد أنفسنا مطمئنين للمساواة بين قول التليسي السابق وقول بشار:

بعثتْ إليَّ تسومُني	بردَ الشبابِ وقد طويته
واللهِ ربِّ محمدٍ	ما إن غدرتُ ولا نويته
إن الخليفة قد أبىٰ	وإذا أبىٰ شيئًا أبيته
ومخضبٍ رخصِ البنانِ	بكى عليَّ وما بكيته
ويشوقني بيت الحبيـ	ـب إذا اذّكرت وأين بيته
قام الخليفة دونه	فصبرتُ عنه وما قليتُه

وذلك أنك تجد الوضوح والتسلسل وانضباط النفس في أبيات التليسي ولا تجدها في أبيات بشار برغم جمالها وتعبيرها الدقيق عن مراوغة المتردد الحذر.

- 2 -

صاحب النص الثاني هو الأديب عبد المولي البغدادي المتخصص في الأدب العربي الليبي والاستاذ بجامعة الفاتح.

عرف الناسُ شعر البغدادي عن طريق المجالس الخاصة والأمسيات الشعرية أكثر مما عرفوه عن طريق وسائل الإعلام، ولكن الكثيرين يذكرون تَصَدِّيه خلال الستينيات لبعْض المتنطعين بقصيدة نشرتها إحدى الصحف المحلية وقرَّضها معجب فقال: -

للهِ دَرُّكَ عشتَ يا بغدادي
ولقد شفيت من اللئيم فؤادي

على أن نجم هذا الشاعر قد علا في ميدان الاخوانيات، وهو مجال أبدع فيه ما شاء، حتى بلغ الغاية في الظرف والدعابة. ومهما تكن مآخذ النقاد على هذا الغرض فإن شاعرنا قد أعطاه مكانة عليا في المجالس الأدبية الخاصة التي أصبح شعره حلاها وحديث ساعاتها.

وما بين أيدينا من شعره الآن يختلف عن تلك الجواء اللاهية والجلسات المرحة. إنها إحدى روائعه الطويلة والمنقحة. قصيدة ميمية تقع في ثلاث وخمسين بيتًا جعلها الشاعر «تأملات في أحداث لبنان» وانطلق فيها معبرًا عن مرارة الشعور بالهزيمة، والعجز عن انقاذ لبنان، وعن الفواجع التي حلت بهذا البلد الصغير ففجرت الحقد في أعماق الانسان العربي المسلم، فراح يعلن غضبه على كل المتاجرين بمصير أمته وكرامتها: ـ

صرحُ لبنانَ قد تَهدَّم باسمي ... لا تُدينوا بهدمِهِ أيَّ خَصْمِ
أنا حطمتُه ولم أكُ أدري ... أن أنقاضه دمائي ولحمي
سكنت ثورتي ومات شعوري ... وانتهت قصتي نهاية شؤم
واعترتني زوابعُ مهلكاتٌ ... زلزلتْ صبريَ العنيدَ وعَزْمي
جُرح لبنانَ قد أصاب كياني ... فهو في قلبي المضرَّج يُدمي
فأنا الخصمُ والمدافعُ عنها ... وكلا الجانبين أهلي وقومي
والضحايا فواجعُ ماثلاتٌ ... خلَّفتْ في الدروب أشباحَ يُتْم
إيه لبنانُ والخطوب نعال ... ضربت إخوتي بأبناء عمّي
كنتُ لولا طبول حربكِ وهمًا ... ركَّبوا في خياله ألفَ وهم
كنتُ حُلمًا محلِّقًا في سرابٍ ... تتهادى أطيافه كلَّ يوم
كنت لا شيء غير حارس قصر ... يَخدُمُ السيدَ العظيمَ بحزم
كنتُ لا شيء غير عبدٍ حقيرٍ ... أخرسٍ مثل سيفه وأصمّ
كنتُ أحمي جناب من كان ظنّي ... أنه جاء كي يذودَ ويحمي
إيه لبنانُ كم هتكت حجابًا ... كان يُخفي وراءه كلَّ جرم
كان لولاك ما تضاءل عرشٌ ... واستحال الزعيم كتلة رَغْم
الرئاساتُ يا لها من غَباء ... إنها كالدمى بلحم وشحم
كشفتها استغاثةٌ منك عجلى ... فإذا الكلّ بين صم وبكم
توِّجي ساسة العروبة عارًا ... والعني من سراتهم كلَّ شهم
فجرّى حِقْدنا الدفينَ عليهم ... حِمَمًا تصرعُ الطغاة بحَسْم
إنّه حقدُ ألفِ عامٍ تَولَّتْ ... لم أجدْ من ولائهم غيرَ ظلم
زلزلي الأرضَ تحتهم واقصفيهم ... وانزعي من صدورهم كلَّ حُلم
جرِّديهم من المُنَى فهي تحوي ... ما حوى الغدرُ من فجور ولؤم
واعلني ثورةَ الشعوب عليهم ... ليُلاقي مصيره كلُّ قزم
ليس فيهم من الطواغيت طاغٍ ... لم يصبْ قلبكِ الجريحَ بسهم
كلُّهم عاثَ في رُباك فسادًا ... فسواءٌ سميت أمْ لم تُسمِّي
سقط البرقعُ المزيفُ عنهم ... فبدا القبحُ صارخًا دون كَتْم
حاربُوا بعضهم هناك ببعضٍ ... لا لدعم أتوا ولكن لهدم
كلُّهم قاتلٌ وكلٌ قتيلُ ... ألغنم قتالهم أم لغرم؟

بـــأسهـــم بينهـــم شديـــدٌ عنيـــدٌ ومـــع الآخـــرين صُنّـــاع سلم
محنتي أنني وكلتُ إليهـــــــــــم أمـــر حـــريتي وتـــدبير حُكمي
فـــاحتواني من المهـــانـــة طيف جـــال في خـــاطـــري وسابق فهمي
فخلعتُ الأوهـــام عني بعيـــدًا وتنكبتُ صحوتي بعـــد نومي

* * *

إيـــه لبنـــانُ مـــا لليلكِ ساجٍ حـــائـــر النجـــم مظلـــمٍ مـــدلهمّ
جفَّ في حُضنِكِ الصنوبـــرُ ذعـــرًا واعتراه الـــردى بعـــزل وفطـــم
واستحـــالت كـــرومُ صيـــدا هشيمًـــا يتهـــاوى من أجْلِهـــا كـــلُّ كـــرم
فـــاسكبي روحكِ الحنون عليـــــه كـــانسكـــاب الـــرذِّي عليك وضمّي
أيُّ ذنبٍ جنـــــــــاه رائقُ وردٍ كـــان كـــالسحـــر نـــافـــذ العطـــر جمّ
مـــالـــه يُطبق الغُصون على الـــزهـــ ـــر لـيبقى مُخَبَّـــــــــأً دون شمّ
حكمـــةُ الـــدهـــر أن تخوضي صراعًـــا ظـــالمًـــا في دُجَى ليـــالي غُشْـــم
يـــالصرح أكفّـــه ممسكـــات بجبـــــال على الشواطيء شُمٍّ
يحضن الموجَ سَفْحُهـــا فهو يُمْضي بهجـــة العمـــر في عنـــاق ولثم
والمغـــارات في ربـــاهـــا كهوف حفلت بـــالأصيـــل من كـــل طعم
يـــا اشتيـــاق المحب يـــا ملهـــم النّظْـــ ـــمِ إذا جـــادت النفوس بنظـــم
عـــلّـــق الحسن في جـــبـــينك نجما يـتحـــدى بحسنـــه كـــلَّ نجم
أنت حـــررتني وأطلقت قيـــدي فـــأنـــرت الـــدُّجَىٰ وبـــدد غَيْمي
وكســـا الصفْو جـــانبًـــا من حيـــاتي وتحررتُ من عنـــــــائي وسُقمي

* * *

تلك لبنـــان كـــم تـنطـــع فيهـــا جـــــامحٌ لا يلين إلا بشكـــــم
وهي كـــالطود عـــزةً وشموخًـــا خصمهـــــا لا يئُوب من غير قصم
كلّما اصطكّتْ المجاذيفُ فيهـــــــا بهوى الغـــادرين عُـــربٍ وعجـــمِ
أطلقت من جـــرابها سيفَ حـــرٍّ ثـــائـــرٍ يـــرفض الحيـــاة بضيم
سوف تبقى منـــــارةً لحيـــــاتي رغـــم كيـــد العـــدا جميعًـــا ورغمي
فهلمّي لبنـــان نشعـــل نـــارًا تحرق الظلم في حمانـــا هلمّي

— 3 —

النص الثالث لشاعر مبدع من شعرائنا الشباب هو أبو القاسم خماج ، الذي تخرج في أحد الأقسام العلمية

التجريبية وتخصص في التربية، وبرع في الشعر، فتنازعته هذه المجالات الثلاثة لكنه أعلن انحيازه إلى جانب الأدب في قوله: ـ

أنـــا لا أريـــد من النبـــات دراسةً ... لكيـــانـــه المستور لا تُستلـــزمُ
أنـــا لا أحب من النبـــات وغيره ... إلاّ خلاصـــةَ مـــا يشـــمُّ ويُلثم
أنـــا طـــائـــرٌ لا يَسْتبـــدُّ بـــه سوى ... رقصُ الـــغصـــونِ الخضر إذ يترنم
فـــإذا سعيتُ إلى الـــريـــاضِ فـــإنما ... يميـــلَ بي غصنٌ ويضحكَ بُـــرْعُـــمُ

والشعر عند أبي القاسم خماج يعتمد على عنصرين بارزين هما الخيال الواسع والموسيقى العذبة، إنه ينساب من فيه أنغامًا متلاحقة منسجمة لا يملك معها السامع إلاّ أن يعبِّر عن أعجابه الشديد دون أن يعرف تمامًا ما هو العنصر الذي شده في شعره أكثر من غيره.

ولعل ذلك عائد إلى أن الشاعر أراد أن يمتع نفسه بشعره قبل أن يفكر في الآخرين فكان ترنيمه تعبيرًا صادقًا عن أحاسيسه ومشاعره: ـ

أنغـــامُ تُـــرقصُ إحســـاسي ... والنـــأيُ بكفِّي يُغـــريها
ويكـــادُ يكـــادُ يلامسُهـــا ... ويحِينُ يحِينُ تنـــاغيهـــا
لكنَّ تَقَطُّـــعَ أنفـــاسي ... لا يلبثُ حتى يمحوهـــا

لقد أجاد الشاعر في تنويع مصادر الموسيقى في قصائده، تجدها في تكرار الكلمات، وفي الاعتماد على الأحرف الموسيقية، وفي استخدام الأبحر القصيرة وفي التفعيلات المتشابهة، والتقسيم داخل الأبحر الطويلة كما تجدها في تلك الموسيقى الداخلية التي تحس بها ولا تعرف مصدرها.

لاحظ هذه الدفوف المدوية التي استطاع الشاعر أن يستميل بها آذان السامعين عند استخدامه الجيد لحرف الدال المضاعف في قوله: ـ

دَمي ينســـابُ أنغـــامًـــا ... وراء الكَونِ تمتـــدُّ
وفي غيبوبـــة الأحلامِ ... لي جـــزرٌ ولي مـــدُّ
فهـــل لي في غُصون الورد ... مـــا أمَّلتُ يـــا وردُ
وهـــل لي في حنـــايـــا الصـــدر ... شيءٌ اسمُـــهُ الودُّ

غير أن الموسيقى ليست كلَّ بضاعة الشاعر، فلم يكن الخيال الرائع في شعره شطحاتٍ في اللامعقول، بل إن الفكرة تأخذ من اهتمامه قدرًا كبيرًا ولكنها تمتزج في خضم العواطف الجياشة والتنغيم الموسيقي والتصوير الفني لتكون معها أسلوب هذا الشاعر في الرسم بالكلمات: ـ

جبـــالُ الصَّبر أبْنيهـــا ... بـــأعصـــابي وتَنْهـــدُّ

سُعـــــــارُ الشَّوق مَحمومٌ وأُفقُ الوَصـــلِ مُـــزبـــدُ
ولِلسَّـــاعي وراءَ النَّخـــلِ كـــانُ اللَّسْـــعُ والشَّهْـــدُ
أريـــدُ «نعـــمْ» وأخشَـــاهَـــا كَمَـــا أخْشَـــاكَ يـــا صَـــدُّ
ولا أدْري لأيِّ الجمـــــرِ تَسْخُو بـــالصَّبَـــا نَجْـــدُ
ومَـــا بَينَ الـــرَّجَـــا واليـــأسِ ضِغْنَـــا أيُّهَـــا القَصْـــدُ

ونقع خلال رحلتنا في العالم الشعري لأبي القاسم خماج على قطعة تقودنا إلى رحابه الإنسانية حيث يبدو البحث عن المعاني في المقام الأول، ولكنَّ بقية العناصر لا تتخلف عن اهتمام الشاعر ولا تسقط من حسبانه: ـ

الشعـــر يـــرفـــرف في صـــدري كـــالطـــائـــر لا يـــدري عُشَّـــهْ
ومعـــانٍ تـــزحف أمواجًـــا أمواجًـــا في وادي الـــدهشـــهْ
لا توجـــد عنـــدي أحـــرُفُهـــا فتموت على شفتي رِعْشـــــــهْ

* * *

آهِ لو أمْلكُ في صَـــــدري عُشَّـــا لو أمْلكُ أنفَـــاسي
مـــا ظـــلَّ الطـــائـــرُ مَنْفيًـــا في دَرْبِ متـــاهَـــاتٍ قـــاسِ
أو ظـــلَّ النـــأيُ بلا رُوحٍ تمتَـــدُّ خلالَ الإحْسَـــاسِ
وظللتُ بلا وجـــــهٍ حتى أتبيَّن وجهيَ في النَّـــاسِ

فإذا شدَّتك الموسيقى في هذه الأبيات، وذهب بك الخيال بعيدًا فأعد قراءة البيت الأخير لتجد الفكرة في خير أمثلتها عمقًا وطرافة.

وسنخطو معًا خطوة أخرى نحو الفكرة في شعر خماج عندما نستعرض جزءًا من قصيدة «الانسان» التي يقول مطلعها:

ظلمـــــةُ الليـــــلِ حَواليَّ كَثيفَـــــهْ
وأنـــــــا أمشِي وأمشِي
بيـــــدِي حُلْـــمٌ سِرَاج
والمتـــاهَـــاتُ.. المتـــاهـــاتُ مخيفـــهْ
وأنـــــا داخـــــلَ نَفْسي
كـــأنَـــا بينَ فِجَـــاجْ

ولم يكن أبو القاسم خماج في عالمه الشعري بعيدًا عن المحنة التي تعيشها أمته العربية المسلمة، فقد تأثر بها وعبر عنها، بل إنه سَخِرَ في إحدى قصائده من ذلك التعبير الكلامي الذي لا جدوى من ورائه فقال: ـ

لن تُصبحَ يا شعري مَنْفَعْ ... مَهْمَا غنَيْتْ
لن تُبنَى دارٌ أو مصنعْ ... من ألفي بيتْ
جَنَّدْنِا كلَّ دفاتِرنا
ووقفنا فوق منابِرنا ... نحن الشعراء
ونزعنا خَتْمَ حناجرنا
وسكبنا خمرَ مشاعرنا ... وشربنا نخب الأعداء

أما النص الذي نختاره كاملاً في هذه الحوصلة فهو قصيدة نونية نسجها الشاعر وهو مغترب بالولايات المتحدة سنة 1973 من أجل الدراسة فعبر فيها عن إحساس المغترب في أيام العيد: ـ

« عيد مغترب »

لم أنتبهْ للعيد حتى عيَّدُوا ... وأتى من الأصحاب من هَنَّاني
وأتى مع البشرى نسيمٌ ساخنٌ ... ينسل من سمعي إلى وجداني
ليذيب أحشائي ويحمل بعضها ... في سيره زحفًا على أجفاني
قلبت معنى العيد بين أصابعي ... وعصرتُ ما بالشكّ من ايمان
وفتحت أبواب الخزائن كلَّها ... ـ لا أدعي أني بلا أحزان ـ
عَلِّي أرى ما قد يلوح سعادةً ... في أعين البادين من خلاَّني
أيام كنا العيدَ.. كنا عمرَه ... معناه.. كنا سرَّه الرُّوحاني
فوجدت أعيادي القديمةَ كلَّها ... مشنوقةً في ساحة النسيان
ووجدت أتعس زهرة برية ... في صمتها ترنو إلى الرحمٰن
كالروح عاكفة على أحلامها: ... (سأعود في يوم إلى جنّاني!)

* * *

يا عيدَ أحبابي جُعلَت مباركًا ... ومذكرًا بالحبِّ في الإنسان
عفوًا نسيتك.. إنني في عالم ... لجميع ما في عالمي أنساني
لم أنتبه والكون كان بجانبي ... أنّي أعي وأنا بكون ثان
هٰذي السماء لها هلال مظلم ... ونجومها ركب من العميان
والوقت مسروق الضمير وانه ... لم يدر ما أهلي وما أوطاني
أهلي ومن أحببت ملء خواطري ... وخواطري بحر بلا شطئان

أمتـــد في طول الظنون وعـــرضهـــا	ويح أتســـاع الكون قـــد أضنـــاني
يـــاذاهلين أشابكـــم مـــا شابني	أم شابني مـــا ليس في الحسبـــان ؟
منهوكـــة نفسي حيـــال ذهولها	وذهولها دنيـــــــا بلا ألوان
يـــا واهب الأشيـــاء سرّ وجودهـــا	ومؤلف الأرواح في الأبـــــدان
من لي بـــألوان.. بشكـــل معـــالمي	لو أمهلتني ريشـــة الفنـــان
عفوًا إذا شاب الغموض مشـــاعـــري	هـــذا هو الـــداء الـــذي أعيـــاني

— 4 —

الأنموذج الرابع لشاب باحث وأديب طموح تُنتظر له في دنيا الأدب مكانة مرموقة بلا مبالغة. فهو الأصغر سنًا بين كل الأسماء الواردة في هذه الحوصلة والأجرأ على نشر نتاجه الأدبي، ولكن انصرافه إلى البحث التاريخي كان منافسًا مؤثرًا على ابداعه الأدبي. ذلكم هو الشاعر والباحث عمار جحيدر.

نشر عمار بعض أعماله الشعرية في مجلة «الفصول الأربعة» فكشف بذلك عن شاعر متطور يملك أُسلوبًا شائقًا متنقلاً بين التعجب والتساؤل، والإخبار والرجاء، في شعر خالٍ من الرتابة والسرد، مفهم بالعواطف والأخيلة الخصبة مع تفاوت واضح بين تلك الأعمال نتيجة لاطراد ظاهرة التطور الإيجابي : —

دقت الســـاعـــة قُـــرْبَ الموعـــد	
فـــاضطـــراب الشوق يبـــدو في يـــدي	
كـــم هفت نحو الـــرِّتـــاج الموصَـــدِ	وَهَفَـــا سَعـيٌ لوقْـــعِ الأرجـــلِ
ساعـــةُ الحائطِ.. مـــا بـــال الثواني؟	
تقف الآن.. كـــدهـــر في الـــزَّمـــانِ	
وعلى عقـــربهـــا تحنو الأمـــاني	ألأني في انتظـــــارِ المقبـــــلِ؟!

ونقدم في هذا الحوصلة أروع ما كتب عمار حتى الآن، قصيدة لم تنشر من قبل، تقع في ثلاثة وستين بيتًا وتتميز برصانة الاسلوب ورقة العواطف، تلك العواطف التي أضفتها طبيعة الموضوع وقربه من نفس الشاعر، فهي رسالة كتبها الشاعر إلى ولده «نزار» في ربيعه الثالث سنة 1983 م.

يبدأها وكأنه يبدأ قصة محببة إلى نفسه : —

مـــا كُنْتُ أعـــرف فلـــذة الكَبـــدِ	حتى أتيت إليَّ يـــا ولـــــدي
ورأيتُ فيك طفولتي ألقًـــــــا	ينـــــداحُ من أبوين في جَسَـــدِ

وتستوقفك بعض الألفاظ الغريبة عن لغة العصر، يجمع بها الشاعر بين جزالة القديم ورقة الجديد؛ فلا

تحس بخطورة التقعر ولا بخشونة الغرابة لأن الشاعر متمكن من لغته محسن لاستخدام ألفاظه قادر على استجلاب اللفظ المناسب من قاموسه اللغوي الرحب.

وفي مقطع أخر من مقاطع هذه القصيدة الطويلة يلفت الشاعر انتباهنا إلى موازنة بين عنايته بابنه وعنايته بكتبه وهما يشتركان في حبه واهتمامه : ـ

يا مَعْقِدَ الآمالِ يا وَلَدِي ... يا فُرصةً في العمر لم تردِ
أفديك أن تُمسي على مَضَضٍ ... أو تشتكي شَكْوى إلى أحدِ
ولقد يكونُ المجدُ من دأبي ... لكنَّ مجدك أوطدُ العُمَدِ
لن يبلُغ التنقيحُ من كُتبي ... ما يبلُغُ التهذيبُ من ولدي
وكلاكما من صُلب تجربتي ... وأعزُّ ما أُبقيهِ في بلدي
فانظر من الأيام مُتَّسعًا ... يَسَعُ الطُّمُوحَ إلى ذرًا صُعُدِ!

ويعبِّر الشاعر عن استمرار حياة الآباء في أشخاص أبنائهم، وتجدد تجاربهم من خلال تجارب أولادهم فيقول : ـ

سأُعيدُ رسمَ طفولتي قُدُمًا ... في مُلْتقى عينيكَ بالأمدِ
وأُذيبُ في ألوانها قُزَحًا ... مُتلألئًا كالشمسِ في رأد
وأُكَسِّرُ الأغلال عن زمني ... وأمُدُّ من أمسي صَباح غدي
وتعاود التحليقَ أجنحتي ... وتطيرُ أحلامي.. بلا عدد
في راحتيك طفولتي بُعثتْ ... للجنةِ الخضراء يا ولدي
ولسوف تكبُرُ في الضحى رجلاً ... وأراك مِلءَ بصيرتي وبدي
وإخال هذا الجسمَ مُتشحًا ... بشبابكَ الرَّيَّان في رَغَد
وتزورني الأطياف تُسكرني ... بنجاحك المأمول يا سندي
وتخط في ألواح قصتنا ... أنشودة أخرى من الولد

ثم يخرج الشاعر من محيطه الأسري إلى عالم الأطفال في أمتنا المجيدة، يخاطبهم من خلال أمته ويخاطب أمته من خلالهم فتكون في ذلك فرصة للتعبير عن واقع الهزيمة الذي نعيشه، وعن ذلك الأمل الذي يحيا في صدر هذه الأمة متمثلاً في تحقيق النصر واسترجاع الكرامة :

أطفالنا يا فيض أغنية ... من مقطع في اللحن منفرد
أطفالنا عفوًا ومعذرة ... لبريئة ولدت ولم تئد
أطفالنا هاتوا أياديكم ... يتفاءل الاحساس في خلدي

لازال في الآفـــــــاق مُنطلقٌ	للطـــائـــر الغـــرِّيـــد في كبـــدي
لازال في أحشـــــائِنـــــا رمقٌ	قـــــــد يُسعِفُ المنهوكَ من أود
لازال في أنفـــــاسِنـــــا نَفَسٌ	مُتَشَبِّثٌ بـــــالـــــروح في الجسد
طُوبى لجيـــل النَّصر في غـــدكـــم	ولأمـــــةٍ تحيـــا إلى الأبـــــد
سأمـــــد في آفـــاقكـــم بصري	فـــالمجدُ للأطفـــال يـــا ولـــدي

* * *

وفي الختام نأمل أن يظل الباب مفتوحًا في هذه المجلة لتقديم نماذج أخرى من أدبنا العربي الليبي، ولعل ذلك سيكون أكثر امكانًا بتعاون الكتاب والشعراء، فلهم جزيل الشكر ما وافونا بنتاجهم أو بمقتنياتهم من روائع هذا الأدب.

* * *

هـوامـش

1 ـ جريدة الليبي 6، 13، 20 اكتوبر 1952 م.

2 ـ مجلة الإخاء مارس 1984 م.

3 ـ رحلة عبر الكلمات، خليفه التليسي، طرابلس 1974 م صـ37.

4 ـ المصدر نفسه صـ37.

5 ـ هذا العتاب لا يعني أن نقادنا لم يقدموا شيئًا فلا يمكننا تجاهل الجهود النقدية التي قاموا بها متمثلة في جمع ودراسة شعر بعض الشخصيات المشهورة والمغمورة، لكنها لم تواكب الحياة الأدبية المعاصرة ربما بدعوى أن المعاصرة حجاب كما يقولون.

6 ـ الذخيرة 1 / 12.

7 ـ جذرة المقتبس صـ292.

8 ـ يعد الباحث مصطفى جحيدر رسالة ماجستير حول شخصية التليسي وأدبه نأمل أن تقدم الجديد والطريف عن حياة الرجل وآثاره.

9 ـ رحلة عبر الكلمات صـ42.

10 ـ المصدر نفسه صـ41.

11 ـ رفيق شاعر الوطن، خليفه التليسي، الطبعة الثالثة 1976 م صـ138.

12 ـ الاعداد 20، 23 سنة 1982 م ومارس 1984 م.

تراجم

أحمد الفقيه حسن/ الجد

دراسة في حياته وشاعريته

محمد مسعود جبران

في المجالس الكاملية[1] كان يرى بين المغترفين من نمير مواردها شاب حسن الهيئة والسمت، ذكي الفؤاد، وقاد الذهن، ميال بجبلّته الى درس اللغة والأدب، يتبين منه الناظر الى سلوكه وظرفه، أنه فرع مزهر من شجرة وارفة مثمرة .

هذا الشاب الأديب ، الذي شهدت مدينة طرابلس الغرب روحاته وغدواته في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري ، هو الشاعر المنشىء أحمد الفقيه حسن (الجد)[2] الذي صار بعد ارتوائه من مناهل هاتيك المجالس من أبرز متذوقي الأدب ومبدعيه ، الذين جسدوا في أعمالهم مفهومه الغالب في تلك الحقبة .

وإذا كان من طبائع الطلائع الأول ، أنها لا تستطيع في بعض الأحايين ، أن تترك لمن يجيء بعدها برامج محددة ومناهج دقيقة ، تعبر عن مراميها ووجهات نظرها في صورة كاملة ، كما لا تقدر ـ لبعض الظروف ـ أن تدلل على ملامح نقداتها وتصوراتها في أعمال نظرية أو تطبيقية شاملة ، الا أن التاريخ الأدبي يظل يحفظ لها في ذاكرته سبقها وريادتها ، ويرعى لها فضل تميزها في محيطها وخروجها الجزئي أو الكلي من ربقة التقليد ، كما يشيد لها بحسنة المبادأة في الدعوة الى أدب الاصطلاح الحسن بين أهل زمانها .

وفي تقديري أن هذا الأديب ـ الذي نترجم له ـ يدنو بالرغم من عدم وصول أعماله كاملة الينا ، من هذا الشرف ، ويحتلّ من خلال ما عثرنا عليه من إبداعاته واهتماماته، منزلة تقربه من منازل الأدباء المطبوعين السابقين في تاريخ الأدب العربي الحديث في ليبيا .

ترجمته :

ولد أحمد الفقيه حسن (الجد) في فترة قلقة من تاريخ ليبيا وذلك في سنة (1259 / 1843) أي في أوائل العهد العثماني الثاني ، الذي بدأ في حكم البلاد سنة (1835/1251) وفي ظلال هذه الفترة التاريخية ، الملأى بالثورات والنوازل والملابسات التي أملتها الظروف الانتقالية من العهد القره مانللي الى

هذا العهد الجديد[3]، نشأ الفتى في بيت من بيوتات طرابلس الغرب، التي كان لها تأثيرها إبّان عهد الأسرة القره مانللية ، وفيما بعده .

فهو ينتمي من جهة الأب الى أسرة الفقيه حسن ، وهي من الأسر التي سكنت البلاد منذ القرن العاشر[4] ويرتفع نسبها الى نسب الرسول الكريم[5] ، وقد كان والده السيد حسن بن أحمد الفقيه حسن[6] ابن عبد النبي بن عبد الرحمن بن علي بن الشريف العالم السيد « منجا »[7] من أعيان مدينة طرابلس الغرب ، ومشاهير تجارها ، ومن أعضاء مجلس الادارة والشورى[8] منذ عهد يوسف باشا القره مانللي الى التاريخ الذي عين فيه محمود نديم باشا والياً سنة (1867/1284) ؛ أما جده لأمه فقد كان هو الآخر من الشخصيات البارزة ، التي كان لها تأثيرها في تلك المرحلة من تاريخ ليبيا ، أعني محمداً بيت المال شلبي[9] الوزير الأول في عهد يوسف باشا القره مانللي ورئيس حزب القول أغلية ، الممثل للاتجاه الحكومي الرسمي[10] الذي يعد عنوان « السلطة القوية القائمة في الولاية ، وعليه تعتمد سياسة يوسف باشا »[11] .

وبالرغم مما كانت تمر به بلاد المترجم من ملابسات عصيبة في ذلك الإبان ، ومن صراعات خفية وظاهرة أفسدت كثيراً من وجوه الحياة العامة[12] فإن والده السيد حسن الفقيه حسن الذي كان معدوداً من وجهاء البلاد وأعيان تجارها كما قدمنا تعهده ـ بفضل ما كان يتمتع به من يسر وجاه ـ بالرعاية ، وهيأ له كل الامكانات للتربية والتحصيل .

وقد ترك لنا هذا الوالد في يومياته بعض المعلومات والإفادات ، التي تشير الى فرحه بولده واحتفاله بتنشئته وتهذيبه ، ومقدار ما بذله للعناية به .

والحق أن تلك الإفادات تعد ـ الى جانب طرافتها في تسجيل ما دق من الحوادث الشخصية الصغيرة في هذا المقام ـ مصدراً رئيساً نعتمد عليه في بحثنا ، لما يلقيه من اضاءات مفيدة ليس فيما يتصل ببعض الأخبار المتعلقة بحياة المترجم فحسب بل فيما نطالعه متصلاً بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية وبمستوى والده ، الذي شغلته التجارة ، وصرفه الصفق عن الرقي في سلم الدراسة والتحصيل العلمي ، وكيف حاول هذا الوالد أن يعوض ما ابتلي به من نقص في شخصه باعداد ولده الذي نترجم له ، والذي استطاع بفضل طموحه أن يفرض نفسه بعد ذلك على الحياة الفكرية والأدبية في ليبيا .

فقد ذكر السيد حسن الفقيه حسن صاحب اليوميات الليبية ، أنه ابتنى بوالدة المترجم ليلة الاثنين من شهر ربيع الأول سنة (1838/1254) وغير خاف أن هذه الزيجة تمت بعد ثلاث سنوات تقريباً من زوال العهد القره مانللي ، وأشار إلى زوجه هذه بأنها ابنة محبه الحاج محمد بيت المال[13] .

ويتضح ـ من استعراض أخبار صاحب اليوميات ـ أن هذه الزوجة كانت مسبوقة عنده بأخريات بنى بهن قبلها ، وأن اقترانه بها وعقده عليها كان بأخرة سني حياته[14] وقد سجل لنا في سطور من تلك اليوميات أنه أنجب منها ابنة ولدت في ١٢ من شهر جمادى الأولى سنة (1839/1255) ثم رزق منها

بعد ذلك بمترجمنا أحمد ، الذي كان ميلاده في يوم الثلاثاء الحادي عشر من رجب سنة (1843/1259) وأنه أسماه باسم والده[15] .

ثم تمضي اليوميات في مثل هذا العرض ، بأسلوبها العامي العفوي ؛ فتذكر لنا أخباراً أخرى تتصل بالطور الأول من حياة الشاعر أعني طفولته المبكرة وطفولته المتأخرة ، وتبين ما تعهدت به هذه الأسرة هذا الوليد من تربية منذ نعومة أظفاره ، ومتى تم فصاله ، وتؤرخ دخوله الى الكتاب[16] بيوم الخميس 17 من سنة (1849/1266) والموعد الذي تم ختانه فيه ، ثم كيف أنه أكمل في يوم الخميس 16 من شعبان سنة (1857/1274) ختمه القرآن العظيم ، وهو اليوم الذي توجه فيه والده بالدعاء الى الله « اللهم اغفر لنا ولجميع المسلمين بحقه آمين »[17] .

وفي الحق أن هذا الوالد لم يقتصر في تربية ولده على ما ناله من حفظ القرآن الكريم ، بل أراد له أن يتبحر في علوم الوقت ، وأن يستزيد من المعارف ويترقى بحسن صبره في سلم الكمالات ؛ ليصبح له شأن بين أبناء جيله .

وحقيق بالذكر أن نقرر هنا أن التعليم في مدينة طرابلس الغرب كان يشهد ـ في الزمن الذي صار فيه هذا الأديب قادراً على التلقي ـ بداية حركة التجديد والتحديث والاصلاح ؛ وبذلك سار التعليم ، نتيجة تلك الحركة ، في خطين بارزين ؛ خط تقليدي أصيل وموروث ، أعني التعليم المسجدي الذي تدرس في حلقاته الكتب المعروفة في علوم الآلة وعلوم المقاصد الشبيهة بالعلوم التي كانت تدرس في الزيتونة والأزهر ، وظهر معه خط التعليم المدني المستحدث الذي يتلقى فيه الدارس علوم الرياضيات واللغات والمواد الاجتماعية والفنون الأخرى[18] وقد اندفع أديبنا بكل رغائبه فنهل من ذينك الموردين وأفاد منهما بما امتلأ به وطابه[19] ؛ فقد دفع به والده الى التعليم المسجدي بدءاً من الكتاب ، حينما بلغ السابعة من عمره ـ كما جاء في يومياته ـ فاعتكف على حفظ سوره مدة ثماني سنوات ، الى أن أكرمه الله بحفظه ، وتلقى بعد ذلك على شيوخ لم تصلنا أسماؤهم مبادىء العلوم وأوليات الفنون ، ثم تدرجت ملكاته ، واشتد ساعده فاتصل بمجالس العلامتين الشيخ محمد كامل بن مصطفى والشيخ محمد علي بن موسى[20] فقرأ عليهما « المختصرات والمطولات من كتب المعقول والمنقول »[21] واغترف من أمواههما ما تضلع به ، وقوى بعطائه وشائج الاخاء مع أقرانه تلاميذ الشيخين أمثال الشيخ عبد الرحمن البوصيري[22] ومصطفى محمد بن زكري[23] وابراهيم مصطفى باكير[24] وعلي عياد[25] واضرابهم[26] وقد كانت لدراسته الشرعية واللغوية التي تلقاها عن هذا النظام المسجدي أثر محمود على ما استقبله في حياته العملية ، حينما تولى مهمة الانشاء في الكتابة العامة للولاية ، وفي جوانبه الابداعية المنظومة والمنثورة كما سنلمّح الى ذلك .

وعندما بلغ مترجمنا سن الخامسة عشرة أو تجاوزها بقليل ، وافق ذلك تأسيس المدارس الرشدية (1858/1275) في عهد الوالي أحمد عزت باشا ، التي عنيت بتدريس المواد الدراسية المختلفة من رياضيات واجتماعيات واللغات العربية والتركية والفرنسية وغيرها[27] فانتظم في سلك هذا النظام المستحدث وعدَّ

من أوائل الملتحقين به ، فقرأ النحو ، وتعلم الخط الثلثي والمشرقي على الشيخ شكري[28] وفيه تمكن من درس اللغة التركية المستخدمة في الدواوين الرسمية ، بيد أننا لا ندري مبلغ ما ألّم به منها ، هل كان بمقدار ما يكفي لأداء الواجبات الإدارية ، وفروض الحياة الوظيفية ؟ أو أنه تجاوز ذلك الى مرتقى أعلى اتصل من خلاله بالاطلاع على الأدب التركي ، وعلى نتاج الأدباء في تلك اللغة ؟

كذلك درس اللغة الفرنسية أولياتها وقواعدها ثم أكمل هذا الدرس على يد أستاذه شارل النمساوي الى أن غدا قادراً على قراءة بعض الآثار الفرنسية ، لا بل أخبرنا مترجموه أن درسه هذا كان معواناً له على أن ترجم عن هذه اللغة كتاباً في فن الرحلات[29] الى جانب ما أفاده من المعارف الانسانية الأخرى في المدارس الرشدية التي التحق بها .

وقد كان من حسنات والده ـ في تعهد قدراته ـ أن اقتنى جملة من الكتب والمؤلفات في شتى الفنون . ولسنا نشك في أن أديبنا كان يرجع الفينة بعد الفينة الى تلك الكتب المتنوعة ، ليفيد من معلوماتها الدينية واللغوية والصوفية والتاريخية[30] كذلك لا يخالجنا الشك في أنه استقى من الروافد التي هيأتها بيئته زمن صباه وشبيبته ، وعلى الرغم من أننا لا زلنا نجهل الشيء الكثير عن معالم الحياة الفكرية والثقافية في تلك المرحلة ، وعن مناشط رجالها فإننا نميل الى أن أحمد الفقيه حسن قد أخذ من معطيات تلك الحياة ، ومن الأشياخ البارزين فيها من أمثال العلامة صمافوي أحمد نظيف ، والمفتي الحنفي الحافظ أحمد شكري الجزائري والشيخ حسين محمد العسوسي ، والفقيه المالكي محمد بن لاغه ، والقاضي محمد أمين والشيخ حميدة علي الصرارعي أو غيرهم[31] .

وقد قرر مترجمنا في اليوميات القليلة التي كتبها بعد وفاة أبيه وبالتحديد في اليومية المؤرخة بيوم الأربعاء 18 من ذي الحجة (1859/1276) أن الشيخ المقري الأجل محمد المحجوب ابتدأ في ذلك اليوم القاء دروسه في تفسير القرآن العظيم في جامع درغوت باشا ؛ وألمح الى أن هذا الشيخ قد ختم قبل هذا الابتداء تفسير القرآن[32] وفي هذه الكلمات والتلميح اشارة الى تتبعه واستماعه لجل هذه الدروس أو لبعضها .

كذلك تطلعنا يومياته التي سجلها على جوانب فكرية من شخصيته وهي الجوانب المتعلقة باحترامه للتصوف واعتقاده في المتصوفة على نحو ما نجده في اليومية المؤرخة بـ 19 من محرم (1859/1276) وفي اليومية التي ذكر فيها وفاة الشيخ البركة الأجل محمد بن رمضان ، واليومية المؤرخة في شوال من سنة (1859/1276) التي أشار فيها الى وفاة الشيخ سحبان[33] .

على أن الجانب الذي يعنينا في هذا البحث ، وهو « المظهر الأدبي » في هذه الشخصية ، كان هو الآخر وليد هذه المرحلة المبكرة ، ولكن عز علينا التعرف على اساتيذه الذين أخذوا بيده ، وغرسوا فيه حب الأدب في هذا الطور .

وحينما تخرج أحمد الفقيه حسن بتلك الروافد المختلفة وأنس في نفسه القدرة على الخوض في خضم الحياة الزخار ، ولج غمارها ليبدأ طوراً جديداً من الحياة ، فالتحق بالكتابة العامة للولاية ، وهي الخطة التي تماثل ديوان الانشاء في العصور القديمة ؛ وظل منخرطاً فيها عهداً ترك خلاله أطيب الأثر في أنفس بعض الولاة ، ثم رُقِّيَ في مراتب هذه الخطة فَسُمِّيَ « باشكاتب القلم العربي »[34] وهو ما كان يسمى عند القدامى رئيس ديوان الانشاء أو رئيس ديوان العلامة ؛ فكان بالضرورة مشرفاً على جميع المكاتبات والمراسلات الحكومية ، ومحبراً لرغائب الدولة والمسؤولين الى الدوائر الرسمية ، وقد مهر في هذه الصناعة ، وتخرج به فيها عدد من الكتاب والمنشئين ، ربما يقف من يعود الى وثائق ذلك العهد على أسمائهم ومقدار ما تأثروه منه .

وقد بقي الشاعر في هذا المنصب مدة طويلة من الزمن قاربت الربع قرن تقريباً[35] ثم عرضت عليه بعدها رئاسة البلدية فرفضها لأسباب خاصة دل عليها حفيده في ترجمته له .

وفي الحق أن أحمد الفقيه حسن (الجد) لم يكن أثناء توليه الوظائف التي تقلدها بعيداً عن ممارسة اهتماماته الأدبية ، أو بمنأى عن الحياة الثقافية والفكرية التي أخذت في التنامي والظهور ليس في مصر وتونس فحسب ، بل في بلاده التي صارت تشهد حركة علمية نشيطة ، وقد اتصل بتلك الحياة ـ كما هدانا البحث ـ من طريقين : ـ

1 ـ طريق الصلات الشخصية بالاعلام والادباء الذين عرفهم في موطنه ، سواء أكانوا وافدين كالشيخ ابراهيم سراج المدني الذي مدحه بأبيات ، ولكنه لم ينخرط ـ كما تشير الوثائق ـ في حركته وقضيته[36] والمستشرق الفرنسي شارل فيرو الذي كانت تربطه به صلة[37] ، والعلماء والأدباء الوطنيين من أمثال المؤرخ أحمد النائب[38] وغيره ممن سنشير اليهم فيما بعد ، أو الاعلام الذين لقيهم في البلدان التي رحل اليها .

2 ـ وطريق القراءة ومطالعة الكتب الأدبية واللغوية المخطوطة والمطبوعة التي احتوتها مكتبته البيتية الخاصة ، إذ كان من المعدودين في ذلك الوسط بحب الدرس ، ومؤانسة المظان المهمة ، فقد قرأ في كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، والحماسة للخطيب التبريزي ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والكامل لأبي العباس المبرد ، والمراجع المهمة في أدب الأندلس وتاريخها مثل كتاب « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان ، والدواوين الشعرية في الأدبين التركي والفرنسي .

وينبغي ألا نغفل ذكر مصدر آخر من المصادر التي غذى بها وجدانه الأدبي أعني اطلاعه على الفن المسرحي ، الذي أبدعه أحد رواد هذا الفن مارون النقاش[39] ، الذي ترك آثاراً أفاد منها شباب ذلك الجيل من الأدباء والفنانين .

وقد رأيت من الآثار التي كان يحتفظ بها شاعرنا ويطالع فيها « أرزة لبنان » من تأليف ذلك الرائد ،

في مخطوط مكتوب بخط مغربي أندلسي في كراسة ، تتضمن نبذة من كلام المؤلف في علم العروض ، ومخمّسات صنعها مارون نقاش نفسه[40] .

ولسنا ندري كيف حصل أحمد الفقيه حسن على هذا الأثر المسرحي؟هل اقتناه في أثناء أسفاره أو أهدي اليه ؟ أو كلف احد الناسخين بنسخه؟ أو أنه سهر بنفسه على نقل مسرحياته الكثيرة ونسخها ؟

وسواء أكان هذا الأمر أو ذاك ؛ فان عنايته باقتناء هذا المخطوط المشتمل على هذا اللون الأدبي المستحدث في ذلك الزمن المبكر ، يدلنا على مدى تفتح وجدانه الأدبي والفني لقبول كل ابداع وابتكار ، وخلوص روحه من قيود التحرج المفتعل الذي يضيق بكل جديد ؛ كما يدلنا من ناحية ثانية على تجاوب بعض أدباء ليبيا مع التيارات الأدبية المستحدثة .

على أننا لا نحب أن نغالي في الاشادة بهذا « الوجدان الأدبي المتفتح » خشية أن تنسينا طوابع المحافظة والتقليد التي تطل من خلال أعماله التي سوف نعرض لها بالدرس . إذ من الثابت أن أديبنا انساق كالادباء المحافظين وراء مفهوم الأدب السائد خلال القرن الماضي ، الذي كان يُعنى فيه الأدباء بكثرة المحفوظ من القصيد والاخبار والملح والمبادهة بالطرائف في المجالس والمنتديات ، إذ لا يتمثل معنى الأدب والشاعرية في شيء بقدر تمثله في « اللباقة ، وذرابة اللسان لأنها قبل كل شيء صناعة كلام ، وتنميق ألفاظ ، وبراعة في المساجلة والافحام »[41] ، ولذلك يمكن أن نذهب الى القول ـ انطلاقاً من هذا المنظور ـ أنه حفظ من تلك الكتب المشرقية والمغربية قدراً غير قليل من روائع المنظوم والمنثور ، واختزن ذهنه بدائع الاخبار والطرائف ، التي يعد من يتحلى بها في عداد الأدباء ، يؤيد هذا المذهب ويدعمه ما ذكره الشيخ الطاهر الزاوي من أن السيد أحمد الفقيه حسن (الجد) أكب « على كتب الأدب والتاريخ استذكاراً وحفظاً ؛ فلا يكاد يُرى الا في مجلس علم ، أو ندوة أدبية يفيد ويستفيد »[42].

وليس ثمة شك في أنه عاش في سعة بفضل ما ورثه عن أبويه من رفاهة عيش ؛ وبما أضافه لذلك التليد من طارف سعى اليه بهمته ، ويبدو أن هذه الحياة الرخية قد أخذت به في فترة مبكرة من حياته كما أخذت بصديقه الأديب مصطفى بن زكري[43] الى صور من القصف والبطالة ، فغشي بعض المنتديات المنفلتة وراقه ما كان فيها من فنون ، على نحو ما يدلنا تصويره للرومية التي بهرته بتلعيباتها ، وافتتانه « برشيق القد ذي الهيف » .

ومن مظاهر ما كان ينعم به هذا الشاعر من خصوبة العيش واقبال الحياة ، كثرة عقاراته التي كانت تدر عليه عطاءها وتساعفه بطلبته وقد كان من بينها منيته الشجراء الخضراء المزهوة بغروسها وأزاهيرها بين منى « سكره »[44] وهي المراح الذي كان يسعد بظلاله ، ويأنس فيه مع أحبائه من العلماء والأدباء والظرفاء .

في تلك العشايا والأماسي الصيفية والربيعية الجميلة ، كان يعقد الشاعر أسماره وجلساته فيلتقي

بنخبة من الفضلاء الاصفياء أمثال الشيخ عبد الرحمن البوصيري ، والاساتذة محمد فريد باشا ، وعبد الرحمن نور الدين ، وأسعد بك ومصطفى بن زكري ، وابراهيم الزمرلي وغيرهم من المثقفين العرب والأتراك ، ممن ارتشف معهم رحيق الامتاع ، وشهد المؤانسة ؛ وفيما وصلنا من أشعاره قطوف دانية ، تصور بجلاء روعة تلك المجالس. من ذلك أنه اجتمع ذات يوم مع بعض خلصائه « فريد باشا » والشيخ عبد الرحمن البوصيري ، والشيخ خليفة البلبالي ، فجرت بينهم هذه المساجلة التي تدل على ذوق الجماعة وما كانت تعمر به ندواتهم من مطارحات رائعة ؛ قال أحدهم مستجيزاً[45] ؛

رشـأ صـاد فـؤادي   بـسـهـم قـد رمـاه

فاجاز الثاني : -

دمـع عـيـني صـار واد   لست أدري قـد رمـاه

فقال الثالث:-

خـالـه سلطان حسن   فـوق كـرسي الخـدتـاه

فقال الرابع:

وبـجـفـنـيـه جـنـود   حـاجـبـاه حـاجـبـاه

ويدلنا القدر القليل الذي بلغنا من أشعاره على أنه كان أديباً ظريفاً ، محباً للقفشات يقولها عنه غيره ، أو يقولها عنهم مهما اختلفت منازلهم وأقدارهم في دنيا الناس ؛ فنحن نراه يتهكم بالوالي سامح باشا أحد الولاة الضعاف المضطربين[46] فيصوره لنا في لقطة نادرة عندما تألبت عليه الأهالي فثاروا ضده وشكوه الى الدولة ، ثم ازدحموا حوله ذات يوم وأزعجوه : -

قـد ازعـج الأمـير أن   أتـتـه نـاس تـشـتـكي
وانـحط مـن كـروسـة   قـد كـان فيهـا متكي
وسـد بـابـاً فـدعـا   بـالـضـابـطه تـداركي
وصـار في حـيـرتـه   مـثـل عـلي الـنـمـكـي
فـذاتـه وقـولـه   كـفـعـله المـرتـبـك

وهي لقطة ساخرة رسمها عن قرب لذلك الحاكم المأزوم .

ولا ريب في أن هذه الأبيات التهكمية قد أثارت ضحك أصحابه ومن سمعها من البلديين الذين أدركوا عهد هذا الولي . كذلك نطالع في نصوصه ما يفيد انتقاده ومداعباته مع أصحابه وفيهم ذوو المقامات ، فيقسو عليهم في مودة ظاهرة وقديماً قيل « وقد يؤذي من المقة الحبيب » .

يحكي رواة أخباره أنه اجتمع في أحد الأيام بثلة منهم ، وكان من بينهم « الطيب » و « أسعد » و « أشرف » وطاب لهم المجلس فجنحت روحه الى المعاتبة فعرَّض بهم جميعاً في أبيات من التورية المرتجلة الرقيقة : _[47] .

حكامنا ما أنصفوا والكلب منهم « أشرف »
إن كان فيهم «طيب» فأصله لا يعرف
أو كان فيهم « أسعد » فهو الشقي المسرف

وأحسب أن ما كان يجري في هاتيك اللقاءات الاخوانية لم يكن محصوراً في هذا الضرب من أدب المنادمة والظرف ، بل امتد الى ما وراء ذلك من قضايا علمية وفكرية وسياسية ؛ إذ كان رواد مجالسه من العلية المبرزين .

ومن المظاهر الايجابية في يسر حياته ، أن أتيحت له في القرن الماضي فرصة الترحال والسفر ، التي قوى بها معرفته ، وأضحت رافداً من روافد ثقافته ، إذ اطلع على الوان الحياة وتنوعها في بلدان عربية وأوروبية عندما سافر سنة (1880/1298) الى باريس التي اطلع فيها على مظاهر الحضارة والعمران ، ووقف على المعالم الشاخصة كبرج « ايفل » ومتحف « اللوفر » والمكتبة الوطنية ، وقد عثر في أثناء اقامته فيها على رحلة ألفها أحد الكتاب الفرنسيين فاستهوته ، وأغرته بعد وصوله الى وطنه بترجمتها[48] .

يقول حفيده : «وقد سمعت من أحد شيوخ الأدب ان هذه الرحلة ، اشتملت على كثير من البحوث فيها يتعلق بالآثار التاريخية والمعمارية والفنية بولاية طرابلس ، وفضلاً عن ذلك ، فيها مواضيع تتعلق بأحوال الشعب العربي الاجتماعية في هذه البلاد الطرابلسية ، ووصف شامل لما كانت عليه الادارة في ذلك التاريخ »[49] وقد ضاعت هذه الرحلة المترجمة بأسلوبه ، فضاع معها جهد أصيل ورائد من جهود روادنا وأدبائنا ، ثم زار ايطاليا ؛ فراقه فيها ذلك العمران ، وما تكتسي به من جمال الطبيعة ، وحلَّ بدار الخلافة العثمانية « اسطمبول » فبهر بالروعة التي تملأ شطآنها والبهاء الذي يطل من مآذنها وقبابها ، والهيبة التي تسكن كل ناحية من نواحيها ، ولسنا ندري هل حركت تلك المشاهد الحسان شاعريته فابدع شعراً أو أنه اقتصر على الاعجاب والانبهار ؟ .

ومضى شاعرنا في تطوافه الذي أراد به المعرفة والاطلاع بل التعبد ؛ فزار بعد ذلك الحجاز وأدى فريضة الحج ، ومتع ناظريه بمرأى الحرمين الشريفين ، ثم عاد الى مصر مجمع الحضارات ؛ فأخذه ما يأخذ زائرها من انسياب النيل وخريره ، وآثار الماضي وقداسته ، واتصل ببعض العلماء والأدباء ممن بلغته شهرتهم ، أو سمع بهم من أستاذه محمد كامل ، واقتنى بعض الدواوين والكتب التي طبعت يومئذ في القاهرة[50] .

كذلك اشتمل ثبت رحلاته على رحلة قام بها الى تونس الخضراء ، التي سحر بجمال أراضيها

وحسن روابيها ، وإن لم يسجل لنا شيئاً عن مغنى من مغانيها .

ولا خلاف في أن تلك الرحلات في البلاد العربية والبلاد الغربية ، قد أضافت لثقافته ولوجدانه زاداً ، وفتحت نوافذه على عوالم جديدة ، وقد كان بمكنته أن يتحف الحياة الثقافية في ليبيا ـ بفضل الروافد التي ساهمت في ملكاته مجتمعة ـ بالكثير من وجوه الاصلاح والاثراء لولا طبيعة تكوينه الهادئة المنكمشة التي كانت تؤثر السلامة والانطواء ، ولولا ان اخترمته المنيّة ولما يكمل الخامسة والأربعين من عمره ، إذ سرعان ما دب الى هذه الزهرة الذبول ، وسرى الجفاف الى عودها الغض الرطيب ؛ فتوفى سنة (1886/1304) ودفن في بلاده طرابلس ،وقدرثاه صديقه الشيخ البوصيري بأبيات أثبت فيها ذلك التاريخ : (١)

يا قبر اسعد بالذي شقيت به — كل الأنام وألبست ثوب الحزن
يا قبر قد غيبت تحتك من يصـــدم فقده أكبادنا دوم الزمن
ومبشر الرضوان جاء مؤرخاً — جنات عدن أسجلت لابن الحسن

شعره :

إن الأثر الوحيد الذي نتوجه إليه بالدرس والتقويم من آثار المترجم هو النصوص الشعرية التي سلمت من الضياع ، أما بقية آثاره الأخرى فليس عندنا منها شيء نعتمد عليه ، لقد ضاعت ترجمة الأديب وتعريبه لرحلة أحد الكتاب الفرنسيين- كما ألمحنا ـ وضاعت معها أيضاً « السفينة الأدبية » التي ألفها على نمط ووزان سفينة الشيخ شهاب الدين المكي[51] التي جمع فيها ما كانت تتغنى به الخاصة والعامة في عصره من موشحات وقصائد ومقطعات ، ولعل مترجمنا أطلع على سفينة شهاب الدين أثناء رحلته الى مصر فاقتناها ، وألف على شاكلتها سفينة أدبية تحتوي ـ كما أشار حفيده ـ « على مجموعة من الأغاني والموشحات من نظمه »[52] . لقد فقد هذا الأثر ، وفقد معه شعر آخر للمترجم ، وربما كان من حسنات هذا البحث أنه استطاع أن ينقذ ما أمكن انقاذه من النصوص التي تعين ـ دون شك ـ على تصور حياة قائلها ، والمذاهب الفنية التي كان يعالجها[53] .

والانطباع العام الذي توحي به النصوص ـ التي أوردها مترجموه من قبل والتي سيضيفها هذا البحث ـ أنها تؤكد في مجموعها على الحياة التي كان يحياها الأديب ، وتصور في أمانة ما كان ينعم به من خصب وسعة ويسر إذ كان في طور من أطوار حياته فتى غزلاً يهيم بالحسن ويتبعه ، ويتفنن في تصوير مرآئيه وأوضاحه ؛ يروقه الخد الأسيل ، والطرف الأدعج الفاتن ، ومن شواهد أشعاره وأغزاله قوله :

ورد الخدود على نسرينه زاهي — لذاك لقبه العشاق بالباهي
قال العذول تسلى بالعذار بدا — فقلت قد زانه والله والله
بدر التمام تمنى أن يضاهيه — فقلت تتعب نفساً فاحك أو ضاهي

والشاعر ـ بتأثير بيئته ـ رقيق في أوصافه ونسيبه ، سمح في تصوير معشقته ، بالغ حدّ الروعة في تشبيهها بنفح الطيوب والأزاهر يقول في احدى مقطعاته[54] :

الخد ورد وذاك النبت ريحان ... والريق خمر وذاك الطرف سكران
وخاله عنبر قد حار من عجب ... في روضة الحسن فهو الدهر حيران
من النصارى رشيق القد ذو هيف ... بمهجة الصب فتاك وطعان
لا تعجبوا من شقائي في محبته ... فطرفه الأدعج السحار فتان

ويظهر أن الشاعر كان مولعاً بالحسناوات الروميات ، يروقه منهن الدلُّ ، وتجذبه نحوهن الفتنة السابية ، ومن قصائده الغزلية المفصحة عن هيامه بتلك الغانيات ، وعن اختلافه على دور القصف ، أبياته الواصفة : [55] .

رومية بهرت بتلعيباتها ... فاقت بحسن شمائل أخواتها
السكر في رشقاتها والموت في ... رشقاتها والسحر في لحظاتها
والذعر في خطراتها والويل في ... لفتاتها والوصم في غمزاتها

والشاعر ـ في غمرة ذهوله ـ لا يقف في تصوير هذه التجربة الذاتية عند بيان جامد ملفق ، أو يقتصر على تشابيه مصنوعة ممجوجة ، وإنما تتداعى مشاعره وعواطفه وتتراسل مع وعيه ؛ فيختار الكلمات الدالة الموحية ، والتقسيمات الداخلية المتلاحقة ، المتابعة يتابع بها حركة المشهد المتحرك الذي ترميه أوضاحه بالفتون من كل جانب فيرسمه ببراعة[56] :

فتانة فتاكة قتالة ... لكن تعيد الروح من عطفاتها
فإذا رنت شزراً اليك بعينها ... فاحذر طعان الهدب من كسراتها
قامت قيامتنا بها إذ شمرت ... عن ساقها وتحسرت بحلاتها
وعتت عليَّ وما رعت لي ذلتي ... فغدت حشاي الحرقُ منهوباتها
قامت تبختر كي ترينا لعبة ... لم تدر أن الموت في حركاتها
فسقى الحياء خدودها فتوردت ... وجرت بقيته ببرد لماتها
الله أكبر ما أتم جمالها ... قد كلَّ وصفي عن حميد صفاتها
الله يعلم ما ألاقي في الحشا ... لما توارت في مقاصيراتها

لقد استطاع أن ينقل الينا في تلك الأبيات المكتنزة بالموسيقى « تجربة ذاتية » وهي تجربة انسان وجد من الفراغ والشباب والجده ما سوغ له الذهاب الى ذلك المرقص ، حيث أخذ عليه حسن الراقصة اللعوب مجامع قلبه ؛ فصور ما رأى في تلك المجالس اللاهية وما أحسه من فؤاده المدله في دقة وصدق ، والأبيات الى ذلك كله حفيلة بالايحاء والتصوير. ونحن نعجب لحكم الدكتور طه الحاجري ، الذي رأى فيها بالرغم

مما تفصح عنه من « تجربة ذاتية » ضرباً من « اللهو الفني » بل نعجب لما حكم به على قصيدة كهذه زاخرة بالتصوير الذي ينم عن المشاهد والخلجات من أنها « صورة ملفقة استمدت أجزاءها ، وأسلوب صياغتها من بعض صور الشعر في العصور المتأخرة»[57]، على أننا لا ننكر أن الشاعر أحمد الفقيه حسن قد نظم ـ في النماذج التي وصلت الينا من شعره ـ صوراً حاكى فيها الأشكال والموضوعات الرائجة في العصور المتأخرة ، ومارس ذلك اللون من « اللهو الفني » الذي عده الدكتور الحاجري من « عبث المترفين » ولكن وجود شيء من ذلك ، لا يجعلنا نعمم الحكم على سائر نتاجه . وشبيه بهذه القصيدة التي قالها في « الرومية الراقصة » قصيدة أخرى في الأدب العربي الحديث ، وصف بها الشاعر الأحيائي محمود غنيم « راقصة » كالتي وصفها شاعرنا[58] وفي النصين ابداع فني ، ورسم دقيق بالكلمات ، وغنائية سارية في هيكل النص .

وقد فشا في أدب الدول المتتابعة ، وبخاصة في العصر العثماني الذي عاشه الشاعر النتاج الأدبي الذي يماثل طبائع تلك العصور الجامدة ،الطافحة بالبطالة واللهو[59] وليس ثمة ريب في أن خلو تلك الحياة من المثل الكبرى والقضايا الضخمة وغلبة الفراغ والرخاء على الحياة الخاصة ، قد أدَّيا به وبالكثير من معاصريه الى الإكثار من معالجة ما كان يعرف عند أهل عصره بـ « الأدب الأخواني » أو « أدب التسلية » الذي يعده الناقد « كروتشيه » أحد الأقسمة الأربعة للتعبير الأدبي[60] .

وهذا الضرب من التعبير ، يجنح في مجمله الى التسرية والامتاع والمنادمة وادخال لحظات من السرور على الجلساء ، وقد ساد هذا الأدب في عصر الشاعر سيادة غلبت على الأنواع الأخرى من الأدب ، ويمكن أن نمثل لهذا الاتجاه من شعره ، بالرسالة الطريفة التي بعث بها الى صديقه الشيخ ابراهيم الزمرلي ، لما أرسل الشاعر بولده للقراءة عليه[61] يقول مترجمنا :

يا هماماً حوى المحاسن طراً	والمعالي ويا سميّ الخليل
جاءك ابني على غلاظة طبع	أرتجي منك هديه للسبيل
فتكرم وجد عليه بصفح	قد جعلت الوداد فيكم رسولي

وأردف تلك التحية بهذه الجمل النثرية المثقلة بالتورية بالمصطلحات النحوية : « إن معذرتي اليك في غباوة المذكور ، يقوم بها صغره ، وإذا تكرمتم برفع مقامه تعليًا وتأديباً ، من خفض الجبلة الأصيلة فأنتم الذي رفع قدركم بالابتداء ، وصلة كل عائد يرجوكم المعذرة والسلام » .

وقد أجابه الشيخ ابراهيم الزمرلي بأبيات تشير الى مكانة مترجمنا الأدبية عند أهد زمانه :

يا أديب الورى وفخر البلاد	حرت في معجزاتكم من دليلي
ظهرت منكم عروسة فكر	ضمها عبدكم بوقت الأصيل

رفعت بالوداد حالة خفض فتلتها عوامل التفضيل
كلما أنشدته لي حق هذا النجل فرض علي والتنزيل
وهو لا غرو إن دنا لارتفاع وازدياد لأنه من نبيل
أرتجي خالق البرايا بذل أن يرى في العلا عديم المثيل

كذلك يندرج ضمن هذا المذهب أبيات أخرى قالها في مناسبات مختلفة ؛ فقد سئل أن ينظم أبياتاً تكتب على أواني الطعام ـ وهذا ضرب قليل في الشعر الليبي الحديث ـ فقال في ربيع الآخر سنة (1877/1294)[62] .

أمولاي إني على ما ترى جمعت على الود أهل الصفا
تفضل وسم ففيها رووا طعام المحبين فيه الشفا

وشبيه بها بيتان طريفان نظمهما ليكتبا على كأس اشتراها عبد الرحمن أفندي صدقي ، والأمين أفندي عندما خرجا للتخريص[63] في 10 من ربيع الثاني (1878/1295)[64] .

إذا قبلتك شفاه الأمين ودرت على ذينك الصاحبين
فقومي مقامي بتقبيله على ذلك الثغر تقبيلتين

ومن استدراكاته البارعة ، المشيرة إلى مراعاته للمواضعات والتقاليد والى التزامه الدقيق باختيار الألفاظ والكلمات ، قوله لما اطلع على بيتين كتبهما أحد أخوانه من الشعراء ، ذاكراً فيهما قوله « قلدني قلائد عقيان » مشيراً الى كتاب «قلائد العقيان» للفتح بن خاقان ، فأخذ عليه شاعرنا ذلك بقوله[65]:ـ

لقد أخجلتني من نظامك جملة بقولك قلدني قلائد عقيان
فتقليد عقيان ولبس أساور صفات نساء لا تليق بذكران
فهل لا رعاك الله قلت برقة أعرني يا حسان قلائد عقيان

وتلك لمحات واضحة الدلالة على الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها والى الذوق المهذب الذي يراعيه.

فإذا انتقلنا بعد ذلك الى مظهر الصنعة والتصنيع في آثاره التي وصلت الينا من شعره ، نلمس حشداً هائلاً نجد فيه تفسيراً دقيقاً لقلة انتاجه الشعري ـ بالرغم من جودة الطبع فيه ـ ويتضح لنا منه أن القريحة الشعرية الجيدة ، والغنائية المؤثرة ، كثيراً ما يجني عليها أصحابها بما يأتونه من التعمل والاغراق في التصنع .

نجتزىء ببيان مظهر الصنعة التي جارى بها ذوق عصره وجارت على فنه بأبياته التي جعل فاتحتها « ولقد ذكرتك » والتخميس الذي خمس به قصيدة ابن الفارض ، وأبياته التي صنع بها فن « المشجر » ففي ذلك ايضاح لما أومأنا اليه .

لقد عرفت في الشعر العربي القديم ـ كما هو معروف ـ أبيات كثيرة حرص فيها الشعراء على أن تكون مبتدئة بقولهم « ولقد ذكرتك » وفيها يخاطبون المعشقات ـ حقيقيات أو متخيلات ـ بما يدل على شوقهم ووجدهم ، في أصعب الظروف كقول عنترة العبسي يخاطب عبلة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وإذا كان قول عنترة وغيره قليل ـ قد جاء معبراً عن أحاسيس صادقة نحو صاحبته في مواقع النزال ـ فإن الشعراء المتأخرين اتخذوا من تلك الفواتح قوالب هازلة ، لا تعبر عن شعور وإحساس واضحين وأخالني لا أبعد ، حينما أضع شاعرنا ضمن هذا الفريق ، وأظنني لا أعدو الصواب أيضاً حينما أجعل كل أبياته في هذا الشكل في دائرة الصنعة المتطرفة ، واليك ما وقفت عليه من أقواله[66] .

ولقد ذكرتك والدوائر فتحت ... أبوابها وتجمع الكتاب
وغدا الخليل محدثاً لخليله ... ولديّ دون من اصطفيت صحاب

* * *

ولقد ذكرتك عند كل زيارة ... للصالحين برقة وخشوع
وسألت ربي أن يردك مسرعاً ... حتى تعجل نحونا برجوع

* * *

ولقد ذكرتك والبيادق صففت ... بالنرد والشطرنج وقت طراد
فهمت عيوني عندها وتيقنت ... أن الفراق مفتت الأكباد

* * *

ولقد ذكرتك عند كل خلاعة ... جمعت من الصولي والصولات
فعسى تعود كما عهدت مسارعاً ... وتطيب من لقياكم أوقاتي

* * *

وأنت لست في حاجة الى كبير تأمل لتعرف التعمل في تلك الأبيات فهي نظم قصد به المجاكاة ، ولا يحمل في طواياه عواطف ولا تصويراً ولا ايحاءً ، كما أنه لا يحوي كبير معنى ، وغاية ما يمكن أن يحمد به ، أنه صالح لتزجية أوقات الفراغ في مجالس المنادمة والظرف .

وقد عنى شعراء الدول المتتابعة ـ وبخاصة شعراء العهد العثماني ـ بالاغراب في أشكال الشعر ؛ فبنوا أشعارهم على التشطير والتخميس وعلى الشعر الهندسي بتعقيداته ومحبوك الطرفين والتشجير ، وغير ذلك من الأشكال المصنوعة[67] التي كثيراً ما يختنق الفن في داخلها ، والغالب على الظن أن أحمد الفقيه حسن خضع لذوق عصره ، ونظم في بعض هاتيك الأشكال المعقدة ، تحقيقاً لمفهوم الأدب والشعر في

عصره ، وارضاء لأذواق الأدباء الذين عايشهم ، وبين أيدينا نصان يفصحان عن خضوعه لذلك المفهوم ، ويدلان على تأثره بأشكال الصنعة الغالبة على الأدباء وشداة الأدب ،النص الأول يندرج ضمن فن « المشجر أو التشجير » والنص الآخر يدخل في دائرة « التخميس » .

والمشجر « نوع من النظم يجعل في تفرعه على أمثال الشجرة ، وسُمِّيَ مشجراً لاشتجار بعض كلماته ببعض ، أي تداخلها »[68] وينبني هذا المشجر كما في مشجر أحمد الفقيه حسن على بيت رئيس بمثابة الجدع وهو قوله :

يـا مفرد الحسن مـا أنصفت ذا حـرق وفِّ بـوعـدك حتى صـار كـالعـدم

ثم يفرع الناظم عن هذا الجدع عدة أبيات أخر من الميمنة والميسرة يتم بها الاشتجار ، على أن تكون قافية الفروع جميعاً مطابقة لقافية البيت الرئيس وهي هنا « ميمية » ، واليك المشجر[69] :

وهذا النوع من النظم قليل في شعر أدباء العربية في ليبيا ولم أجد منه الا هذا النص ، ونصاً آخر للشيخ عبد الله يحيى الباروني[70] .

وأحمد الفقيه حسن ، لم يستطع ـ بالرغم من سلامة طبعه وسليقته ـ أن ينفك من « التخميس » ، على أنه وإن ارتقى هذا المرتقى المتكلف ، قد أتى فيه بالرائع الذي يتعذر على النظامين والعروضيين. فقد استطاع ـ في النص الوحيد الذي أورده دارسوه[71] ـ أن يخلط أنفاسه بأنفاس صاحب الأصل ابن الفارض وقدر على أن يمزج الصورة الذهنية الروحية بالصورة الأدبية الفنية ، وهذا هو تخميسه :

شوقي بديوان السلوك تسطرا وحقيقتي دقت فكادت لا ترى
يا منية المشتاق من دون الورى زدني بفرط الحب فيك تحيرا
وارحم حشى بلظى هواك تسعرا

فالذات أضحت بالدموع غريقة وهواك علمني البكاء طريقة
فارحم فقد صارت حشاي حريقة وإذا سألتك أن أراك حقيقة
فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى

قلبي حريص في اللقاء لبعدهم والنوم فارق مقلتي من بعدهم
لا تجزعن فعساك أن تحظى بهم يا قلب أنت وعدتني في حبهم
صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا

الحب صعب إن سلكت بسربه فاشدد عراك إذا أقمت وسر به
يا قلب إن ناداك ويحك لَبِّه إن الغرام هو الحياة فعش به
صباً فحقك أن تموت وتقبرا

وكم كان رائعاً ومفيداً لو خرج هذا الشاعر المتميز بحياته ومواهبه من أوقار الصنعة ، وأنفق جهده في تجارب شعرية تعبر عن شخصيته ، وتصور بعفوية أشواقه الخاصة ونفسيته .

وربما كان من المفيد أن أقرر في ختام هذا البحث أني لم أطلع من آثاره الشعرية على غير القدر الذي أشرت اليه وعزوته الى المراجع المثبتة في الهوامش ، أو الذي أطلعني عليه حفيده[72] الشاعر ، ونقلته بكاملة ما عدا قصيدتين قالها في تهنئة السلطان عبد الحميد الثاني ومراد ، وأبيات مدحية قالها في ابراهيم سراج الدين المدني ، فاتني أن أنقلها[73] .

وبعد ، فاننا لا ننكر ـ من خلال النماذج التي عرضناها ـ تلك الصحوة المبكرة في اهتمامات الأديب أحمد الفقيه حسن وآثاره الشعرية ونذهب ـ بعد أنعام النظر في آفاق سيرته الذاتية وأعماله الأدبية ـ الى ما نراه من وجوه الشبه بينه وبين الشاعر المصري الرقيق إسماعيل صبري ، الذي حكم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد على أدبه حكمًا ينسحب بداعي المشابهة على شاعرنا ، نورده ليكون خاتمة هذا البحث ، يقول الأستاذ العقاد في ميزانه الدقيق « وإن شئت فقل إن أدب الرجل كان أدب « الذوق » ولم يكن أدب

النزعات والخوالج ، و « أدب السكون » ولم يكن أدب الحركة والنهوض ، و « أدب الاصطلاح الحسن ». ولم يكن « أدب الابتكار المستكشف الجسور »[74] .

الهوامش

(1) أعني مجالس العلامة الشيخ محمد كامل بن مصطفى مفتي طرابلس وباعث الحركة العلمية فيها ولد سنة (1828/1244) وتلقى تعليمه في بلاده وفي مصر ، ثم عاد سنة ـ (1835/1270) ليساهم في اثراء الحياة العلمية والثقافية ، وفي اظهار طبقة من العلماء والصلحاء ، وقد تولى مهمة الافتاء سنة (1893/1311) وألف كتاب مجموعة العبد الذليل على ربع أنوار التنزيل ،والفتاوى الكاملية في الحوادث الطرابلسية ، وقد توفى سنة (1897/1315) أنظر محمد مسعود جبران « محمد كامل بن مصطفى وأثره في الحياة الفكرية في ليبيا ـ الجماهيرية ، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي .

(2) كتبت عن أحمد الفقيه حسن (الحفيد) المولود سنة (1894/1312) والمتوفي سنة (1975/1395) كتاباً مستقلاً بعنوان أحمد الفقيه حسن حياته وأدبه ، نشرته الدار العربية للكتاب سنة 1975 .

(3) أنظر تفاصيل ذلك في شارل فيرو « الحوليات الليبية » تعريب د . محمد عبد الكريم الوافي ـ طرابلس ـ المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان . اتوري روسي « ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911 » ترجمة خليفة محمد التليسي ـ لبنان ـ دار الثقافة ، كوستا نزيوبرنيا « طرابلس من 1510 الى 1850 » تعريب خليفة محمد التليسي ـ طرابلس ـ دار الفرجاني .

(4) علي الفقيه حسن « ترجمة السيد أحمد الفقيه حسن » مخطوطة .

(5) يتعلق نسبها ـ كما هو مثبت في شجرة النسب المحفوظة عند الأسرة والمكتوبة سنة (1894/1312) والمسجلة بمحكمة الخمس ـ بسبط الرسول الحسن بن علي بن أبي طالب .

(6) كان من التجار المشهورين في طرابلس في القرن الثامن عشر الميلادي ، وقد عاصر طائفة من عهد يوسف القره مانللي ، وتوفي سنة (1811/1226) أنظر حسن الفقيه حسن « اليوميات الليبية » تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر الجماهيرية ـ مركز دراسة جهادالليبيين ضد الغزو الايطالي ، المقدمة ص 18 .

(7) هكذا أثبت المترجم نسبه في الكراسة المخطوطة بشعبة الوثائق والمخطوطات في مركز جهاد الليبيين .

(8) أنظر علي الفقيه حسن « ترجمة السيد محمد الفقيه حسن » ص 1 مخطوطة .

(9) هكذا أثبت اللفظ الأستاذ علي الفقيه حسن وذكر أن معناه في الفارسية والتركية الظريف ، وهناك من يرسمه « شلابي » وهو الشائع على السنة الناس ولكن الأستاذ اسماعيل كمالي كتبه في كتابه « وثائق عن نهاية العهد القره مانللي» ترجمة محمد مصطفى بازامة ـ بيروت ـ دار لبنان ، ص 25 هكذا « الشيلابي » .

(10) وهناك حزب آخر يطلق عليه « حزب الأهالي » يرأسه حسونة الدغيس وكان أقل أهمية في التأثير على الحياة العامة من حزب القولوغلية ، أنظر تفصيل ذلك عند ـ اسماعيل كمالي ـ وثائق عن نهاية العهد القره مانللي ص 26 .

(11) اسماعيل كمالي « المرجع نفسه ، ص 25 ، ص 26 .

(12) أنظر اتوري روسي « ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911 ، شارل فيرو « الحوليات الليبية » .

(13) حسن الفقيه حسن « اليوميات الليبية » تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر الوثيقة رقم 40 .

(14) كانت وفاته سنة (1867/1284) .

(15) « اليوميات الليبية » الوثيقة رقم 40 .

(16) الكتاب عند أهل ليبيا هو ما يسمى عند المغاربة بـ « المسيد » وعند المشارقة بـ « المكتب القرآني » وفيه يحفظ الطلبة كتاب الله أو أجزاء منه .

(17) أنظر حسن الفقيه حسن « اليوميات الليبية » الوثيقة رقم 40 .

(18) أنظر محمود ناجي « تاريخ طرابلس الغرب » ترجمة عبد السلام أدهم ومحمد الأسطى ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الأداب بنغازي . فرانشسكو كورو « ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني »ترجمة خليفة محمد التليسي ـ طرابلس/ليبيا ـ دار الفرجاني .

د . صلاح الدين حسن السوري « تحديث المؤسسات التعليمية والقضائية والدينية في ولاية ،طرابلس» مجلة البحوث التاريخية مركز دراسة جهاد الليبيين ـ العدد الثاني، السنة الخامسة يوليه 1983

(19) أنظر علي الفقيه حسن « المرجع السابق ص 1 ، ص 2 ، الطاهر أحمد الزاوي « أعلام ليبيا » ص 74 ، د.محمد عبد المنعم خفاجي « قصة الأدب في ليبيا العربية ، ص 198 .

(20) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن موسى ولد بطرابلس وفيها نشأ وتلقى علومه التي برع فيها وقد توفى بالمدينة المنورة سنة (1885/1303) أنظر أحمد النائب الأنصاري « نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان » تحقيق علي مصطفى المصراتي بيروت ـ المكتب التجاري ـ 1963 .

(21) علي الفقيه حسن « المرجع السابق » ص 2 .

(22) أنظر ترجمته ضمن تراجم أعلام هذا الكتاب .

(23) ولد مصطفى محمد بن زكري في مدينة طرابلس الغرب سنة (1853/1270) وتوفي بها سنة (1917/1336) وهو من الشعراء المطبوعين في مرحلته ، ومن السياسيين الذين كانت لهم أدوار بارزة في تاريخ ليبيا الحديث ، وقد كتبت حول ترجمته وأدبه كتاباً تحت عنوان « مصطفى بن زكري في أطوار حياته وملامح أدبه » الجماهيرية ـ المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ـ 1984 .

(24) ولد الشيخ ابراهيم مصطفى باكير في مدينة طرابلس سنة (1856/1273) وتوفي بها سنة (1943/1362) وكان أديباً فقيهاً ، أنظر علي مصطفى المصراتي « لمحات أدبية عن ليبيا » طرابلس الغرب ـ المطبعة الحكومية 1956 ص 105 . الطاهر أحمد الزاوي « أعلام ليبيا » ص 14 .

(25) ولد الشيخ علي عياد الجنزوري ببلدته سنة (1868/1285) وتوفي بالشام سنة (1954/1374) وهو فقيه صحفي مدرس ، أنظر علي المصراتي « صحافة ليبيا في نصف قرن » .

(26) من أمثال الأشياخ مصطفى الهوني ومحمد البوصيري ونصر الدين القمي وأحمد شقرون وأحمد البكباك وأحمد العالم الكراتي ، أنظر محمد مسعود جبران « محمد كامل بن مصطفى وأثره في الحياة الفكرية في ليبيا » الفصل المعنون بـ « تلاميذه » .

(27) أنظر ملف التعليم ، دار المحفوظات التاريخية بالسراي الحمراء ، وانظر د. صلاح الدين حسن السوري « تحديث المؤسسات التعليمية والقضائية والدينية في ولاية طرابلس » مجلة البحوث التاريخية ، العدد الثاني السنة الخامسة .

(28) يوميات أحمد الفقيه حسن ، شعبة الوثائق والمخطوطات في مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي .

(29) حسن الفقيه حسن « اليوميات الليبية » المقدمة ص 19 .

(30) هكذا وصفت الكتب التي ضمنها مكتبة والده في مقدمة تحقيق « اليوميات الليبية » .

(31) أنظر سجلات المحاكم الشرعية في دار المحفوظات التاريخية ، ومحمد مسعود جبران « مصطفى بن زكري في أطوار حياته وملامح أدبه » .

(32) أنظر هذه اليوميات مخطوطة في كراستين في شعبة الوثائق والمخطوطات في مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي بطرابلس .

(33) أنظر المرجع السابق .

(34) أنظر علي الفقيه حسن « ترجمة أحمد الفقيه حسن » مخطوطة .

(35) علي الفقيه حسن « ترجمة السيد أحمد الفقيه حسن » الطاهر الزاوي « أعلام ليبيا » ص ٧٤ .

(36) أنظر تفصيل أحداث هذه القضية وما اتهم به ابراهيم سراج المدني فيها في ملف قضية ابراهيم سراج الدين في دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ، وأحمد صدقي الدجاني « ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي » وأحمد صدقي الدجاني « بدايات اليقظة العربية والنضال الشعبي في ليبيا » لبنان ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ١٩٧٧ .

(37) شارل فيرو ـ ولد في مدينة في جنوب فرنسا في ٥ فبراير ١٨٢٩ ، وتوفي في ١٩ ديسمبر سنة ١٨٨٨ صاحب الحوليات الليبية ، أنظر المقدمة التي كتبها الدكتور محمد عبد الكريم الوافي لهذا الكتاب .

(38) أحمد النائب الأنصاري صاحب كتاب « نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الاعيان » ولد بطرابلس الغرب (١٢٥٦/ ١٨٤٠) وتوفي سنة (١٣٣٥/ ١٩١٤) ومن تأليفه كتاب « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » .

(39) يعد مارون النقاش المولود في صيدا بلبنان سنة (١٨١٧) الرائد الأول الذي أدخل الفن المسرحي في الأدب العربي الحديث ، وقد اتقن النقاش دراسة علوم العربية ـ نحواً وصرفاً وبلاغة وعروضاً ـ ثم شرع في سن الثامنة عشر في نظم القصيد ، ولم يقتصر في ثقافته على ما ناله من العربية ـ بل اتقن عدداً من اللغات والعلوم الأخرى ، وكانت له رحلات فنية الى الشام ومصر وايطاليا وقد أفاد من الأخيرة كثيراً من تقاليد المسرح ، وقد توفي بطرطوس (١٢٧٢ ـ ١٨٥٥) بعد أن ترك أعمالاً متنوعة منها « أرزة لبنان » التي جمعها ابن أخيه سليم النقاش الذي كان اكثر وعياً بهذا الفن .
أنظر خير الدين الزركلي « الأعلام » بيروت ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الخامسة جـ ٥ ، ص ٢٥٣ د . محمد يوسف نجم « المسرحية في الأدب العربي الحديث ـ ١٨٤٧ ـ ١٩١٤ » لبنان دار الثقافة ـ الطبعة الثانية ١٩٦٧ .

(40) توجد هذه النسخة في شعبة الوثائق والمخطوطات في مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي .

(41) عباس محمود العقاد « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » ـ مصر ، كتاب الهلال ـ العدد ٢٥٢ ، ١٣٩١ ـ ١٩٧٢ .

(42) الطاهر الزاوي « أعلام ليبيا » ص ٧٥ .

(43) أنظر محمد مسعود جبران « مصطفى زكري في أطوار حياته وملامح أدبه » الباب الأول الطور الثاني من حياته .

(44) سكرة منطقة زراعية جميلة من ضواحي طرابلس ، وهي الواقعة اليوم في منطقة ابن عاشور وشارع الظل وما جاورهما .

(45) هذه الرواية ساقها الشيخ الطاهر الزاوي في كتابه « أعلام ليبيا » ص ٧٦ ص ٧٧ ، نقلاً عن الشيخ محمد عبد السلام ، ولكن الأستاذ علي الفقيه حسن نسبها جملة إلى الشاعر أحمد الفقيه حسن .

(46) أنظر شارل فيرو « الحوليات الليبية » ترجمة محمد عبد الكريم الوافي ص ٧١٦ .

(47) الطاهر الزاوي « أعلام ليبيا » ص ٧٥ ، والغريب أن الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي عدّ هذه الأبيات الأخوانية هجاء في بعض الحكام الأتراك أنظر قصة الأدب في ليبيا العربية ، ص ١٩٩ ، وقد تبعه الدكتور عبد المولى البغدادي في ذلك . أنظر رسالته « الأدب الليبي مذاهبه وأهدافه » .

(48) أنظر علي الفقيه حسن « ترجمة السيد أحمد الفقيه حسن » مخطوطة ، الطاهر الزاوي « أعلام ليبيا » ص ٧٥ .

(49) علي الفقيه حسن « ترجمة السيد أحمد الفقيه حسن » ص ٥ .

(50) أنظر الكراسة المخطوطة « أرزة لبنان » في شعبة المخطوطات والوثائق في مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي ، علي الفقيه «ترجمة السيد أحمد الفقيه » ص ٧ .

(51) هو الشيخ شهاب الدين الحجازي محمد بن اسماعيل بن عمر المصري ، ولد بمكة سنة (1795/1210) وعاش بالقاهرة حيث تعلم وعمل ، وكان من الأدباء الظرفاء قال الأستاذ أحمد تيمور في كتابه « أعلام الفكر الاسلامي »: وتعلق بعلم الموسيقى فبرع فيه ، وأخذ عنه كثيرون ، وجمع فيه كتاباً سماه « سفينة الملك ونفيسة الفلك » وهو كتاب جليل في فن الموسيقى والأغاني العربية » توفي بالقاهرة سنة (1857/1274) أنظر أعلام الفكر الاسلامي لتيمور ص 242 .

(52) علي الفقيه حسن « ترجمة أحمد الفقيه حسن » ص 3 .

(53) أطلعني عليها حفيده الشاعر الأستاذ أحمد الفقيه حسن في صائفة سنة 1973 ، فقمت بنسخها ، وأودعتها هذا البحث .

(54) الطاهر الزاوي « أعلام ليبيا » ص 75 .

(55) المرجع السابق ، ص 77 ، ص 78 ، د . طه الحاجري « الحياة الأدبية في ليبيا » ص 74 ، محمد عبد المنعم خفاجي « قصة الأدب في ليبيا العربية » ص 200 .

(56) الطاهر الزاوي « أعلام ليبيا » ص 77 ، 78 ، طه الحاجري « الحياة الأدبية في ليبيا » ص 74 محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب في ليبيا العربية ، ص 200 .

(57) د طه الحاجري « الحياة الأدبية في ليبيا » ص 74 ، ص 75 .

(58) محمود غنيم « ديوان صرخة في وادٍ » .

(59) راجع عمر الدسوقي « في الأدب الحديث » مصر ـ مطبعة الرسالة 1966 . د . شوقي ضيف « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » القاهرة ـ دار المعارف 1969 .

د. ابراهيم السعافين « مدرسة الأحياء والتراث » بيروت ـ دار الأندلس 1981 .

(60) د . محمد غنيمي هلال « النقد الأدبي الحديث » بيروت ـ دار الثقافة ـ 1973 . ص 382 .

(61) كانت ضمن الأوراق التي اطلعني عليها الأستاذ أحمد الفقيه حسن (الحفيد)

(62) من الأوراق التي أطلعني عليه الأستاذ أحمد الفقيه حسن (الحفيد) .

(63) الخرص : الحِرر ، أي تقدير قيمة المزروعات والممتلكات لأخذ الضريبة للدولة .

(64) المرجع نفسه .

(65) المرجع نفسه .

(66) المرجع نفسه .

(67) انظر د . عمر موسى باشا « أدب الدول المتتابعة » لبنان دار الفكر الحديث ـ الطبعة الأولى 1967 ، بكري شيخ أمين « مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني » بيروت ، دار الشروق 1972 ، أسامة عانوتي « الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر » بيروت ـ المكتبة الشرقية 1971 .

(68) بكري شيخ أمين « مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني » ص 185 ، ص 186 .

(69) من النماذج التي سجلتها من الأوراق التي أطلعني عليها الأستاذ أحمد الفقيه حسن (الحفيد) .

(70) ديوان عبد الله يحيى الباروني ، ص 85 .

(71) د . طه الحاجري « الحياة الأدبية في ليبيا » ص 73 ، ص 74 .

(72) ضاعت تلك النصوص عند وفاة أستاذنا أحمد الفقيه حسن (الحفيد) .

(73) شاعر عذب الروح ، ولد في القاهرة سنة (1866/1283) أتم دراسته في مصر ، ورحل الى فرنسا حيث نال شهادة الحقوق ، ثم عاد الى بلاده فتقلد وظائف كثيرة عالية ، وتوفي في سنة (1923/1342) ودفن في القاهرة ، وقد قام الأستاذ حسن رفعت بجمع ديوانه ، وصححه الشيخ أحمد الزين ، أنظر عمر الدسوقي « في الأدب الحديث » د . ابراهيم السعافين « مدرسة الأحياء والتراث » محمد كرد علي « المعاصرون » سوريا مطبعة دار أبو بكر ـ 1980 .

(74) عباس محمود العقاد « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » ص 29 .

الوثائق والمخطوطات

بمركز دراسة جهاد الليبيين

ضد الغزو الايطالي

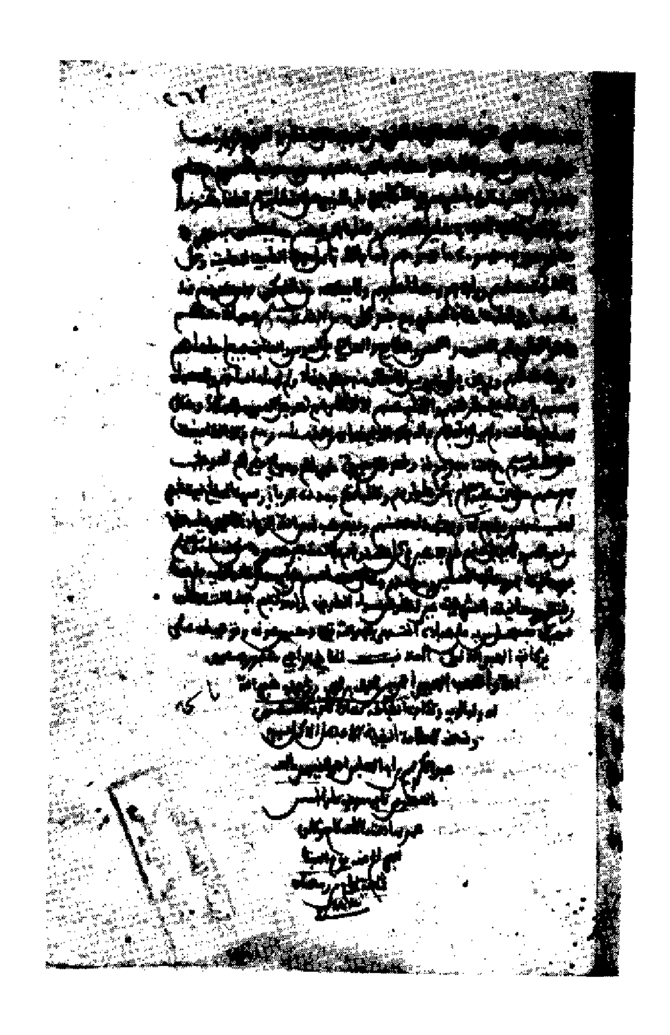
اعداد / ابراهيم سالم الشريف ـ شعبة الوثائق والمخطوطات.

تعتبر شعبة الوثائق والمخطوطات بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، إحدى شعب المركز العلمية، وقد تركزت وظائفها في جمع المعلومات المعنية من مصادرها المختلفة ووضعها في متناول الباحثين بكل يسر وسهولة.

ومما ساعد في إثراء هذه الشعبة تلك العلاقات الحسنة المتبادلة بين المركز وعدد غير قليل من المؤسسات العلمية المنتشرة في مناطق عديدة من العالم. حيث تم الحصول على أكبر عدد ممكن من الوثائق التي تخص ليبيا من دور الأرشيف العالمية.

أما عن الحصيلة الواردة من داخل الجماهيرية فقد جاءت في إطار مشروع لجمع الوثائق والمخطوطات، واكب مشروع جمع الرواية الشفويه من القرى والواحات والمدن التي تحتضن نفائس من هذا التراث، على الرغم من الظروف الصعبة والعسيرة التي تعرضت لها البلاد إبان الغزو الايطالي الذي جعل أغلب المدن والقرى الليبية في حالة بعيدة جدًا عن الاستقرار وانعكس تأثيره على التراث المخطوط والوثائق التاريخية.

إن هذا التراث الذي زهت به العصور وقدمته العقول لم يكتب له البقاء بالشكل الذي ينبغي أن يكون، و إنما توزع شمله وتبدد جمعه وتعرض للطمس والإتلاف، والدليل على ذلك ما حدث في قلعة طرابلس (السراي الحمراء) أثناء الغزو الإيطالي سنة 1911 م، حيث تعرضت وثائقها للاتلاف ومن بينها وثائق العهد العثماني الأول والعهد القرهمالي. ولولا المساعي التي بذلها أحد المستشرقين الإيطاليين لدى السلطات



الإيطالية، لما بقي بين أيدينا شيءٌ مما هو موجود الآن في السراي الحمراء، حيث قام هذا المستشرق بجهود كبيرة لدى السلطات لإنشاء مكان لحفظ الوثائق سمي « بمخزن الوثائق » حتى 1928 م، ثم صدر قرار تحت « 6076 » ونشر بالجريدة الرسمية الإيطالية العدد « 26 ويقضي بانشاء » دار الوثائق « المعروفة اليوم » بدار المحفوظات التاريخية » التابعة لمصلحة الآثار.

ولما كان من أولى واجبات المركز البحث عن مصادر جديدة وأصيلة لتاريخنا، و إتمامًا للفائدة من وراء هذا الجهد فقد حرص المركز على تحقيق ونشر كل المخطوطات التاريخية المتعلقة بليبيا، ونحن في هذا المجال لا نسعى لمجرد إقتناء الوثائق والمخطوطات وحفظها فقط، و إنما نقصد من وراء ذلك إلى الحفاظ على هذا التراث ليكون منارًا للعلم ومنهلاً لكل باحث في هذا المضمار.

العمل داخل الشعبة

نظرًا للتزايد المستمر في محتويات الشعبة، ومراعاةً لسير العمل على الوجه المطلوب، وتجنبًا للخلط بين صنف وآخر من مقتنياتها، فقد تم تقسيم العمل داخلها على ثلاثة محاور رئيسة وهي:

أولاً: الوثائق المحلية:

ونعني بها جميع الوثائق المحلية على اختلاف أنواعها وتواريخها ولغاتها، وتشمل:

ا)ـ وثائق عثمانية.

ب)ـ وثائق فترة الجهاد.

جـ)ـ وثائق الادارة البريطانية.

د)ـ وثائق العهد الملكي المباد.

ا)ـ الـوثـائـق الـعـثـمـانـيـة:

تقدر مقتنيات الشعبة منها بالآف الوثائق، حيث تحوى بعض المواضيع التي تتعلق بالبلاد باعتبارها ولاية عثمانية من جميع النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهي باللغتين العربية والتركية وتبين لنا وقوف شعبنا العربي الليبي للتخلص من هيمنة الأتراك وبخاصة في عهدهم الأخير، والدليل على ذلك زيادة حدة الثورات والاضطرابات الداخلية، وتعتبر ثورة الشيخ غومة المحمودي من أهم هذه الانتفاضات لمواجهة النفوذ العثماني في الفترة من 1835 م حتى 1858 م.

وتشمل هذه الوثائق الفرمانات السلطانية والمراسلات داخل الايالة وخارجها وشكاوى الأفراد والاتفاقيات والمعاهدات والميرى والأعشار الشرعية وغير ذلك من الأمور المختلفة.

ب)ـ وثـائـق فـتـرة الـجـهـاد:

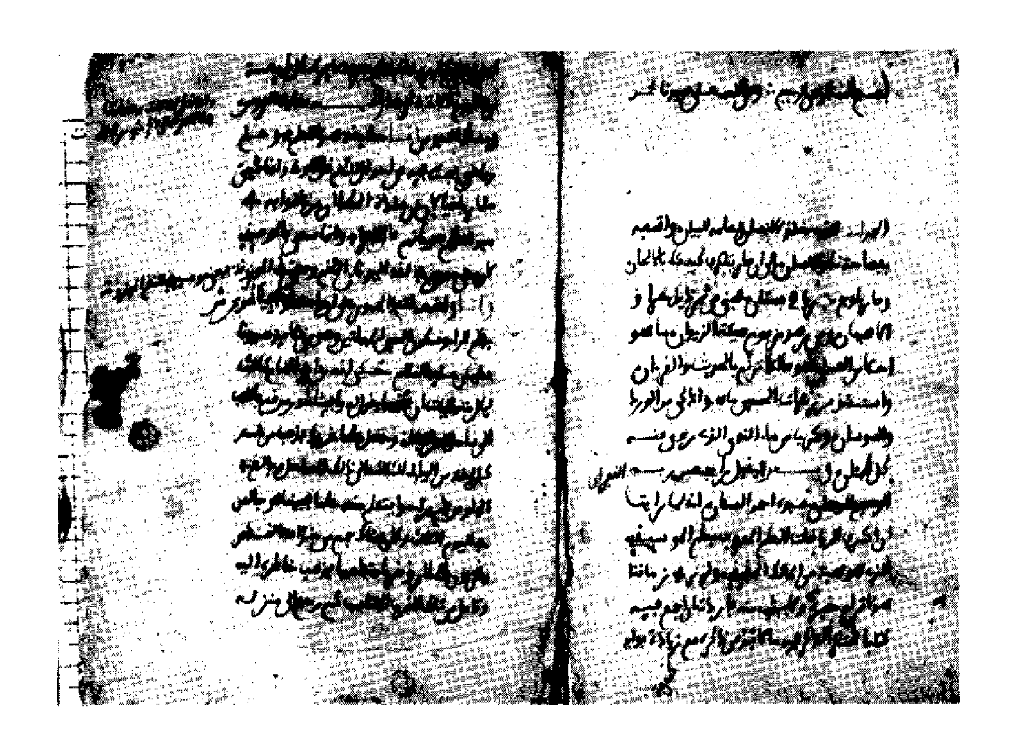
بلغت حصيلة الشعبة منها بما يقدر بـ(2500) وثيقة تم الحصول عليها من المجاهدين وأسرهم، وهي لشخصيات معروفة في تاريخ الجهاد العربي الليبي عاشته وتفاعلت معه إيجابًا أو سلبًا. وتم حفظ هذه الوثائق في ملفات شخصية وموضوعية، فيجد مثلاً ملف لعمر المختار ورمضان السويحلي والشارف الغرياني وغيرهم.. أما الملفات الموضوعية فبحسب موضوع الوثيقة يتم تصنيفها، يوجد مثلاً ملف للوثائق السياسية وكذلك آخر للاقتصادية، وللاجتماعية وآخر للّجان والأحزاب، كما يوجد ملف لقصاصات من الصحف تتناول حركة الجهاد في تلك الفترة، والكثير من الوثائق ذات القيمة التاريخية الهامة التي يتطلبها البحث.

وقد وضع فهرس لكل ملف حتى يتمكن الباحث من مبتغاه بأيسر الطرق وأسلمها.

جـ)ـ وثـائـق الادارة الـبـريـطـانـيـة

تم الحصول على وثائق تلك الفترة من أرشيف كل من / الخمس ـ زليتن ـ يفرن ـ نالوت. ونعتزم تعميم الجمع من مختلف الجهات الادارية بالجماهيرية، حيث تغطي هذه الوثائق تلك الفترة الزمنية بجميع نواحيها وشئونها، وتبين لنا الأوجه السياسية لحكم الادارة البريطانية في ليبيا منذ سنة 1943 م وحتى الاستقلال المزيف الذي أتى بحكومة العهد المباد.

وقد تمت فهرسة وثائق كل من الخمس ـ زليتن ـ يفرن، وبعض وثائق نالوت ـ فهرسةً موضوعيةً حيث أُعطي رقم لكل وثيقة، وحدّد موضوعها ولغتها وتاريخها والجهة المرسلة منها والمرسلة إليها، وأخيرًا ملخص عام للوثيقة. ويجري العمل الآن على تصنيف وفهرسة ما تبقى من وثائق نالوت، وكذلك أرشيف وزارة الزراعة



« سابقًا » وهو الذي تمكنت الشعبة من ضمه مؤخرًا إلى محتوياتها، ويضم مجموعة غنية متعددة الجوانب واللغات، وتعد إثراءً ملحوظًا لمحتويات الشعبة.

ويبين هذا الكشف ما تمت فهرسته من وثائق الادارة البريطانية أثناء الحكم العسكري لليبيا من قبل الادارة المذكورة:

1 ـ أرشيف الادارة البريطانية / الخمس　　14857　　وثيقة.

2 ـ أرشيف الادارة البريطانية / زليتن　　01133　　وثيقة.

3 ـ أرشيف الادارة البريطانية / يفرن　　08706　　وثيقة.

4 ـ أرشيف الادارة البريطانية / نالوت　　00676　　وثيقة.

وبلغ اجمالي هذه الوثائق « 25,372 وثيقة تعطي صورة واضحة عن أوجه الحياة المختلفة.

د)ـ وثائق العهد الملكي المباد

ويمكن حصرها في الفترة الواقعة بين ما يسمى بالاستقلال وحتى قيام ثورة الفاتح من سبتمبر سنة 1969 م، وتشمل جزءًا من أرشيف الادارة البريطانية، وأرشيف وزارة الزراعة « سابقًا » وبعض الاتفاقيات والمعاهدات الدولية والقوانين والتشريعات بما في ذلك الجريدة الرسمية.

ثانيًا: الوثائق الأجنبية:

وهي متعددة المصادر وقد تم تصوير الوثائق المتعلقة بليبيا وما يتصل بها من دور الأرشيف العالمية في كل من:

ا ـ ألـمـانـيـا:

عدد 81 بكرة (ميكروفيلم) مع 20000 ورقة مصورة تصويرًا ضوئيًا من وثائق أرشيف وزارة الخارجية الألمانية، وهي عبارة عن مراسلات وتقارير القناصل الالمان في طرابلس وردود وزارة الخارجية الالمانية على هذه التقارير، وكذلك تقارير الرحالة الالمان الذين حطوا رحالهم في ليبيا مرات عديدة.

وتعتبر هذه الوثائق مادة دسمة للبحث التاريخي، وخاصة في فترة الجهاد إذ يجد الباحث فيها الوصف التام الدقيق لما جرى على الساحة الليبية من أحداث، من سنة 1883 إلى 1943 م.

نماذج: (1)ـ 9 يناير 1911 م.

القنصلية الالمانية بميلانو ترسل بتحفظ الأخبار نقلاً عن بعض الصحف الإيطالية حول العلاقات الإيطالية التركية، وعن حادث « الجديدة » ومدى الاجحاف بحق المصالح الايطالية في طرابلس، وأن العثمانيين في طرابلس يسعون إلى عرقلة مشاريع الايطاليين التجارية بمساعدة الالمان.

(2)ـ 23 اكتوبر 1911 م.

شاهد عيان ألماني في طرابلس يتحدث عما شاهده من قصف مدفعية القوات الايطالية لمنطقة بئر بوملیانه بطرابلس ومشاهداته عند انتقاله إلى ناحية الشرق باتجاه سيدي المصري.

(3)ـ 16 نوفمبر 1911 م

مندوب اخباري «لاحدى الصحف الالمانية» يوضح انطباعاته ومشاهداته في طرابلس عن الوحشية اللاانسانية، وحقائق التصرف الايطالي تجاه الاهالي، وعن التنكيل وحالات الاعدام.

ب ـ ايطـالـيـا:

توجد في الشعبة 225 بكرة (ميكروفيلم) مع 12000 ورقة من وثائق نابولي تغطى الفترة من 1740 م حتى 1747 م والفترة من 1825 م حتى 1840 م وتتمثل في تقارير قناصل نابولي الذين توالوا على طرابلس عبر هذه السنوات. ونورد هنا بعض المختارات لما تمت ترجمته وفهرسته موضوعيًا:

نماجذج 1 ـ تقرير اقتصادي لقنصل نابولي بطرابلس عن صيد المرجان و إنشاء تنارة بطرابلس.

2 ـ تأزم الموقف بين القنصل التابع لنابولي والباشا.

3 ـ مراسلات بشأن ما تم من مداولات بسبب إعلان الباشا عن رغبته في إلغاء معاهدة الصلح مع مملكة الصقليين ثم عدوله عن ذلك.

4 ـ مراسلات تتعلق بموضوع محاكمة قائد الحملة الفاشلة على طرابلس وطلب مندوب الملك سماع شهادة القناصل في طرابلس. ثم كشفٌ بالاسئلة القانونية التي وجهت إلى قائد الحملة.

5 ـ بوادر العصيان في الدواخل ضد (الميرى) الذي اضطر له الباشا من أجل تسديد ما عليه من ديون.

6 ـ مراسلات عن مقتل الرحالة الانجليزي (لاينج) وهو زوج ابنة القنصل الانجليزي «وارنغتون» وقد أتُّهِمَ وزير للباشا بأنه دبر المؤامرة بقصد الحصول على خرائط وأوراق الرحالة لتسليمها لقنصل فرنسا، وقد هرب الوزير بمساعدة القنصل الامريكي.

7 ـ مراسلات تفيد استيلاء الطرابلسيين على السفينة «لانورطوناطا» للربان (انطونيو لاغانا) قرب ولاية تونس.

جـ فـرنـســا:

توجد في الشعبة 20 بكرة (ميكروفيلم) مع 2000 ورقة من وثائق وزارة الدفاع الفرنسية ووزارة الخارجية الفرنسية، وهي عبارة عن أخبار من المراكز الفرنسية على الحدود التونسية الليبية موجهة إلى وزارة الحربية ووزارة الخارجية، وكذلك من قنصل فرنسا بتونس عن الأحداث في طرابلس 1915 م ويعمل أحد المترجمين على تعريب هذه التقارير والمراسلات ومن ثم تتم عملية الفهرسة لهذه الوثائق.

نموذج ـ 1 يونية 1915 م.

الضابط الفرنسي (بار) رئيس فرع ذهيبات والمندوب السامي للجمهورية الفرنسية يصف معارك كبيرة خاضها المجاهدون ضد القوات الايطالية بمنطقتي غريان وبني وليد، حيث تمكن المجاهدون الليبيون من أسر عدد كبير من أفراد العدو والتصدي ببطولة للغزاة في معركة لاحقة غير متكافئة.

هذا، كما توجد وثائق أخرى مصورة لم تترجم بعد وردت من كل من:

أسبانيا ـ امريكا ـ بولندا ـ بريطانيا ـ روسيا ـ النمسا ـ المانيا الديمقراطية ـ يوغسلافيا ـ اليونان.

ويراعى أثناء فهرسة الوثائق الأجنبية الآتي: ـ

مصدر الوثيقة ـ رقمها المسلسل ـ رقمها بالأرشيف الأصلي ـ لغتها تاريخها ـ عدد صفحاتها ـ موضوعها ـ المحتوى ـ فهرسة الاعلام والأماكن والوقائع الواردة بكل وثيقة.

ترجمة الفصول والبحوث والمقالات:

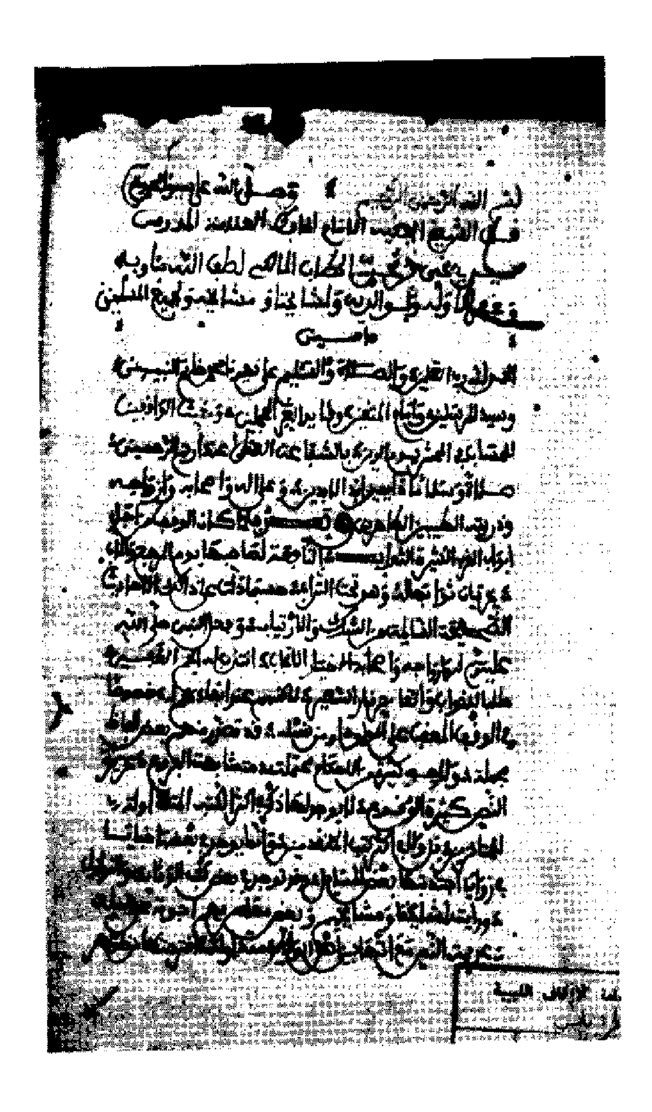
إضافة إلى ترجمة الوثائق فإن الشعبة تسعى أيضًا إلى تكوين ملفات من المقالات والبحوث والتقارير والفصول ذات العلاقة بتاريخ الجهاد الليبي وما يتصل به من مختلف اللغات ووضعها في متناول الباحثين، على أن تحفظ مخطوطات الترجمة ضمن محتويات الشعبة. وهذه نماذج من عناوينها:

1 ـ مذكرات دراسة الأربع سنوات من حكم الكونت «فولبي» 1921 إلى 1923. ترجمة / خالد الثابت.

2 ـ دليل التاريخ السياسي العسكري والمستعمرات الايطالية لـ «غابيي» رائد سلاح المشاة ـ روما 1928. ترجمة / شمس الدين عراب.

3 ـ إعادة احتلال فزان ـ الفصل الخامس لـ «قرينسياني» ترجمة / خالد الثابت.

علاوة على ترجمة «الجريدة الرسمية الايطالية» للسنوات من 1911 م حتى 1915 م



ثالثًا: المخطوطات:

يمثل التراث المخطوط أكبر حافظ لنتاج الحضارة العربية الاسلامية في شتى العلوم والآداب والفنون، وقد لقي هذا التراث المخطوط الكثير من العناية في الغرب والشرق.

كما فطنت البلاد العربية ــ وبخاصة بعد نيل استقلالها ــ إلى ضرورة العمل على جمع وحفظ هذا التراث وتيسير الاستفادة منه بوسائل علمية، ومن ذٰلك إنشاء معهد المخطوطات العربية واصدار مجلته التي أخذت على عاتقها مهمة النهوض بعبء الدعوة إلى حفظه ونشره والاهتمام به، وذلك فضلاً عن المزيد من المراكز والمعاهد العلمية والجامعات التي أولت اهتمامًا كبيرًا بهذا التراث، حتى إن جامعة حلب مثلاً قامت بانشاء معهد خاص للاهتمام بالتراث العلمي وحده. وهذا جانب لم نوله العناية الكافية من قبل.

وقد راعى المركز عند تأسيسه هذا الجانب الهام، فكانت بين هيكله العلمي شعبة للوثائق والمخطوطات للعناية بكل المواد الأولية المخطوطة وجمعها وحفظها وتيسير الاستفادة منها للباحثين.

وقد ألمحنا سابقًا إلى أنواع الوثائق التي تعمل الشعبة على اهتمام بها في نطاق اهتمامات المركز التاريخية.

أما في مجال المخطوطات فلم تُراع أية حدود معينة عند الجمع، . إذ وُجِّه الاهتمام إلى كل ما يمكن الوصول إليه من المخطوطات «داخل ليبيا» بالشراء أو الاهداء أو التصوير، وعلى اختلاف موضوعاتها وعصورها على اعتبار أن هذه المخطوطات تمثل المادة الحقيقية لتاريخنا الثقافي الذي لم ينل حقه من الدراسة بعد.

وكان من نتيجة ضم مكتبة الاوقاف إلى مكتبة المركز أن أُلحقت مخطوطاتها بالشعبة، وهنا نذكر أنَّ اجمالي حصيلة الشعبة من المخطوطات بلغت « 2650 » مخطوطا بين أصول ومصورات كانت على النحو التالي:

1 ـ المخطوطات الأصول، التي تمكنت الشعبة من اقتنائها = 400 مخطوط.

2 ـ المخطوطات المصورة من قبل الشعبة داخل وخارج المركز = 740 مخطوط.

3 ـ مجموعة مكتب الاوقاف = 1510 مخطوط.

وقد تم اقتناء وتصوير ماذكر في الفقرتين (1) و (2) من عدة مناطق يؤكد وضعها الجغرافي غالبًا على أن بيئة الواحات والدواخل من أفضل البيئات لحفظ هذه المواد العزيزة، فقد تم الحصول على معظمها في كل من غدامس ودرج وطبقة والرياينة ونسمة وطرابلس.

وهنا تجدر الإشارة إلى مقال للدكتور / عبدالله الشريف نشر في مجلة «تراث الشعب» العدد 12 / 1983 تحت عنوان «الوثائق التاريخية الليبية وأماكن تواجدها داخل الجماهيرية» ذكر فيه أن محتويات مكتبة الأوقاف تم نقلها إلى مبنى أمانة التربية بزاوية الدهماني، وأن عدد المخطوطات التي تحويها حوالي «2000» ألفي مخطوط.

والصواب أن المكتبة ضُمت للمركز، وعدد مقتنياتها من المخطوطات بلغ « 1510 » مخطوط، منها « 1280 » مخطوط مفهرس و « 230 » مخطوط غير مفهرس.

ومن المخطوطات ذات الأهمية الخاصة التي اقتنتها الشعبة، مخطوط يوميات حسن الفقيه التي تؤرخ لمدينة طرابلس بخاصة، ولما يتصل بها من المدن الليبية بعامة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد قام الاستاذان / محمد الاسطى وعمار جحيدر بتحقيق الجزء الأول من هذه اليوميات ضمن منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين 1984 م، ولا زالت بقية المخطوطة تحت التحقيق في جزئين آخرين.

كما كان من بين نفائس مجموعة درج مخطوط «فتاوى وأجوبة الشيخ عمر السوداني» التي تصور مشاغل الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، ولهذا المخطوط نسخ أخرى متفرقة.

ولا يغيب عن الذهن أن قسمًا كبيرًا من تراثنا المخطوط قد انتقل إلى المكتبات الأوروبية في ظروف متباينة، ولعل النصيب الأكبر منه قد نقل إبان فترة الاستعمار، الذي استهدف ـ فيما يرمي إليه من أغراضه السيطرة على ثقافة الشعوب المستعمرة، وتوجيهها الوجهة التي يريد. ولم تسلم جُلُّ البلاد العربية والإسلامية من نهب مخطوطاتها، وعلى سبيل المثال وقفنا ـ فيما يخص ليبيا ـ على مجموعة قليلة من المخطوطات قام الملازم الايطالي

«نوسيدا» بحملها معه إلى مكتبه «الامبرز يانا» بميلانو إبان الغزو الايطالي.

وقد أدرك الاستاذ روسيلي مدير المركز الثقافي الايطالي بطرابلس سوء هذا التصرف، فاستجاب لدعوتنا بتصوير تلك المجموعة على «الميكروفيلم» وأهداها للشعبة.

وحفاظًا على مقتنيات الشعبة من كوارث الزمن وعوامله فقد عملت على تصوير كل ما يرد إليها من وثائق ومخطوطات أولاً بأول، وذلك على شرائح مصغرة (ميكروفيلم) بحيث يمكن للباحث فيما بعد أن يطلع على النسخة الميكروفلمية للوثيقة أو المخطوطة، وتبقى النسخة الأصل محفوظة ـ يمكن الرجوع إليها في حالات الضرورة، مثل عدم وضوح النسخة المكروفلمية، أو أخذ بيانات أو معلومات دقيقة على المخطوط الأصل ـ فالوثائق والمخطوطات هي الحلقة التي تربط الماضي بالحاضر، لذلك يجب أن نوليها نوعًا من العناية الخاصة كوسائل الحفظ الحديثة والترميم والصيانة، وتبخيرها وتعفيرها بالمواد الكيماوية من آن لآخر، للقضاء على الحشرات التي تفتك بها.

أما إذا بقيت على الحال التي هي عليها الآن في بعض مواطنها إن لم أقل أكثرها، فإن العاقبة تكون وخيمة، وسنجدها في فترة ما وقد تآكلت بفعل عوامل الطبيعة التي تفتك بها وتمسح معالمها.

فهرسة المخطوطات:

يجرى العمل الآن على فهرسة هذه الحصيلة من المخطوطات بحيث يتمكن الباحث أو الدارس من الوصول إلى أي مخطوط عبر ثلاثة مداخل رئيسة وهي: العنوان ـ المؤلف ـ الموضوع، وذلك بواسطة بطاقات خاصة لهذا الغرض.

وهذه البطاقات تحوى (البيانات الوصفية والموضوعية) للمخطوط وتتمثل هذه البيانات في: ـ

رقم المخطوط ـ عنوانه ـ مؤلفه ـ موضوعه ـ ناسخه ـ تاريخ النسخ ـ عدد الأوراق ـ عدد السطور ـ المقاس ـ بداية المخطوط، مع ذكر أية ملاحظات تتعلق بوصف المخطوط كنوع الخط ولون المداد وكذلك الوقف والتملكات والاجازات.

و إذا كان المخطوط نسخة (ميكروفيلميه) نبين نوع الشريط ورقمه وما إذا كان الشريط سالبًا أو موجبًا. كما نُثبت تاريخ وفاة المؤلف ومصدر ترجمته.

وستكون هذه البطاقات بعون الله نواة لفهرس عام نعده للطبع. والجدير بالذكر أن الاستاذ بشير قاسم يوشع المسؤول عن فرع مركز الجهاد في مدينة غدامس قد أعد فهرسًا لمخطوطات غدامس هو الآن تحت الطبع، مع العلم أن الشعبة في طرابلس تمتلك صورًا من هذه المخطوطات.

دراسات تربوية

موقف الإسلام من تعليم الراشدين

اعداد :

د . جيلاني جبريل

يقصد بمعرفة موقف الإسلام من تعليم الكبار هو معرفة ما إذا كان هذا الدين قد أولى عناية خاصة واهتماماً كبيراً بتعليم الراشدين من أبناء المسلمين ، وما إذا لقي العلم وأهله حظوة عنده .

يمكن لنا أن نتحقق من ذلك من خلال معرفتنا لما قد جاء في كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله الكريم والصحابة الأبرار في هذا الشأن .

أما فيما يتعلق بكتاب الله فإن آيات كثيرة قد جاءت تحث وتشجع جماعة المسلمين كباراً كانوا أو صغاراً على أن يتعلموا . وإن كان يكفي الكبار منهم اهتماماً وتشجيعاً إن تُنَزِّل أول آية على محمد صلى الله عليه وسلم تدعوه إلى أن يقرأ وهو قد تجاوز مرحلة الطفولة بعشرات السنوات . ولم تنزل عليه عندما كان طفلاً أو صبياً . الأمر الذي يدعو إلى القول بأن الإسلام قد ألزم الكبار القراءة ، والتي هي إحدى مقومات التعليم وركائزه قبل أن يلزم الصبية أو الفتيان بذلك . والآيات هي : ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ (العلق : 1 -5) .

فقد تضمنت هذه الآيات الكريمة ـ التي أنزلها الله على محمد الرجل البالغ العاقل ـ كلمات القراءة ، والقلم والعلم والتعليم ؛ وقد تكررت في ست مواقع مختلفة . وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على مدى إهتمام الإسلام بتعليم الكبار لهذه الأمور .

وإنه ليس من قبيل الصدفة أن تكون كلمة القراءة هي أول أمر يوجه من الله إلى عبده محمد ليقوم به ، بل أمره سبحانه بذلك لإدراكه أهمية القراءة التي تقود إلى التعليم والمعرفة . وليدرك المسلمون الراشدون فيما بعد مدى أهمية العلم والتعليم الذي تعتبر القراءة من مقوماته وأسسه الرئيسية كما ذكرت سابقاً . هذا كما وردت كلمة القراءة في سور متعددة من كتاب الله عز وجل مثل قوله تعالى : ﴿ **سنقرؤك فلا تنسى** ﴾ (الأعلى : 6) وقوله : ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة** ﴾ (المزمل : 20) .

ويبرز اهتمام الإسلام بتعليم الراشدين من خلال الأهمية التي حظي بها العلماء عند الله عظمت قدرته . فقد نظر سبحانه وتعالى إلى أهل العلم والمعرفة نظرة تختلف تمام الإختلاف عن نظرته إلى غيرهم ممن لم ينالوا نصيباً من العلم حيث قال : ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ (الزمر : 9) . ولكي يرغب رجالات المسلمين في أن يسعوا في سبيل العلم والمعرفة فإنه سبحانه وتعالى قد أنزل العلماء منزلة عالية في الدنيا والآخرة حيث قال : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ (المجادلة : 11) . وليس هذا فحسب بل إن الله قد قرن إسمه الكريم باسم العلماء وذلك تقديراً لهم ورفعة لمكانتهم حيث قال تبارك اسمه : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ (آل عمران : 18) . وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين : « ويكفي تنويهاً بالعلم ورفعاً لقدره وقدر أهله أن كان صفة من صفات الله سبحانه وتعالى فهو جل شأنه عالم وعليم وعلام »[1] .

وإن خشية الله من المناقب الحميدة التي يأمل كل مسلم أن يتصف بها ، ولكن الله في محكم التنزيل قد خص بها العلماء دون غيرهم وذلك تكريماً لهم وتشريفاً ، وكذلك تشجيعاً لبقية المسلمين الراشدين بأن يشعروا بأهمية العلم ، وهي دعوة لهم بأن يجاهدوا في سبيله ويتعلموا حيث قال : ﴿ **إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء** ﴾ (الزمر : 9) . وقال : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ (العنكبوت : 43) .

أما ما جاء في الأحاديث النبوية ومأثور الصحابة وأقوالهم في هذا الصدد فهو أيضاً ليس بالشيء القليل ، وإنه لا يختلف مع ما جاء في كتاب الله عز وجل حيث ركز كثيراً على أهمية تعليم الكبار وحثّ جميع المسلمين كباراً كانوا أو صغاراً ، رجالاً أو نساء على أن يقبلوا على التعليم وأن ينهلوا من مختلف المعارف قدر المستطاع دون التوقف عند مرحلة من مراحل العمر المختلفة ودون الأقتصار على أماكن محددة،ودون التوقف عند بلوغ مستوى معين. يقول ﷺ في هذا الخصوص: «أطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ويقول : « ما يزال المرء عالماً ما طلب العلم ، فإن ظن أنه علم فقد جهل » وقد أعتبر النبي طلب العلم في منزلة الفرائض التي ينبغي على المسلم الراشد أن يقوم بها ويؤديها على أكمل وجه وذلك بقوله: « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، ولا يقصد بكلمة مسلم في هذا المقام جنس الرجال فحسب ، بل يقصد به جنس الرجال والنساء معاً .

هذا كما أعتبر ﷺ طالب العلم مثل المجاهد في سبيل الله ، أو الداعي إلى نشر دينه الحنيف حيث قال : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يعود »[2] . واعتبر كذلك السفر في سبيل الحصول على العلوم النافعة من الأعمال التي تساعد المسلم على بلوغ الجنة إذ يقول : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقاً إلى الجنة »[3] .

ومن حرصه على ألا يضيّع المسلمون أيّ فرصة تتاح لهم كي يتعلموا قوله : « إذا مررتم برياض

الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : مجالس العلم »[4] . وإن العلم في نظر نبينا الكريم ذو فائدة عظمى إذ يسعد صاحبه في الدارين الدنيا والآخرة حيث قال : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم »[5] كما أن النبي الكريم قد رغب كافة المسلمين في التزود بمختلف أنواع المعارف والعلوم ، وقد حذر الذين وهبهم الله علمًا من أن يبخلوا به على غيرهم من أبناء أمتهم بأشد أنواع العذاب يوم القيامة حيث قال : « من علم علمًا وكتمه ، ألجمه الله بلجام من نار » . وقد قال في هذا الشأن مرغباً أهل العلم على أن يفيدوا غيرهم بعلمهم : « لا حسد إلاّ في إثنتين رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل أتاه الله حكمة [أي معرفة] فهو يقض بها ويعلمها » .

فقد قال ﷺ بذلك حتى لا يبخل من أتاه الله علمًا على غيره بعلمه بغية أن ينتشر العلم بين أبناء أمته وبغية أن يكفل لكل طالب علم كبيراً كان أو صغيراً شخصاً يعلمه .

هذا وقد قاده حرصه على نشر العلم بين المسلمين الكبار إلى تسجيل ثلاثة مواقف جليلة هي :

ـ أنه فضل مجالس العلم على مجالس العابدين والداعين والمتضرعين . فقد قال في هذا الصدد : « أما هؤلاء [ويقصد بهم جماعة التعبد والتضرع] فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم ، وإن شاء منعهم . وأما هؤلاء [أي جماعة مجالس العلم] فيعلمون العلم والفقه ، ويعلمون الجاهل ، فهم أفضل ، وإنما بعثت معلمًا»[6] وانظم إلي مجالس العلم . وقال «قليل العلم خير من كثير المال » .

ـ أنه فضل أن يقوم كل أسير من أسرى بدر ممن يجد في نفسه الكفاءة بتعليم عشرة من أميّي المسلمين كفدية لنفسه بدلاً من افتدائها بالأموال .

ـ أنه جعل مسجده المعروف بمسجد قباء والذي بناه أسعد بن زرارة ـ وشارك ﷺ في تشييده بنفسه ـ مكاناً يؤمه المسلمون الراشدون من جميع الأصقاع لكي يحفظوا القرآن الكريم ، ويتدارسوا معانيه ويتعلموا شؤون دينهم ودنياهم . فهل هناك تشجيع واهتمام أكثر من هذا ؟ !!

وبالرجوع إلى مأثور الصحابة وأقوالهم نجد أن عليّ بن أبي طالب لا ينظر إلى مكانة الفرد ورفعة قدره من خلال ماله أو حسبه أو نسبه ، وإنما ينظر إليها من خلال ما تحصل عليه من علم ومعرفة حيث يقول : « قيمة كل إمرىء علمه »[7] . ويقول كذلك مخاطباً كميل بن زيادة : « يا كميل العلم خير لك من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق »[8] .

ومن تشجيع عمر بن الخطاب للعلم تفضيله إياه على المناصب والوظائف . كان رضي الله عنه يحرّض المسلمين على ألاّ يتقلدوا أي نوع من الوظائف قبل أن ينالوا قسطاً من العلم . فقد قال في هذا الصدد : « تعلموا قبل أن تسودوا »[9] وقد قال ناصحاً الراشدين من أبناء المسلمين : « تعلموا العلم

وعلموه الناس ، وتعلموا له الوقار والسكينة ، وتواضعوا لمن تعلمتم منه العلم ، ولا تكونوا جبابرة العلماء »[10] .

ومن حرصه رضي الله عنه على انتشار العلم بين أبناء المسلمين على مختلف أعمارهم أن أمر أناساً بالوقوف على قارعة الطرقات ليفحصوا المارة عما إذا كانوا يجيدون القراءة والكتابة . فإذا تبين لهؤلاء إن بعضاً من المارة لا يجيدون ذلك أمروا بأخذهم إلى أماكن مخصصة ليتعلموا فيها[11] .

من خلال عرضنا السريع في الصفحات السابقة ـ للشواهد والأدلة التي بينت لنا المواقف الإيجابية العظيمة التي أتخذها الإسلام العظيم بتعاليمه السمحاء من التعليم بصورته الشمولية والمتمثلة في التشجيع المتكرر والحث المستمر للمسلمين على حد سواء ـ على أن يقتنوا العلم ، ويتزودوا منه بقدر طاقة كل فرد ، والمتمثلة كذلك في عدم اقتصار التعليم على فئة قليلة أو على أولئك الذين هم في المراحل الأولى من العمر والتي تعرف بمراحل ما قبل سنوات الرشد ، يمكن للمرء أن يستخلص جملة من الحقائق التي مفادها أن الإسلام قد أولى اهتماماً كبيراً بتعليم الكبار ، وتشجيعاً عظيًما لهم على أن يتعلموا . ولسنا بمبالغين إذا قلنا إن الإهتمام الذي أولاه الإسلام لتعليم الراشدين ليس بأقل من ذلك الإهتمام الذي حظي به أولئك الذين هم دون سن الرشد . ويبرز صدق هذا القول في الحقائق التالية :

أولاً : إن أول أمر يتلقاه محمد ﷺ من ربه جل شأنه هو ذلك الأمر المتعلق بالقراءة في أول سورة نزلت عليه ﷺ والتي قال فيها سبحانه وتعالى : ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق** ..... ﴾ إلى آخر الآيات . وكما ذكرت سلفاً كان يومها النبي محمد قد تجاوز مرحلة الطفولة بعشرات السنوات ، الأمر الذي يدعو إلى القول بأن الإسلام قد ألزم الكبار القراءة قبل أن يلزم الصغار بذلك .

ثانياً : إن فرائض الإسلام كالصلاة وأركانها ، والصوم وأحكامه ، والحج وشروطه التي أوجبها الله على المسلمين الراشدين العاقلين دون الصبية او الأطفال تستلزم بالضرورة نسبة عالية من المسلمين الراشدين الملمين بأسس القراءة والكتابة ، لأن مثل هذا الإلمام يساعدهم ـ بدون شك ـ على الفهم الصحيح لقواعد دينهم الحنيف ، ويساعدهم كذلك على تدوينه وتوثيقه . أي أنه عن طريق القراءة يمكن للمسلم الرجوع إلى المصادر المختلفة لقراءتها وفهم ما جاء فيها من أمور تتعلق بشؤون الدين فهمًا جيداً .

وعن طريق الكتابة يمكن له أن يدون آيات الله سبحانه وتعالى وأحاديث نبيه ﷺ خشية الضياع أو التحريف .

ثالثاً : إن قراءة القرآن والتمتع بترتيله قد أعتبرت من السنن الحميدة التي ينبغي على المسلم الراشد العاقل أن يقوم بها . هذا وقد وعد الله سبحانه وتعالى المرتلين لآياته أجراً عظيًما إذ قال عظمت قدرته في محكم التنزيل : ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور** ﴾ . (فاطر : 29) . وقال مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ **واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك** ﴾

(الكهف : 27) . وقال : ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾ وقال : ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه ﴾ (المزمل : 20) .

إذن فكيف للمرء أن يلبي طلبات ربه هذه ويقوم بتلاوة كتابه العزيز إذا لم يكن قد حفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب أو كان في مقدوره أن يقرأه من المصحف الشريف ؟ . وكيف يكون في مقدوره أن يقرأ إذا لم يتعلم ذلك ؟ . إذن فالتعليم من الأمور الضرورية للمسلم الراشد . ولذا فليس من المستغرب أن يشجع الإسلامُ عليه ويدعو إليه .

رابعاً : إن كل ما جاء به القرآن الكريم من آيات بشأن العلم والتعليم وما جاء على لسان النبي الكريم من أحاديث شريفة ، وما اتخذه من مواقف في هذا الشأن، وما نقل عن الصحابة الأجلاء من حكم وآثار تشجع على التعليم وتحث عليه ، إنما هي في حقيقة أمرها دعوات موجهة إلى جميع المسلمين بغض النظر عن الجنس أو المستوى التعليمي الذي يتمتع به الراشد . فعندما قال النبي إن طلب العلم فريضة على المسلم ، لم يفرق بين المسلم الكبير والصغير ، ولا بين الأميّ وغير الأميّ ، بل جعله فريضة على كافة المسلمين .

خامساً : إن طلب العلم والسعي إليه لم يحدد من قبل الإسلام بفترة زمنية معينة ، أو بمرحلة محددة من مراحل العمر المختلفة والمعروفة لدينا الآن بمراحل العمر الثمانية ، بل قال ﷺ بطلبه منذ الولادة إلى يوم الوفاة سواء طال العمر أو قصر. فلو لم يُـرد للمسلم الراشد أن يتعلم طيلة سنوات حياته لقال ﷺ اطلبوا العلم من المهد إلى الرشد أو إلى سنوات البلوغ أو إلى السنة العاشرة أو الثانية عشرة. ولكن نتيجة لحرص الإسلام الشديد على انتشار التعليم بين المسلمين لمختلف طبقاتهم ومراحل أعمارهم واختلاف مستوياتهم حرص على أن يكون السعي في سبيل العلم مستمراً دون توقف .

يمكن أن يلاحظ على هذه الدعوة الكريمة والمبادرة الرائعة شيئان مهمان هما :

1 ـ إن الإسلام قد حاز قصب السبق على مفكري الغرب ومربيهم في مجـال ما يعرف عندنا اليوم بالتربية المستمرة والتربية مدى الحياة في مجال تعليم الكبار . فقد جاء الإسلام بهذه المبادرة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان . في حين إن تعليم الكبار حسب هذا المفهوم لم يعرف في بلاد الغرب إلا في مدة لا تتجاوز المائة والستين سنة . أي أن حركة تعليم الكبار لم تبدأ في بريطانيا إلا عام 1924 ، وفي أمريكا إلّا عام 1929 . ناهيك عن بعض الدول الاوروبية الأخرى التي لم تعرف هذا التعليم إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر .

إن تعليم الكبار عرف في البلاد العربية والإسلامية قبل هذا التاريخ بمئات السنين كما ذكرت سابقاً . أي منذ ذلك الوقت الذي كان فيه المسلمون يأتون من كل مكان ليتعلموا بمسجد قباء سالف الذكر والذي يعتبر من أوائل مراكز تعليم الكبار . كان يُعطي في هذا المركز (إذا صحت التسمية) نوعان من الدروس :

- دروس أولية تتمثل في تعليم مبادىء القراءة والكتابة والدين . وهذا البرنامج يشبه تماماً بما نسميه اليوم ببرامج محو الأمية أو ببرامج التعليم الأبجدي .

- دروس متقدمة تهتم بتدريس القرآن وفهم معانيه ودراسة قضايا كثيرة تتعلق بشؤون الدين والدنيا .

وقد كان هذا المسجد بداية لتأسيس مساجد أخرى كثيرة شيدت في تلك البلدان التي تم فتحها على أيدي جيوش المسلمين كمصر ، والعراق ، وبلاد الشام ، والمغرب العربي ، وبلاد الأندلس وغيرها . تلك المساجد التي أصبحت مصادر إشعاع فكري وأماكن رئيسة لتعليم الكبار لمختلف فروع العلم والمعرفة من قرآن وسنة وفقه ، وطب ، ورياضيات ، وفلك ، وفلسفة ، وقواعد اللغة العربية وآدابها وبعض اللغات الأجنبية التي قد حثّ النبي الكريم على تعلمها حيث قال : « من تعلم لغة قوم أمن شرهم » .

ففي الوقت الذي كانت فيه المساجد تقوم بوظائفها الدينية والعلمية ، وتقوم كذلك بشتى وسائل التشجيع والترغيب لملايين الكبار من المسلمين ، كانت الكنائس في بلاد الغرب تمنع التعليم منعاً باتاً وتحرمه تحريماً قطعياً . يقول سعدون الساموك : « في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تحارب العلم والعلماء وتقف في وجه أي فكرة تنبثق من رجالاتها لتعليم الناس وتثقيفهم ، نرى ان المساجد الإسلامية قد انقلبت بعد أداء شعائر الصلاة إلى مدارس وحلقات لتدرس الصغار والكبار القراءة والكتابة والعلوم الدينية ، وتدرسهم العلوم المقارنة ، اليونانية والرومانية »[12] . ويروي المقدسي ، أنه شاهد يوماً في جامع الفسطاط بمصر وحده بين المغرب والعشاء أكثر من مائة حلقة خاصة بالعلماء وطلاب العلم[13] . وإن دل هذا التعدد والتنوع في حلقات الدروس التي يعقدها علماء المسلمين لتعليم طلبتهم الكبار داخل المساجد على شيء فإنما يدل على مدى الإهتمام العظيم الذي أولاه الإسلام بتعليم الكبار .

2 ـ ومما يلاحظ على المبادرة الكريمة التي جاء بها الإسلام بصدد تعليم الكبار أن كثيراً من دول العالم عندما شعرت بفائدة تعليم الكبار وقامت ببعض التشريعات وسن بعض القوانين التي تلزم الكبار بالانخراط في بعض البرامج التعليمية المعدة خصيصاً لهم ، فإن هذه الدول قد قيدت الإلـزام بوضع شرطين أساسيين لذلك ، هذان الشرطان هما العمر والمستوى التعليمي .

أمّا شرط العمر فيقصد به أن الزامية الإنخراط في هذه البرامج لا ينطبق إلا على فئة معينة من الكبار والمتمثلة في أولئك الذين تقع أعمارهم ما بين الخامسة عشرة والخامسة والأربعين . أما ما عدا هذه الفئة من الكبار فإنهم غير ملزمين بالإنخراط .

أما شرط المستوى التعليمي فيقصد به إن الكبير سيكون ملزماً بالإنخراط في برامج تعليم الكبار إذا لم يصل مستواه التعليمي مستوى الصف الرابع الابتدائي . فإذا تعدى هذا المستوى ، فإنه لا جناح عليه

إذا لم ينخرط .

أما الإسلام فقد تجاوز هذين الشرطين بجعْله طلب العلم فريضة على كافة المسلمين وطلبه يبدأ مع ولادة الفرد وينتهي او يتوقف بالوفاة ، باعتبار أن هذين الشرطين يحدان من فعالية هذه البرامج ، إذ أن مجموعات كبيرة ستكون خارج دائرة الالزام إما بسبب العمر أو بسبب بلوغ هذا المستوى البسيط من التعليم والذي لا يزيد على كون الفرد يعرف المبادىء الأولية للقراءة والكتابة والحساب .

ومن الحقائق المنطقية والعقلية التي تجعل المرء يجزم بإيجابية موقف الإسلام الخالد من تعليم الكبار ما يلي:

1 ـ الانتشار السريع لمختلف أنواع العلوم والمعارف بين جموع المسلمين في فترة وجيزة من الزمن . فعندما بزغ على البشرية فجر الإسلام لم يكن في شبه الجزيرة العربية إلّا نفر قليل ممن يعرفون القراءة والكتابة . فقد قيل انه في تلك الأثناء لم يوجد إلا اربعة عشر رجلاً في قريش جميعها وهي التي تعتبر من أعظم القبائل العربية وأنبلها !! ـ غير أنه لم يمر على ظهور الإسلام إلا أعوام قليلة حتى كثر عدد المسلمين الذين يجيدون القراءة والكتابة . وذلك بفضل تشجيع الإسلام لذلك والمتمثل في إعطاء الدروس المختلفة في المساجد والحوانيت .

2 ـ الفتوحات الإسلامية التي وصلت إلى أقاصي الهند والصين شرقاً ،و إلى بلاد الأندلس غرباً . وهذا يتطلب بالضرورة إيجاد قيادات جيدة حتى يتسنى لها أن تفهم عادات وتقاليد ولغات هـذه الأمم . وللحصول على مثل هذه القيادات لا بد من الإعداد الجيد قبل تكليفهم بمثل هذه المهام

3 ـ نظراً لانتشار الإسلام واتساع رقعة بلاد المسلمين ، وبُعد الولايات عن مركز الخلافة فلا بد من الاعتماد الكبير في الاتصال ما بين الولاة وخليفة المسلمين على المكاتبات . وهذا بدوره يحتاج إلى أناس يجيدون القراءة والكتابة . إذن فلا بد أن يكون ساسة المسلمين قد راعوا ذلك وقاموا بتعليم أعداد كثيرة من المسلمين .

4 ـ إن الدور الكبير والخطير الذي أنيط بالمسلمين الكبار والمتمثل في نشر الدين الحنيف ، وقيادة الجيوش ، وإدارة البلاد المفتوحة ، وتوقيع معاهدات الصلح مع الخصوم ، والقيام بالمراسلات الداخلية بين المسلمين أنفسهم والخارجية بين قادة وولاة المسلمين وبين خصومهم من أكاسرة وأباطرة يتطلب نوعاً من الاعداد الجيد لهؤلاء الكبار في الجوانب العلمية والثقافية والدينية .

5 ـ إن بناء الدولة الإسلامية العصرية المتحضرة الذي كان يطمح اليه جميع المسلمين يحتاج إلى تشريعات ، وقوانين ، ونظم إدارية وغيرها من الأمور التي تعمل على تنظيم وتسيير شؤون الدولة ، إن هذا كله لا يحتاج فقط إلى أناس يعرفون مبادىء القراءة والكتابة فحسب ، بل يحتاج إلى من يجيدها ويبدع فيها . ومن المستبعد أن يسعى المسلمون إلى بناء الدولة العصرية دون الأخذ في الاعتبار إيجاد مقومات هذه

الدولة . يقول « جفرسون » « إذا توقعت أمة أن تعيش في دولة عصرية متحضرة مع بقائها على جهلها ، فإنها توقعت شيئاً لم ولن يحدث »[20] .

6 ـ إن الحركة العلمية والأدبية التي شهدها العالم العربي والإسلامي والتي شهد بها حتى ألد خصومه لا بد أن تكون حركة شاملة بحيث تشمل الصغير والكبير ، والذكر والأنثى . يقول سعدون الساموك مبيناً مدى اهتمام المسلمين بانتشار العلم والمعرفة آنذاك : « . . . كانت المدارس والمساجد تنتشر في أرجاء المدن . يقوم شيوخها بتعليم الصغار الكتابة والقراءة ، وتعليم الكبار ما ينقصهم من أمور العلم والتربية »[21] .

ويقول في موضع آخر : « . . . فتأسست المدارس والمشايخ منذ العصور العباسية الأولى لتدريس صغار الناس وكبارهم القراءة والكتابة والانطلاق بهم نحو مختلف التخصصات العلمية . . . وبدأ الخلفاء بتشجيع أصحاب المواهب على التأليف والنظم والترجمة »[22] .

ويقول احمد شلبي : « وازداد عدد الكتاتيب وعدد المعلمين في القرن الثاني الهجري وما تلاه وكانت زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب بل ربما وجد فيها أكثر من كتاب »[23] .

وخلاصة القول :

بناء على ما تم عرضه في الصفحات السابقة من هذا البحث والذي كان في مجمله اقتباسات متعددة من كتاب الله عز وجل ومن سنة رسول ﷺ ومن أقوال الصحابة رضوان الله عليهم يتبين لنا أن موقف الإسلام من التعليم بصورته الشمولية كان موقف المشجع والداعي إلى السعي في سبيل العلم والمعرفة من أي مصدر كان وبأي طريقة ممكنة .

وأنه قد اهتم بتعليم الكبار بصورة خاصة وذلك لأن الله سبحانه وتعالى كلف المسلم الراشد بتلاوة القرآن وفهم معانيه ، والقيام بشعائر الدين ، والعمل على نشره في جميع أنحاء المعمـورة . وليس هذا فحسب بل إن مسؤولية نشر الدين الحنيف ، واتساع الدولة الإسلامية ، ومناشدة المسلمين للرقي والتقدم ، والمسؤوليات الجسيمة في إدارة شؤون هذه الدولة المترامية الأطراف ، والطموحات التي تخالج نفوس قادة المسلمين في وضع أسس جديدة لدولتهم مفادها التشريعات وسن القوانين ووضع النظم الإدارية ، وابرام المعاهدات والاتفاقيات ، كل هذا يتطلب نوعاً خاصاً من التعليم والمعرفة ويجعل المسلمين يفكرون في أحسن السبل التي يمكن بها إعداد المسلمين الكبار بالصورة التي تجعلهم قادرين على تحمل جميع هذه المسؤوليات . وقد تبين للمسلمين إن خير سبيل لذلك هو إتاحة الفرصة لكل مسلم كبيراً كان أو صغيراً ، ذكراً أو أنثى أن ينال نصيبه من العلم والثقافة . وذلك كما ذكرت سابقاً ليكون في مقدوره أن يفهم دين الله ، وأن يدافع عنه ، ويدعو إليه ويبشر به . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً** ﴾ (الأحزاب : 23) .

الهوامش

(1) عمر التومي الشيباني ، فلسفة التربية الإسلامية ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس - ليبيا 1975 . ص 185 .

(2) أبو حامد محمد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، دار المعرفة - بيروت . ص 280 .

(3) محمد بن علان الصديقي المكي ، رياض الصالحين بشرح نزهة المتقين . جـ 2 بيروت . 1977 . ص 952 .

(4) قحطان عبد الرحمن الدوري ، « أصول تلقي العلوم في المجتمع الإسلامي ، مجلة تعليم الجماهير (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - بغداد - العدد 14 - السنة السادسة - يناير 1979 - ص 13 .

(5) عمر التومي الشيباني ، مصدر سابق ص 188 .

(6) ابو حامد محمد الغزالي ، مصدر سابق . ص 20 .

(7) عمر التومي الشيباني ، مصدر سابق . ص 189 .

(8) عمر التومي الشيباني مصدر سابق . ص 189 .

(9) علاء الدين علي المتقي الهندي - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال . ص 2 حيدر آباد 1962 .

(10) أحمد حقي الحلي - المعلم ودوره في التربية العربية الإسلامية ، مجلة تعليم الجماهير - (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . بغداد - العدد 14 - السنة السادسة يناير 79 . ص 42 .

(11) أحمد شلبي ، تاريخ التربية الإسلامية . ط 4 مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ص 45 .

(12) سعدون الساموك ، « التراث والعلم ، نظرة مقارنة » مجلة تعليم الجماهير - بغداد العدد 14 السنة السادسة - 1979 - ص 71 .

(13) فارق عمر فوزي «التعليم الالزامي وتعليم الكبار في التراث العربي الاسلامي » مجلة تعليم الجماهير - بغداد - العدد 14 ، السنة السادسة - 1979 - ص 35 .

(14) Barton Morgan it- **Methods in Adult Education** Houghton Mifflin Co. Boston: NY. 1976.p. 10

(15) سعدون الساموك - مصدر سابق - ص 71 .

(16) سعدون الساموك مصدر سابق ص 70 .

(17) أحمد شلبي - تاريخ التربية الإسلامية - دار الكشاف للنشر - بيروت 1954 .ص 152 .

الأهداف السلوكية في التدريس

المبروك عثمان أحمد

تقديم : -

قد يبدو لأول وهلة أن هذا الموضوع مقحم على مجلة في الدعوة الاسلامية لكن مجرد التفكير في أن الداعية معلم يتعامل مع البشر ويحتاج الى كل ما يحتاج إليه المعلم من طرق لتوصيل المعرفة وقياس لمردودها العلمي والوجداني ، وذلك من خلال قياس درجة استيعاب المتلقين وتبين السلوكات الدالة على ذلك الاستيعاب يجعل مثل هذا الموضوع في غاية الأهمية للدعاة وهم في مرحلة تكوينهم الأولى، أو في ميادين أعمالهم وهي مرحلة متقدمة من مراحل التكوين الفعلي ، حيث تشترك الخبرة والمعرفة النظرية في الرفع من مستوى أدائهم اليومي .

أهمية تحديد الأهداف :

يحتاج نجاح أي عمل الى توفير عدد من العناصر الأساسية من بينها وجود أهداف محددة وواضحة لذلك العمل ؛ ذلك أنه بدون وضوح في القصد والرؤ ية يصبح العمل نوعاً من المحاولة والخطأ يعتمد على الارتجال والعشوائية وما تسببه من ضياع للوقت والجهد والمال[1] وبهذا المعنى يصبح تحديد الأهداف هو حجر الزاوية في جميع جوانب العملية التربوية ومن بينها التدريس . وهو بمثابة تحديد للتغيرات التي نتوقع أن يحدثها المنهج في شخصيات الطلاب ، أو بعبارة أخرى يمكن القول بأن الهدف التعليمي هو وصف لتغير سلوكي نريد حدوثه في شخصية الطالب ، نتيجة لتعرضه الى خبرة تعليمية محددة وتفاعله مع موقف[2]

إن الهدف الواضح هو دليل العمل المنظم بفضل خطواته المسلسلة والمتتالية والقائمة على دراسة للظروف المحيطة بما فيها الاحتمالات المختلفة أثناء التحرك نحو توقعات أو تطلعات معينة[3] .

كما يعتبر تحديد الأهداف التربوية نقطة الانطلاق عند اجراء الدراسات لتقييم البرنامج الدراسي من حيث المنهج وطرق التدريس ؛ اذ يحدث في أحيان كثيرة ارجاع الفشل في العملية التدريسية الى عدم قدرة

المسؤولين على صياغة الأهداف صياغة دقيقة[4] .

شروط صياغة الأهداف :

ومن الشروط التي يجب أن تتوفر في صياغة الأهداف التربوية الجيدة ما يلي :

1 ـ أن تشير الأهداف الى نتائج يمكن قياسها وملاحظتها في شخصية الطالب لأنه بدون ذلك يصبح من الصعب التعرف على مدى استفادة الطالب من المنهج .

2 ـ أن تكون الأهداف محددة تحديداً دقيقاً لأنها إن لم تكن كذلك ، اختلف الناس في الحكم عليها وتفسيرها .

3 ـ أن تكون الأهداف شاملة لجميع جوانب الخبرة التربوية من مهارات ومعلومات وأساليب تفكير سليمة واتجاهات وميول وقيم ونواحي تذوق وأوجه تقدير .

4 ـ أن تكون منطلقة من مستوى الطالب وليس من مستوى المدرس ، لأن الطالب هو محور العملية التعليمية ، وهو المقصود بها[5] .

5 ـ أن تكون صياغة كل هدف على شكل سلوك مرغوب فيه من حيث درجته ونوعيته ويستطيع الطالب تحقيقه بجهد معقول .

6 ـ أن تشتمل صياغة الهدف التعليمي على بيان الحدين الأدنى والأعلى للأداء المرغوب ، لأن من شأن هذا أن يساعد على قياس مدى التعليم الذي حققه الطالب وصلة ذلك بالهدف الموضوع[6] .

7 ـ أن تكون الأهداف متدرجة من حيث الصعوبة والدقة والخصوصية أي بمعنى أنه لا بد من مراعاة الترتيب الأكاديمي والمنطقي بالنسبة للمادة ، وكذلك النمو النفسي للمتعلم .

ما يستفيده المعلمون من معرفة وأهداف سلوكية :

إن التطور الذي شهدته المحاولات المتتالية في حسن اختيار الأهداف التعليمية سواء كان ذلك على مستوى الصف أو المدرسة عموماً ، قد تحقق سعياً من المعلمين في تحسين مستوى الأداء التدريسي . فقد تبين بالتجربة الطويلة ، أن عمومية الأهداف ، وغموض أبعادها ، وتداخلها فيما بينها لم يساعد المعلم على معرفة ما يريد تحقيقه في الدرس الواحد ، أو المادة بوجه عام . ولذلك ، فإن وضع الأهداف التدريسية في صورة أهداف سلوكية تقدم عوناً للمعلمين بسبب الفوائد التالية التي يحصلون عليها :

1 ـ أنها دقيقة محكمة البناء بحيث يمكن قياسها بدرجة كبيرة من الدقة .

2 ـ إنها تعطي للمعلم صورة عن مستوى الطلاب وطريقة تدريسهم .

3 ـ انها تجعل العلاقة بين المعلم والمشرف وإدارة المدرسة وأولياء الأمور علاقة واضحة بسبب ما

تعطيه من معنى بمناقشتهم وحوارهم ، وإزالتها لأي غموض بشأن النتائج التعليمية .

ما يستفيده الطلاب من معرفة الأهداف السلوكية :

يستفيد التلاميذ من الصيغة الجديدة للأهداف السلوكية للدرس لأنهم بها يستطيعون معرفة ماذا سيقومون بتعلمه فيستعدون له .

إن صياغة الأهداف التعليمية بصورة سلوكية منظمة ومرتبة تجعل التلاميذ يبتعدون عن السلبية في سلوكهم خلال عملية التعليم ، ويصبحون أكثر ايجابية ، ويمكن تلخيص هذه الفوائد فيما يلي :

1 ـ انها تعلمهم التفكير الدقيق والمنظم في التعامل مع المواقف المختلفة .

2 ـ انها تجعلهم يعرفون ما ينوون تحقيقه بدقة ، وذلك لأنهم يتعاملون مع مواقف تتصف بالمعلومية والوضوح .

3 ـ إنها تعطيهم وسيلة قياس جيدة لتقدير ما أنجزوه من تعلم بصورة تتابعية المردود .

تصنيفات الأهداف السلوكية :

هناك العديد من المجالات لتصنيف الأهداف السلوكية لعل أهمها وأشهرها التصنيف الذي نادى به بلوم (Bloom) والذي يمكن اجماله فيما يلي :

أ ـ الأهداف المعرفية :

وهي التي تقيس درجة تعلم المعارف والحقائق ، وكذلك تقيس درجة تذكرها ، وتتضمن الأهداف السلوكية في هذا السياق مستويات ، هي : التذكر ، وفهم الحقائق ، وتطبيق القوانين ، والتحليل ، والتركيب ، والتقويم ، واستخدام القدرات العقلية البسيطة والمركبة الى غير ذلك من أنواع السلوك المعرفي[7] .

ومن الأمثلة على الأهداف السلوكية في هذا المجال ما يلي :

1 ـ يذكر الطالب أربعة أسباب أدت إلى قيام الحرب العالمية الثانية ، كما وردت في الكتاب المدرسي للصف الأول الثانوي .

2 ـ يناقش الطالب الأوضاع الاقتصادية التي مرت على الوطن العربي ، إبان الاستعمار العسكري المباشر كما جاء في الكتاب المدرسي المقرر .

3 ـ يقارن الطالب بين الاستعمار القديم والاستعمار الحديث فيما يخص الأسباب التي أوجدت كلا منهما .

4 ـ يحلل الطالب الأسباب السياسية التي أدت الى قيام ثورة 23 يوليو 1952 م . في مصر .

5 ـ يرسم الطالب خريطة الوطن العربي مبيناً عليها مناطق استخراج النفط .

وهكذا نجد أن الأهداف السلوكية السابقة تبدأ بأفعال تدل على الأداء أو السلوك الذي يكتسبه الطالب وتظهره نتيجة لدراسته لهذا الموضوع .

ب ـ الأهداف الوجدانية :

وهي التي تتناول الجوانب العاطفية في مجال الاعتقادات والعادات والقيم وتتصل بدرجة قبول الفرد أو رفضه لشيء معين وتقيس الأهداف الوجدانية أنواعاً معينة من السلوك ؛ تتصف بدرجة كبيرة من الثبات ، مثل الاتجاهات والميول والقيم التي يكتسبها الأفراد ، وأسلوبهم في التفاهم مع الناس ، واقامة علاقات انسانية سليمة .

والأهداف الوجدانية تشير الى أن يسلك الفرد سلوكاً انفعالياً على وجه الخصوص ويكون ذلك بأن يظهر الطالب مشاعر الحب والتقدير ، والتسامح ، والميول أو التذوق الجمالي الى غير ذلك .

ومن الأمثلة على الأهداف الوجدانية ما يلي :

1 ـ يقرأ الطالب وقت فراغه كتباً في التاريخ أكثر من قراءته في أية مادة أخرى .

2 ـ يؤدي الطالب واجباته المدرسية في مواعيدها المحددة ، ودون تأخير في أكثر من 90٪ من الواجبات .

3 ـ يتذوق الطالب القيم الخلقية التي وردت في سورة مريم ، وذلك بكتابة مقال حول الموضوع في الجريدة الحائطية .

4 ـ يشترك الطالب في الرحلات الصيفية للمدن والآثار التاريخية في الجماهيرية ويكتب مذكرات عنها .

الأهداف المهارية :

وهي التي تعبر عن المهارات اليدوية ، والمهارات الحركية والقدرة على تناول الأدوات والأجهزة واستخدامها ، والقدرة على القيام بأداء معين يتطلب التناسق . والتوافق الحركي والعصبي والنفسي[8]. وتحت هذا النوع من الأهداف هناك ثلاثة مستويات .

1 ـ مهارات بسيطة ذات حركة واحدة كرفع يد أو اغماض عين .

2 ـ مهارات مركبة فيها أكثر من حركة كالمشي والجري .

3 ـ مهارات تتناول استخدام جسم مستقل عن جسم الانسان ، كلعب الكرة أو ركوب الخيل أو ما شابه ذلك . وتشكل هذه المهارات المستويات الرئيسية في هذا المجال وهناك مستويات متفرعة عنها .

وعلى ضوء هذه التصنيفات للأهداف يتضح أن الجانب المعرفي والجانب الوجداني أكثر ارتباطاً بتدريس المواد الاجتماعية بصفة عامة وبمقررات العلوم الانسانية بصفة خاصة .

الانتقادات :

على الرغم من الجهود التي بذلت في تصنيف الأهداف السلوكية ، والفوائد التي عادت على العملية التدريسية خصوصاً ، والعملية التعليمية عموماً ، فإنه لا زال أمام هذه الأهداف صعوبات تحتاج الى مزيد من البحث العلمي للتغلب عليها في المستويين ومن هذه الصعوبات ما يلي :

1 ـ يحتاج المعلمون الى تدريب عملي خاص في صياغة هذه الأهداف .

ذلك أن الدراسة النظرية وحدها لا تجعل المعلم قادراً على ذلك بسهولة وبكفاءة . ان الخيبة التي يعانيها المعلمون عند الفشل في تطبيق هذه الطريقة تجعلهم يتراجعون الى الطريقة القديمة بعمومياتها ومساوئها ، وذلك لتعودهم عليها .

2 ـ يخلق التفريع الدقيق للمستويات داخل كل مجال من المجالات صعوبات كبيرة أمام المعلمين وذلك بسبب التداخل النسبي بين المستويات من جهة ، ومن حيث دقة المفاهيم المستعملة لدى المطبقين من جهة أخرى . وللتغلب على هذه المشكلة ، يلزم أن يبدأ المعلم في التعامل معها ، ننتقل الى الأهداف الخاصة بالمستويات الفرعية .

3 ـ يميل أغلب المعلمين الى الاهتمام بالجانب المعرفي في العملية التعليمية لوضوح محتوياته ، وسهولة التعامل معها ويهملون الأهداف السلوكية الأخرى المرتبطة بالجوانب الوجدانية والحركية ، وزد على ذلك أن بعض المدرسين يهملون المستويات العليا في الأهداف المعرفية ، وخاصة تلك المرتبطة بعمليات الفهم والتحليل والتفسير ويركزون على المستويات الدنيا الخاصة بحفظ الحقائق والمعلومات(9) .

* المراجع التي اعتمد عليها الباحث *
بالاضافة الى خبرته في مجال التدريس

1 ـ ابراهيم بسيوني ، وفتحي الذيب ، تدريس العلوم والتربية ، « الطبعة السادسة » القاهرة ، 1977 م ، ص 105 .
2 ـ محمد الهادي العفيفي ، **الأصول الفلسفية للتربية** ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية 1974 م . ، ص 40 .
3 ـ فؤاد سليمان قلادة . أساسيات المنهج في التعليم النظامي وتعليم الكبار . « الطبعة الأولى » الاسكندرية ، دار المطبوعات الحديثة ، 1970 م ، ص 37 .
4 ـ محمد عزت عبد الموجود وآخرون . **أساليب المنهج وتطبيقاته** ، القاهرة ، مطبعة دار النشر الثقافية ، 1977 م ، ص 79 .
5 ـ أحمد خيري كاظم وسعد يس زكي ، **تدريس العلوم** ، القاهرة ، دار النهضة العربية 1974 م . ، ص 61 .
6 ـ محمد عزت عبد الموجود « الأسس الفنية لصياغة الأهداف التعليمية » **مجلة كلية التربية ، جامعة الفاتح** ، « العدد الرابع » 1974 م . ، ص 93 - 95 .
7 ـ منير كامل وآخرون ، **التربية وعلم النفس للصفين الأول عام ، والرابع نظام الخمس سنوات ، بمعاهد المعلمين والمعلمات** ، الجماهيرية ، 1977 م . ص / 40/44 .
(8) محمد عزت عبد الموجود ، « الأسس الفنية لصياغة الأهداف التعليمية » .
* مجلة كلية التربية* جامعة الفاتح « العدد الرابع » 1974 م . ص 95/93 .
(9) محمد عزت عبد الموجود ، « الأسس الفنية لصياغة الأهداف التعليمية » (مرجع سابق) ص 96

رحلة مع كتاب

رجال ونساء اسلموا

اعداد أبو طارق

عرفات كامل العشي

ليس هناك أجمل ولا أوقع على قلب المسلم من أن يسمع أخبار اعتناق الكثيرين للإسلام مطلع كل شمس وفي كل بقعة من العالم ، وأخبار مثل هذه تبعث الطمأنينة في قلب المسلم وتزيد في قوة إيمانه خاصة عندما يكون مصدرها أوربا وأمريكا ، ذلك أننا في ظل الغزو الفكري الذي تسرب إلينا خلال القرون الأخيرة أصبحنا نعتبر « الغرب » مثلاً يحتذى وسلوكاً يثير الاعجاب ويدعو الى الاطمئنان مهما كان نوعه .

ورغم أن الإسلام دين عالمي خاتم للأديان السماوية ، ولا يضيره كثر أتباعه أو قلوا ، ورغم أن المسلم الحقيقي لا يندهش لسماع مثل هذه الأخبار لأنه يعتبرها نتيجة طبيعية لما يطرحه الاسلام من تعاليم منطقية ونتيجة لما تسير اليه البشرية من ترد حضاري حين ابتعدت عن الينابيع الالهية الصافية ، أقول برغم كل ذلك فإن أخبار انتشار الاسلام بين شعوب العالم تقدم لنا دروساً ومواعظ نحن في أشد الحاجة إليها خاصة مسلمي الوراثة الذين غلب على إيمانهم طابع التقليد وخلت عقائدهم وممارستهم لشعائرهم من البعد الروحي الذي يعتبر الركيزة الأولى في اعتقاد المؤمن وعبادته .

إن الكتاب الذي نقدمه اليوم هو بمثابة غذاء روحي لكل مؤمن فهو عبارة عن قصص مختارة لأصناف مختلفة من الناس ضلوا طريقهم وسلكوا دروباً ومتاهات شتى ظنوا أنها ستوصلهم الى الحقيقة ولكنهم في النهاية اكتشفوا أن الحقيقة إنما هي في الإسلام وفي تعاليمه ومبادئه ، وهي فقط التي أروت ظمأهم وهدتهم الى النور الذي بدد ظلماتهم وفتح آفاق الهداية والسعادة أمامهم ، وخلال رحلتهم من الالحاد أو من الشك الى اليقين مروا بتجارب اكتشفوا من خلالها زيف كل المذاهب والأديان الأخرى ، وعرضوا من خلال قصص ايمانهم قضايا هامة لها أثرها الكبير في مجال الدعوة الاسلامية .

يقع كتابنا في سبعة أجزاء صغيرة ، أو كما يسميها الكاتب « حلقات » ابتدأ صدورها عن دار القلم بالكويت منذ سنة 1968 م ، وقد حوى الكتاب حتى الحلقة السابعة أكثر من مائة قصة لجنسيات مختلفة نقلها الكاتب وترجمها عن مجلات مختلفة عربية وأجنبية .

وقد قدم للكتاب في حلقته الثانية الدكتور عيسى عبده الذي لاحظ على الكاتب عدة ملاحظات قيمة لعل أهمها أنه يذكر القصة هكذا كما أوردها صاحبها دون أن يتبعها بتعليق أو توضيح يستخلص منه الدروس المستفادة أو يبين النقاط الأساسية التي كانت سبباً في إسلام هذا أو ذاك وهو ما يؤدي إلى وجود ثغرة في الكتاب من شأنها ـ إذا تفاداها الكاتب ـ أن تزيد الكتاب روعة وجمالاً يؤديان الى اعطاء صورة صحيحة عن الإسلام الحقيقي خاصة في هذا العصر الذي تحالفت فيه قوى متعددة من أجل تقديم إسلام مشوه بعيد عن الاسلام الحقيقي الذي أنزله الله في كتابه ورسمه محمد ﷺ سلوكاً وعملاً . . .

إن القارىء لهذا الكتاب سوف يخرج بانطباع واحد وهو أن الاسلام في هذا العصر يزحف حثيثاً وبقوة مذهلة وسط شعوب العالم المختلفة ودون أن تكون له سيوف تتقدمه أو حكومات تفرضه أو مؤسسات تستغل حاجة البشر من أجل أن تلزم به الفقراء والمعوزين. إن معظم القصص التي ذكرت في هذا الكتاب كانت لأناس دخلوا الإسلام عندما وجدوا إجابات شافية لأسئلة محيرة عن الكون والحياة بأنماطها المختلفة ، كانت تسيطر على أفكارهم وتعكر صفو حياتهم .

ولعلنا نكون أقرب إلى الكتاب وإلى ما يقدمه من مادة مشوقة إذا قرأنا إحدى هذه القصص التي سوف لا نجهد أنفسنا في اختيارها ، بل سنقدمها بدون اختيار لتكون صورة معبرة عن الكتاب كله .

هُـــدَى(*)
قصة من بلجيكا

—1—

على مقربة من جامعة بروكسل ، حيث شارع (10 ، فيلا 19) وفي حي فخم يجاور بحيرتي (اكسل) الرائعتين ، يقع ذلك البناء الذي شاء القدر أن يكون مركز الدائرة في احداث هذه القصة . . .

هذا البناء الأنيق ذو المدخل الواحد ، يتألف من دورين في الأعلى أعدا للأجرة ، ثم طبقة أرضية استقلت بها الأسرة المالكة البناء ، وكانت اثناء ذلك تتكون من السيدة (نيلي) التي أوغلت في العقد السادس وقرينها السيد (بلانشار) الموظف المتقاعد الذي لعله لا يسبقها بأكثر من خمس سنوات ، وان كان ظاهرهما يخدع الناظر عن حقيقة عمرهما ، فلا يقدر لهما معا أكثر من العقد الخامس ، ومرد ذلك الى

(*) ساهم بهذه القصة الأستاذ محمد المجذوب ، وهي قصة واقعية بأشخاصها وأحداثها .

تلك الحياة الهنيئة التي يعيشانها ، بل يصنعانها بحسن تفاهمها وتدبيرهما . . وانها لحياة هادئة لينة ، يطبعها التهذيب الرفيع والرغبة في ايثار الكلمة الطيبة . ولا شك أن للتربية المدنية العريقة أثرها العميق في هذا اللون من الحياة ، يضاف اليها ان الزوجين يعتمدان في معيشتهما بالدرجة الأولى على ما يتقاضيانه من أجور للدورين الأعليين ، ومن شأن أمر كهذا أن يجعلهما شديدي الحرص على مرضاة النزلاء أياً كان لونهم وجنسياتهم . . مما جعل المستأجرين أنفسهم شديدي الارتياح الى جوارهما ، فلا يكاد النزيل يفارق ملكهما الا اذا اضطره الى ذلك سفر أو هجرة . . . ولهذه الميزة كان نزيلا الدور الثاني ـ من الطلاب السوريين ـ على أتم الرضى بمجاورة هذين المخلوقين ، اذ يجدان في هدوئهما وحسن معاملتهما الجو الذي تتطلبه دراستهما ، وطريقة حياتهما ، التي تخالف الى حد بعيد طريقة الكثيرين من أبناء جلدتهما . . .

أما الدور الأول من هذا البناء فقد أصبح من حظ شخصين من الأوروبيين ظلا حتى الآن ، على الرغم من مرور ستة أشهر على سكناهما ، مجهولين ، لا يعرف احد في البناء كله من أمرهما شيئا ، سوى أن أحدهما امرأة فرنسية من مواليد بلجيكا اسمها (بوليت غيو) ، وأن ثانيهما رجل هولندي يرجح أنه بغير عمل ، لانه قلما يغادر الدار ، الا يوم الأحد ، حيث يخرج مع هذه المرأة في رحلة تستغرق أكثر النهار ، وقليل من الناس يعرف اسمه .

ولقد عرف النزيلان جنسية هذين الجارين المجهولين عن طريق صاحبة الدار ، التي كان لا بد لها عند تأجيرهما من ان تعرف بعض الأشياء الضرورية عنهما ، ومن ذلك عمل المرأة التي سجلت بجانب اسمها انها تقوم بمهمة (سكرتيرة) لمدير القسم الخاص بسيارات (فولكس فاكن) من شركة (انيره ن) لصناعة السيارات . . .

وبدافع من الفضول الشرقي سأل عدنان ـ وهو أصغر الأخوين الطالبين ـ صاحبة الدار عما اذا كان ذلك الرجل الهولندي زوج المرأة . . فنفت ذلك ، وذكرته بأن هذا الأمر لا يهمها ، بل لا يهم سواهما ، وكل ما يعنيها منهما هو أن يكونا جارين مهذبين ، وان يؤديا اجرة الدار تامة في الموعد المعين . . وكلا الأمرين مؤمنان على أكمل وجه . .

وكان مألوفا ان يتلاقى الأخوان وهذه الجارة الفرنسية معظم الايام ، على مدخل الدار السفلي ، أو اثناء الدرج فلا يكون بينهم اكثر من تحية طائرة تفرضها المجاملة ، دون ان تجر وراءها كلمة واحدة . . على كثرة ما تكررت . .

على ان أكثر ما يلفت النظر في هذه المرأة هو عنايتها الصارخة بزينتها اليومية ، فهي ، بالرغم من أنها لا تستطيع حجب سنها الناطقة بما فوق الأربعين ، لا تكاد تفارق الدار الى عملها في الصباح الا بعد ان ينال كل عضو من جسمها حصته من التبرج الغالي . . ومع أن التبرج في الحياة الاوروبية هو الطابع الرئيسي في المرأة . . تفتن به لتفجر الكمين المتماسك من رغبة الرجل ، غير انه في هذه المرأة يعدو المألوف من ذلك . . اذ لا تعرف فيه حدا للاعتدال ، فالأحمر الذي تقتنع منه الأوروبية بالقليل على حافة

الشفتين ، يتجاوز عندها المجال الذي حدده العرف ، حتى يصبغ مساحة أبعد حولها . . والثوب الذي ترك واجب الستر حتى أصبحت وظيفته مجرد الاغراء . . قد بات على جسدها أقرب الى (تبان) السباحة ، فلا يستر بمقدار ما يجسِّم . . حتى نظارتاها ذاتا الاطار الذهبي الانيق لا تستعملها لتعديل النظر بمقدار ما تريد منها الاثارة . . !

وبأوجز تعبير : كانت المرأة أنموذجاً من الاستهتار الذي لا يقيم وزنا لأي مقياس أو تقدير . .

ومع ذلك كله فهي تمر بالطالبين وزائريهما ، كما تمر بالآخرين من الناس في الشارع والترام والسيارة والشركة نفسها متجاهلة الجميع ، لا تثبت نظرها في أي وجه ، الا بمقدار ما يتطلب الموقف . . فكأن غرضها الوحيد من ذلك الاستهتار هو فقط اجتذاب الأبصار ، واثارة الفضول دون أي شيء آخر . . !

— 2 —

وحدث ذات يوم أن محمدا ، وهو أكبر الطالبين ، قد عاد من اجازته الصيفية في دمشق ، ليستأنف دراسته بقسم الدكتوراه في الكيمياء الصيدلية ، وكدأبهما في مثل هذه المناسبة كان عليه أن يخص جيرانه ببعض الهدايا الشرقية ، فملأ لصاحبي البناء طبقا من الحلوى ، ثم مضى بمثله الى جاريهما الجديدين المجهولين . . وعلى مدخل الدور وقف يضغط الجرس ، وينتظر . . ولما أطلت الجارة الفرنسية تتعرف الطارق فوجئت بما لم تتوقع . . وجمدت قليلا قبل أن ترد تحيته ثم سألت في لهجة لم تخل من الاستغراب : ماذا ؟

ومد محمد يده بالطبق الشهي، وهو يقول: انها هدية صغيرة من حلويات دمشق، قدمت مثلها الى جيراننا الآخرين ، فهل تتكرمين بقبولها ؟

وسكب محمد هذه الكلمات في عبارة فرنسية أنيقة ، اختار لها الكلمات المناسبة ، وانثالت على لسانه في صوت حيي سرعان ما بعث الاطمئنان في قلب المرأة ، فتناولت الهدية شاكرة ، ودعته الى الدخول وألحت بذلك ، فلم يسعه الا الاستجابة . . واتخذ مجلسه الى يمين الهولندي الذي قدمته اليه باسم رفيقها السيد (. . . ؟ . . .) والذي لم يعره الا قليلاً جداً من الاهتمام ، اذ سرعان ما عاد الى محفظ الصور التي بيده يقلب فيها النظر . .

ودخلت بالهدية الى غرفة الطعام ، ثم عادت ومعها صحفة فضية يعلوها قدح صغير مذهب . . وانحنت وهي تقدمه اليه . . ولكن محمدا وضع يده على صدره وهو يعتذر : سأكون شاكرا اذا اعفيتني .

ـ ولكنها خمر جيدة من أحسن انواع الكونياك .

ـ لا أشك في حسن ذوقك . . ولكنني لا أشرب الخمر . .

ـ لماذا ؟

ـ مسلم !!! . . .

وانزلقت الكلمة في عفوية ممزوجة بالدهشة وجمدت عيناها لحظة على وجه ضيفها ، انها تريد أن تتبين خصائص هذه الكلمة الغريبة من خلال ملامحه وقسماته .

ولم تشأ ان تحرج الفتى بالالحاح . . فوضعت الكأس في الصحفة الفضية على النضد النصفي ، ثم أخذت مجلسها في مقعد مجاور ، وجعلت تنظر اليه ، وهي تقول : الاسلام ! هذا شيء أذكر أني قرأت عنه في بعض الكتب . . وقد اعجبني منه دعوته الى النظافة .

فقال محمد : ان النظافة في الاسلام من الصفات الاساسية . . ولكني أرجو مع ذلك ان يكون الكتاب الذي قرأته عنه من الكتب النظيفة ، التي لا تتعمد تشويه الحق .

ويظهر ان حرارة اللهجة التي مازجت كلمات الفتى قد استهوت مشاعر المرأة فعقبت تقول : الحق انني لم اقرأ الكثير عن هذا الدين الشرقي ، ولم أتعمد البحث عن مضمونه . . حتى انني لا أذكر بالضبط أين قرأت عنه .

وكان محمد يستمع الى تلك العبارات ، وهو يجيل بصره في الكتب المنضودة بأناقة على رفوف الخزانة التي بجانبه . فقال دون ان يحول بصره عنها : يبدو أن السيدين مولعان بالمطالعة . . وفي الكتب الفلسفية بخاصة ؟ ! . .

فلم ينبس الرجل بحرف . . واكتفى بزم شفتيه كأنه يرفض المشاركة في الحديث . . أو يشير الى عدم اهتمامه بالمطالعة ، ولكن المرأة اجابت : المطالعة أحب هواياتي . . وخاصة في الفلسفة والأدب . .

هل ترغبين في قراءة شيء عن الاسلام ؟ . . لدي كتاب بالفرنسية ذو اسلوب ادبي معجب . . وفيه كثير من الحقائق الموضوعية عن هذا الدين . . الالهي .

وتعمد استخدام كلمة (الالهي) ليجعلها مقابل كلمة (الشرقي) التي وردت في تعبيرها . . وقد عني باخراجها في نبرات خاصة تلفت الانتباه . . فلم تتردد أن قالت : سأكون شاكرة اذا أعرتني هذا الكتاب ما دمت واثقا من موضوعيته . .

ولم يشأ أن يؤخر الأمر فاستأذن ليأتيها به . . وما هي الا دقيقتان حتى أقبل عليها . . وهو يقول : انه مقدمة لكتاب ضخم ألفه مصري اسمه (عبد الله دراز) بعنوان (اخلاق القرآن) . . لينال به اجازة الدكتوراه من باريس .

وقبل ان يغادر باب المنزل للمرة الأخيرة التفت الى المرأة يقول : لعل سؤالا ما يخطر في بالك أثناء

قراءته . . فلو كتبت ذلك لكان فرصة حسنة لبذل ما نستطيعه من الخدمة . . .

— 3 —

وفي غمرة من العمل الدائب كاد محمد ينسى تلك الجارة الفرنسية والكتاب الذي أعارها اياه ، لولا ذلك اللقاء اليومي الذي يذكرهم بها عند مدخل البناء ، أو على الدرج المشترك ، فلا يزيد عن تحية أو ردِّها ثم يمضي كل في طريقه دون سؤال . .

ولكن حدث اليوم شيء جديد لم يعهدا مثله منذ حلت هذه المرأة ورفيقها مكانهما من هذا البناء . .

كان اليوم هو الاثنين ، موعد الاجتماع الاسبوعي ، وبينما الشقة مكتظة بالرواد مالئين غرفها الثلاث وردهتها الواسعة ، اذا بصوت الفرنسية يقتحم عليهم الشقة صاعدا من تحت . . وفيه تعنيف يصل الى مستوى الاهانة ، موجها الى الرفيق الهولندي . . دعني . . الى متى تمص مالي ؟ وأنت لاصق بمقعدك كالعنكبوت ! . . لم أعد أطيق رؤيتك ! . .

ويرتفع صوت الهولندي خلال ذلك ، ولكن في لغة خليط لا يكاد يفهم منها شيء . . . ثم لم تلبث الضجة أن همدت وأعقبها وقع أقدام الرجل يهبط السلم وهو يقذف باللعنات يمينا وشمالا . .

ولم يستطع محمد أن يستكشف النبأ فهبط الى الدور الأرضي يستوضح السيدة (نيلي بلانشار) الأمر فاذا هي تخبره أن هذه الفرنسية بدأت تضيق بوجود ذلك الرفيق منذ اكثر من شهر . . وقد أعلمتها أمس أنها قد تضطر قريبا لمغادرة المنزل الى شقة صغيرة تكفيها وحدها . . ويبدو أنها قد تخلت عن الرجل . . فهي اذن على وشك الانتقال من البناء كله . . !

وكأن محمداً وجد في هذا الخبر الشيء الذي هو بحاجة اليه . . فلم يتمالك أن قال لصاحبة البناء : « بوسع هذه الجارة أن تحتل مكاننا اذا كانت تؤثر شقة صغيرة . . على ان ننزل نحن الى مكانها . . لأننا بحاجة كما ترين لدار أوسع . . » .

ولم تر المرأة مانعاً من تحقيق هذا المقترح فوافقت بسرعة . . وأخذت طريقها الى فوق وهي تقول لمحمد : ذلك خير لكم ولنا . . لأننا لا نتوقع جاراً أطيب منها . .

— 4 —

وعاد الأخوان مساء ليجدا كل شيء قد تم على ما يرام بل فوق المرام . . لقد بدلت الدار بالدار ، ورتبت أشياؤهما ، من كتب وثياب وحقائب وما الى ذلك مما يملك المسافر ، في أمكنتها المناسبة من المنزل

الجديد . . وكانت الدار بأثاثها الأصلي الفاخر غاية في الأناقة التي يحلم بها طالب في منزل اجرة (بانسيون) . . فاستشعرا روح الهناءة ، ووقفا هنيهة يخططان للاجتماعات المقبلة . . ولم ينسيا أن يخصصا قاعة مناسبة لصلاة الجماعة وقيام الليل المشترك في أوقاته الاسبوعية . . وشد ما أدهشهم منظر بياضهم مغسولا مطويا ، وثيابهم منظفة مكوية ، وقد نسقت على مشاجبها في الخزائن ! فقدرا فضل الجيران الذين نهضوا بهذا العبء متبرعين ، وهمّا بالهبوط الى الدور الأرضي ليشكرا السيدين على جهدهما المبرور ، ولكنهما فوجئا بالجرس يدق ، ولما فتح الباب أطلت منه المرأة الفرنسية تحييهما ، وتسألهما اذا كانت ثمة من خدمة اخرى تستطيع تقديمها لهما . . !

واستجابت المرأة لدعوتهما ، فجلست لترشف قدح الشاي الذي صب لها . . وقالت ردا على الثناء الذي وجهاه اليهـا : لم أفعل شيئاً كبيراً . . لقد وجدت نفسي في فراغ الاحد ، وكان لا بد من نقل امتعتي الى داركما الأولى كما اتفقنا ، فبدلا من أن أعود فارغة الى فوق في كل مرة كنت أحمل بعض امتعتكما بطريقي ، بمساعدة الجارة الكريمة صاحبة البناء ، ثم وجدت لدي بقية من فراغ فسليت نفسي بانجاز بعض الأشياء التي قد يضيق وقتكما عن انجازها في الوقت المناسب .

قال عدنان : ولكن هذا كثير أيتها الجارة المحترمة . .

قال محمد : لقد وضعتنا بذلك تحت عبء من الفضل قد نعجز عن مكافأته . . وهنا أثبتت نظرها قليلا في وجه الفتى الذي صبغه الحياء ، وبرق ببوادر الشعور بالجميل . . ثم قالت : « بل لعل الأمر على العكس . . ولو علمت ما أحدثت عاريتك في نفسي لأدركت أنك أنت المتفضل . . »

وفجأة وثب الى خيال محمد صورة تلك الليلة التي طواها وراء ستة أشهر ، وتذكر الكتاب الذي اعارها اياه . . فقال : أرجو أن يكون وقتك قد اتسع لقراءة الكتاب !

ـ لقد أعدت قراءته خمس مرات . .

ـ وبالطبع كتبت ملاحظاتك عليه . . !

ـ الملاحظات كثيرة . . ولكني لم أكتب واحدة منها خارج قلبي . . أجل . . لقد نقشت انطباعاتي بالكتاب هنا . . على صفحة قلبي التي لا تقبل المحو .

وسكتت وسكت الفتيان يفكران بما يسمعان . . وينظر كل منهما الى الآخر دون كلام . . حتى عادت المرأة تقول : كنت أحسب ان تجاربي الماضية كانت كافية لصرفي نهائياً عن أي تفكير ديني . . ولكن هذا الكتاب قد كشف لي بشكل مباغت انني على أتم الجهل بجوهر الدين ، وانني لأول مرة أجد نفسي في مواجهة الحقائق الالهية ، التي قضيت شطراً كبيراً من عمري في البحث عنها بغير طائل . .

قال عدنان : ذلك حال طبيعي . . فالقلب الانساني كالقفل الدقيق لا يستجيب الا الى مفتاحه ،

وليست الحقائق الالهية الا ذلك المفتاح . .

ـ تمثيل رائع . . وأستطيع القول بنتيجة خبراتي الشخصية أن هذه الحقائق هي وحدها التي تروي عطش القلب الضائع في صحراء المجهول . . وكل تفكير ديني مجرد عنها هو كالماء الملح لا يزيد النفس الظامئة الا تلهفاً واحتراقاً . .

وفي غير تعمد انسرب بصر محمد يجول في مظهر هذه المرأة . . كأنه يفتش عن الدليل الذي يؤكد أنها جادة في الذي تقوله ، فاذا هو يصطدم بالواقع . . الواقع البعيد عن كل صلة بهذه الحقائق . . !

ان الأحمر الذي يغرق شفتيها . . والركبتين تشدان النظر الى ما وراءهما في اغراء وقح . . والضغط الصارخ الذي يلصق الثوب القزم بكل جزء من أنحاء هذا الجسم المصنَّع . . والذي لا يزال محتفظاً بالكثير من مغريات الفتوة . . كل اولئك من شأنه ان يفرغ كلامها المحكم من كل معنى جاد . . وبخاصة في مقياسه هو الذي لا يستطيع التفريق بين الفضائل الروحية وسلوك مدعيها . . ولذلك لم يستطع منع وجهه من ابتسامة خفيفة لا يفوت الذكي ما وراءها !! . .

وعادت الفرنسية الى الكلام : « لقد اطمأن عقلي وقلبي الى هذا الدين . . وأريد أن أسألكما عن السبيل الى اعتناقه . . »

قال محمد : ان مجرد الاقتناع به اعتناقه . . ويبقى اعلان ذلك بالشهادتين ان لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله . .

ـ فأنا أشهد ان لا اله الا الله ، لأنني مقتنعة من قديم بهذه الحقيقة وأما رسالة محمد فلا ينكرها الا كافر بعقله ، أو كاره للحق . . فهل أنا اذن مسلمة الآن ؟!

ـ بالتأكيد . . ولكن هناك مشكلة . .

ـ مشكلة ! . . وما هي ؟

ـ هي ان الاسلام نظام كامل . . يؤخذ جملة لا تفاريق . . وهو يفرض على معتنقه سلوكا معينا ، ومظهرا خاصا ، وخلقا مميزا بحيث يمثل في شخصه المتميز ، الخطوط العملية الكبرى لحقيقته الالهية .

ـ أدركت هذا من سلوككم . . الذي أعطاني في الواقع كثيراً من التفسيرات التي لم يتسع لها الكتاب . . لقد سئمت الاديان التي تفصل بين السلوك الشخصي والمعبد . . وتتساهل حتى في الفضائل الرئيسية ، فلا تتورع عن استخدام المسابح المختلطة ، والملاهي العابثة ، والمراقص المنكرة ، كوسيلة لاستبقاء الرباط بينها وبين الشباب الطائش . . وكرهت من رجال هذه الاديان بوجه خاص وقوفهم في نطاق الطقوس الرمزية داخل حدود المعبد ، فيفصلون بذلك بين المعبد والشارع ، اذ يفصلون بين لحظات العبادة وبقية الحياة ، فيكتفون من المتدين ان يظل على صلة بمعبدهم ولو ساعة في الاسبوع ، ثم لا عليه

بعد ذلك ان ينطلق وراء غرائزه في سباق محموم لا يعترف بأية رقابة لعين الله ، ولا أية مسؤولية تجاهه . . ! وذلك بخلاف الاسلام الذي تبين لي انه من الشمول بحيث يعتبر الارض كلها معبدا ، وكل عمل صالح عبادة ما دام المؤمن يأتيه وهو مستهدف رضوان ربه . . ومن هنا كان المسلم الحق صورة صحيحة للاسلام . . وهو لا شك سعيد بذلك ، لأنه لا يستشعر أي تناقض بينه وبين قوانين الطبيعة من حوله وفي داخله ، بل انه ليشعر بديل ذلك بأتم الانسجام بينه وبين الحياة وأن كل شذوذ عن موجبات هذا الدين مؤد الى شقائه ، لأنه تصادم مع مبادىء الحياة نفسها . .

وأمسكت قليلاً تحدق في ما بين يديها دون تركيز على شيء بعينه، وقد غرق البهو كله في صمت عميق ، وأطرق كل من الفتيين مثلها يسبح في غمرة هذه المعاني ، التي فتحت امام نفسيهما آفاقاً ماتعة ، يخيل اليهما أنهما يستشرفانها لأول مرة .

وقطعت الصمت كرة اخرى لتقول : « من أجل ذلك استجابت نفسي كلها لهذا الاسلام ، اذ وجدت فيه دعوة الله المتجاوبة مع أعماق الفطرة الانسانية . . وقد صممت على أن اخضع جميع تصرفاتي الى أحكامه . . »

ولم يشأ محمد أن يؤخر ملاحظاته أو يحمحم بها فقال : ولو قضت هذه الأحكام بتغيير نظام حياتك كله !؟

وفي تصميم قاطع أجابت : وما فائدتي من الاسلام اذا هو لم يغير طريقتي في الحياة ! . . وهل تظن أنني كنت راضية عن نفسي . . ونظام حياتي . . وعن أي شيء ما حولي ! . .

ثق أيها الجار الكريم انني كنت انسانة ضائعة ، بل غريقة يتلاعب بها تيار المجتمع على كره منها ولم تكن تصرفاتي الشخصية جميعها الا محاولة للهروب من الواقع الحائر ، الذي تفرضه علي حضارة لا أؤمن بها لأنها حضارة عوراء ، لا ترى من الانسان الا جانبه الجسدي ، ولا تقيم وزناً لأي ظمأ داخلي خارج نطاق المادة ، ولقد كان لقائي بك ليلة الهدية أول صدمة شدتني الى الاتجاه الآخر . . ثم جاء كتاب الدكتور دراز فدفعني شوطاً بعيداً في هذا الطريق ، وكان لطريقة حياتكم في هذا الجوار الطيب أثرها العملي في صيرورتي الى هذا التقرير المطمئن . . وأنا اليوم بما أدركته من هذا الدين أشعر بأنني عثرت على نفسي ووجدت حقيقتي ، ووضعت قدمي في الطريق السوي . . فكيف لا أخضع وجودي كله لحقائق الاسلام ، وهو الذي أنقذني من ذلك التمزق ، وهداني السبيل بعد ذلك الضياع الوبيل . . !

وعقب عدنان على ذلك قائلا : ولكن عناء جديدا ينتظر القابض على هذا الدين . . لعل أهون منه قبض الجمر . . انه يفرض تطهير الجسد كما يفرض تطهير داخله سواء بسواء . . ويتطلب من المسلمة بوجه خاص التخلص نهائياً من مثل هذه الثياب الى أشكال أخرى تتم بها الحشمة ، دون تضييق ولا تقصير ولا خلاعة . . حتى الشعر لا يأذن بظهوره لأجنبي . . وهناك صلوات خمس في كل يوم وليلة لا

مندوحة من ادائها . . ثم صيام رمضان الذي نحن فيه هذه الايام . . ثم كف النفس عن كل شهوة حرمها الله . . كالخمر والرقص المختلط ، والخلوة بالأجنبي . . وأقل ما يجره هذا الاتجاه هو أن تصبحي هزأة لدى الذين سيرون منك كل هذا التغيير دون مسوغ مقنع . . .

وكف عن الكلام ليرى أثره في نفسها فاذا هي تقول : اما هذه الثياب فستتغير في أسرع وقت . . وفي الصلوات الخمس فرص سعيدة يتاح لي فيها أن أروي ظمأ قلبي الى مناجاة الله . . وسأجد في الصيام دون ريب متعة رائعة ، اذ تعرفني حاجة الانسان الى نعم الله التي ألف ألا يعيرها تفكيرا . . ولقد مجت نفسي تلك الشهوات التي لم تزدني الا استشعاراً للفراغ الروحي الذي طالما عانيته . . أما هزء الناس فقد توقعته ، ووطنت نفسي على احتمال كل شيء . .

ولم يبق لدى الفتيين ما يقولانه بازاء هذا الاصرار الحاسم . . فاكتفيا بأن قدما اليها الاوراق التي كتب فيها بالفرنسية صيغ الوضوء والصلاة . . وما لا مندوحة عن معرفته للمسلم المبتدىء . . ثم قال محمد : سنكون جميعنا مسرورين باستقبالك أصيل كل اثنين ، اذا شئت أن تحضري معنا بعض الدراسات والعبادات . وسترحب بك أخوات من السنغال والبانيا واندونيسيا وأنحاء اخرى من العالم . .

كان أول شيء قامت به (هدى) ـ وهو الاسم الذي اختارته بوليت غيو الفرنسية لشخصيتها الجديدة ـ أن دخلت في صباح اليوم التالي على مدير الشركة البلجيكي فقالت له : لدي خبر أرى من واجبي اطلاعك عليه لكي لا يفاجئك . .

وابتسم المدير لسكرتيرته في لطف أبوي فقالت :

ـ ابتداء من الغد سترون تغيراً بل انقلاباً في حياتي كلها ، وأول ما تلمحونه من ذلك في ثيابي التي ستكون أدنى الى أردية الرواهب . .

ـ لعلك راغبة في اللجوء الى الدير !

ـ كلا . . لا شيء من ذلك . . انما قررت أن أكون مسلمة . .

ـ مسلمة ! . . وهل يعني ذلك أن تتركي الكاثوليكية ؟

ـ هو ذاك لأن الاسلام شيء غير المسيحية المعروفة كلها . . وسأعرفك به عندما تريد . .

ـ ولكن الاسلام كما قرأت وكما اخبرنا بعض القسس يحتقر المرأة . . ويجعلها قعيدة بيتها لا تصلح لأي عمل . . !

ـ ذلك من دسائس أعداء الاسلام الذي لا تعرفه مع الأسف الا عن طريقهم . . اما الواقع فهو ان المرأة لم تسترد اعتبارها الانساني الا في ظل الاسلام . . وقد لبثت أحقابا لا تعدو منزلة الشياطين في حكم

رجال الكنيسة ، حتى هبت على أوروبة نفحات الحضارة الاسلامية عن طريق الاندلس والحروب الصليبية ، فاذا رجال الكنيسة يعدلون رأيهم في المرأة ثم لا يزالون يعدلون حتى انتهوا الى الاعتراف ببعض حقوقها التي قررها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا . . ومهما يكن فذلك بحث نرجئه الى وقته المناسب . . . ولكن هذا لن يؤثر على اخلاصي في عملي بل سيزيدني رغبة فيه واتقانا له ، لأنني بذلك أحقق أحد تعاليم ديني الجديد . .

ولم ير المدير في أمر سكرتيرته أي أمر ذي بال ، ما دام اسلامها لن يحول دون استمرارها على عملها بالنشاط المعتاد نفسه . . وقلب شفتيه ويديه وهو يقول لها : ذلك أمر يخصك ولا يهمني . .

ثم مضت هدى الى زملائها من مستخدمي الشركة ، تنقل اليهم النبأ في لهجة مثقلة بالجد . . وأكدت لهم جميعا أنهم ينكرون غدا مظهرها الجديد لانه مخالف لمألوفهم ، ولكنها ترجو منهم أن يدعوها وشأنها ، وأن يكونوا على أتم الثقة بأن عقلها لم يتغير ، وأنها لن تسبب شيئاً من الازعاج . .

وجاء اليوم الثاني . . وغادرت هدى الشقة الى عملها اليومي في زيها الاسلامي الجديد ، الذي أعدته لها أختها فاطمة الاندونيسية : ثوب سابغ أبيض يمتد من أعلى النحر الى أسفل الساق وقد اتسع حتى لا يمثل أي عضو تحته ، وخمار زبدي اللون أدير على الرأس ، وحول العنق ، بصورة لا اناقة فيها ولا سذاجة ، وفي القدمين المجوربتين حذاء قليل الارتفاع لا يوحي بأي اغراء أو تبذل . . وقد تعمدت أن تكون نظارتاها من اللون الاسود ، لتستطيع حجب تأثيرها من الأشياء المزعجة التي تتوقع أن تراها أثناء اليوم . . وربما كان أغرب ظواهرها هو هذا الوجه الذي تقابل به الناس لأول مرة منذ ثلاثين سنة ونيف خالياً من كل أثر للزينة أو الطلاء . . فلا أبيض ، ولا دهان ، ولا أحمر اللهم الا حمرة الخجل الذي غشي وجهها جميعا بلون ساحر . . . !

وفي سيارة الشركة ، التي اعتادت ان تمر بها كل صباح ، تلقت اول صدمة . . وذلك حين انصبَّت عليها أحداق العمال والمستخدمين فاغري الافواه من الدهشة . . لا تكاد أعينهم تصدق أن هذه هي سكرتيرة المدير ! . . . وحتى الرجال والفتيات الذين أنبأتهم خبرها بالأمس لم يتمكنوا من كتمان دهشتهم فراحوا يتغامزون ويتهامسون وهم يسارقونها النظر . . وفي هذه الغمرة من المفاجآت لم تلحظ هدى أن أحداً رد عليها تحيتها ، كأنهم لم يسمعوها ، أو كأنهم شغلوا عن الرد بهذا المنظر . . حتى جعلت تراجع نفسها فلا تدري أألقت تحيتها أم صرفها انشغال فكرها عن ذلك .

ولم تتمالك رعشة سرت في جسدها وهي تستقبل هذه المفاجأة ، ثم غلبها الضعف فاذا دمعتان كبيرتان تتدحرجان على خديها ، فتسرع الى مسحهما بمنديل صغير كانت تشغل أصابعها بلمسه وتقليبه ! . .

وودت لو تطير بها السيارة لتخلص من هذا الجو . . وقد قررت أن تلوذ بغرفتها فلا تغادرها الا

لضرورة قاهرة ، وأن تتجنب هذه الانظار فلا تخالط أصحابها الا بعد أن يألفوا منظرها الغريب !

ولكن سرعان ما خاب فـأل المسكينة ، اذ ما كادت تهبط من السيارة الى داخل مكتبها حتى فوجئت بالمدير ، يطل عليها من الباب الخاص ، ليقلب نظره طويلا في هذا الزي الذي لمحه عن بعد . . والذي سمع المستخدمين يتهامسون بشأنه . . !

وانتبه المدير الى موقفه فلم يسعه الا أن يتكلم : أسعدت صباحاً أيتها الآنسة . . أرجو ألا تجدي ما يزعجك طوال اليوم ! . . .

وأدركت ما يريد ، وتذكرت كلمات عدنان . . وتصميمها السابق ، فردت تحيته بكل ما استطاعت من لطف ثم قالت : ليثق حضرة المدير ان لا شيء يزعجني . . لأنني مطمئنة الى أن مسلكي هو الأفضل . . وكل استغراب له انما يرجع الى بعد المستغربين عن فهم الحقائق الالهية . .

ولم يجب المدير بشيء . . وترك لشفتيه ان تتمتما ببعض الكلمات الغامضة . . ثم انسحب الى مكتبه . . .

وانتفعت هدى بتصميمها ، وتذكرت أيضا ان الاسلام يستحق منها أكثر من هذه المزعجات . . . أنه غريب في بروكسل كغربته من قبل في مكة . . ولقد تلقى أتباعه الأولون، بين أخوتهم الكافرين به، ألوان العذاب في سبيله ، قبل أن يحتل مكانته الطبيعية في وطنه الأول ، فلم لا تحتمل هي اليوم بعض ذلك العذاب ؟ . . في سبيل تعريفه الى الناس في هذا البلد البعيد عن روحه وحقائقه !!

. . واستمرت حياة هدى على هذا المنوال أياما طوالا . . لقيت أثناءها الأمرين من فضول الناس . . فلم تجتز شارعا ، ولم تطأ حانوتا ، ولم تركب حافلة ، ولم تدخل مركز الشركة الا سمعت الهمس ، ورأت الغمز واللمز . . . وقابلت ذلك كله بجلد هائل . . ولكنها ما تكاد تخلو الى نفسها في بيتها حتى تستسلم الى بكاء طويل ونشيج محرق . . !

وجاءت صاحبة البناء ذات يوم الى دار الطلاب ، لتخبرهم أن جارتهم التي من حقها ان تكون سعيدة في عيد ميلادها اليوم قد اغلقت عليها بابها لتنخرط في بكاء حزين .

وهبطوا : عدنان ومحمد والبلجيكية لاستطلاع خبرها . . وبعد اكثر من دقيقة استجابت لدعوة الجرس وفتحت لهم الباب ، فدخل الفتيان الى الردهة ليأخـذا مكانهما بانتظارها . . ولما عادت نحوهما في رداء الاستقبال ، كان اثر الدمع لا يزال بارزاً من تحت نظارتيها السوداوين . .

ورحبت بهم في صوت لم تستطع اخلاءه من اثر البكاء . .

وتكلم محمد في كثير من التحفظ : لقد كثرت أحزانك في هذه الأيام . . ولا بد أنها نتيجة لوضعك الجديد ، ولما يواجهك بسببه من مزعجات . . وكان الأولى أن تقابلي ذلك بالصبر الذي وراءه

الأجر . .

وأنها أحست في تلك العبارة ما حرك أشجانها من جديد ، فلم تستطع منع عينيها من الدمع . . وترددت ملياً تغالب نفسها ، وتسترد أنفاسها ، حتى استطاعت أن تستأنف . « . . حقا انها لأحداث مزعجة تلك التي أصادفها في كل مكان . . ولكنها لا تزيدني الا شعوراً بالرضى واشفاقا على هؤلاء المساكين الذين لا يعلمون ما يعملون . . ولعل كثيرا من دموعي وأحزاني لا تعدو ان تكون تعبيرا عن الغبطة الروحية التي تستغرقني ، عندما أشعر بأنني أتحمل بعض التضحية في سبيل الله . . غير ان اخوف ما يخيفني هو ان يكون البعض الآخر من هذه الدموع والأحزان نتيجة لضعف خفي في قوتي الروحية ! . . »

وتهدج صوتها ، ثم عاقها النشيج عن متابعة الكلام . . فأمسكت لتمسح دموعها وتهدىء أعصابها .

ورأى محمد أن يساعدها على هواجسها فقال : ان مثل هذه الظاهرة تبدو جلية في جميع الذين هدوا الى الاسلام من اخوتنا الاوروبيين ، وهذا اسماعيل الذي كان اسمه روجيه ، كثيرا ما تتهيج مشاعره حتى لا يجد راحة لقلبه في غير البكاء ، وهذا كما يبدو لي نتيجة رهافة بالغة في العواطف ، ولدتها الأشواق الروحية والتأمل المستديم في معاني القرآن الحكيم . . وهنا رفعت هدى بصرها الى محدثها وقد شاع في وجهها بشر خفي ، ثم قالت وفي صوتها رنة السعادة : « لكم يسرني أن يكون استنتاجك مصيبا أيها الأخ . . الحق أنني أحس في قلبي رقة لم أعهدها قبل اسلامي . . وكثيرا ما يطغى علي هذا الشعور حتى أغيب في فيضه عن كل شيء ، الا تلك الاشارات السماوية التي اكتشفها كل يوم في الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية . . » .

وتوقفت قليلا كأنما اعترضها خاطر مفاجىء . . ثم قالت : لقد عرضت علي اختي بنت سفير السنغال أن أترك الشركة الى سفارتهم ، أجد الجو الاسلامي الذي يريحني من مضايقات المخالفين . . فترددت أولا ، ثم رأيت أن أقبل هذا العرض وان كان دخله دون مرتبي الأول ، لأنه سيوفر لي من الراحة النفسية ما أنا في مسيس الحاجة اليه . . وفي هذه المناسبة أقول لكما انني قررت الاكتفاء بالضروري من دخلي لأجعل ما يزيد عن حاجتي في خدمة الدعوة ، ولمساعدة الفقراء وسوف أفتح منزلي لاستقبال أطفال هؤلاء الذين تضطر امهاتهم الى تركهم للعمل اثناء النهار . . وعندي اقتراح آخر هو أن تتخذ من هذا المنزل مركزاً خاصاً لاجتماعات نسوية اسبوعية ، تضم المسلمات وغير المسلمات ، من المثقفات الأوروبيات اللواتي نأنس فيهن رغبة في الحق ، وقدرة على فهمه . .

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة مساء . . فتذكر الاخوان موعدهما مع بعض زملائهما الجامعيين من البلجيك والهولنديين ، فاستأذنا بالخروج لاستقبالهم ، بعد أن اتفقا مع هدى على جميع النقاط التي أثارتها . . ووضعوا لكل منها الترتيب المناسب .

وبعد هذه الجولة القصصية بقيت لنا عدة ملاحظات يقدمها الكتاب من خلال قصص هؤلاء وهي :

أولاً : أن الإقبال الهائل على دخول الاسلام الآن وفي جميع البلدان مرده أحد أمرين :

1 ـ تعاليم الاسلام ونظامه الكامل الذي يروي ظمأ الحائرين الباحثين عن الحقيقة وسط عالم اسودت معظم جوانبه ولم يبق منه إلا ذلك النور المنبعث من الأجواء التي سادت فيها تعاليم القرآن وقد أكد أغلب الذين تحدثوا عن اسلامهم أنه كان بسبب :

أ ـ بساطة العقيدة الاسلامية وسهولتها وبعدها عن الرموز والألغاز والتعقيدات الكنسية . فالمسلم قريب من خالقه وهو غير محتاج إلى وساطة أو صكوك غفران .

ب ـ النظام الحياتي المتكامل سياسياً واقتصادياً واجتماعياً والذي يراعي الفطرة الانسانية ويعتمد على الحرية والمساواة واحترام آدمية الانسان وإشعاره بمسؤوليته في هذه الحياة والمهمة التي خلق من أجلها .

2 ـ فساد التعاليم والنظم التي تقدمها كل الديانات ـ المحرفة والسائدة في هذا الوقت ـ وكذلك المذاهب اللادينية الأخرى ومعظم الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب أكدوا هذه الحقيقة بل إن بعضهم جعل اتباع هذه التعاليم عاملاً من العوامل التي تؤدي الى القضاء على الحضارة ، وفي ذلك يقول أحدهم : « لو أن المتمسكين بالمسيحية طبقوا تعاليم الانجيل في عموم . . . لقضوا على الحضارة . . . . إن هذه التعاليم لا تناسب البشر في نشاطهم الدائب . . . . وقد تصلح لناسك منقطع عن الدنيا ولكن لو أرادت حكومة معاصرة أن تسن من القوانين الوضعية نظاماً يقع في إطار هذه التعاليم لانقلبت الحياة فوضى وغلب الشر وغاب الحياء والخير جميعاً »[1] .

ثانياً : أن هناك أموراً يجب الاهتمام بها من قبل جميع المسلمين كل فيما يخصه ويستطيع عمله وهي :

أ ـ حاجة المسلمين أنفسهم لفهم دينهم والتعمق في دراسته ومحاولة الالتزام بتطبيقه حتى يمكن القضاء على الهوة السحيقة التي تفصل الاسلام عن الكثير من المسلمين ، هذه الهوة التي فتحت المجال للكثيرين أن يقدموا الاسلام من خلال واقع المسلمين وتصرفاتهم ، وفي هذا المجال يجب أن يوجّه جزء من جهود الدعوة الاسلامية إلى المسلمين أنفسهم للعودة بهم إلى دينهم .

ب ـ أكدت هذه القصص على ضرورة أن يقدم القرآن وتعاليم الاسلام بكل لغة تقديماً اسلامياً صحيحاً حتى تستفيد منه كل شعوب الأرض التي ساهمت الترجمات الهزيلة والمحرفة للقرآن أو التآليف ذات الطابع الاستشراقي في إبعادها عن أن تنال شرف الانضمام لهذا الدين .

جـ ـ بينت هذه القصص أيضاً أن الأسلوب الأمثل في الدعوة الاسلامية هو الأسلوب الذي يعتمد على السلوك الاسلامي الصحيح ، وهو النموذج العملي الذي يقدمه القليلون الذين تمسكوا بدينهم ، فالطلاب

والعاملون خارج البلاد الاسلامية الذين يمتنعون عن شرب الخمر وعن الزنا ويصدقون القول ويتوددون إلى جيرانهم ويحترمون عهودهم الخ هم رسل الدعوة الاسلامية وجنودها الحقيقيون .

هذه هي وبصورة مجملة انطباعاتنا عن هذا الكتاب الذي نقدمه في هذا العدد ونرجو الله أن يجزي كاتبه وقارئه وأن يطيل أعمارنا حتى نلتقي في رحلة أخرى مع كتاب آخر .

(1) الكتاب ذاته / ج 2 ص 22 .

لقاء مع
مدير مكتب تنسيق التعريب

زار الكلية خلال العام الدراسي الماضي الدكتور عبد العزيز بن عبد الله مدير مكتب تنسيق التعريب بالرباط التابع لجامعة الدول العربية وذلك لإلقاء بعض المحاضرات الثقافية.

وكانت هذه الفرصة مناسبة طيبة أتاحت لأسرة المجلة أن تتعرف على هذه الشخصية النشطة في مجال البحث وأن تطارحها الرأي حول عدة مسائل نلخصها في الآتي:

* حياته العلمية:

كانت بداية عهد الاستاذ عبد العزيز بالتعليم بدراسة العلوم الإسلامية وحضور مجالس العلماء في المغرب، فقرأ عليهم علوم الآلة والحديث والتشريع والأصول وغيرها. ودرس إلى جانب ذلك التعليم العصري فتخرج في كلية الحقوق سنة 1946 م. وكانت دراسته من خلال اللغة الفرنسية.

ـ شعر بضرورة دراسة الحضارة الإسلامية وتاريخها والتعمق في اللغة العربية واستقر رأيه على أن يولي عنايته بتاريخ الحضارة العربية في المغرب لأنه لاحظ أن ما كتب عنها قليل.

ـ له مجموعة كبيرة من المؤلفات نتجت عن اهتماماته المتشعبة نورد منها: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية ـ الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب ـ معلمة الفقه المالكي معلمة القرآن والحديث ـ المثال الحضاري في المغرب ـ بحث عن اللغويين في المغرب ـ الاقتصاد المغربي طوال ألف عام ـ تاريخ الطب والأطباء منذ الخمسينات ـ معجم طبي ـ الفن المغربي.

* قضية التعريب وجهود المكتب في مجالها:

ـ في الواقع عندما أسس مكتب التنسيق أسس بنية حسنة إنطلاقاً من حاجة، فقد زار المرحوم محمد

الخامس بعد عودته من المنفى المشرق العربي، ولاحظ هوة لغوية سحيقة بين الشق الشرقي للعروبة والشق الغربي لها، فدعا إلى عقد مؤتمر للتعريب باتفاق مع جامعة الدول العربية من أجل استفادة المغرب العربي، فتأسس آنذاك مكتب تنسيق التعريب وأُسندت إليَّ رئاسته، فأخذت الأمر بجد منذ عام 1961 م.

وضعت ثلاثة معاجم في الفيزياء والكيمياء والرياضيات قدمتها لندوة انعقدت في الجزائر عام 1963 م ووضعت خطة عشرية من عام 1963 م الى 1973 م تم خلالها انجاز ستة معاجم بثلاث لغات في الكيمياء والفيزياء والرياضيات والجيولوجيا والنبات والحيوان.

تبنت الجامعة العربية عمل المكتب عام 1967 م وانضم المكتب إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام 1973.

في المؤتمر الثاني لتعريب العلوم المنعقد في الجزائر وحدت لأول مرة كثير من المصطلحات وقدمنا مجموعة من المعاجم العلمية، فقد كانت القضية حياة أو موت، لأن خصوم اللغة العربية كانوا كثيرين وكانوا يتمنون أن يؤدي عملنا هذا إلى عجز و إلى أن نقول هذا لا يمكن وأن العربية أصبحت غير صالحة.

ـ إن مؤتمرات التعليم تنعقد كل ثلاث سنوات فبعد ثلاث سنوات انعقد مؤتمر في ليبيا عام 1977 م وحدنا فيه المصطلحات في العلوم الإنسانية في التاريخ والجغرافية والفلسفة وعلم النفس وعلم الصحة. ثم في عام 1980 م عقدنا مؤتمرًا في الرباط لتوحيد المصطلحات من تقنيات ومهنيات كل هذا على مستوى التعليم الثانوي الذي وحدنا كل ما يتعلق به ودخلنا في الاعداد للتعليم العالي.

ـ ونحن الآن نتجه إلى تعريب المجالات التخصصية ولم ننس تعريب الشارع، فقد صدر منذ عام 1963 م معجم صغير في ثلاثمائة وخمس وستين كلمة «قل ولا تقل» ومثلها في عام 1964 م. ومعنى هذا محاربة كلمة أجنبية في كل يوم عن طريق وسائل الاعلام، وقمنا بعدة أعمال أخرى، فأمددنا مثلاً وزارة الزراعة بمعجم الحيوان، والنبات، والزهور، والأسماك، والخرائطية وكذلك فيما يتعلق بوزراة الاقتصاد التي امددناها بمعجم في الاقتصاد، والادارة العامة، والمرافق المتخصصة، ووضعت نحو أربعين معجمًا بثلاث لغات منها: معجم الألوان في تسعمائة وأربعة وثمانين لونًا لا يوجد منها في اللغات الغربية إلاّ ألوان قوس قزح السبعة أضف إليها اللونيات أو أنصاف الألوان وألوان الشبه.

نريد أيضًا أن نقنع العالم بأن العربية لغة معطاء وأنها لغة العلم والحضارة في العصور الوسطى، وأن 70% مما يوجد في المصطلحات الفارسية عربي، وثلث المصطلحات في المعجم الأسباني عربي، وثلاثة آلاف كلمة في المعجم البرتغالي عربية والمئات من الكلمات في اللغة الفرنسية عربية وكذلك في الانجليزية.

ـ والعربية لغة عالمية، و إن كنت عندما أقارن وانظر وأشبه لا أقول: إن الأصل عربي، بل أقول: إن هناك شبهًا، وهناك طريقة علمية لمعرفة الأصل اللغوي، فإذا كانت الكلمة منعزلة منفصلة مثل الكلمة الأجنبية لا جذر لها ولا تفريع فاعرف أنها منفصلة مثل الكلمة الأجنبية لا جذر لها ولا تفريع فاعرف أنها مقتبسة. بهذه الطريقة تركتهم يبحثون، وهم ولا شك سيجدون أن معظم هذه الكلمات ذات أصل عربي.

* التحديات التي تواجه المسلمين:

ـ إن مواجهة التحديات لا تأتي جزافًا أو عن طريق الخرافات، إنها تأتي عن طريق التعرف الدقيق لماهية الإسلام. أولا يجب أن نعرف الإسلام وما أضيف إليه خطأً، وما هو العطاء الحقيقي للإسلام.

وعندما يقال لنا قال رسول الله ﷺ: **«إذا ولغ الكلبُ في إناء أحدكم فاغسلوه سبعًا آخرهن بالتراب...»** نبحث عن الحديث أهو صحيح أم لا، ثم ننظر في العلم الحديث ماذا نجد؟ لم يكن العلم يقول شيئًا من قبل، لكنه بدأ يثبت أن التراب ضروري للقضاء على جرثومة داء الكلب.. وفي التراب يتكون البنسلين.. وهو يتكون من كل ما فيه متانة ورطوبة.

ثانيًا: يقال لنا إن الإسلام ضد القضية الفلانية أو مع القضية الفلانية هل هذا خطأ أو صحيح؟

يجب أن نتعرف علميًا هل هذه الظاهرة علمية أو غير علمية، التحدي هنا أن يؤتى بحقيقة علمية ثابتة يقال إنها مخالفة للقرآن أو للحديث، وقد تكون مخالفة، ولكن يجب أن نتأكد من معنى الآية القرآنية ومن صحة الحديث ثم نتأكد من صحة ما وصل إليه العلم، لأن العلم يتغير وكثير من الحقائق أصبحت الآن غير حقائق، والعلوم الدقيقة أصبحت غير دقيقة.

* الاستشراق وأهدافه غير العلمية:

ـ الاستشراق أنواع وهناك مستشرقون يعرفون بآرائهم الهدامة التي يقصدون من ورائها هدم الإسلام وتشويهه وآخرون ظاهرهم الرحمة وباطنهم من قبله العذاب. أضرب مثلاً بماسينيون الذي قال يومًا: إن التصوف من القرآن فصفق الناس. ولكن عدد الالفاظ القرآنية التي استمد منها الصوفية خمسة فقط. وماسينيون أراد أن يصل من خلال ذلك إلى شيء آخر أعمق هو تأثير المسيحية في التصوف الإسلامي، فحمل على ابن عربي الحاتمي حين قال: أفسد الإسلام لأنه اقتبس مصطلحاته وآراءه من التصوف المسيحي وأدخل كذا وكذا. وهذا غلط لأن المسيحيين هم الذين اقتبسوا منه.

ولأرسين بلاثيوس كتاب في ابن عربي بالاسبانية يذكر كثيرًا من الجوانب التي استمدها الغربيون من الفكر الإسلامي. وكتبتُ بحثًا في العدد الثالث من مجلة اللسان العربي بعنوان «الأصول الإسلامية في التصوف الإنساني».

وفي الختام تشكر المجلة الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله على تفضله بهذه المحاورة المفيدة وتكبر جهوده الجليلة في ميدان التعريب والفكر الإسلامي.

* * * *

أثر الإسلام في غانة ومالي في القرون الوسطى

القرن الرابع - الثامن الهجري/ العاشر - الرابع عشر الميلادي

د . أمين الطيبي

يتناول هذا العرض التاريخي تأثير الحضارة العربية الإسلامية في رقعةٍ تقع عند التخوم الجنوبية من المغرب العربي - ألا وهي السودان الغربي - والتي تعاقبتْ فيها حتى نهايةِ القرن الرابع عشر مملكتان عريقتان ، هما غانة ومالي . وقد شهدتْ هذه المنطقةُ بدايةَ تأثيرات الحضارة العربية الإسلامية منذ ان توطّد الحكم العربي في الشمال الإفريقي ، أي منذ مطلع القرن الثامن للميلاد ، وظلت هذه التأثيرات في ازدياد بفضل نشاط التجار المغاربة عبر الصحراء الكبرى . ومما يجدر التنويه به أن المصادرَ العربية - كتبَ التاريخ والجغرافيا والرحلات وكتبَ الطبقات والتراجم - هي المصادر المكتوبة الوحيدة المتوفرة عن تاريخ السودان الغربي في القرون الوسطى ، وذلك لأن قبائل السودان الغربي لم تكن تعرف الكتابة آنذاك . ان اهم هذه المصادر ما صنّفه ابن حوقل والبكري والشريف الإدريسي وابن سعيد المغربي وابن بطوطة والعمري وابن خلدون والقلقشندي .

إن انتشار الإسلام في السودان الغربي كان عاملاً من عوامل الوحدة بين قبائله ، كما ان الفوارق العنصرية والقبلية في هذه المنطقة الشاسعة أضعف من حدتها انتشارُ الإسلام واللغة العربية كلغة التعليم والثقافة في معاهد المدن السودانية - كتنبكتو وجنّي - ولغة التأليف في المواضيع الفقهية والتاريخية .

الإسلام في غانة وتكرور

إن مملكةَ غانة القديمة كانت تشغل المنطقةَ الواقعةَ في الطرف الجنوبي من الصحراء الكبرى إلى الشمال مباشرةً من أعالي نهريْ السنغال والنيجر ، فهي تبعد بنحو خمسمائة ميل إلى الشمال الغربي من اقرب منطقة عند حدود غانة الحديثة ، التي اتخذت اسمها منها بوصفها أعرقَ ممالك السودان الغربي .

إن المعلوماتِ المتوفرةَ لدينا عن مملكة غانة القديمة التي بلغتْ أوجَها في القرن العاشر الميلادي مستمدةٌ مما كتبه الجغرافيون العرب ، وبخاصة ابن حوقل والبكري . وكان الاسم غانة يُطلق على الملوك وكذلك على البلاد وعاصمتها ، وقد اندثرت مدينةُ غانة ، الا ان الحفريات اهتدتْ إلى موقع الحيِّ

الإسلامي منها في كُمْبي ـ صالح (جنوبي موريتانيا) وعُثر فيه على حجارة نُقشَتْ عليها كتاباتٌ عربيةٌ تتضمن آياتٍ من القرآن الكريم .

كان رخاءُ غانة يقوم بالدرجة الأولى على سيطرتها على تجارة الذهب ؛ يقول ابن حوقل : « وغانة أيسر مَنْ على وجه الأرض من ملوكها بما لديهم من الأموال المدَّخرة من التبر المُثار . . . وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسَّةٌ من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية الإسلام ، فانه لا قوام لهم الا به » .

إن اوفى المعلومات عن مملكة غانة في القرن الحادي عشر الميلادي هي التي أوردها الأديب والجغرافي الأندلسي ابو عُبَيْدٍ البكري (ت 487هـ / 1094م) في كتابه (المسالك والممالك) ، وقد استمد معلوماتِهِ عن حاضرة غانة من التجار المغاربة الذين عرفوا المدينة جيداً بحكم ترددهم عليها . ويتبيَّن مما ذكره البكري ان ملكَ غانة ومعظمَ رعيته كانوا وثنيين ، وان الملكَ كان متسامحاً مع المسلمين بحيث أذن لهم بتشييد مدينة خاصة بهم وفيها مساجدهم ، كما انه كان يعتمد على المسلمين في إدارة مملكته .

وإلى الغرب من مدينة غانة كانت تقع مدينة تكرور عند المجرى الأدنى لنهر السنغال غيَر بعيدٍ عن ساحل البحر المحيط . يقول البكري إن « اهل تكرور اليوم [أي سنة 460هـ / 1068 م] مسلمون » . ان التكارنة / التكارير كانوا اول من اعتنق الإسلام من اهل السودان الغربي وعملوا بنشاط على نشره بين القبائل المجاورة لهم ، وأصبحت التسمية (تكرور) مرادفةً للسوادن الغربي عند المؤرخين العرب بعد القرن الرابعَ عشرَ للميلاد .

المرابطون والسودان الغربي

إلى أن ظهر المرابطون على المسرح في غرب افريقيا في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي كان الإسلام ينتشر سلمياً وباضطراد في غرب افريقيا جنوبي الصحراء الكبرى على أيدي التجار المغاربة . وقد ادى جهادُ المرابطين في الجنوب إلى استيلائهم على أودغست سنة 1054م من يد ملك غانة ، كما أدى الى استيلائهم على عاصمة غانة ذاتها سنة 1076م ، وإلى القضاء نهائياً على مملكة غانة . وقد أسلم أهلُها المعروفون بالسوننكي وانتشروا في المناطق المجاورة يزاولون التجارة (ديولا) وإليهم يعود الفضلُ في نشر الإسلام في مناطقَ كثيرةٍ من السودان الغربي .

لقد انتشر الإسلامُ بين قبائل غانة بعد مَقْدم المرابطين ؛ يؤكد ذلك ما يذكره الإدريسي ـ بعد قرنٍ من رواية البكري ـ إذ يقول إن غانة « يقصدها التجارُ المياسيرُ من جميع البلاد المحيطة بها من سائر بلاد المغرب الأقصى ، وأهلها مسلمون » .

الإسلام في مالي

نظراً لتحول أنظار المرابطين نحو الشمال ، ونتيجةً لما نشب من خلافات بين قبائل صنهاجة

الصحراء ذاتها ، عادت غانة إلى الظهور ثانيةً ولكن على نطاق أضيقَ رقعةً وأقلَّ ثراءً من قبل . ولم تلبث غانة أن تجزَّأتْ وآل تراثُها آخر الأمر إلى زعيم إحدى قبائل ماندي القاطنة في وادي النيجر الأعلى .

إن امبراطورية مالي التي ازدهرت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد كان قوامها الأول قبائل ماندينكا القاطنة في الرقعة الواقعة إلى الجنوب من غانة ما بين أعالي نهريْ النيجر والسنغال . وكانت مالي معروفةً في القرن الحادي عشر ويسمِّيها البكري ملَلْ . وهو يروي حكايةً طريفةً عن إسلام ملكها آنذاك .

إن اشهرَ سلاطين مالي منسى موسى (حَكَمَ 1312 - 1337 م) وقد اشتهر بالورع والتقوى ، وفي عهده شهدت مالي أوجَ رخائها وازدهارها . ادى منسى موسى فريضةَ الحج عام 1324م ، فعزَّز ذلك من مكانة الإسلام في البلاد ، وأشاع اخبارَ ثرائها بالذهب في ارجاء العالم الإسلامي بل وفي اوروبا ، واجتذب إلى بلاده الكثيرين من التجار والعلماء المسلمين الذين ساهموا في تنمية البلاد اقتصادياً وثقافياً ومعمارياً .

وقد عمل منسى موسى على توطيد علاقاته بالممالك الإسلامية كمصر وتونس والمغرب الأقصى ، وكان للتكارنة / التكارير - كما عُرف اهلُ مالي - جاليةٌ كبيرةٌ في مصر ، وخُصِّص في الجامع الأزهر رواقٌ للتكارير عُرف باسمهم .

ويذكر القلقشندي أن كتابةَ اهل مالي بالخط العربي على طريقة المغاربة ، وأن لباسهم شبيهٌ بلباس اهل المغرب - جباب ودراريع بلا تفريج - ويركب اهلُ مالي الخيولَ بالسروج ، وهم في غالب احوالهم في الركوب كأنهم العرب .

لدينا مادة وفيرة عن مالي في منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي وعن سلطانها منسى سليمان شقيقِ منسى موسى . فبالإضافة إلى ما ذكره العمري لدينا معلوماتٌ من شاهد عِيانٍ هو الرحالة المغربي الشهير ابن بطُوطة الذي أمضى اكثَرَ من تسعة شهور في زيارة مالي (2 -1353م) .

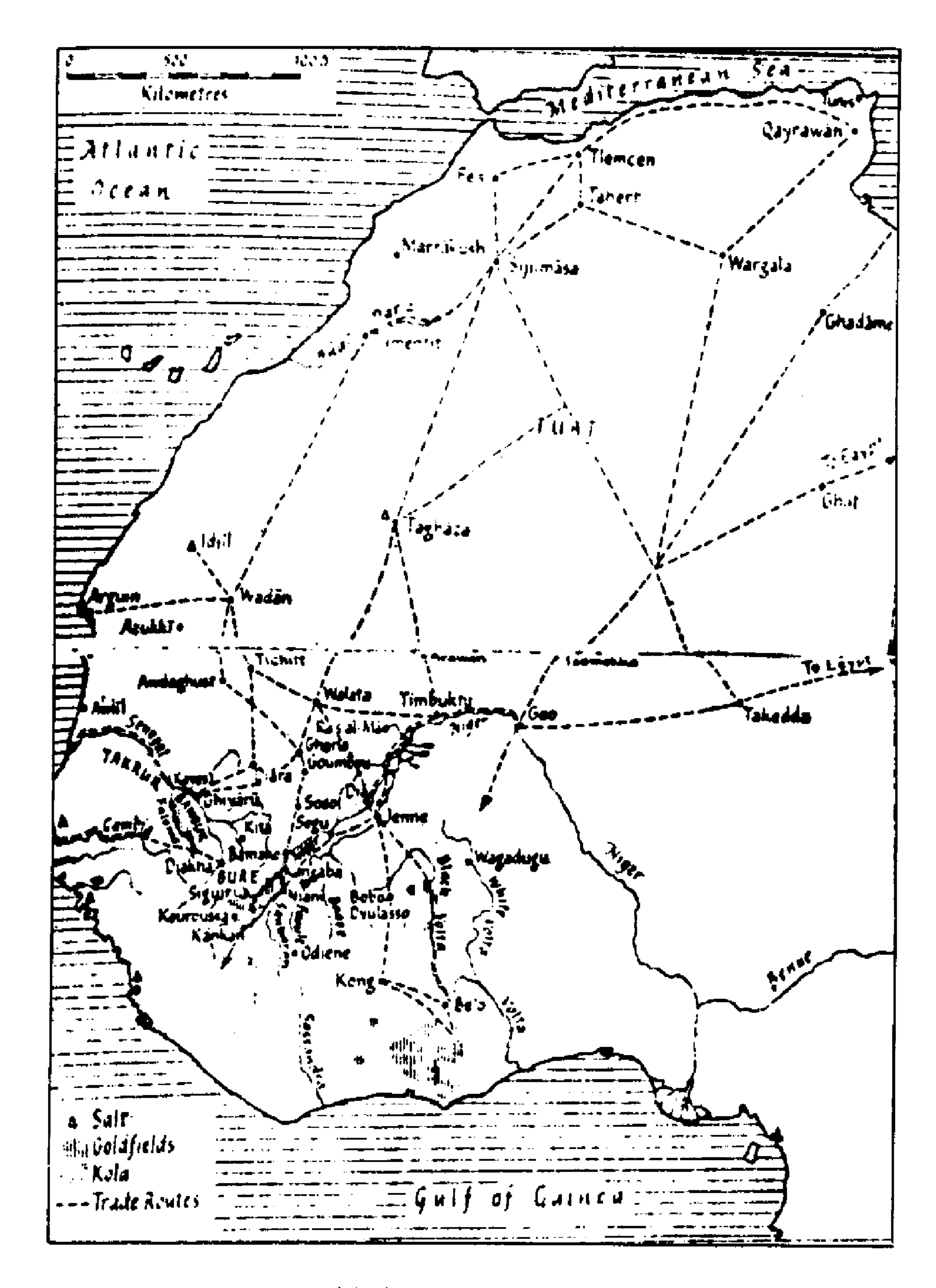
ان رواية ابن بطوطة تدل على ان الإسلام كان قد توطد في مالي ، ومع ذلك فإن السلطان كان يراعي العاداتِ والتقاليدَ المحليةَ المنتشرةَ بين الوثنيين من رعيته . وقد أُعجب ابن بطوطة باستتباب الأمن والعدالة في مالي ، كما أُعجب بتدين القوم وأدائهم الصلوات وحفظهم القرآن الكريم .

ومما يدل على عدم وجود أي تمييز عنصري عند المسلمين ما ذكره ابن بطوطة من ان كبيَر جماعة البيضان (المغاربة) في عاصمة مالي كان متزوجاً من ابنه عم السلطان ، ويلاحظ كذلك ان المساجدَ كانت حرماً يلجأ إليها المستجيرون من بطش الحاكم ، وكان علماء المسلمين يبادرون إلى المصالحة بين المتنازعين حقناً للدماء ، فابن بطُوطة يذكر انه اثناء اقامته بتكدًا توجُّه القاضي والخطيب والمدرِّس والشيخُ بها إلى اميرها للإصلاح بينه وبين امير آخر .

34) Messier, R.A., "The Almoravids. West African Gold nd the Gold Currency of the Mediterranean Basin", in **Journal of the Economic and Social History of the Orient,** Vol. XVIII, Part 1, Leiden 1974, pp. 31, 36.
Goiten, S.D., **Letters of Medieval Jewish Traders,** Princeton 1973, p. 325.
35) Mones, Hussain, **Tārīkh al-jughrāfya wa'l-jughrāfiyyīn fī al-Andalus,** Madrid 1976, p. 507.
36) Cornevin, R., **The Encyclopaedia of Islam** (New Edition), Leiden-London 1965, s.v. Ghana, p. 1002.
37) Al-Bakrī, p. 178; tr. Trimingham, pp. 61-2.
38) Levtzion, N., "The Sahara and the Sudan", in the **Cambridge History of Africa,** Vol. II, p. 672.
39) Willis, J.R., **Studies in West African Islamic History,** Vol. I, pp. 13, 14.
40) Al-Qalqashandī, Ahmad, **Subh al-a'shā,** Vol. V, Cairo, n.d., pp. 289-291.
41) Trimingham, pp. 68-9.
42) Levtzion, N., **Ancient Ghana and Mali,** pp. 213-4.
43) Zakī, 'Abd al-Rahmān, **Tārīkh al-duwal al-islāmiyya al-sūdāniyya,** Cairo 1961, pp. 123-4.
44) Bovill, p. 109;
Trimingham, p. 68, n.1.
45) Al-Qalqashandī, Vol. V, pp. 298-9.
46) Al-Qalqashandī, Vol. V, p. 297; Trimingham, p. 71.
47) Ibn Battūta, Abū 'Abd Allāh Muhammad, **Rihlat Ibn Battūta,** Beirut 1968, p. 665.
48) Al-Maqqarī, Ahmad b. Muhammad, **Nafh al-tīb...,** Vol. VII, Cairo 1949, p. 130.
49) Ibn Battūta, p. 671.
50) Ibid., p. 679.
51) Ibid., p. 665.
52) Ibid., pp. 664-5.
53) Ibid., p. 672-3.
54) Ibid., 672-3.
55) Hodgkin, Thomas, "Islam and National Movements in West Africa", in **Journal of African History,** Vol. III/2, 1962, pp. 323-4.

REFERENCES

1) Hunwick, J.O., "Islam in West Africa", in **A Thousand Years of West African History,** edited by J.F. Ade Ajayi and Ian Espie, University of Ibadan 1970, p. 115.
2) Lewis, I.M., "African South of the Sahara", in **Legacy of Islam** (2nd edition), Oxford 1974, p. 109.
3) Ibid., p. 107.
4) Ibid., p. 110.
5) Al-Bakrī, Abū 'Ubayd, **Al-Mughrib fī dhikr bilād al-Maghrib** (extract from **Kitāb al-masālik wa'l-mamālik),** Paris 1965,p. 175.
6) Lombard, M., **The Golden Age of Islam,** Amsterdam 1975, pp. 223-4.
7) Ashtor, E., **A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages,** London 1976, p. 291.
8) Al-Idrīsī, Abū 'Abd Allāh Muhammad, **Wasf Ifriqiya...,** an extract from **Kitāb nuzhat al-mushtāq...,** Algiers 1957, p. 108.
9) Bovill, E.W., **The Golden Trade of the Moors,** Oxford 1970, p. 126.
10) Ibn Hawqal, Muhammad b. 'Alī, **Sūrat al-'ard,** Beirut, n.d., p. 96.
11) Nāsir-i-Kusraw, **Rihlat Nāsir Khusraw,** Beirut 1970, pp. 119-120.
12) Brett, M., "Two **fatwās** of the Late Fourth Century A.H. Dealing with Trans-Saharan Trade", paper submitted at the Trans-Saharan Trade Routes Conference held in Tripoli (October 1979), pp. 1-2.
13) Ibid., p. 10;
Ibn Hammâd, Muhammad b. 'Alī **Akhbâr banī 'Ubayd...,** Algiers 1927, p. 18.
14) Al-Bakrī, p. 149.
15) Levtzion, N., "The Sahara and the Sudan", in the **Cambridge History of Africa,** Vol. II, 1978, p. 674; Trimingham, J.S., **A History of Islam in West Africa,** Oxford 1970, p. 49.
16) Ibn Hawqal, p. 98.
17) Ibn al-Abbār, Muhammad b. 'Abd Allāh, **Al-Takmila...,** Vol. I, Cairo 1955, p. 366.
18) Al-Bakrī, p. 175.
19) Ibid., p. 176.
20) Ibid., p. 172.
21) Ibn Sa'īd, 'Alī b. Mūsā, **kitāb al-jughrāfyā,** Beirut 1970, p. 91.
22) Al-Bakrī, p. 173; Trimingham, p. 43, n. 4.
23) Levtzion, N., **Ancient Ghana and Mali,** New York 1980, p. 179.
24) Ibn Abī Zar', Ahmad, **Rawd al-qirtās,** Uppsala 1843, p. 78.
25) Ibid., p. 87.
26) Bolanle, A., "Empires of the Western Sudan" in **A Thousand Years of West African History,** p. 61.
27) Willis, J.R., "Reflections on the Diffusion of Islam in West Africa", in **Studies in West African Islamic History,** Vol. I, London 1979, p. 5.
28) Levtzion, N.,"The Western Maghrib and Sudan", in the **Cambridge History of Africa,** Vol. III, p. 331.
29) Al-Bakrī, p. 183.
30) Al-Idrīsī, p. 7.
31) Cf. **al-Hulal al-mawshiyya** (anonymous author), Rabat 1936, p. 7.
32) Ibn Sa'īd, p. 92.
33) Vicens Vives, Jaime, **An Economic History of Spain,** Princeton University Press 1969, p. 150. In June, 1980, Mozambique adopted a new currency in place of the Portuguese escudo and named it "metical" - a renewal of a 6th century usage current in the Iberian Peninsula when the Portuguese colonized the territory (1505).



Trade routes of the Sahara and the Sudan, c. 1000-1500

khatīb[preacher].It is a custom of theirs to seek refuge in the mosque but should this prove impossible, they seek refuge in the house of the **khatīb**".[49] Muslim jurists would promptly offer to mediate between disputants in order to spare bloodshed. Ibn Battūta reports that, during his stay in Takedda, the **qādī, the khatīb, the** school-master **(al-mudarris)** and the **shaykh** proceeded to the **amīr** of Takedda with a view to bringing about a reconciliation between him and another **amir.**[50]

While in Niani, Ibn Battuta attended a condolence party held by Mansā Sulaymān in memory of the Marīnid sultan Abu'l-Hasan 'Alī (d. 1351 A.D.) – an indication of the close relations between Mali and Morocco and between their monarchs. The whole Qur'ān was recited at the ceremony which was attended by the Mansā and, among others, the **amīrs,** the **fuqahā',** the **qādī** and the **Khatīb.**[51]

On his arrival at the capital of Mali, Ibn Battūta was welcomed and entertained by a number of Maghribī and Egyptian residents and, on falling ill, was treated by an Egyptian doctor.[52] The Massūfa of Walata wore clothes made of fine Egyptian cloth.[53] All this indicates that Mali's relations with both the Maghrib and Egypt were growing all the time following Mansā Mūsā's pilgrimage in 1324.

Ibn Battūta was very impressed by a number of good attributes among the Sudanese. These include "absence of injustice... Public security prevailed throughout the country... [The Sudanese] do not molest or interfere with estates of Maghribīs **(al-bīdān)** who happen to die in their country, however large they may be, but entrust them to a reliable Maghribī to hand over to those legally entitled to them. [These attributes also include] their punctilliousness in observing the prayer sequence, their assiduance in attending congregational prayers and bringing up their children to observe them. On Fridays, so great is the crowd that unless one goes early to the mosque, it is impossible to find a place... Another of their good traits is their wearing pretty white garments on Fridays. Should one possess no more than one old garment, one would still wash it, clean it and wear it for the Friday prayer. Yet another of their good traits is their keenness to learn the Qur'ān by heart. If their children show negligence in this duty, they put leg-shackles on them and do not free them until they have memorized it".[54]

Remarking on the impact of Islam on Mali at the end of the fourteenth century when its decline began, Thomas Hodgkin says, "The relatively rich documentary sources for 14th century Mali provide some basis for judging the extent to which, by this period, the impact of Islam had modified indigenous, pre-Islamic institutions: e.g. as regards court ritual, the observance of Ramadān and the **'īds,** the employment of **qādīs** (in the towns), the establishment of Koranic schools, the use of foreign specialists (associated with the diversification of external relations to include Egypt and the Hijāz as well as Morocco).[55]

shows in the middle of the Sahara the figure of Mansā Mūsā holding a sceptre in one hand and a gold nugget in the other.[44] In the fourteenth century, Europe's gold reserves were depleted and so Europeans considered the Sudan as very rich in gold, some of which was reaching them through trade with the Maghrib.

The term "Manding" comprises at present a number of West African peoples who speak various dialects which stem from the same language, in the writing of which Arabic characters, with some modification, were used. Al-Qalqashandī quotes Abū Sa'īd 'Uthmān al-Dukālī, who had spent some thirty five years travelling throughout Mali, as saying that the people of Mali wear turbans with wraps (**'amā'im bi hanak**), while their costumes are not unlike those of Maghribīs, i.e. **jubbas** and **durrā'as – loose outer garments – without a front opening (bilā tafrīj)**. The Malis mount saddled horses and their riding style (**rukūb**) is similar to that of the Arabs.[45]

We have an abundance of material about Mali in the middle of the fourteenth century and about its reigning sultan, Mansā Sulaymān brother of Mansā Mūsā, thanks to the contemporary accounts of al-'Umarī and Ibn Battūta. Sulaymān is said to have built mosques and instituted weekly prayers and **'īd** ceremonials. He attracted Mālikī jurists to his country, and was himself a student of **fiqh.**[46] In addition to al-'Umarī's account (Written 1342-9), we have an eye-witness account, namely that of the famous Maghribī traveller Ibn Battūta, who spent some nine months in Mali (1352-3 A.D.).

Ibn Battūta's interesting and illuminating account shows that Islam was already well established in Mali's chief cities, yet, perhaps for political and economic reasons, the sultan tolerated a number of pagan traditions and customs such as cannibalism, eating of dogs, donkeys and corpses, woman nakedness and sprinkling dust and ashes on themselves as a mark of respect for the sultan.

Ibn Battūta was impressed by the prevalence of public security and justice in Mali, by the people's devoutness and piety, their strict performance of prayers and their zeal in memorizing the Qur'ān.

The absence of racial or colour prejudice on the part of Muslims is attested, for instance, by the fact that the head of the Maghribī community (**al-bīdan**) in Mali's capital, Muhammad b. **al-faqīh** al-Jazūlī, was married to a cousin of the sultan.[47] Among the foreign traders in Walata in the thirteenth century were the prosperous Maqqarī brothers from Tlemcen who built stone houses and married local women.[48]

It is noteworthy, too, that mosques were considered as sanctuaries in which people fleeing from the tyranny of a ruler could seek asylum. Ibn Batūta relates that Mansā Sulaymān was angry with his senior wife and cousin, Qāsā, having accused her of plotting a coup against him. "Qāsā was afraid... and sought refuge in the house of the

and Surt whence he took the coastal road to Cairo. It is said that he took with him 100 camel loads of gold all of which he spent or gave away in the course of his journey. In Cairo, he gave one load of gold to the Mamlūk sultan's treasury and he gave liberally to senior state functionaries. As a result, the price of gold in Egypt is said to have depreciated considerably.[40]

In Mecca, Mansā Mūsā invited four **shurafā'** to accompany him, with their families, to Mali. In Cairo, the Mansā invited a number of scholars and **fuqahā'** to accompany him back to his capital, and he purchased a large number of books on **fiqh** in order to provide his country with proper Islamic culture. Sometime after his return, Mansā Mūsā sent a book, written by one of his scribes, to the sultan of Egypt.

While in Mecca, Mansā Mūsā met the Andalusian poet and architect Abū Ishāq Ibrāhīm al-Sāhilī (d. in Timbuctu 1346 A.D.) and invited him to accompany him back to Mali where he was charged with the construction of a number of mosques and palaces in Timbuctu, Gao and elsewhere. Al-Sāhilī used burnt bricks, the use of which was till then unknown in the Sudan. These new buildings were adorned with the battlemented terraces and pyramidical towers characteristic of the Sudanese style.[41] It was thanks to al-Sāhilī that the Andalusian-Maghribī style of architecture was introduced to the Western Sudan.

Mansā Mūsā's Islamic policy was more ardently pursued after his pilgrimage. He gave Mali the characteristics of an Islamic state by constructing mosques and instituting the ceremonials connected with the Friday prayers and the **'ids.** He began to send scholars to pursue their studies in Fez and Cairo. It was thanks to Mansā Mūsā that close relations were established with the Mamlūks of Egypt, the Hafsids of Tunisia and the Marīnids of Morocco, with the result that Mali became an integral part of the Muslim world.[42]

The Takrūrīs or Takārira, as the people of Mali were known in the East, had a large community in Egypt where they had a special **riwāq** (section) in al-Azhar Mosque in Cairo bearing their name. In fact, the Takrūrīs had a large community in Cairo since Fātimid days. When the pious Takrūrī, Yūsuf b. 'Abd Allāh al-Takrūrī, a contemporary of the Fātimid Caliph al-'Azīz (d. 386/996), died, the Caliph built, in his memory, a domed mosque which came to be known as Jāmi' al-Takrūrī. A number of Takrūrīs were later to serve in the Mamlūk army. One of them, 'Anbar al-Takrūrī was promoted by Sultan Qaytabai to the rank of an army commander **(muqaddam)** in 905/1499.[43]

The first reference to Mali in European maps was made in the Italian **mappa mundi** in 1339. Drawing on information obtained from Jewish merchants in North Africa, the Majorcan Jewish cartographist, Abraham Cresques, compiled the Catalan Atlas (1375) which locates a number of Mali cities, such as Gao and Timbuctu, and

benefit upon the people of your country and thereby incite all your enemies and adversaries to envy'. He persisted with him until he agreed to embrace Islam, and that in sincerity. He taught him to recite easy passages from the Book of God and instructed him in those obligations which even the most ignorant should know. He waited until Friday night, then told him to make a total ablution, clothed him in a cotton robe which he had by him, and they went together to a rise in the ground. There the Muslim with the king on his right began to pray throughout the night that God's will be done, the Muslim doing the petitioning and the king repeating the "Amen". As dawn began to break, behold, God enveloped the land with abundant rain. In consequence of this, the king ordered the destruction of the idols and the expulsion of the magicians from his country. He is sincerely attached to Islam, as are his heir and courtiers, but the people of his kingdom remain idolators. Since that time, their kings have borne the title of **al-muslimānī.**"[37]

As has been noted by one modern scholar, the role of the chiefs as early recipients of Islamic influence is a salient feature in the process of Islamization in other parts of West Africa.[38]

The history of the Mali empire begins with Sundiata (r. 1230-1255 A.D.) who made Niani his capital and bore the title "Mansā"' (i.e. sultan). The new empire covered a vast territory from Niani on the upper Niger to the Atlantic coast in the west. Eastwards, the empire extended up to Hausaland. It included within its boundaries the main sources of mineral wealth, such as the salt mines in Taghaza, the copper mines in Takedda and the goldfields in the south. The new empire contained also the main trading centers such as Walata, Jenne, Gao and Timbuctu.

Sundiata appears to have been pagan at the start of his reign, but he soon adopted Islam. Until the decline of Mali in the fifteenth century, its rulers were all Muslims, and many of them performed the pilgrimage to Mecca, thereby enhancing their own prestige among their Muslim subjects and in the Muslim world at large. As a result, Islam went on spreading in Mali and served to break the distance between the social classes. Islamic identity began to rival ethnic or tribal consciousness.[39]

The most famous ruler of Mali was Mansā Mūsā (r. 1312-1337 A.D.) who was known and popular for his piety and open-handed generosity. During his reign, Mali attained the zenith of its power and prosperity; the fame of its gold wealth spread throughout the Muslim world and Europe.

In 1324 A.D., Mansā Mūsā went on pilgrimage which became a landmark in the history of Mali. Following Mansā Mūsā's pilgrimage, Mali attracted a host of traders and scholars who contributed to its economic and cultural well-being and to its architectural development.

On his way to Mecca, Mansā Mūsā and his large entourage passed through Aujla

far as to call them the "dollars" of the Middle Ages. One possible reason for this reputation is that the gold from which these **mithqāls** were struck was very renowned among Medieval merchants who consistently referred to Sudanese gold as "very pure".[34]

Mention must be made of the traveller Ibn Fātima, often quoted by Ibn Sa'īd, Ibn Khaldūn and al-Qalqashandī, as a source of information about the Western Sudan and the regions further to the south. He is a son of the Western Sudan (Senegal or Ghana) and lived towards the end of the sixth/twelfth century. The naming of sons after their mothers was quite common among the Sanhāja of the western Sahara and in the Sudan (e.g. Ibn Ghāniya, Ibn 'Ā'isha, Ibn al-Sahrāwiyya). Although only quotations from Ibn Fātima's work have survived, they show that he was widely travelled and well informed.[35]

Islam in Mali

As a result of the pre-occupation of the Almoravids with the affairs of Morocco and al-Andalus as well as the inter-tribal disputes within the Sanhāja in the Sahara, Ghana re-emerged in a smaller area to the south of the old kingdom. In 1203, the ruler of the Sosso took Ghana from which the Muslim Soninke had to flee to Walata (1224), which replaced Ghana as a center of trade and Muslim education, and to Jenne (1250).[36] Soon, however, Ghana was conquerred by a chieftain of one of the Mandingo tribes in the upper basin of the Niger.

The Mali empire, which flourished in the thirteenth and fourteenth centuries, had as its nucleus the Mande tribes which inhabited the area lying between the upper Niger and Senegal basins. Mali was already known to Muslim traders in the eleventh century and was called "Malel" by al-Bakrī who gives the following account about the conversion of its king to Islam which must have taken place early in the eleventh century, before Ghana was conquered by the Almoravids in 1076.

"[Malel's] king is known as **al-muslimānī** [i.e. new convert to Islam]. The reason for his being so called cameaboutin this way. Year after year, his country was afflicted with drought. The people tried to obtain rain by making many sacrifices of cattle to such an extent that they almost exterminated the breed but achieved nothing except dearth and distress. Now the king had staying with him as a guest a Muslim who passed his time reciting the Qur'ān and studying the **sunna** of the Prophet. The king complained to this man about his people's sufferings. He replied, 'O King, if you only believed in God Almighty, acknowledged His unity and the mission of Muhammad, and believed in all the articles of faith, then I would pray on your behalf for relief from what you are suffering and from what has befallen you. Thus you could bring universal

that Islam was diffused in many areas of the Western Sudan.[26]

Although the control of Ghana by the Almoravids was short-lived in view of their pre-occupation with the affairs of Morocco and al-Andalus, reference in Arabic sources show that close relations were maintained between the Almoravid rulers in Marrakesh and some rulers in the Western Sudan. The fact that 4000 Sudanese troops constituted part of the Almoravid army at the battle of al-Zallāqa (Sacralias) in 479/1086 suggests a possible alliance between the Almoravids and their Takrūrī co-religionists.[27]

The unity which the Almoravids created in the Muslim West, from al-Andalus to the Western Sudan, is attested by the group of Muslim royal tombstones, dated between 1100 and 1110 A.D., which probably had been sculptured and inscribed in Muslim Spain and then carried across the Sahara to be erected at the graves of two kings and a queen of Gao (Kawkaw) who had been recently converted to Islam.[28]

According to al-Sa'dī, Gao's ruling dynasty had been converted to Islam in 400/1009. Al-Bakrī says that on their accession, the rulers of Gao received "a ring, a sword and a copy of the Qur'ān which, they claim, had been presented to them from the **amīr al-mu'minīn** [i.e. the Umayyad Caliph in Cordoba]".[29]

Islam spread among the pagan tribes of Ghana after the advent of the Almoravids. This is attested by what al-Idrīsī says, one century after al-Bakrī's report: "[Ghana] is visited by wealthy merchants from all adjoining areas in Morocco. Its people are Muslims".[30] Al-Zuhrī, writing about the same time as al-Idrīsī, says that "formerly the inhabitants of Ghana were infidels but, in the year 469 [1076], they became good Muslims under the influence of the Lamtuna [i.e. the Almoravids]".[31] Thirty years later, Ibn Sa'īd adds that the king of Ghana "wages many campaigns of **jihād** against the pagans. His dynasty is well known for this".[32]

It is noteworthy that the Almoravid **mithqāl (dinār)**, struck of pure gold, was in great demand outside their empire, including the Christian kingdoms of northern Spain where it was known as metical/metcal/mitical. Alfonso VIII, King of Castile and Leon, began, as from 1173 A.D., to strike similar dinars known as "le morabeti Alphonsi" and, until the fifteenth century, dinars were known throughout Spain as "maravedis".[33]

A radio-chemical analysis of a number of Almoravid **mithqāls** has recently been carried out in order to verify the claim by economic historians that Western Sudanese gold played a significant role in Medieval Mediterranean economic life. The investigation has been successful in proving the claim and has shown the major role played by the Almoravid dynasty in distributing West African gold to other parts of the Mediterranean basin where Maghribī merchants were very active. The Almoravid **mithqāls** enjoyed a great international reputation and one modern scholar has gone so

Al-Bakrī says that one of the means of exchange at Silla is by pretty cotton strips called **al-shakkiyyāt**, a word derived from the Arabic **shuqqa** (Hassāniyya **shegge**).[22]

This suggests that cotton growing and cloth manufacture were introduced to Takrur and the Western Sudan through trade and Islam.[23]

The Almoravids and the Western Sudan

Until the advent of the Almoravids in West Africa in the middle of the 5th/11th century, Islam was spreading peacefully and continuously in the Western Sudan at the hands of Muslim traders from the Maghrib. There were Muslim communities in many stations, markets and towns through which trans-Saharan caravans passed on their way from the Maghrib to Ghana.

The Almoravid state(**dawlat al-murābitūn**) emerged in the western Sahara to the south of Morocco, thanks, primarily, to the work of the Mālikī **faqīh** and reformer, "Abd Allāh b. Yāsīn, who sought to enforce - in the tradition of the Mālikī school of Qayrawān - a rigorous observance of the **sharī'a** in the Sanhājī Saharan society which was notorious for its laxity and its ignorance of orthodox Islam. After Ibn Yāsīn had succeeded in his mission, not without encountering considerable difficulties, the Almoravid state emerged, based on the Lamtūna, Guddāla and Massūfa tribes which formed the Sanhāja confederation in the western Sahara. From its inception, the Almoravid state, as its name implies, was characterized by the **jihād** or struggle for the consolidation and propagation of **sunnī** (orthodox) Islam and the eradication of heresies **(bida')** and paganism. Ibn Abī Zar' says that, on seeing that sections of the Sanhāja had turned away from him at first, Ibn Yāsīn "wanted to leave them for the Sudan **(bilād al-sūdān)** who had embraced Islam [a reference probably to the Takrūrīs] since Islam had already spread there".[24] After his cousin Yūsuf b. Tāshufīn had consolidated his position in Morocco, the Almoravid **amīr** Abū Bakr b. 'Umar returned to "the Sahara where he stayed for some time fighting the pagans among the Sudanese until he died as a martyr in the course of one of his campaigns [480/1087]... after the Sahara country up to the gold mountains in the Sudan had submitted to him".[25]

In the south, and in alliance with the Muslim king of Takrūr, the Almoravids retook Awdaghust in 1054 A.D. from the king of Ghana who had seized it from the Sanhāja in 990 A.D. The Almoravids also seized the capital of Ghana itself in 1076 A.D., thereby bringing to an end the pagan kingdom of Ghana. The people of Ghana, known as Soninke, embraced Islam and spread as itinerant traders **(dyūla)** throughout the neighbouring areas to the south. It was largely thanks to these Soninke traders

al-Warrāq(d. 362/973) who was brought up in Qayrawān and later joined, in Cordoba, the court of the Umayyad Caliph al-Hakam al-Mustansir for whom he wrote a number of books on North Africa including its trade links with the Sudan.[17] Al-Bakrī says, "The capital of Ghana consists of two towns lying in a plain, one of which is inhabited by Muslims and is large, possessing twelve mosques, one being a **jāmi'** (for Friday prayers), each having its **imām, muadhadhin** and Qur'ān reciters **(rātibūn)** as well as jurists **(fuqahā')** and scholars... The royal town is some six miles from it [the Muslim town] and is called al-Ghāba (the grove)... In the royal town near the king's residence, there is a mosque in which his Muslim visitors pray. The royal town is surrounded by huts, groves and coverts **(sha'rā')**, where live their magicians who are their priests, and they contain their idols **(dakākīr)** and the burial places of their kings... The interpreters of the king are Muslims, and so are his treasurer and most of his ministers..."[18]

This account shows that the king of Ghana and most of his subjects, up to the middle of the eleventh century A.D., were pagans and that the king was tolerant towards Muslims, for he permitted them to have their own town and their own mosques, and he depended upon Muslims for the running of his administration. This reminds one of the Norman kings who, on conquering Sicily from the Muslims (484/1091), continued to depend largely on Muslim Functionaries in their court and administration.

Al-Bakrī goes on to describe how the subjects behaved when they were in the presence of the king: "When the king's co-religionists come near him, they prostrate themselves and sprinkle dust on their heads. That is their greeting to him. Muslims, however, greet him by clapping their hands".[19]

To the west of the capital of Ghana lay the capital of Takrūr, on the lower course of the Senegal not far from the Atlantic coast. The people of Takrūr had been pagans until their king, Wār-jābī, son of Rābīs, embraced Islam in 432/1041, i.e. peacefully before the arrival of the Almoravids in the Sudan. Al-Bakrī says that "the people of takrūr today [i.e. 460/1068] are Muslims".[20] The Takrūrīs were the first people in Western Sudan to embrace Islam and they became active, and were instrumental, in spreading Islam among the tribes surrounding them. The term 'Takrūr" later became synonymous with the Western Sudan in the writings of Arab historians in the East, such as al-'Umarī and al-Qalqashandī, after the fourteenth century A.D.

On the impact of the Maghribīs on the Takrūrīs, Ibn Sa'īd says, "Those [Takrūrīs] who associated with the whites [i.e. the Maghribīs] and became urbanized **(tahaddara)** began to wear imported clothes made of wool and cotton... Whereas those who lived in rural areas were naked – the Muslims cover their private parts with bones or skins, while the pagans stay naked".[21]

dispute over the estate of a trader from Ifrīqiya who died in intestate in the Sudan.[12]

It is interesting to recall that Abū Yazīd Makhlad b. Kaydād, the famous rebel against the Fātimids (943-7 A.D.) was referred to as **al-habashī al-aswad** (black Ethiop) because it is said that he was born to a merchant of the Djerid in Ifrīqiya (southern Tunisia) by a black woman at Tadmekka.[13]

The founder of the Midrarid dynasty at Sijilmasa, ISA b. Mazid, described by al-Bakri as al-auswad (the black). was also of Subanese origin and was chosen by The Sufris as their ruler in 104/722-3.[14].

This shows that Maghribīs had been in contact with the Western Sudan since an early period and had intermarried with the Sudanese.

Islam in Ghana and Takrūr

The ancient kingdom of Ghana occupied the area situated at the southern extremity of the Sahara **(al- Majaba al- Kubra)** immediately to the north of the upper basins of the Senegal and Niger rivers. It lies north east of modern Mali's capital, Bamaku, and some 500 miles to the north west of modern Ghana whose name it took, following independence in 1957, on account of ancient Ghana having been the Oldest kinglom in the Western Sudan.

Ancient Ghana reached the zenith of its power in the tenth century A.D. and our information about it is primarily derived from the accounts of the Arab geographers Ibn Hawqal and, in particular, al-Bakrī. The capital of ancient Ghana has disappeared, but recent excavations have discovered the site of its Muslim quarter at KoumbīSaleh in the south-eastern corner of Mauretania. The upper section the town was built of stone not a very common practice in the il, with spacious, often two-storey buildings. Stones were discovered the site bearing Arabic inscriptions of verses from the Qur'ān.[15]

Ancient Ghana's prosperity was derived primarily from its control of the trans-Saharan gold trade, hence the name **bilād al-dhahab** gold country) given to it by all Medieval Arab authors. Ibn Hawqal says , "Ghana is the richest king in the world on account of the plentiful resources of gold dust **(al-tibr al-muthār)** ...[The Kings of Ghana] badly need the Kings of Awdaghust on account of the salt which they import from the land of Islam, as it is an indispensable item to them.."[16]

The fullest account we have about the kingdom of Ghana in the eleventh century is furnished by the celebrated Andalusian biographer and man of letters, Abū 'Ubayd al-Bakri, who Completed his valuable book **Al-Masalik wa'L-mamalik mamaulik in 460** A.H./1067-8 A.D. Inspite the fact that al-Bakrī had not travelled outside his native Andalus (Muslim Spain), he obained his information about Ghana from reliable sources, the Umayyad archives in Cordoba and from North African traders who, thanks to their frequent visits to the Sudan, were fully acquainted with Ghana. Al-Bakrī must have derived much of his information from Muhammad b. Yūsuf

well-being of both the Western Sudan and the Muslim states which were established in the leading cities of the Maghrib, such as Sijilmāsa, Aghmāt, Tlemcen, Tahert, Wargala, Qayrawān, Mahdiyya and Marrakesh as well as Muslim Spain, Sicily and Egypt.

The chief wares carried by caravans to the Western Sudan consisted of grains, dates, textiles, manufactured metal and leather goods and various types of beads **(nazm)** made of glass and shells, rings, tar **(al-qatran),** timber, perfumes and, above all, salt (from Taghāza and Awlīl) of which the Sudan was in dire need. Al-Idrīsī, a son of Sabta (Ceuta), says that there exists in Sabta a market "for processing [coral], rubbing it and turning it into beads which were then pierced and strung... Most of it is carried to Ghana and all countries of the Sudan as it is much in demand in these countries".[8] These commodities used to be exchanged by traders for the products of the Sudan, namely gold, ivory and ebony. The main Sudanese export, however, was gold dust **(tibr al-dhahab)** from Wangara in the Senegal basin (Bambuk and Bure goldfields?).[9]

Traffic in goods between the Maghirb and the Western Sudan was on such a scale that debit notes **(sukk)** were introduced in order to expedite and facilitate commercial transactions. Ibn Hawqal says, "In Awdaghust [in 340 A.H./951-2 A.D.], I saw a debit note **(sukk)** for forty two thousand dinars drawn on a Sijilmāsī merchant in Awdaghust. I have never seen or heard of such a thing in the East, and when I related this story in Iraq, Persia and Khurāsān, it was considered an interesting story **(istutrifat)"**[10]. The use of debit notes, however, seems to have been common in the Near East in the eleventh century, for the Persian traveller Nāsir-i-Kusraw used on during his stay at 'Aydhāb, the Egyptian Red Sea port, in 442/1050.

Biographical works **(kutub al-tarājim)** shed a light on the subject of trans-Saharan caravan trade and the contacts which exist between the Maghrib and the Western Sudan since the early Middle Age. In his voluminous **Al-Mi'yār al-mu'rib,** al-Wansharisī for example,mintions two **fatwās** (legal opinions) given by the Qayrawānī **faqih** (jurist) al-Qābisī(d.403 1012) which prouide direct evidence for the period (10th century) when the Western Sudan was still largely pagan. The first **fatwā** deals with an unfulfilled **qirād** contract (commenda) made in Ifrīqya from the West Sudan. The second **fatwā** concerns a dispute over the inheritance of a merchant who had died in the Sudan. Both **fatwās** deal with trade by Maghribī Muslims across the Sahara. The first **fatwās** concerns an investment loan made in Qayrawān to a merchant who proceededto Tadmekka, Ghana and Awdaghust where he got married, had children and was away from home for eleven years. This merchant owed a debt in his native land and, following this man's death, the **qādī** sold his estate when the creditor approached the **qādī** claiming his money back. The second **fatwā** concerns a

basins of the Senegal and the upper Niger. As their kings and most of their subjects adopted Islam, the Sudanese themselves assumed the role of propagators of Islam in their homelands and surrounding territories. Thus, the Hausa and Dyula, when converted to Islam, extended the faith through their wide-ranging trading connections throughout West Africa.[2]

The spread of Islam in the Western Sudan served as a unifying factor among the tribes, as the new faith conferred upon them a sense of brotherhood. Ethnic distinctions in this vast area were reduced by the spread of Islam and through the adoption of Arabic as the language of instruction in schools and as a language in which works on **fiqh** (jurisprudence) and **tārīkh** (history) were written.[3] Islam as a supratribal religion thus contributed to the cohesiveness of the multi-ethnic empires which emerged in the Western Sudan. Muslim rulers (**mansās** and **askiyās**) were also able to consolidate their traditional authority and were provided with "a doctrine, a flag and an arm and";occasionally,with a justification for the conquest of surrounding pagan kingdoms.[4]

Islam and Islamic culture contributed to the solution of a major internal problem which for so long had bedevilled the states in the Western Sudan, namely the problem of tribalism and tribal allegiance. Muslim rulers resorted to the creation of a central administration which could transcend the allegiance based on tribe or kinship. Thanks to the increase in the number of Islamic schools, a cadre of literate Muslims came into being and these were recruited by the sultans to run their administrations. Thus, of Ghana, al-Bakrī says, "The King's interpreters, the official in charge of his treasury (**bayt al-māl**) and most of his ministers are Muslims."[5]

Trade and Trans-Saharan Caravan Routes

Four major trans-Saharan caravan routes linked North Africa with the Western Sudan. The first route ran alongside the Atlantic coast and had its terminal in the Senegal basin (Takrur and Silla). The second route ran from Sijilmāsa in southern Morocco to Taghaza and terminated in Awdaghust in the southern fringe of the Sahara. The third route started from Tahert, the Rustumid capital in the Central Maghrib, passed through either Taghaza and Awdaghust or through Tadmekka (al-Sūq) and terminated in Gao (Kawkaw) on the Niger bend. The fourth route began in Ifrīqiya (Qayrawān or Tripoli), passed through Ghadames and Tadmekka and had its terminal either on the Niger or in Kanem (Lake Chad area).[6] Under the Fātimids and the Mamlūks, Egypt, too, had close and active trade links with the Western Sudan, caravans reaching Cairo by way of Fezzan and Kanem and Upper Egypt.[7]

Through these routes, gold from the Western Sudan reached the Maghrib and the Muslim East as well as southern Europe. This gold led to the prosperity and

This historical survey discusses the impact of Islam in an area which lies at the southern periphery of the Maghrib, namely the Western Sudan – the basins of the Niger and the Senegal – known as al-Sāhil and al-Hawd, in which until the fifteenth century two ancient African states, Ghana and Mali, flourished. This area saw the beginning of the impact of Islamic civilization after Arab rule in North Africa had been consolidated at the beginning of the eighth century A.D. These Islamic influences continued to grow, thanks to the activities of Maghirbī traders across the Sahara. It was largely due to the activities and settlement of these traders that Islam began to spreaad, initially among the Sahara tribes (Sanhāja al-Sahrā) and then in those areas of the Western Sudan which they frequented.

It is noteworthy that the Arabic sources – geographical books, travels and biographical dictionaries – are the only literary sources available to us concerning the history of the Western Sudan in the Middle Ages, since the tribes of the Western Sudan had not yet known writing at that time. These Arabic sources are, therefore, per se a great contribution to the history of civilization. The most important of these sources, in chronological order, are the works of Ibn Hawqal (10th century), Abū 'Ubayd al-Bakrī (11th century) al-Idrīsī (12th century), Ibn Sa'īd (13th century), Ibn Battūta, al-'Umarī and Ibn Khaldūn (14th century), al-Qalqashandī (15th century), and al-Hasan al-Wazzān, better known as Leo Africanus, (16th century). From among the Sudanese themselves, we have 'Abd al-Rahmān al-Sa'dī, author of **Tārīkh al-sūdān,** and Mahmūd Ka't (Ibn al-Mukhtār), author of **Tārīkh al-fattāsh,** (both of whom lived in the 17th century), and the celebrated scholar and **faqīh** Ahmad Bābā al-Tunbuktī (late 16th and early 17th century), author of **Nayl al-ibtihāj bi tatrīz al-dibāj.** In addition, there are the biographical dictionaries, in the compilation of which Maghribī and Andalusian scholars in particular distinguished themselves, for these works contain valuable pieces of information about contacts made by Muslim traders in the Sudan.

It must be emphasized that Islam penetrated into most areas of the Western Sudan not through military conquest but peacefully through the influence of traders and nomadic groups from the Sahara who used to frequent the fringes of the Western Sudan for trade and who set up stations and markets where they could exchange their wares for those of the Sudanese.[1] Thanks to these Maghribī traders, Islam began to spread not through missionary activities but through contact and example, particularly among pagan monarchs and their pagan functionaries. The emergence of the Almoravid state in the western Sahara in the middle of the 11th century – a state based on **jihād** and the propagation of orthodox Islam – played a significant role in the diffusion of the Mālikī school **(madhhab)** of Islam among the tribes of the western Sahara as well as in the Sudan, thereby accelerating the pace of Islamization in the

IMPACT OF ISLAM ON MEDIEVAL GHANA AND MALI (10th – 14th Century)

DR. AMIN TIBI

أثر القرآن الكريم في انتشار المكتبات الاسلامية

مفتاح محمد دياب

الإسلام ليس كما يدعي أعداؤه ديناً يحصر نفسه بين جدران المسجد الأربعة ، ولكنه طريقة منظمة وعلمية تهدف إلى أن يعيش المسلم حياة سعيدة في الدنيا والآخرة ، ولا يمكن أن تكون هناك حياة سعيدة بدون علم ومعرفة . ومن هنا كان اهتمام القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بطلب العلم والجدّ في البحث عن المعرفة مهما كانت الظروف والصعاب . ويكفي دليلاً على اهتمام القرآن بالقراءة والبحث وطلب العلم أن أول كلمة أنزلت على الرسول الكريم كانت « إقرأ » . والأمر بالقراءة يحمل في طياته الحث على طلب العلم والمعرفة . وفي هذا البحث ، الذي بين أيدينا ، يتناول الكاتب بالشرح والتوضيح عدداً من الآيات المحكمات وعدداً من الأحاديث الشريفة التي تحث المسلمين وتحفزهم على طلب العلم والاهتمام بالمعرفة والجد في طلبها من المهد الى اللحد . كذلك يبين الكاتب كيف لبى المسلمون الأوائل نداء القرآن وانتشارهم في الأرض يطلبون العلم من الأمم التي سبقتهم في الحضارة مثل الهند وفارس واليونان وغيرهم ، وكيف تناولوا تلك الحضارات بالدراسة وما ترجموه من أعمالهم في ميادين العلم المختلفة كالطب والهندسة والفلك والكيمياء والفلسفة وغيرها ، ثم كيف بدأ نشاط العلماء العرب والمسلمين الأصلي في البحث والدراسة في مختلف العلوم والفنون والآداب التي كانت معروفة لديهم وما قدموه للحضارة الانسانية من نظريات في الطب والفلك والحساب والجبر والموسيقى والجغرافيا والرحلات لا تزال الى اليوم موضوع دراسة واهتمام كثير من العلماء والباحثين . ثم بينّ الكاتب كيف أن اثراء الحركة الفكرية والعلمية في العالم الاسلامي بعشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات والبحوث كان له أثر كبير في النهوض بحركة الترجمة والنسخ (النشر) ، وكيف أدت هذه الحركة الى انشاء المئات من المكتبات العامة والخاصة والأكاديمية والمدرسية في مختلف مدن العالم الاسلامية المعروفة من الأندلس غرباً الى الصين شرقاً ، وما كانت توفره هذه المكتبات من المخطوطات في شتى فروع المعرفة الإنسانية . وقد استشهد الكاتب بعدد كبير من الكتاب وخبراء المكتبات المسلمين والأوربيين عن عظمة المكتبات الاسلامية ، وأثر هذه المكتبات في حفظ التراث الإنساني من التلف والضياع . كما يتعرض الكاتب للحديث عن عدد من المكتبات الاسلامية التي اشتهرت على مر العصور والتي كانت علامات مضيئة أنارت الحضارة الاسلامية وكانت أساساً من أسس بناء الحضارة العلمية الحديثة .

77) Shera, Jesse H. **Introduction to Library Science.** Littleton, Colorado: Libraries Unlimited Inc., 1976, p. 21.
78) Khan, Kabir A., p. 124.
79) Ibid.
80) Pinto, Olga, p. 58-59.
81) Shalaby, Ahmed, p. 94.
82) Khan, Kabir A., p. 125.
83) Pinto, Olga, p.
84) Diwan, Ali M.R., p. 31.
85) Mackensen, ruth S., p. 116.
86) Ibid.
87) Johnson, Elmer D., p. 88.
88) Ibid., p. 91.
89) Shera, Jesse, p. 21.
90) Diwan, Ali M.R., p. 32-33.
91) Shera, Jesse H., p. 21.

36) Diwan, M.R.A. "Muslim Contribution to Library During the Medieval Times", in **Islam and the Modern Age.** Vol. 9, No. 2 (May 1978), p. 20.
37) Ibid.
38) Ibid.
39) Padover, S.K. "Muslim Libraries", in James W. Thompson **The Medieval Library.** New York: Hafner Publishing Company, 1967, p. 351.
40) Diwan, M.R. ali, p. 21.
41) Ibid.
42) Ibid., p. 22.
43) Ibid.
44) Mackensen, Ruth S. "Four Great Libraries of Medieval Baghdad", in **The Library Quarterly.** Vol. 2, (July 1932), p. 282.
45) Dodge, Bayard. **Muslim Education in Medieval Times.** Washington, D.C.: The Middle East Institute, 1962, p. 17.
46) Padover, S.K., p. 352.
47) Mackensen, Ruth S., p. 288.
48) Ibid.
49) Ibid., p. 289.
50) Ibid., p. 293.
52) Ibid., p. 294.
53) Ibid., p. 297.
54) Diwan, M.R. Ali, p. 24.
55) Padover, S.K., p. 353.
56) Diwan, M.R. Ali, p. 23.
57) Ibid., p. 24.
58) Padover, S.K., p. 356.
59) Ibid., p. 357.
60) Ibid.
61) Mackensen, Ruth S. "Background of the History of Muslim Libraries", in **The American Journal of Semitic Languages and Literature.** Vol. 52 (October 1935), p. 23.
62) Johnson, Elmer D. **A History of Libraries in the Western World.** New York: The Scarecrow Press, Inc., 1965, p. 90.
63) Ibid.
64) Ibid., p. 91.
65) Padover, S.K., p. 360.
66) Ibid., p. 362.
67) Johnson, Elmer D. p. 91.
68) Ibid., p. 91-92.
69) Padover, S.K., p. 353.
70) Pinto, Olga. "The Libraries of the Arabs During the Time of the Abbasides", in **Pakistan Library Review.** Vol. 2 (March 1959) p. 49.
71) Ibid.
72) Johnson, Elmer D., p. 92.
73) Khan, Kabir A. "Organization and Administration of Libraries in the Islamic World", in **Islamic Culture** Vol. 55 No. 2 (April 1981), p. 124.
74) Ibid.
75) Ibid.
76) Shalaby, Ahmed. **History of Muslim Education.** Beirut, Lebanon: Dar al-Kashaf, 1954, p. 81.

REFERENCES

1) Ali, Abdul. "The Inspiration Islam gave to Cultivation of Knowledge and Learning". In **Islamic Culture.** Vol. 53 No. 3 (July 1979). p. 179.
2) Ibid.
3) Holy Quran. 96:1-5.
4) Ibid., 29:20.
5) Ibid., 39:9.
6) Ibid., 20:114.
7) Ibid., 68:1.
8) Ibid., 2:282.
9) Ibid., 58:11.
10) Ali, Abdul, p. 180.
11) Ibid., p. 183.
12) Mahmūd, Khalil. "The Influence of the Holy Quran on the Development of Libraries", in **Nigeria Journal of Islam.** Vol. 1, No. 2 (January-June 1971), p. 11.
13) Farugi, Ziya-ul-Hosan. "Some Aspects of Muslim Education and Culture," in **Islam and the Modern Age.** Vol. 10 No. 2 (May 1979), p. 29.
14) Hitti, P.K. **Islam: a Way of Life.** South Bend, Indiana: Regnery/Gateway, Inc., 1970, p. 108.
15) Nakosteen, Mehdi. **History of Islamic Origins of Western Education.** Boulder, Colorado: University of Colorado Press, 1964, p. 37-38.
16) Saliba, Djemil and Tomeh, George J. "Islam", in **Education and Philosophy; the Year Book of Education.** New York: World Book Company, 1957, p. 69.
17) Shafi, M. "Libraries and Learning in the Muslim World", in **Pakistan Library Review,** Vol. 3, No. 1 (March, 1961), p. 28.
18) Hitti, P.K. **Islam: A Way of Life,** p. 108.
19) Hitti, P.K. **History of the Arabs.** London: Macmillan and Co., Limited, 1937, p. 242.
20) Savage, E.A. **The Story of Libraries and Book-Collecting.** New York: E.P. Dutton and Co., (undated), p. 28.
21) Watt, W.M. **The Majesty that was Islam; the Islamic World 661-1100.** New York: Preger Publishers, 1974, p. 76.
22) Savge, E.A. p. 29.
23) Ibid., p. 30.
24) Hitti, P.K. **History of the Arabs.** p. 250.
25) Ibid.
26) Ibid., p. 251.
27) Ibid.
28) Ibid., p. 255.
29) Mackensen, Ruth S. "arabic Books and Libraries in The Umayad Period", in **The American Journal of Semitic Languages and Literature.** Vol. 52 (July 1936), p. 246.
30) Hitti, P.K. **History of the Arabs,** p. 306.
31) Haider, S.J. "Bibliographic Heritage of Muslims", in **Libri.** Vol. 29, No. 3 (October 1979), p. 208. (Warraq in Arabic means bookseller).
32) Ibid.
33) Ibn al-Nadim. **Al-Fihrist.** Beirut: Maktabat Khayat, [n.d.], p. 2.
34) Nakosteen, Mehdi, p. 29.
35) Haider, S.J., p. 209.

booklists.Most Large libraries employed subject specialists to be in charge of different sections of the library collection. All these facts are clear evidence that library service reached its highest level in the early history of the Muslim world, and "the modern world has nothing new to this field except some technical progress due to scientific and mechanical advantages of theLasttwo hundred years. Actually the Muslims were the real torch-bearers in the field of library".90

In conclusion, the words of Professor Jesse H. Shera-a prominent figure in library science today – provides a summary view of Muslim libraries:

> **The outstanding feature of the Muslim libraries, apart from their widespread distribution, was the breadth of learning that they reflected. Though they were inspired by religious zeal, it did not overshadow or limit the love of scholarship, and in this liberality they were far more hospitable to unorthodox views than were their Christian counterparts and contemporaries. Even when judged by the library standards of today, the libraries of the Muslim era were surprisingly modern. Though religion received the greatest single emphasis, of course, the holdings ranged the entire field of recorded knowledge: Poetry, fiction, medicine, law, astronomy, alchemy, magic, philosophy, mathematics, oratory, and variety of textbooks and copybooks... The books were cataloged in large ledgers, some ranging from thirty to forty volumes and were listed by subject. The art of fine binding, calligraphy, and illumination were practiced.[9] s51**

> **with shelves in which the books were kept, rooms where the visitors could read and study, rooms set apart for those in charge of making copies of manuscripts, rooms which served for literary assemblies, and even in some cases rooms for musical entertainment, etc. All rooms were richly and comfortably fitted,on the floors were carpets and mats, where the readers in Oriental fashion squatted with crossed legs... The windows and doors were closed with curtains, The chief entrance-door having a specially heavy curtain to prevent the cold air from entering.**[80]

Financially, like other learning centers and schools, libraries were mostly endowed for the upkeeping of the building, price of the newly bought books and the salaries of the staff.[81] Books were acquired partly by purchase and partly by the copyists of the library who were copying manuscripts.

There was a borrowing system. The person who wished to borrow a book was requested to take care of it, and "he was required to be grateful for the lender's help and to express his thanks to him."[82] The borrowing system was flexible, in which Yaqut had borrowed at one and the same time 200 books from the library of Marw and the historian Abū Hayyān (d. 745/1343) did not buy any books, because he said that whatever book he wanted to have he could get on loan from any library.[83]

Conclusion

In view of the facts that were discussed above, one can easily reach the conclusion "that nine hundred years ago the early Muslims had a great revolution of their credit in respect of the establishment of personal and public libraries when printing was unknown".[84] The Muslim "public libraries were truly public and ministered to the interests of a great variety of readers. They offered unusual facilities for study to serious scholars".[85] Besides these they provided a sort of "entertainment and a means of education through reading, lectures, and discussions to the general public."[86]

The history of human civilization proudly tells that "the world of Islam was actually a book-loving society."[87] The history of knowledge, books, and libraries shows that, besides the public libraries which were scattered all over the Muslim land, private libraries and book collections were almost in every Muslim's house, and "probably at few times in history of the world have private libraries reached such size and elegance as under the Muslims."[88] Throughout Muslim lands "libraries were so numerous and their books so plentiful that they far outnumbered anything the Christian world of the west could present."[89]

The Muslim libraries were very well administered and managed. Their collections were well classified, cataloged, and arranged. Each library had its own catalogs and/or

Khürasan with the intention of going to Mecca to perform the pilgrimage, decided to go and see it. He was so enthusiastic about it that he remained there and did not continue his journey.[71] The private libraries of Muslims were so prevalent "that one writer has estimated that, as of (1200 A.D.), there were more books in private hands in the Muslim world than in all libraries, public and private, of western Europe."[72]

Muslim libraries were highly organized well administrated, and their collections were well arranged. For the classification of the materials of Muslim libraries, the best example is the Fihrist compiled by Ibn al-Nadīm "which gives us a clear picture of the system of classification adopted in the libraries of those times."[73] The **Fihrist** was classified into ten main categories, and these ten categories were subdivided into other subdivisions according to the needs of the library. The main ten categories are:

1) The Qur'ān 2) Grammar 3) History 4) Poetry 5) Dogmatics 6) Jurisprudence 7) Philosophy 8) Literature 9) Religion 10) Alchemy (Chemistry).

The first six categories deal with Islamic literature, whereas the remaining categories deal with non-Islamic literature.[74]

Almost every great private or public library had its catalog of books with the help of which users of the library could easily get access to the collection. The catalogs "were classified and entries were made under the names of the authors as is done today with a short bibliographical note on the author at the end."[75] These catalogs were in book form, one catalog for each subject. In addition to the catalogs, "the contents of each section of book were registered upon a strip of paper attached to the shelf outside; these strips had also indications of works which were incomplete or lacking in some part."[76] Jesse Shera awell _ Known Figure in library Sciense today, reported that the arrangement of the collection seemed to have been by subject and "in the largest libraries, rooms were assigned to specified areas of knowledge."[77]The library of Al-Nizāmiyah College was reported to have a well-arranged catalog containing 6,000 titles of books.[78] In Egypt, the library of Mohmudia Madrasah (School) had two catalogs, one was in dictionary form, the other was subject-wise (classified form).[79]

The library building was considered very important. Some libraries were housed in royal palaces and had separate rooms for different subjects. Some other libraries were housed or/and attached to the major mosques of the Muslim cities, and these were parts of the schools, too.

A good description of the library buildings is that of Dr. Olga Pinto. She says:

> **The princes took great care concerning the buildings which were to serve as public libraries. Some of them like those of Shiraz, Cordoba and Cairo were placed in separate structures, with many rooms for different uses; galleries**

poor students who used this library, ink, pens, and some other writing supplies were privided free. This institution, like Bait al-Hikma in Baghdad, "encouraged the advancement of the sciences and the production of various forms of literature".[61] This library was administered by its own staff and had its own librarians, binders and calligraphers. And further west of Egypt "there was a library in the mosque in Tripoli, which was destroyed by Christian Cursaders in 1109".[62]

In Muslim Spain, where Muslim scholarship and learning reached high levels, libraries and cultural centers were established everywhere at Cordova, Toledo, Seville and other cities and places.

In Cordova, the ruler, the caliph Al-Hakam II founded an academy and a library. This library is "reputed to have over 400,000 volumes. Its catalog alone consisted of 44 volumes."[63] It was also "reported to have given employment to over 500 people including many agents sent to all parts of the world to buy books."[64] This library was reported to have been the greatest, and possibly the largest, in the world at that time.[65] Another magnificent library in Cordova was that of Abū al-Mutarraf (d. 1011) "a Cordovan judge, possessed a magnificent library largely of rare books and masterpieces of calligraphy."[66] Six copyists were employed by Abu al-Mutarraf in his library. The library was sold in an auction after al-Mutarraf's death.

It was reported that there were 70 public libraries in al-Andalus. Some of them were in Toledo which was great center for translating books into Arabic and Latin. Also in al-Andalus libraries were attached to schools, mosques, and palaces, and many fine ones were in the homes of privte citizens.

* * *

Besides all these public or semi-public libraries, private libraries and book collections were to be found all over the Muslim lands. Most, if not all, Muslim scholars and learned people had their own private libraries and collections. Many of these private libraries and collections were of a remarkable size. "The historian Omar al-Wāqidī possessed 120 camel loads of books. —— In Cairo bout 1170 there were four private libraries large enough to be noted by a visiting scholar."[68] When al-Sahib Ibn 'Abbād was invited by Nūh Ibn Mansūr to become his chancellor, he refused the invitation "on the ground that it would require four hundred camels to transport his books."[69] Another private library was that of Ibn-Alqamī which had about 10,000 volumes, At Baghdad, Al-Fath Ibn Khaqan had a magnificent library «collected and arranged by 'Alī Ibn Yahyā al-Munajjim (died 275/888)."[70] 'Alī Ibn Yahyā al-Munajjim himself collected in his magnificent castle in the village of Karkar, near Qufs in the neighbourhood of Baghdad, books and called it Khizānat al-Hikmah (Treasury of Wisdom). This library was known in the whole Arab world and attracted students in such manner that the astronomer Abū Ma'shar (d. 272/885) coming from

and work for two librarians, in addition to the director of the entire academy. The somewhat trivial anecdote shows the concern of a librarian for the books in his care, and also that librarians were not above playing the sort of ranks one might rather expect from run boy.[50]

Nizām al-Mulk, a Persian, a vizier to the Seljuks, was a person of "cultivated tastes, much interested in the dissemination of learning,"[51] established in 457/1065 a college bore his name.It was known as the Nizamiyah College. Nizām al-Mulk was praised by Ibn al-Athīr for his gifts of books to the college, and Ibn al-Najjar, the historian, bequeathed his books to this college when he died in 643 (1245 A.D.) and "he followed a common custom whereby scholars and patrons of learning enriched the library of their favorite schools and provided safe-keeping for their own works and valuable collections."[52] It was said also that the caliph Al-Nasir Caliph From (575 to 622/1180-1225 A.D.) who "made the collection of the Nizāmiyah one of the largest and most valuable that ever existed in a Muslim land.'[53]

At the city of Basrah, 'Alī Ibn Sawwār Al-Kātib, who was in the service of the Buwayhid Sultan 'Adud Al-Dowlah, founded a library known as Khizānat al-Waqf. This library contained some rare books remained intact until the time of Al-Harīrī (d. 1122 A.D.) who mentioned it in his great work, **Maqāmat al-Harīrī."[54]**

In Persia, every important city had its own library, and book collections were founded in Ghaznah, Shiraz, Nishapur, Ispahan, and Merv. In Musil "the poet Ibn Hamdān (d.935) founded a house of learning and stocked it with books on all branches of knowledge,"[55] and it was open to the scholars as well as others who wanted to use it. Also in Musil, Abu-l-Qāsim Ja'far Ibn Muhammad Ibn Hamdan al-Mūsilī (854-934 A.D.) founded a public library known as Dāru al-'Ilm (House of Learning).[56] In Shiraz, 'Adud al-Dowlah, the Buwayhid Sultan (977-982), founded a magnificent library, and "ordered for collection of all books on various subjects beginning from the advent of Islam till his time."[57]

In Egypt, which was, and still is, an important cultural center, the first library was founded in Cairo by the Fātimid Caliph Al-'Azīz (975-966 A.D.) in 988 "in connection with his house of learning, where thirty-five students were supported from endowments. This school library had perhaps 100,000 volumes (some say 600,000) of bound books, among which were 2,400 Korans beautifully illuminated in gold and silver."[58] The rest of its collection were books on grammar, history, biography, rhetoric, jurisprudence, astronomy and chemistry. A great portion of the collection "went into the House of Science or House of Wisdom, founded by Caliph Al-Hākim in 1004, which acquired so vast a collection of rare books that legend exaggerated its number to 1,600,000 books."[59] The caliph Al-Hākim sent out his agents to many places "to buy books for his institution-a combination of library, academy, and auditorium."[60] For

"Baghdad in its glory abounded with libraries. Even before the Caliph al-Ma'mūn, in the time of his father, Hārūn al-Rashīd, the Arabin historian Umar al-Wāqidī (736-811) possessed one hundred and twenty camel loads of books."[39] The caliph al-Ma'mūn was one of the great learned Muslims. "During his Caliphate, hadith literature were collected and was shaped in book forms.'[40] He founded one of the greatest libraries in Baghdad, known as Bait al-Hikma or (the House of Wisdom) which was a "library academy and translation bureau."[41] The library of "bait al-Hikma" Contained an astronomical observatory. Hunayn Ibn Ishāq was appointed a superintendent by al-Ma'mūn. Ibn Ishāq was one of the greatest translators in Muslim history and "al-Ma'mūn paid him in gold the weight of the books he translated from Persian, Sanskrit, Syriac, Coptic and Greek."[42] Also among the scholars of this institution were famous names such as, Abū Yahyā Ibn Batrīq – Yūhannā Huneyn's teacher and translator of about 121 books of Galenus–, and Al-Kindī, one of the greatest Muslim philosophers.[43] "Al-Khawārizmī, the author of an algebra and the compiler of an almanac which was long considered authoritative, was in the habit of retiring into Al-Ma'mūn's library (Bait al-Hikma) for study."[44] "Bait al-Hikma", the first public library in the Muslim world, was used as a research institute where "valuable research was undertaken, especially in connection with astronomy, medicine, and pharmacy."[45] S.k. Padover writes:

> **All told, Baghdad possessed thirty six libraries. The last library was of the Vizier, Ibn al-Alkami who owned 10,000 books. It perished during the rack of the city by the Mongols in 1258, when every other library also was destroyed. Baghdad also had over a hundred book dealers, who did business in stalls or in bazaars and were stationers who sold paper, ink, pens, etc. Some of these were publishers, too, who maintained a corps of expert copyists who worked in a scriptorium.[46]**

In 383/993 the wazir, Sabur ibn Ardashīr founded in Baghdad an institute known as "Dār al-ilm" (The House of Learning), which was situated at al-Karkh, a large quarter in the Western part of the City of Baghdad. The library of this institute or academy was a significant frature. «The endowment was sufficiently large that the institution did not suffer from the vicissitudes of its founder's career, for it was flourishing at the time of Sābūr's death in 416 (1025-26 A.D.)."[47] The book collection of this library was burned in 447 (1055 A.D.) "when Tughril Beg, the Seljuk, entered the city of the 'Abbasids."[48] According to another source, the collection "was burned in a fire which swept through Al-Kharkh in 451 (1095 A.D.)"[49] About the position of the librarian of this library-academy, Ruth S. Mackensen says:

> **The position of librarian was filled by men of scholarly attainments, as in the library of Al-Ma'mūn, and apparently there was sufficient endowment**

Arabs and non-Arabs.It is one of the information sources of Islamic literatureand science and "one of the most important bibliography"[32] of that time. Al-Nadīm said in the preface:

> **"An index of the books of all nations, Arabs and foreign alike, which are extant in the Arabic language and script, on every branch of knowledge comprising information as to their compilers and classes of their authors together with the genealogies of those persons, the dates of their birth, the length of their lives, the times of their death, the place to which they belonged, their merits and their faults, since the beginning of every science that has been invented down to the present epoch-namely the year 377 of the Hijra."[33]**

The contents of this book are: 1) Books of Law (i.e. Jurisprudence), 2) Grammar and Philology, 3) History, Biography, Genealogy and related subjects, 4) Poetry, 5) Scholastic Philosophy, 6) Law and Traditions, 7) Philosophy and Ancient Sciences, 8) Legends, Fables, Magic, etc., 9) Sects and Creeds of Hindus, Budhists, and Chinese, 10) Alchemy (Chemistry).

It is true that this book is "one of the most important documents in Islamic culture. Much of our knowledge of Islamic learning, both in translations of classical works into Arabic and in creative books, to the last decade of the tenth century, is based on information available in the **Index, (al-Fihrist).**[34] The first time that this book was printed was "as late as 1871 by G. Flugel, the famous German Orientalist, but after printing of only six pages he died, and so the work was completed by Dr. J. Roedgar and Dr. Muller on the request of Flügel's son in 1872".[35]

iIslamic Libraries

The intellectual life of the early Muslims who loved education and sought knowledge wherever it was to be found required the establishment and foundation of libraries. It was in the second century after the Hijra that "hundreds and thousands of public and private librries were established all over the Muslim empire."[36]

Eventhough the golden age of the Muslim intellectual life and libraries reached its highest level during the Abbāsid period, "the first Muslim who founded a library and managed to get all available sources of knowledge to be translated into Arabic, was Khālid Ibn Yazīd (d. 704) A.D."[37] He was also the first Muslim chemist. Ibn al-Nadīm, the author of the **Fihrist,**visited this library and found many books of great value on medicine, surgery, astronomy and chemistry.[38] In the following pages concentration will be on some of the famous Muslim libraries and learning centers in some of the Muslim cities where Muslim intellectual life and activity was flourishing.

in the West, it was spreading in Syria and Arabia."[20] Whenever the Muslims of Arabia conquered new lands at that time and found strong intellectual life and tradition based on Greek, Syriac, and some other languages. "These languages gradually faded out, and Arabic became the linguistic vehicle of the intellectual life of the vast empire."[21] In the western part of the Muslim empire, the intellectual life flourished in Andalusia. Cordova, Seville, and Toledo, the Western centers of intellectual activity, were rivals to Basra, Kufa, and Baghdad in the East. This intellectual life in western part of the Islamic empire made many historians "thinking of the Arabic Spain of the tenth century as the fountain head of learning in Europe."[22] And before the 13th century "Toledo was a center for making translations from Arabic into Latin."[23]

In the field of poetry, "the greatest intellectual measure of progress was achieved under the Umayyads."[24] Among the famous poets at that time were 'Umar Ibn-Abi-Rabia, who was cosidered a "prince of erotic poetry", Jamīl Ibn Ma'amar al-'Udhrī, who "stood for pure and innocent love of the platonic type,"[25] and Qays Ibn al-Mulawwah, better known as Majnūn Laylā, who "represents the lyric type of poetical composition."[26] And besides love poetry, "political poetry made its appearance under Umayyad auspices. The first occasion was the request made of Miskīn al-Dārimī to compose and sing publicly verses commemorating the nomination of Yazīd to the caliphate."[27] The compilation of pre-Islamic (jahiliyah) poetry also belongs to this period. In science, Khālid Ibn Yazīd, known as the "philosopher" (hakīm) was "the first in Islam to have translations made from Greek and Coptic books on alchemy, medicine and astrology."[28] But besides these intellectual activities at the time of the Umayyads, "Moslim learnings and the arts of civilization",[29] and the golden age of Muslim intellectual life were achieved at the time of the 'Abbāsids. "The most momentous intellectual awakening in the history of Islam and one of the most significant in the whole history of thought and culture,"[30] was at the period of the 'Abbāsids, particularly at the time of Hārūn al-Rashīd and his son Al-Ma'mūn. It was that period which led to the erection of great number of libraries all over the Muslim world.

The Fihrist of Ibn Al-Nadim

Before we talk about the great time of the history of Muslim libraries, briefly we shall talk about one of the greatest books of Islamic writing relating to librarianship. The book is entitled **al-Fihrist** (The Index), and better known as **The Fihrist of Al-Nadīm,** written by Abu al-Fraj Muhammad Ibn Ishāq, better known as Abu Yaq'ūb al-Nadīm, who was "a native of Baghdad either by birth or residence, and WARRAQ by profession."[31] This book is an index of many books written in Arabic by

applied to the recording of the verses of the Holy Quran."[12] The Quran was variously recorded on bones, papyrus, hides, palm fibres, and parchment. The importance of reading and writing was shown also when the Muslims won the battle of Badr and the ransom of those who were captured from the non-believers' side to be set free, was that every one of the captives who knew how to read and write shall teach these two skills to ten Muslims.

It is imperative that the foundation and essence of the Islamic culture and thought is religion, "and hence, naturally, it is the basis of Muslim education,Muslims were inspired by the many verses of the Quran as well as by the Prophetic Traditions and sayings which exhorted them to seek knowledge as a religious duty and cheerfully bear hardships, if any, in its acquisition."[13] Thus early Muslims "established vital contact between them and the rich cultural tradition represented by Greeks, Syrians, Persians, and Egyptians."[14]

Muslims researched into every science which was known to them: philosophy, history, philology, logic, mathematics, medicine, art, law, theology, and jurisprudence. "They respected learning, they honored scholars. They introduced the science and philosophy of the Greeks, Persians, Hindus to Western Christian schoolmen."[15]

There is no doubt that Islam is a comprehensive system for both the worldly and the other life. Thus it is the philosophy of Islamic education that "aims at the realization of happiness in this and the next world",[16] and this is very clear according to the following saying of the Prophet Mohammad: "the best among you are not those who neglect this world for the other, or the other for this. He is the one who works for both together."

Although emphasis will be made upon Islamic libraries and their history, it is necessary to mention something about the intellectual life that led to the establishment of such great libraries in the Muslim era. Dissemination of books had begun when Muslim scholars and learned persons started translating works of ancient civilizations such as Greek, Persian, Hindu, and others into Arabic when Islam had reached those areas,Before that time "a good beginning was made in respect of the collections and preservation of the sacred lore. Besides the works on religious literature, of which most of the Companions had private copies, there were several poetical works and other lay books".[17]And it was after the spread of Islam into such a large area, the Muslim Arabs "became aware of the existing body of scientific knowledge."[18] Another factor which had its influence on the intellectual life of the Muslims was "the study of the Quran and the necessity of expounding it gave rise to the twin sciences of philology and lexicography as well as to that most Characteristically Muslim literary activity[19]. The Muslims were aware of the value of learning and knowledge and "when the secular literature was little esteemed in Constantinople and

creation, then God brings forth all later growth. Lo! God is Able to do all things][4]

The verse indicates that it is a duty of Muslims to travel and think in order to be acquainted with the unique power of creation of God. The Holy Quran also emphasizes the importance of being knowledgeable in order to be successful in life, as the following verses indicate:

[Say "O Mohammad": Are those who know equal with those who know not?][5]

[And say: My Lord: Increase me in knowledge][6]

And in many other places which show and indicate the importance of reading and writing, such as:

[Nun. By the pen and that which they write][7]

the dignity and value of the pen are thus indicated by swearing by it. The importance of writing is also stressed upon in the following verses of The Holy Quran:

[O ye who believe! when you borrow one from another for a fixed period, then write it down.

And let a scribe write it in your presence faithfully; and no scribe should refuse to write, because of Allah has taught him, so let him write!][8]

Muslims who have, and seek, knowledge will be exalted by God to a high rank, as the following verses say:

[God will exalt those who believe among you, and those who have knowledge, to high ranks.

God is informed of what you do][9]

In short "God has clearly demonstrated the dignity of the high office of knowledge."[10]

Besides The Holy Quran, the sayings of the Prophet (Hadiths) also put great emphasis on the importance of knowledge and learning. In this regard some of the Prophet's sayings are translated below:

1. **To seek knowledge is incumbent upon every Muslim.**
2. **Who ever treads a path in search of learning, God makes thereby easy for him the way to paradise.**
3. **The superiority of a learned man over a mere worshipper is like the superiority of the full moon over all other stars.**

It was for the application and practice of the Holy Quran and the sayings of the Prophet that "Muslims, both Arab and non-Arab, received a great incentive, travelled far and wide in search of knowledge and contributed a great deal to human thought and progress."[11]

It is also worth mentioning that the early Muslim skills of writing "were first

The Influence of the Holy Quran on the dissemination of Knowledge & Libraries

By Muftah M. Dyab

Introduction

It is true that Islam " is not at all a dogmatic religion confined to the four walls of the mosque, but rather it is a scientific way of living which aims at the full efflorescence of all spiritual, mental and other inherent faculties, with which God, the Creator, has endowed man, giving him the status of beeing the noblest creature in the universe."[1] Since its beginning, Islam has been the religion of knowledge. It is the religion which "has made the acquisition of knowledge and learning one of the unavoidable ordinances of God incumbent upon His followers."[2] The Holy Quran is full of verses that emphasize the importance of knowledge in the life of Muslims, and it is very obvious that the first revelation was the word "iqra" which has been translated as "read":

> **Read in the name of thy Lord who Created;**
> **Created man from a clot.**
> **Read: And thy Lord is the most Bounteous who**
> **taught by the pen. Taught man that he knew not]**[3]

The Holy Quran, besides these verses, continues to stress the importance of obtaining knowledge. For example the following verse is self-evident:

> **[Say "O Mohammad": Travel in the land and see how He originated**



MAGAZINE OF THE FACULTY OF

The Islamic Call

An Islamic Cultural Magazine Temporarily issued on a yearly basis.

First year

1393_1394_1395

1984_1985